طه حسين

حديث الأربعاء

١

دار المعارف

طـه حسين

حديث الأربعـــاء

١

الطبعة الرابعة عشرة

دار المعارف

الإهداء

إلى الأستاذ الصديق أحمد لطفى السيد

تحلة تلميذ ، وتحية صديق .

طه حسين

١٧ يناير سنة ١٩٢٥

فهرست الموضوعات

صحيفة

مقدمة

وإنما أسمي هذه الأسطر مقدمة لأن الناس تعوّدوا تسمية مثلها مثل هذا الاسم ، فليست هي فى حقيقة الأمر مقدمة وما كان مثل هذا السفر ليحتاج إلى مقدمة ، وقد قرأ الناس فصوله كلها فى « السياسة » و « الجهاد » فهم يعرفونها بأنفسهم ولا يحتاجون إلى أن يقدمها إليهم أحد . وما كان هذا السفر ليحتاج إلى مقدمة وأنت لا تكاد تقرأ فصلا من فصوله إلا وجدت فيه مقدمته الخاصة . ما كان هذا السفر ليحتاج إلى مقدمة فأنا أسميه سفراً لا لشيء إلا لأنه مجلد يجمع طائفة من الصحف قد ضم بعضها إلى بعض ، فأنت تستطيع أن تسميه سفراً ، وأنت تستطيع أن تسميه كتاباً لأن هذه التسمية صحيحة صادقة من الوجهة اللغوية الخالصة ، وهي إن صحت وصدقت من هذه الوجهة فهي ليست صحيحة ولا صادقة بالقياس إلى الصورة التى أتصورها لما أسميه بحق سفراً أوكتاباً . ليست هذه الصحف التى أقدمها إليك سفراً ولا كتاباً كما أتصور السفر والكتاب . فأنا لم أتصور فصوله جملة ، ولم أرسم لها خطة معينة ولا برنامجاً واضحاً قبل أن أبدأ فى كتابتها ، وإنما هي مباحث متفرقة كتبت فى ظروف مختلفة وأيام متقاربة حيناً ومتباعدة حيناً آخر ، فلست تجد فيها هذه الفكرة القوية الواضحة المتحدة التى يصدر عنها المؤلفون حين يؤلفون كتبهم وأسفارهم . بل أنا أذهب إلى أبعد من هذا فأحدثك فى غير تحفظ ولا احتياط : أنى مهما أكن قد تكلفت فى هذه الفصول من جهد ومشقة فإنى لم أعن بها العناية التى تليق بكتاب يعده صاحبه ليكون كتاباً حقاً ، إنما هي فصول كانت تنشر فى صحيفة سيارة ليقرأها الناس جميعاً فينتفع بقراءتها من ينتفع ويتفكه بقراءتها من يتفكه ، ولم يكن بد لكتابتها من أن يُتجنّب التعمق فى البحث والإلحاح فى التحقيق العلمي ، إذ كانت الصحف السيارة لا تصلح لمثل هذا . ولقد يكون من الحق عليّ لنفسي وللأدب ولقراء هذه الفصول أن أعترف بأني ما كتبت منه فصلا إلا وأنا أعلم أنه شديد النقص ، محتاج إلى استئناف العناية

به والنظر فيه ، وأنا أقدر أن سيتاح لى من الوقت وفراغ البال ما يمكننى من استئناف تلك العناية وهذا النظر ، حتّى إذا فرغت منه ونشرته السياسة أو الجهاد عرضت لغيره فى مثل هذه الحال العقلية التى عرضت له فيها معتزماً أن أستأنف العناية به والنظر فيه ، مستحيياً أن أقدمه إلى الناس على ما فيه من نقص وحاجة إلى الإصلاح . والأيام تمضى والظروف تتعاقب مختلفة متباينة أشد الاختلاف وأعظم التباين ، ولكنها متفّقة فى شيء واحد هو أنها كانت تحول دائماً بينى وبين ما كنت أريد من تجديد العناية واستئناف النظر . وأىّ الكتّاب ، وأى الباحثين لا يشكو مثل هذا فى مثل هذه الأيام التى نعيش فيها ؟ ! أليس كل الناس يحس فى هذه الأيام كأن شيئاً قد طرأ على حركة الزمان فأفسد نظامها وغير اطرادها ؛ فهى مسرعة إلى حد لم نعهده من قبل ولا نستطيع معه أن ندبر أمورنا ونقدر حياتنا وحاجاتنا كما نحب ونهوى ، حركة الأيام أسرع من حركة النفوس ، حتّى لقد يخيل إلى أن اليوم فى هذا العصر لا يكاد يعدل ساعات من أيامنا تلك التى قضيناها قبل أن تطرأ على مصر هذه الطوارئُ السياسية التى تغير فيها كل شيء .

لم أفرغ إذن لهذه الفصول كما يفرغ المؤلف لكتاب ، ولم أعن إذن بهذه الفصول كما يعنى الباحث المحقق ببحث علمى وأدبى قيم ، ومع هذا فقد لقيت من الناس رضاً وصادفت من نفوسهم هوى، فرغبوا إلىّ فى أن أضم بعضها إلى بعض وأجمعها فى كتاب منفرد يمكن حفظه ، والتصرف به ، على غير ما تحفظ الصحف السيارة ويتصرف بها . ولقد أعرضت عن هذه الرغبة حيناً لا لشيء إلا لأنى كنت أرجو أن تتيح لى الأيام شيئاً من فراغ البال يمكننى من استئناف النظر فى هذه الفصول وتهيئتها للجمع والنشر ؛ ولكن الأيام لم تتح لى ما كنت أرجو وما أحسب أنها ستتيحه لى قبل أمد بعيد . وأخذ الناس يلحون علىّ ، وتجاوز بعضهم الإلحاح إلى اللوم ، فكتب إلىّ ينكر علىّ أنى أذنت بجمع القصص التمثيلية فى كتاب ، وأبطأت فى جمع أحاديث الأربعاء ، ويسألنى أكان مصدر هذا ازدراء للأدب العربى وإسرافاً فى حب الأدب الأجنبى . كلا يا سيدى الأستاذ ! إنما كان هذا ضناً بالأدب العربى وإكباراً له أن تنشر فيه فصول ناقصة شديدة الحاجة إلى الإصلاح ، وإذ كنتم قد ألححتم من جهة

وأبت الظروف عليّ ما كنت أريد من جهة أخرى فدونكم هذه الفصول كما كتبت وكما نشرتها السياسة ، لم أغير فيها حرفاً ، ولم أضف إليها شيئاً ، ولم أصلح مما فيها من الخطأ قليلا ولا كثيراً ، قد نشرتها صحيفة سيارة فأصبحت حقاً لكم فأنا أرد إليكم هذا الحق ولست أسألكم إلا شيئاً واحداً : وهو ألا تنظروا إليها نظركم إلى كتاب فى الأدب العربى قد فرغ له صاحبه وعنى بتحقيقه وتمحيصه .

قلت إن هذه الفصول ليست متصلة ولا ملتئمة ولا خاضعة لهذه الفكرة المتحدة التى يصدر عنها المؤلفون فى تأليف كتبهم ، ومع ذلك فقد صدرت هذه الفصول عن كاتب واحد وذهب فيها هذا الكاتب مذهباً واحداً وقصد بها إلى غرض واحد ، فهى متحدة مؤتلفة مهما تختلف ومهما تنقصها هذه الفكرة الواضحة المنظمة المتحدة ، فروح الكاتب فيها واضح بين ، ومذهب الكاتب فيها ظاهر جلى ، وغرض الكاتب فيها لا يحتاج إلى أن يدل عليه ، بل اشتركت فيه الدولتان العباسية والأموية ، وهى لا تكاد تتجاوز طائفة بعينها من هؤلاء الشعراء ، وهم أصحاب المجون والدعابة وطلاب اللهو واللذة ، وهى لا تكاد تتجاوز ناحية بعينها من نواحى هؤلاء الشعراء جميعاً هى ناحية مجونهم وإسرافهم ، وما كان لذلك من أثر فى حياتهم العقلية ، وما كان بين ذلك وبين الحياة الاجتماعية والسياسية فى تلك البيئة من صلة ، ولعلك تذكر — وإن كنت قد نسيت فستذكر — أن النتيجة الواضحة التى انتهت إليها هذه الفصول كلها هى أن هذا العصر ، الذى انحلت فيه الدولة الأموية ، وقامت فيه الدولة العباسية ، قد كان عصر شك وعبث ومجون ، أو كان الشك والعبث والمجون أظهر مميزاته . وأنا أعلم أن هذا لم يعجب الناس ولن يعجبهم ، وأنا أعلم أنهم كرهوا وسيكرهون أن يعمد كاتب إلى مثل هذه الناحية من نواحى الأدب العربى فيدرسها درساً مفصلا ويظهر الناس على دقائقها وأسرارها ، ولكنى مع ذلك عمدت إليها متى أتيح لى ذلك ، لأنى أعلم أن حياة القدماء كلها ملك للتاريخ ، وأن درس هذه الحياة كلها نافع للمؤرخ والأديب بل واجب عليهما ، وأن من الإثم وتعمد الجهل أن نتكلف إخفاء ناحية من النواحى الأدبية ربما كانت أحق من غيرها أن تدرس ويعنى بها الباحثون ، وما كان لى ، ولن يكون لأحد من

الباحثين الذين يقدرون العلم وكرامته ، أن نغير التاريخ ، أو أن نظهر عصراً من عصور الأمة العربية على غير ما كان عليه . فنحن لم نخلق أبا نواس وأصحابه ، ونحن لم نلهمهم اللهو والمجون ، ونحن لم نبعثهم على العبث وطلب اللذة ، ولكننا وجدناهم كذلك فكنا بين اثنين : إما أن نجهلهم وإما أن نعلمهم ؛ فآثرنا الثانية على الأولى واعتقدنا أن العلم خير من الجهل ، وأن الصواب خير من الخطأ ، وأن الشجاعة فى التاريخ خير من الجبن فيه . ونحن نعلم حق العلم أن ليس على عقول الناس ولا أخلاقهم خطر من مثل هذه المباحث الأدبية ، فالناس لم ينتظروا لهو أبى نواس وأصحابه ليعرفوا اللهو ؛ والناس لم ينتظروا هذه الفصول وأمثالها ليعرفوا العبث ، ونحن لم نكتب هذه الفصول وأمثالها لنحبب العبث إلى الناس ونرغبهم فيه ، فإن فى ظروف هذه الحياة التى نحياها مرغبات فى اللهو ومحرضات على العبث أقوى وأبلغ من لهو أبى نواس ، وعبث « مطيع » و « حماد » . قل ما شئت فى هذه الفصول ، فلن تستطيع أن تنكر أن لها نتيجتين قيمتين : الأولى ، أنها جلت ناحية من نواحى تاريخ الأدب العربى لم تكن واضحة ولا بينة ، وليس هذا بالشىء القليل . الثانية ، أن فيها ضرباً من مناهج البحث أحسب أن الأدباء لو يفهمونه لاستطاعوا أن يستغلوا هذه الكنوز القيمة التى لا تزال مجهولة والتى نشأ من جهل الناس إياها غضهم من الأدب العربى ، وانصرافهم عنه فى أنفة وازدراء .

إن الذين يزدرون الأدب العربى ، ويغضون منه ، يجهلون منه هذا الأدب جهلامنكراً ، وماكان لمن جهل شيئاً أن يحكم عليه .

فكرت فى هذا كله حين ألح على الملحون فى نشر هذه الفصول ، فانتهيت إلى أن أذنت بنشرها كما هى ، وأنا أرجو أن يكون لها ما أطمع فيه من أثر فى فهم الأدب العربى وكتابة تاريخه .

طه حسين

أثناء قراءة الشعر القديم[1]

قال صاحبي وهو يحاورني : إنكم لتَشُقّون علينا حين تكلفوننا قراءة شعركم القديم هذا ، وتلحون علينا فيه ، وتعيبوننا بالإعراض عنه ، والتقصير فى درسه وحفظه وتذوقه ، لأنكم تنكرون الزمن إنكاراً ، وتلغونه إلغاء ، وتحسبون أننا نعيش الآن فى القرن الأول قبل الهجرة أو بعدها ، ونستطيع أن نأتى من الأمر ما كان أهل ذلك الزمان يأتون ، وأن نحس كما كانوا يحسون ، ونشعر كما كانوا يشعرون ، ونفهم من أجل ذلك ونذوق ما كانوا يقولون ، وأنتم مع ذلك تقرءون التاريخ وتدرسونه ، وكيف يستقيم لكم درس الأدب إذا لم تقيموه على إتقان التاريخ والعلم به ؟ فأنتم إذن تعرفون أن حياتنا غير حياة هؤلاء الناس ، وأن أطوارنا غير أطوارهم ، وأن الصلة قد انقطعت أو كادت تنقطع بينهم وبيننا ، ولا سيما بعد أن أقبل العصر الحديث ، وحمل إلينا الحضارة الحديثة ، وما تفرض على الناس من أساليب الحياة والتفكير ، فباعد بيننا وبين القدماء ، وغير طبائعنا وأمزجتنا وأذواقنا ، وجعل الأساليب بيننا وبين المحدثين من أهل الغرب ، أدنى من الأسباب بيننا وبين القدماء من أهل نجد والحجاز . فنحن يا سيدى نتعلم الإنجليزية والفرنسية والألمانية فنتقنها أحياناً ، ويتاح لنا أن نقرأ الشيء الكثير أو القليل من آثار الشعراء الإنجليز والفرنسيين والألمان ، فنفهم ما نقرأ ونتذوقه ، ونجد فيه لذة ومتاعاً ، وغذاء للعقول والقلوب ؛ لا نحس بيننا وبين هؤلاء الشعراء من بعد الأمد ، واختلاف الطبع والذوق والمزاج ، مثل ما نحس بيننا وبين أصحاب شعركم هذا القديم ، لأننا نحيا حياة تقارب حياة الشعراء الأوربيين ، ولأننا نستمد علمنا وأدبنا وفننا فى هذه الأيام من الينابيع نفسها التى يستمد منها الشعراء الأوربيون علمهم وأدبهم وفنهم ، ولأن اتصال الأمر بيننا وبينهم على هذا النحو يدنينا منهم ، ويقرب أدبهم إلينا ، ويحدث بيننا وبينهم صلات يسيرة هينة ، لا مشقة فيها ولا جهد . والأيام كلما مضت واتصلت زادت

---

(١) نشرت بجريدة الجهاد بتاريخ ٣٠ يناير سنة ١٩٣٥ .

البعد بيننا وبين شعرائكم هؤلاء القدماء ، والحياة كلما تطورت وتحولت زادت فى تغيير طبائعنا ، وفى تغريبنا ، إن صح هذا التعبير . فكيف تريدوننا على أن نجد فى هذا الشعر القديم من اللذة والمتاع ما نبحث عنه فلا نظفر به ؟ وكيف تريدون أن تفرضوا علينا عناء البحث عما لا سبيل إليه ، والدرس لما لا نفع فى درسه ، والحفظ لكلام لا تسيغه أفواهنا حين تنطق به ، ولا تقبله آذاننا حين يلقى إليها ، ولا يصل إلى نفوسنا بحال من الأحوال ؟ إنكم لتضيعون وقتكم ووقتنا فى غير نفع ، وإنكم لتكلفون أنفسكم وتكلفوننا ضروباً من الجهد العنيف فى غير طائل . ولو أنكم تقدّرون الوقت ، وتعرفون للجهد الإنسانى قيمته ، لوضعتم شعركم القديم هذا حيث أرادت الحياة أن تضعه ، فقصرتم درسه وفهمه وتفسيره على هؤلاء العلماء الإخصائيين ، الذين يفرغون لما يلائم ذوقهم من ضروب العلم : فيعنون به ، وينفقون جهودهم فيه ، يبتغون لذتهم الخاصة ، ويبتغون ما يسمونه خدمة العلم ، وإحياء التاريخ ، وما ينبغى لأحد أن يلوم رجلا فى العناية بالشعر الجاهلى ، أو يصده عن هذه العناية ، ما دام فى الناس من ينفق الوقت والجهد والمال فى جمع طوابع البريد وما يشبهها من هذه السخافات ، التى يتهالك على جمعها أصحاب الثراء والدعة والفراغ . رفقاً بالشباب ، لا تفرضوا عليهم الترف فرضاً ، ولا تكلفوهم ما لا يطيقون ، ولا تأخذوهم بما تحبون أن تأخذوا به أنفسكم ، فإن الإغراق فى نوع من أنواع التخصص خروج عما ألف الناس : وما ينبغى أن يخرج الناس جميعاً عما ألف الناس .

لا تفرضوا شعركم الجاهلى ، بل شعركم القديم ، على الطلاب والتلاميذ ؛ فليس هذا الشعر منهم ، وليسوا هم من هذا الشعر فى شىء . علموهم ما يستطيعون أن يتعلموا ، وخذوهم بحفظ ما يستطيعون أن يحفظوا ، ولا تفسدوا عقولهم وأذواقهم بتكليفهم ما لا يطيقون .

وكان صاحبى يقول هذا كله فى صوت حازم ، ولهجة حادة ، وحماسة تكاد تبلغ العنف ، ونشاط لم يقتصر على نفسه المفكرة العاقلة ، وإنما تجاوزها إلى جسمه أيضاً ، فكان كثير الحركة والاضطراب : يقوم ويقعد ، ويتلفت إلى يمين وإلى شمال ، ويحرك يديه وذراعيه حركات عنيفة مختلفة ، كأنه كان

خطيباً يريد أن يقهر الجماهير .

ولست أخفي عليك أني أنفقت كثيراً من الجهد ، وتكلفت كثيراً من العناء ، لأرده إلى شيء من الهدوء ولأقنعه بأن من حقه أن يقول ، ولكن من الحق عليه أن يسمع . وأكاد أعترف بأني يئست من حمله على الصمت والاستماع ، ولولا أني انصرفت عنه ، وهممت بفراقه ، لما اتصل بينه وبيني الحديث في هذا الموضوع .

ذلك أنه مخلص كل الإخلاص في بُغض هذا الشعر القديم المسكين . ويظهر أن بينه وبين هذا الشعر ثأراً ، فهو قد كان يلتمس مَثَله الأدبيّ الأعلى أوّل أمره عند القدماء من العرب ، وكان في هذا متأثراً بغيره من المثقفين والممتازين . وهو قد قرأ بعض الشعر العربي القديم في ديوان الحماسة وغير ديوان الحماسة من كتب المختارات ، ففهم وتذوّق ولكنه لم يرض ! فاستزاد وأكثر القراءة وأراد أن يتعمق الدرس ، وتجاوز الحماسة وأمثالها من الكتب اليسيرة إلى كتب أخرى ، أقل يسراً وأشد إمعاناً في المذهب العربي الخالص في الشعر ، فأخذ ينظر في الأراجيز والمفضليات ومطوّلات الجاهليين ، ونقائض الفرزدق والأخطل وجرير . ولكنه لم يكد يمضي في هذا النظر حتّى قامت أمامه صعاب وعقاب ، لم يجد إلى تذليلها من سبيل ، فألفاظ ضخمة تنبو عنها أذنه وتستغلق معانيها عليه ، فإذا حاول فهمها لجأ إلى الشروح والمعاجم ، فإذا هذه الشروح والمعاجم مضطربة ، شديدة الاختلاط ، كثيرة الاستطراد ، وإذاً ففهمها ليس أدنى إليه ، ولا أيسر عليه ، من فهم النصّ الشعري الذي يلتمس تأويله وتفسيره . وقد وقع المسكين على شرح ابن الأنباري للمفضليات ، فضلّ ضلالا بعيداً في هذا الكلام الكثير الذي تختلط فيه الروايات والأقاويل ، ومسائل النحو ، ومذاهب اللغويين ، ثم وقع على النقائض ، فلم يكن ضلاله قريباً ، وإنما كان بعيداً كل البعد ، يبدأ القصة فلا يعرف كيف تنتهي ، لأنه لا يكاد يتقدم فيها خطوة أو خطوتين حتّى يجد نفسه قد دفع إلى قصة أخرى ، ولا يكاد يمضي في هذه القصة الثانية حتّى يدفع إلى قصة ثالثة ، وهو لا يكاد يمضي في هذه ولا تلك حتّى يجد الشعر يروى من هنا وهناك ، قد ركب بعضه بعضاً ، واختلط بعضه ببعض ، ولم تقم في الصحراء أو في

هذه الغايات أعلام يهتدى بها إن مضى ، ويعتمد عليها إن رجع ، فأعرض عن الكتابين إعراضاً ، ويئس من الأدب القديم يأساً ، والتمس من كتب المحدّثين ما يقرب إليه هذا الأدب النافر ، ويذلل له هذا الفن الجامح ، فلم يجد شيئاً . هنالك فزع إلى الأوربيين ، فوجد من أدبهم ومن نظامه الذى يقربه وييسره ما أرضاه ، فأصبح مبغضاً للأدب القديم بطبعه ، محبًّا للأدب الأجنبي أعظم الحب . ثم ذكر أن الأدب القديم كان يفرض عليه فى المدرسة فيحمله من المشقة ما لا يطيق ، ويبغض إليه المدرسة تبغيضاً ، ونظر فإذا الطلاب والتلاميذ ما يزالون يشقون بمثل ما كان يشقى به ، ويجاهدون فى مثل ما كان يجاهد فيه ، وينتهون إلى مثل ما كان ينتهى إليه من العناء واليأس والإخفاق . فأصبح لا يطيق حديثاً عن الشعر القديم ، ولا يطيق التفكير فى أنه شيء يمكن أن يدرسه الشباب ، أو يفرغ له غير هؤلاء المجانين ، الذين يسمون أنفسهم ويسميهم الناس علماء .

وقد أطلت الحوار مع صاحبي فلم أظفر منه بشيء ، لأن انصرافه عن الشعر القديم ، قد أصبح علة ، قد استقرّت فى نفسه استقراراً ، تؤذيه كل الإيذاء ، وليس فى شفائها أمل ، ولا إلى إنقاذه منها سبيل . وقد تحدث إلىّ المتحدّثون بأن أمثال صاحبي هذا قد أخذوا يكثرون ، ويظهر أنهم سيكثرون كلما تقدمت الأيام ، لأنها ، كما قال صاحبي ، تباعد بينهم وبين حياة القدماء . وتحول بينهم وبين فهم هذه الحياة ، وما كان يصوّرها من الأدب القديم . والناس مفتونون بالسهل ، متهالكون على القريب ، يكرهون الجهد ، ويفرّون من التعب . والحضارة الحديثة تغريهم بهذا ، فهم لا يمشون إذا استطاعوا الركوب ، وهم لا يتخذون القطار والسفينة إذا استطاعوا اتخاذ الطيارة . وهم يجدون فى الأدب الأجنبي الحديث ما يرضيهم ، فإن أرادوا اللذة الفنية ظفروا بها ، وإن أرادوا اللهو انتهوا إليه ، وإن أرادوا إنفاق الوقت لم يجدوا فى ذلك جهداً ولا عناء .

ومع أن الجهود التى بذلت فى هذا العصر الحديث لإحياء الأدب العربى القديم لا بأس بها ، فقد يجب أن نعترف بأنها لم تغن عن هذا الأدب القديم شيئاً ، لأن الحضارة الحديثة تملك من الوسائل ما لا يملكه الأدب القديم ، فهى

تسعى إلينا وتبلغنا من كلّ وجه ، وهى تلحّ علينا إلحاحاً فى جميع أطوار حياتنا ، وإنتاجها الأدبى لا ينقطع ، فهو يغمرنا بكثرته ، ويغرينا باختلافه ، ويفتننا بسحره ، ويصرفنا عن هذا الأدب القديم ، الذى لا يكاد يسعى إلينا إلا بطيئاً قد أثقلته القرون ، وهو لا يكاد يخطو إلينا خطوة حتّى يتعثر فى هذه العقبات التى تبثّها الحضارة الحديثة أمامه ، والتى يتصل بعضها بالعلم ، وبعضها بالجهل ، وبعضها بالذوق المترف الرقيق ، وبعضها بالذوق الخشن الغليظ ، وبعضها بما شئت وما لم تشأ من هذه الخطوب ، التى تفرضها الحضارة الحديثة علينا فرضاً ، فتصرفنا عن كلّ ما يحتاج إلى الجهد والرواية والأناة . ومعنى ذلك أن الأدب القديم صائر ، إذا مضت الأمور على هذا النحو الذى تمضى عليه ، إلى أن يصبح لوناً من ألوان الترف ، لا يعنى به ولا يتوفر عليه إلا الذين يفرغون للتخصص فى بعض الفنون ، ومع ذلك نحبّ لأدبنا القديم أن يظلّ فى هذا العصر الحديث كما كان من قبل ، ضرورة من ضرورات الحياة العقلية ، وأساساً من أسس الثقافة ، وغذاء للعقول والقلوب .

ونحن لا نحبّ أن يظلّ الأدب القديم فى هذه الأيام كما كان من قبل ، لأننا لا نحبّ القديم من حيث هو قديم ، ونصبو إليه متأثرين بعواطف الشوق والحنين ، بل نحن نحبّ لأدبنا القديم أن يظلّ قواماً للثقافة ، وغذاء للعقول ، لأنه أساس الثقافة العربية ؛ فهو إذن مقوّم لشخصيتنا ، محقق لقوميتنا ، عاصم لنا من الفناء فى الأجنبي ، معين لنا على أن نعرف أنفسنا .

فكلّ هذه الخصال أمور لا تقبل الشكّ ، ولا يحسن فيها المراء ، ولكننا مع ذلك نحبّ أن يظلّ أدبنا القديم أساساً من أسس الثقافة الحديثة ، لأنه صالح ليكون أساساً من أسس الثقافة الحديثة . ونحبّ أن يظلّ أدبنا القديم غذاء لعقول الشباب ، لأن فيه كنوزاً قيمة تصلح غذاء لعقول الشباب . والذين يظنون أن الحضارة الحديثة قد حملت إلى عقولنا خيراً خالصاً يخطئون ، فقد حملت الحضارة الحديثة إلى عقولنا شرًّا غير قليل ، لم يأت منها هى ؛ وإنما أتى من أننا لم نفهمها على وجهها ، ولم نتعمق أسرارها ودقائقها ، وإنما أخذنا منها بالظواهر ، وقنعنا منها بالهين اليسير ، فكانت الحضارة الحديثة مصدر جمود وجهل ، كما كان التعصب للقديم مصدر جمود وجهل أيضاً . هذا الشاب ،

أو هذا الشيخ الذى أقبل من أوربا يحمل الدرجات الجامعية ، ويحسن الرطانة بإحدى اللغات الأجنبية أو بغير لغة من اللغات الأجنبية ، ويجلس إليك وإلى غيرك منتفخاً منتفشاً ، مؤمناً بنفسه وبدرجاته وبعلمه الحديث ، أو أدبه الحديث ، ثم يتحدّث إليك كأنه ينطق بوحى أبولّون ، فيعلن إليك فى حزم وجزم أن أمر القديم قد انقضى ، وأن الناس قد أظلهم عصر التجديد ، وأن الأدب القديم يجب أن يترك للشيوخ الذين يتشدقون بالألفاظ ، ويملئون أفواههم بالقاف والطاء وما يشبههما من الحروف الغلاظ ، وأن الاستمساك بالقديم جمود ، والاندفاع فى الحياة إلى أمام هو التطوّر ، وهو الحياة ، وهو الرقىّ . هذا الشابّ وأمثاله ضحية من ضحايا الحضارة الحديثة لأنه لم يفهم هذه الحضارة على وجهها . ولو قد فهمها لعلم أنها لا تنكر القديم ولا تنفر منه ، ولا تصرف عنه ، وإنما تحببه وترغّب فيه ، وتحثّ عليه ، لأنها تقوم على أساس منه متين ، ولولا القديم ما كان الحديث . وإن بين أدباء الأوربيين الآن لقوماً غير قليلين ، يحسنون من آداب القدماء ما لم يكن يحسنه القدماء أنفسهم ، ويعكفون على درس الأدب القديم أكثر مما كان يعكف كثير من القدماء ، ويؤمنون بأن اليوم الذى تنقطع فيه الصلة بين حديث أدبهم وقديمه هو اليوم الذى يقضى فيه الموت على أدبهم ، ويحال فيه بينهم وبين كلّ إنتاج .

هذا الشابّ ضحية من ضحايا الحضارة الحديثة ، أو من ضحايا جهل الحضارة الحديثة ، وشرّه ليس مقصوراً عليه ، وإنما يتجاوزه إلى غيره من الناس فهو يتحدّث ، وهو يعلّم ، وهو يكتب ، وهو فى هذا كله ينفث السمّ ، ويفسد العقول ، ويمسخ فى نفوس الناس المعنى الصحيح لكلمة التجديد ، فليس التجديد فى إماتة القديم ، وإنما التجديد فى إحياء القديم ، وأخذ ما يصلح منه للبقاء . وأكاد أتخذ الميل إلى إماتة القديم أو إحيائه فى الأدب مقياساً للذين انتفعوا بالحضارة الحديثة أو لم ينتفعوا بها ، فالذين تلهيهم مظاهر هذه الحضارة عن أنفسهم حين تلهيهم عن أدبهم القديم ، لم يذوقوا الحضارة الحديثة ولم ينتفعوا بها ، ولم يفهموها على وجهها ، وإنما اتخذوا منها صوراً وأشكالا، وقلدوا أصحابها تقليد القردة لا أكثر ولا أقلّ . والذين تلفتهم الحضارة

إلى أنفسهم وتدفعهم إلى إحياء قديمهم ، وتملأ نفوسهم إيماناً بألا حياة لمصر إلا إذا عنيت بتاريخها القديم وبتاريخها الإسلامى ، وبالأدب العربى قديمه وحديثه ، عنايتها بما يمس حياتها اليومية من ألوان الحضارة الحديثة ، هم الذين انتفعوا، وهم الذين فهموا ، وهم الذين ذاقوا ، وهم القادرون على أن ينفعوا فى إقامة الحياة الجديدة على أساس متين .

وأرانى شغلت عن صاحبي وحواره ، وعن موضوع هذا الحوار بهؤلاء الذين أفسدهم الأخذ بظواهر الحضارة ، فجهلوا القديم ثم كرهوه ، ثم اتخذوا من جهله وكراهته مذهباً يغرون به ويدعون إليه .

على أنى قلت لصاحبي فيما قلت : إنما أمر الأدب القديم عندى أشبه بحديقة طال عليها الزمن، وأهملت إهمالا متصلا ، ولم تنقطع عنها مع ذلك مادة الحياة ، فمضت أشجارها وشجيراتها تنمو فى غير نظام ، هذا النمو المهمل المضطرب ، حتى اختلط أمرها اختلاطاً شديداً ، وحتى أصبح من العسير عليك وعلى أمثالك أن تجدوا فيها سبيلا إلى ما تحبون من النزهة والراحة إلى جمال الزهر والشجر ، فأنتم قد ألفتم الحدائق التى يتعهدها البستانى إذا أصبح ، ويتعهدها إذا أمسى ، وينسقها لكم تنسيقاً ، ويمهد الطرق لكم فيها تمهيداً . أنتم تريدون الراحة دون أن تتكلفوا فى سبيلها التعب ، وتلتمسون اللذة دون أن تحتملوا فى سبيلها الألم . تريدون أن تسعوا فى الحدائق دون أن يعوقكم التفاف الشجر ، والتواء الأغصان ، وقيام هذه العقبات التى يكلف بها الذين يحسنون فن النزهة ، ويتذوقون الجمال الحر . أنتم تريدون أن تهيأ لكم لذة الفن تهيئة ، وأن يوضع لكم الطعام فى أفواهكم والعلم فى قلوبكم . وأنا أعرف قوماً يؤثرون هذه الحدائق الحرة ، التى طال عليها الزمن وألح عليها الإهمال ، على حدائقكم هذه المنسقة المنظمة التى أعدت لكم إعداداً .

وأعرف قوماً لا يظفرون بهذه الحدائق المهملة فيبتكرونها لأنفسهم ابتكاراً ويتكلفون إهمال حدائقهم ، وإرسال ما ينبت فيها من الشجر والنجم على سجيته ، ليتهيأ لهم بعد زمن يقصر أو يطول ، أن يجدوا فى طريقهم أشجاراً ملتفة ، وأغصاناً ملتوية ، وعقبات خضراء ، يضطرون إلى أن يزيلوها بأيديهم ، ويتعرضون لأن يصيبهم منها قليل من الأذى أو أكثر .

أعرف هؤلاء الناس وأحب أن أكون منهم ، ولست أخفى عليك أنى إذا لم أكره الأدب السهل الميسر فإنى أوثر عليه الأدب الصعب الذى يكلفنى مشقة وجهداً لأفهمه وأذوقه ، وإذا كان شعرنا القديم يمضك ويؤذيك ، وإذا كانت كتبنا القديمة التى ألفت لشرح هذا الشعر وتفسيره تثقل عليك ، فإنى أجد فى هذا الشعر ، وفى هذه الكتب ، متاعاً لا أجده فى هذا الأدب الحديث الذى تؤثره وتتهالك عليه ، والذى أحبه أنا ولكنى لا أوثره بالحبّ ، ولا أختصه بالعناية ، ولا أرى أنه كلّ شىء .

وقلت لصاحبى فيما قلت : إن ما يصرفك عن الشعر القديم يغرينى به ، وما يزهدك فيه يدفعنى إليه ؛ فأنت تكره هذه الألفاظ التى تكلفك البحث فى المعاجم ، وأنا أحبّ هذه الألفاظ ، لأنها تكلفنى البحث فى المعاجم . وأنت تكره هذه الشروح التى تختلط فيها الروايات ، ويكثر فيها الاستطراد ، وتنبثّ فيها مسائل النحو ، وأنا أحب هذه الشروح لنفس هذه العلل .

وأنا أعلم أن الناس جميعاً لا ينبغى أن يؤخذوا بما آخذ به نفسى ، وأن الناس جميعاً لا ينبغى أن يكلفوا قراءة شرح ابن الأنبارى للمفضليات . وأعلم أيضاً أن العلم بهذه الأشياء يجب أن يكون مقصوراً على عدد لا بأس به من العلماء . ولكنى أعلم مع هذا أن هؤلاء العلماء لا ينبغى أن يؤثروا أنفسهم بالعلم ، وأن يحتكروه من دون الناس ، وإنما يجب عليهم أن يتعبوا لتستريح أنت وأمثالك ، وأن يشقوا لتسعد أنت وأمثالك ، وأن يستخرجوا لكم من هذه الحدائق القديمة المهملة ، التى طال عليها الزمن ، وبعد بها العهد ، زهرات لا تستطيعون أنتم أن تخرجوها ؛ فمن يدرى لعلّ هذه الزهرات أن تعجبكم ، ولعلها أن تغريكم بمصادرها ، ولعلها أن تثير فى نفوسكم شيئاً من النشاط والغيرة ، وتدفعكم إلى أن تخاطروا بالسعى بين هذه الأشجار الملتفة ، والأغصان الملتوية ، لتستخرجوا مثل ما يخرجه لكم العلماء من الزهر والثمر .

وأنا أبيح لك كلّ شىء إلا أن تزعم أن حديقتنا المهملة قد أماتها الإهمال ، وأذواها طول الزمن ، فلم يبق لها حظّ من حياة . وأنا أبيح لك كلّ شىء إلا أن تزعم أن أدبنا القديم قد مات لأنه قديم ، فأنت إن زعمت ذلك ، تزعمه عن جهل ، لأنك لم تسع فى حديقتنا ، وإنما صدّك عنها مظهرها المهمل

المضطرب ، الذى اشتدّ فيه الاختلاط ، فإن كنت فى شكّ من ذلك فالأمر بينك وبينى يسير ، فتعال نقض معاً ساعة أو بعض ساعة متنزهين فى طرف من أطراف هذه الحديقة المهملة ؛ ولك علىّ ألا أمعن بك فيها إمعاناً ، وأن أهوّن عليك أمر هذه النزهة ما استطعت تهوينه ، فإن رجعت منها أسفاً فأنا المخطئ ، وأنت المصيب .

قال صاحبي : فإنى قد قبلت ، وإن كنت أعلم حقّ العلم أنك ستكلف نفسك وتكلفنى معك مشقة لا طائل فيها ولا غناء . ولكنى أريد أن أقيم عليك الحجة ، وأكرهك على أن تعترف بالحقّ . وأضطرك إلى أن تعلن أنّ شعركم القديم قد بلى فلم يصبح لنا فيه أرب . قلت : لا تعجل ، ولكن فى أى طرف من أطراف الحديقة تريد أن نقضى ساعة من نهار ؟ قال : تخيّر أنت فما ينبغى لى أنا أن أختار . قلت : فإنى أختار أشدّ أطراف الحديقة اضطراباً وأكثرها اختلاطاً ؛ وأبعدها عهداً بالمحدّثين ، وأريد أن نقضى ساعة أو بعض ساعة مع شاعر من هؤلاء الشعراء الذين يسمونهم الجاهليين ، ننظر فى قصيدة من هذه القصائد التى يسمونها المعلقات .

ثم تم الاتفاق بيننا على أن يكون يوم الأربعاء من كل أسبوع موعداً لهذه النزهة فى صحراء الأدب الجاهلى ، التى يراها الناس صحراء ، وأراها أنا حديقة من أجمل الحدائق وأروعها ، وسنرى كيف يكون حكم صاحبي ، وكيف يكون حكم القرّاء حين يقرءون ما يكون بينه وبينى من حوار أثناء هذه النزهة القصيرة ؟

ساعة مع شاعر جاهلى[1]

قلت لصاحبي – وقد طال الحوار بينه وبيني فى نفع هذه الساعة التى أردت أن يقضيها مع شاعر من الشعراء الجاهليين هو لبيد – : وما يضرك أن تتكلف بعض الجهد والعناء ساعة من نهار ، لتسمع عن هذا الشاعر الذى كان القدماء يعجبون به إلى غير حدّ ، ويكبرون شعره فى غير تحفظ ، يجتمعون إليه ليستمعوا له ، ويسعون إليه ليسألوه ، ويتناقلون شعره معجبين برصانة لفظه . ومتانة أسلوبه . واعتدال وزنه ، واستقامة قوافيه . وروعة معانيه ، فى دقة لا تشبهها دقة ، ووضوح مع ذلك لا يشبهه وضوح . قال : فإنى لن أفهم عنه إذا استمعت له ، ولن أذوقه إن فهمت عنه ، ولن أجد فى ذوقه من اللذة والمتاع ما أجده حين أقرأ شعر المحدَثين ، وأستخلص ما فيه من معان تلائم طبيعتى ومزاجى ، قد أديت فى لفظ يلائم ذوقى وحسى . ولقد حاولت منذ حين أن أقرأ لبيداً هذا فما كدت أبلغ الأبيات العشرة الأولى من قصيدته المطولة ، حتى ضقت بها ، وانصرفت عنها ، لا بغضاً ولا قِلَى ، ولكن عجزاً ويأساً . قلت : فإنى سأكون ترجماناً بينك وبينه ، ولئن فاتكَ أن تذوق ألفاظه الضخمة الفخمة ، التى قد تبلغ من الضخامة والفخامة إلى حيث تضيق بها أفواهنا المترفة الصغار ، وآذاننا التى لم تتعوّد قصف الرعد ولا وقع الجلاميد ، فمن يدرى لعلك تذوق هذه المعانى الرائعة البارعة على بداوتها . ولعلك توافقنى على أن الشعر ليس كله محدثاً ، وإنما هناك شعر قديم ، وعلى أن الشعر القديم نفسه ليس كله ميتاً ، وإنما هناك شعر قديم ما زال يترقرق فيه ماء الحياة . وإنى لأعلم أن الأبيات الأولى من قصيدة لبيد خشنة الملمس ، غليظة اللفظ ، بعيدة المعنى عن مألوفنا ، ولكن مع ذلك أجد فيها شعراً قوياً غنياً ، خصباً ممتعاً ، خليقاً بالإعجاب والإكبار خليقاً أن يثير فى نفوسنا عاطفة قلما تثيرها فيها خطوب حياتنا المتحضرة ، التى تشغلنا بالعاجل من الأمر ، والتى تحول بيننا وبين الأناة والتفكير ، والتى تمنعنا من

(١) نشرت بجريدة الجهاد بتاريخ ٦ فبراير سنة ١٩٣٥ .

أن نعود إلى نفوسنا، ونعكف عليها، ونستخرج منها ، أو نتبين فيها عواطف الشوق والحبّ والحنان والحنين أيضاً .

وما رأيك فى هذا الرجل الذى أراد أن يتغنى ما يملأ حياته البدوية بالنشاط ، فبدأ كما تعوّد أمثاله أن يبدءوا بشيء من النسيب ، ولكنه نسيب شاحب ، فيه حزن يشتدّ حتى يؤثر فى النفس ، ويكاد يبلغ بها الجزع واليأس ، لولا أن الشاعر قوىّ النفس ، شديد الأيد ، عظيم الحظ من الإرادة ، جلد صبور ، فهو لا يستسلم للعاطفة ، ولا يخضع لسلطانها ، وإنما يأخذ منها بمقدار ؛ إن صح هذا التعبير ، يحزن ولكن على ألا يفسده الحزن ، ويفرح ولكن على ألا يبطره الفرح . يحزن ويفرح بمقدار ما ينبغى له من هذا الحزن الذى يصلح النفس ، وهذا الفرح الذى يعتدل له المزاج . على أن تأثره بهذه العواطف ليس مقصوراً عليه ، ولا على معاصريه الذين كانوا يفهمون عنه ويفهم عنهم ، بل هو يتجاوزه ويتجاوزهم إلينا نحن ، وإن بعد بينه وبيننا العهد ، وطال بينه وبيننا الزمان .

وهو يسلك إلى تصوير عواطفه هذه نفس الطريق التى يسلكها الشعراء المحدثون : طريق التصوير القوىّ المؤثر ، الذى يثير فى نفسك الإعجاب لأنه يؤثر فى عقلك وحسك وشعورك معاً . وأنا أشفق عليك ، أو أشفق منك ، فلا أروى لك الأبيات الأولى من هذه القصيدة بلفظها ، مخافة أن تنفر منها ، وإنما أترجمها لك ترجمة . وأىّ بأس من أن يترجم الشعر العربى القديم إلى اللغة العربية الحديثة ؟ فإن هذه القرون الطوال ، التى مضت بين القدماء وبيننا ، لم تمض عبثاً ، وإنما أنشأت بينهم وبيننا فروقاً عظيمة ، جعلت من العسير علينا أن نفهمهم إذا تحدثوا ، كما نفهم أنفسنا حين يتحدث بعضنا إلى بعض . وإذا كان الفرنسيون يحتاجون إلى أن يترجموا بعض آثارهم فى القرون الوسطى ، وفى أول العصر الحديث ، إلى لغتهم التى يألفونها الآن ، فلم لا نحتاج نحن إلى أن نترجم أو نقرب شعر القدماء من الجاهليين أو من الإسلاميين إلى هذه اللغة اليسيرة ، التى نصطفيها فيما يكون بيننا من الأحاديث ؟ لا بأس عليك إذن ولا علىّ من أن ندع لفظ « لبيد » الآن ونكتفى بمعانيه ، لنرى ألها حظّ من الشعر ومن جماله ، أم هى بريئة من الشعر والجمال معاً ؟ أما أنا فيعجبنى

جداً تصويره لهذه الديار . وقد خلت من أهلها . وبعد عهدها بهم . وطال عليها الزمن . واختلفت عليها الخطوب وأحداث الجوّ . فأصبحت وكأنها لم يسكنها الناس . لولا هذه الآثار الضئيلة التي يصورّها الشاعر ويتحدث عنها . ولولا هذه الذكرى التي تملأ نفس الشاعر حبًّا وشوقاً وحناناً . ولولا هذه الأسماء التي حفظها الشاعر . فهو يجرى بها لسانه استثارة لعواطف الحب والحنان .

خلت هذه الديار ممّن أهلها . كما خلت من آثارهم ومتاعهم ، ولم يبق فيها إلا هذه الرسوم الضئيلة النحيلة التي بقيت ؛ لأن حملها ليس ممكناً ولا ميسوراً . والتي جدّ الزمن فى إزالتها . فأخذت تنمحى قليلا قليلا ، حتى كأنها النقش على الحجر قد طال به العهد . فأخذ ينمحى حتى كاد يزول .

خلت هذه الديار من أهلها . ومضت عليها أعوام طوال كاملة . لم يزرها إنسان . ولم يستقر بها مقيم . وهى مع ذلك معرضة لأحداث الجو . تختلف عليها الريح . وتلمّ بها العواصف والأنواء . ويصيبها المطر الخفيف . ويصيبها المطر الغزير . ويقصف فى جوّها الرعد إذا كان العشىّ . ثم تنجلى عنها هذه الأحداث الجوية ، وقد ألقت إليها الخصب . وأشاعت فيها الحياة . وأثارت فيها النبت . وجعلتها مرتعاً للظبى والبقر . ومأمناً للوحش . تعيش فيها راضية لاهية مطمئنة فارغة لنفسها ولأبنائها . قد بعد عهدها بالناس فليست تخاف الناس . وإنما هى آنسة حيث لم يكن لها أن تأنس منذ أعوام . وقد وقف الشاعر على هذه الديار التي تغيرت وتبدلت شئونها . وقفة السائل المتذكر وو قفة الحزين الأسف . وهو يودّ لو تخبره بأخبار الذين كانوا فيها ، ولكنه لا يكاد يمعن فى هذا التفكير . حتى يردّه حزمه إلى الرويّة والرشد . فينكر على نفسه ما هو فيه . من سؤال هذه الأحجار والصخور الصمّ الخوالد ، التي فقدت كلّ حركة وكلّ نشاط . فكيف السبيل لها إلى أن تتكلم ! وكيف السبيل لها إلى أن تجيب ! وكيف السبيل لها إلى أن تبين !

وكلّ هذه المعانى مألوفة عند الشعراء الأقدمين ؛ ولكن انظر إلى هذه الصور الجميلة ، التي يؤدّى الشاعر فيها هذه المعانى . وحدثنى لو أن شاعراً محدثاً أراد أن يؤدى مثل هذه المعانى . أتراه يستطيع أن يؤديها فى صور خير من هذه الصور ؟ آثار الخيام فى الديار ، وآثار ما كانت تحتويه الخيام

من المتاع والأثاث ، قد محيت ولم يبق منها إلا القليل ، كأنه بقايا النقش، وقد محاه أو كاد يمحوه طول العهد ، أو كأنه رجع الوشم وقد أخذت الواشمة تعيده وتجدّده على اليد ؛ وهذه السماء الملحة على هذه الديار بالمطر الهادئ والمطر القويّ ، والرعد حيناً والمطر فى غير رعد حيناً آخر ؛ وهذا النبات الذى يثور ، فإذا الأرض تنشقّ عنه ، وإذا هو يمضى فى ثورته حتّى يرتفع ! وهذه الحياة التى تنبثّ فى الأرض فإذا هى نبات كلّها ، وإذا الوحش يجد فيها مأمناً ومرتعاً ، وفراغاً للحنان والعناية بالأطفال ؛ وهذا الشاعر الذى يلمّ بهذه الأرض ، وقد اختلفت عليها كلّ هذه الأحداث ، وألمت بها كلّ هذه الخطوب ، وأصابها كلّ هذا التغيير ، فيذكر عهدها القديم وأهلها القدماء ، وما كان بينه وبينهم من صلات ، وما كان يشاركهم فيها من لذة ، وما كان يقاسمهم فيها من ألم ؛ وإذا هو فى أوّل أمره سائل ملح فى السؤال ، ثم إذا هو يثوب إلى رشده قليلا ، وإذا هو يستيئس من الجواب شيئاً فشيئاً ، وإذا هو يطمئن إلى هذا اليأس ، وإذا هو يقنع بالذكرى ، وإذا هو يستحضرها بالذكرى ، ويقصها على نفسه كما لو قصها عليه إنسان آخر ، وإذا هو يتحدث عن يوم الرحيل ، وعن هؤلاء النساء الحسان اللاتى ارتحلن ذات يوم من هذه الديار إلى أرض مجهولة ، لا يستطيع هو أن يحققها ؛ فقد تكون عن شماله نحو الحجاز ، فى هذا المكان أو ذاك ، وقد تكون عن يمينه نحو اليمن ، فى هذا المكان أو ذاك ؛ وهو على كل حال عاجز كل العجز عن أن يسعى إلى هذه الأماكن أو تلك ، وأن يلم بأهل هذه الديار هنا أو هناك ، فحسبه أن يذكر ويكرر الذكرى ، وحسبه أن يستحضر ويلح فى الاستحضار ، وهو يرى النساء وقد دخلن الهوادج كأنهن الظباء حين يؤوين إلى الكنس التى يتخذنها من أغصان الشجر ، وهو يرى هذه الهوادج ويتبينها ويصورها ، كأنه يمسها بيده ، فهو يذكر لنا قوائمها ، وهو يذكر لنا ما نشر عليها من الثياب ، وهو يذكر لنا أستارها الرقيقة ؛ ثم هو يرى الإبل وقد نهضت ثم دفعت أمامها فى الطريق ، وهو يتبع هذه الإبل ببصره وهى تنأى عنه شيئاً فشيئاً ، وتغيب عن عينه قليلا قليلا ، والضحى يرتفع ، والسراب ينتشر ، وصور هذه الإبل ، وهى تخرج من سراب لتدخل فى سراب ما تزال تتمثل

لعينيه . ثم تغيب الإبل حتى تنقطع أو تكاد تنقطع الأسباب بينه وبينها ، وما زال الضحى يرتفع ؛ وما زال الآل ينتشر ، وإذا الشاعر ينظر فلا يكاد يرى إلا تلالا صغاراً ضئيلة ؛ قد اتخذت من هذا السراب أردية .

وليست عين الشاعر وحدها هي التي ترى وتتبع الإبل ، وليست وحدها هي التي تذكر ما رأت وما تبعت ، ولكن أذن الشاعر أيضاً قد سمعت ، وهي تذكر ما سمعت ، والشاعر يصور لنا هذا الذي سمعته وذكرته تصويراً يمر به المعلمون والمتعلمون غير حافلين به ، ولا ملتفتين إليه ، وفيه مع ذلك الشعر كل الشعر : فهذه الإبل قد نهضت وأخذت تسعى بأحمالها ، وعليها الخيام التي كانت تظل أهل الديار ، وهذه الإبل تسعى بهذه الخيام وتضطرب ، وهذه الخيام تصرّ لهذا السعي والاضطراب ، ومن يدرى لعل في صرير هذه الخيام اشتكاء لهذا الرحيل الذي لم تكن تنتظره ولا ترجوه . ومن يدرى ! لعلنا لا نفهم عن الأشياء كما ينبغي ، حين نرى صورها ، أو نسمع أصواتها ، وإنما الشعراء وحدهم هم القادرون على هذا الفهم ، وهم القادرون على أن يترجموا عما تريد الأشياء .

على أن شاعرنا — كما قلت لك آنفاً — ليس ضعيفاً ، ولا واهي العزم ، ولا مسرفاً في الاسترسال مع العاطفة ؛ وإنما هو صاحب حزم وإرادة وتصميم ، وقد غابت الإبل عن عينيه ، وقامت من دونها التلال والجبال ، وقد انقطع عن أذنيه صرير الخيام ، الذي قد يكون فيه الشكوى ، وقد يكون فيه الوداع . وقد مضت الأيام ، ومضت الشهور ، ومضت الأعوام ، وليس من سبيل إلى أن يرد الماضي ، ولا أن يبلغ أحباءه ، لأنه لا يعرف أين يكونون . فما استرساله في اليأس ، وما استسلامه للجزع ، وإن في الحياة لما يشغل عن اليأس ، وإن فيها لما يصرف عن الجزع ؛ وإن صاحبته هذه التي هجرته وانصرفت عنه ؛ وقطعت ما بينها وبينه من الوسائل والأسباب ، لخليقة أن تلقى منه صداً بصد ، وإعراضاً بإعراض ؛ فما ينبغي للرجل الحازم العازم أن يحتمل الهجر والصد ، دون أن يجزى الهاجر الصاد بمثل هجره وصده . وإنما الرجل الذي يحسن الوصل حين يتاح له الوصل ، هو الرجل الذي يقدر على الهجر حين لا يكون له من الهجر بدّ ؛ وقد مضت الإبل بصاحبته إلى حيث لا يدرى ،

أفتظن أن الإبل لا تستطيع أن تمضى به هو إلى حيث يدرى ؟ كلا . إن له لناقة قادرة على أن تمضى به لدى حيث يريد ، ولدى حيث لا يدركه الطالبون ، ولدى حيث تجهل صاحبته من أمره مثل ما يجهل ، أو أكثر مما يجهل من أمرها .

وأنت يا سيدى مخطئ أشد الخطأ حين تظهر ما تظهر من الضجر ، وحين تأخذ فى التبرم بحديث الناقة الذى يكثر منه الشعراء القدماء ؛ فليس شاعرى حين يصف ناقته مثقلا ولا مملا ، وإن كان مطيلا مكثراً ، فناقته فى حقيقة الأمر لا تعنيه ، إلا لأنها تستطيع أن تسليه عن هجر الهاجر ، وأن تمضى به إلى حيث لا يطلب ، فقدرتها على الإسراع واحتمال ما يفرضه السفر من الجهد والمشقة والهزال ، هو أهم ما يعنيه من هذه الناقة ، ومن يدرى لعل الشاعر كان يتنبأ بأن القرون ستمضى وتمضى فى إثرها القرون ، ثم يخلف خاف من الناس ، يضيقون بالمألوف من وصف الإبل ، ويكرهون الحديث المطرد فى غير تنوع ولا اختلاف ، ويتبرمون كما تتبرم أنت بالقديم ، فأراد ألا تضيق به ، ولا تزور عن وصفه لناقته ؛ ومن يدرى لعله فكر فيك وفى أمثالك الذين فتنهم الشعر الحديث ، وخلبهم ما فيه من هذه الصور المختلفة الحية التى تمر بآذانهم ، فإذا هم يرونها بعيونهم ، وإذا هى تضطرب أمامهم كما يضطرب الأحياء ، فشاعرى يا سيدى قادر ماهر ، وهو ماكر أيضاً ، يخيل إلى أنه إنما اتخذ ناقته تعلة ليتغنى ببعض المناظر الجميلة التى كانت تشيع فى الصحراء ، وليعرضها عليك وعلى أمثالك عرضاً سريعاً هادئاً معاً ، كأنك تراها فى دفتر من دفاتر الصور إن شئت ، وكأنك تراها على لوحة من لوحات السينما إن أحببت . وقل إن أردت إنى مفتون بهذا الشاعر القديم ، ولكن انظر معى إلى هذه الصور المختلفة التى يعرضها عليك فى لفظ رائع ، لا تستطيع أن تحكم على روعته ، لأنى لا أرويه لك ، ولأنك تؤثر الكسل والراحة ، على أن تنظر فيه وتتذوق جماله .

انظر معى إلى هذه الصور ، فقد يخيل إلى أنها ستفتنك كما فتنتنى ، فشاعرى يا سيدى صاحب حركة ونشاط ، هو لا يثبت الشيء أمامه ليصفه ؛ هو لا يصف الشيء ساكناً مستقراً ، وإنما يدفعه أمامه ، ثم يندفع فى أثره ، ثم يصفه لك مسرعاً فى الحركة ، فيضطرك أنت إلى أن تنشط ، وإلى أن تتبعه

فى طريقه التى مهما تبعد ، ومهما تطل ، فهى واضحة ، لا يخشى فيها الضلال . ناقة شاعرى يا سيدى قد تعودت الأسفار ، واحتملت من أسفارها غير قليل ، فهى متعبة مكدودة ، قد براها السفر ، وألحّ عليها الهزال ، ولكن ذلك لم يقعد بها عن السرعة ، وإنما أعانها عليها ، فهى تمضى وكأنها السحاب قد أراق ماءه ، فخف واستسلم لأيسر الريح . على أن هذا التشبيه لا يكفى شاعرى ، وإنما هو يطمع فى تشبيهات أخرى أبلغ منه ، وأكثر روعة وجمالا ، وفيها من الحياة ، ومن الحياة القريبة ، ما ليس فى السحاب . فهل رأيت إلى الأتان الوحشية ، وقد تنافست فيها الفحول ، وازدحمت عليها ، وكثر فيما بينها الخصام . ثم استطاع واحد منها أن يستأثر بها من دون أصحابه ، وأن يصطفيها لنفسه ، ثم استيقن أن له عليها حقاً ، ثم لعب فى نفسه الشك ، وثارت فيها الريب ، وملكت عليه الغيرة أمره ، ففضل حياة العزلة ، وزاده حرصاً على العزلة وتأثراً بالغيرة ، ما يرى من تمنع صاحبته وتجنبها ، فهو يدفعها أمامه ، وهى تمضى مسرعة تود لو تفوته ، ولكنه يعدو فى إثرها ، فلا يزيدها هذا العدو إلا إلحاحا فى الإسراع ، وما تزال مسرعة ، وما يزال هو غادياً فى إثرها ، حتى تتم لهما العزلة فى مكان مرتفع ، قد كثر فيه النبت ، وغطاه العشب ، فهما يقيمان فيه فصل الشتاء ، بعيدين عن الماء ؛ وما حاجتهما إلى الماء ، وفى هذا النبات الرطب الذى يرعيانه ما يكفل لهما الرى ؛ ولكن الأيام تمضى ، والشتاء ينقضى ، ويقبل الحر ، ويجف النبات ، ويشتد الظمأ ، فهما فى حاجة إلى الماء ؛ وقد ترددا . وطال ترددهما ، ثم تمت عزيمتهما على ورود الماء : فقدمها أمامه ، لتسعى بين يديه . غير قادرة على أن تتخلف عنه أو تفلت منه ؛ وهى لاتسعى وإنما تعدو عدواً سريعاً ، تريد أن تفوته كما كانت تفعل من قبل ، وهو يريد أن يدركها كما كان يفعل من قبل ، وهى لا تحفل بهذا الشوك الذى يصيب دوابرها ، وهى تثير غباراً منتشراً ، وهو يثير معها هذا الغبار ؛ والغبار ينتشر بينهما رقيقاً سهلا ، كأنه ثوب يتنازعانه ، أو كأنه دخان نار مضطرمة قد أوقدت باليابس الذى يضرمها تضريماً ، وبالرطب الذى يثير لها الدخان . وما يزالان يعدوان فى طلب الماء حتى يبلغاه ؛ ويا له من ماء جميل هذا الذى ينتهيان إليه ! عين غزيرة تجرى فى غابة كثيفة من القصب ، قد عبثت بها

الريح ، فبعضها قائم يقاوم الريح ، وبعضها قد عجز عن المقاومة ، فانكفأ على الماء كأنه صريع .

أرأيت إلى هذه الأتان فى هذه القصة الحية السريعة التى تتتابع فيها الصور ، وتختلف فيها المناظر ، وتكثر فيها الأحداث ، وتثار فيها عواصف الغيرة والحرص والمنافسة ، هذه الأتان يضربها الشاعر مثلا لناقته حين يدفع بها فى الأسفار .

على أن تشبيه الناقة بالسحاب الخفيف ، وبالأتان ذات القصة الرائعة ، التى تعرض عليك من مناظر الطبيعة فى الصحراء ما تعرض ، لا يكفى صاحبي ، كأنه أحس أنه لا يكفيك ، وكأنه أحس أنك فى حاجة إلى قصة أخرى ، وإلى مناظر أخرى ؛ وكأنه أحس أن قصة الأتان قد أعجبتك ، فهو يريد أن يزيد إعجابك ، ومن ذا الذى ينكر على الشاعر وعلى صاحب الفن ، أن يحبّ الإعجاب به ، وأن يستزيده ، وأن يبذل ما يملك من الجهد ليبهرك ويسحرك . وهل كان الشعر والفنّ إلا ليبهراك ويسحراك ؟

فهذا تشبيه آخر يثير قصة أخرى وأىّ قصة ! قصة تملؤها الحياة ،وتملؤها العاطفة ، ويملؤها الصراع : وهى قصة هذه البقرة الوحشية البائسة التى عدت على طفلها العوادى فأكله السبع ، فهى تلتمسه فلا تجده ، وهى تلحّ فى التماسه هائمة فى الأرض ما قدرت على الهيام ، صائحة منادية ما وجدت قدرة على الصياح والنداء ؛ تفعل ذلك ما وسعها النهار ، ولكن الليل يدنو ، وتدنو معه الظلمة ، وتدنو معهما العاصفة بما تدفع بين يديها من مطر متصل غزير ، وبما تنشر حولها من برد مهلك ؛ وهذه الأم الحزينة البائسة التى كانت خليقة أن تستيئس من لقاء ابنها ، لولا أن قاوب الأمهات لا تعرف اليأس ، هذه الأمّ البائسة قد أجهدها الطلب والصياح ، وشق عليها البرد والمطر ، وأخافتها ظلمة الليل ، فهى تلتمس لنفسها مأمناً ومأوى فى أصول الشجر المتلفّ ، حتى إذا انجلى الليل وأسفر الصبح ، اندفعت هائمة تصيح وتدعو ابنها هنا وهناك ، وابنها لا يجيب ، فقد أكله السبع ، ولم يبق منه إلا أشلاء قد طرحت على رمل الصحراء ، وإنها لكذلك مرتاعة ملتاعة فى هيام وصياح ، وإذا هى تحس من ظهر الغيب نبأة لا تتبين أصلها ، وصوتاً خفيفاً لا تعرف مصدره .

وهل يصدر هذا الصوت إلا عن الناس ؟ ! وهل للوحش أمن إذا أقبل الناس ؟ وإذا غريزة الدفاع عن النفس ، والحرص على الحياة ، تغلب غريزة الأمومة والحزن على الطفل الفقيد ، وإذا هذه الأم الحزينة بقرة يطلبها القناص ، وهى فى حاجة إلى أن تنجو ، فهى تعدو أمامها لا تلوى على شىء ، قد ملأها الخوف ، وملكها الرعب ، فهى تنتظر الخطر من أمام ، وهى تنتظر الخطر من وراء ، وهى تسلم نفسها لقوائمها النحاف كأنهن القداح ، حتى أيأست الرّماة ، وفاتت النبل ، ولكن عجز الرماة وقصور النبل لم يؤمنا هذه البائسة ، فكلاب الصيد حاضرة ، وما أسرع ما أرسلها القناص ، فأخذت تعدو ، وأخذت البقرة تعدو أيضاً ؛ فلما استيأست من العدو ، وعرفت ألا نجاة لها إلا باستقبال الخطب ، عطفت على هذه الكلاب ، فكانت بينها وبينهن حرب ، أسفرت عن قتيلين.

فهذه البقرة المرتاعة المحزونة الهائمة فى طلب ابنها ، الخائفة إذا جنّها الليل ، الهاربة بين يدى القناص ، العاطفة على الكلاب للحرب والصراع ، هى التى يشبه الشاعر بها ناقته ، بعد أن شبهها بالسحاب ، وبعد أن شبهها بالأتان .

وأظن أن الشاعر قد أرضى حاجتك إلى الصور ، وإلى القصص الساذج القوى ، وأرضى حاجة نفسه فى تصوير ناقته ووصفها بما أحب لها من السرعة والقدرة على احتمال الجهد . فليس عليه بأس بعد هذا من أن يحدثنا عن نفسه ، ومن أن يحدثنا عن نفسه محتملا للخطوب ، محتملا لهجر صاحبته ، هاجراً لها إن هجرته ، معرضاً عنها إن أعرضت عنه ، متحدثاً إليها بما يعرف لنفسه ، وبما يعرف الناس له من خلال الشجاعة ، والبأس ، والكرم ، والجود ، حتى إذا أرضى الشاعر نفسه ، تحدث عن قومه ، فوصفهم بما يحبون أن يوصفوا به ، وانتهى من قصيدته وقد نسب فى أولها ، ووصف فى أثنائها ، وفخر بنفسه وبقومه فى آخرها ، وكان شاعراً بارعاً ، ومصوراً صادقاً لحياة نفسه ، ولحياة قومه ، ولحياة جيله من العرب فى عصره فى القصيدة كلها .

وأظنك تلاحظ يا سيدى أنى قد أجملت وأسرفت فى الإجمال ، وأنى قد تجنبت التفصيل ، وأبيت أن أقف بك عند كل صورة وعند كل تشبيه ، وأشفقت عليك من الوقوف عند الألفاظ وما فيها من جمال يأتى من هذه الجزالة

التى إن نبت عن أذنيك ، فإنها لا تنبو عن آذان قوم آخرين يألفونها ويكلفون بها ، ولعلها لا تنبو عنك إذا أنت رُضت نفسك على قراءتها ومراجعتها .

وقد أشفقت عليك أيضاً مما تثيره هذه الألفاظ وهذه المعانى ، من مسائل فى النحو يلذّ تفسيرها ، ويروق الوقوف عندها ، لو أنك من الذين يشاركون فى هذا العلم ، الذى يكره الناس المشاركة فيه الآن .

أظنك قد لاحظت هذا كله ، وأظنك توافقنى على أن مثل هذا الشعر الذى يعرض مثل هذه الصور ، ويثير مثل هذا الخيال ، ويحيى فى النفس مثل هذه العواطف ، لا ينبغى له أن يهمل ، ولا أن يصرف عنه الشباب صرفاً ؛ ولست أزعم أنى أريد أن يفرغ له الشباب ويتخصصوا فيه — كما يقولون — ولكنى أريد أن يعرفه الشباب ، وأن يحسنوا العلم بأغراضه ومعانيه ، وأنا واثق بأنه لن يكون أقلّ إلهاماً لهم ، وإحياء لنفوسهم من الأدب الحديث .

قال صاحبى : فى شىء من الشكّ : قد يكون هذا حقاً بالقياس إلى هذه القصيدة ، ولكن كم ترك القدماء من قصيدة تشبهها ؟

قلت : تركوا كثيراً يا سيدى أكثر جداً مما تظنّ .

ساعة أخرى مع لبيد[1]

قال صاحبي وهو يبتسم : لقد أخطأت حين اتخذتني مثلا للمثقفين الذين يضيقون بالشعر القديم ، أو للكثرة من هؤلاء المثقفين . فقد حمدت لك حين تحدثت إلىّ عن قصيدة لبيد ، أنك وقفت بى عند المعانى التى أراد إليها هذا الشاعر ، ولم تجشمنى ألفاظه الضخمة ، وقوافيه الغلاظ ، ولم تكلفنى تعمق هذا المعانى ولا الدخول فى تفصيلها . ولكن غيرى من خصوم هذا الشعر ، فضلا عن أصدقائه وأنصاره ، لم يحمدوا لك هذا القصد ، ولم يرضوا منك بهذا الإجمال . وقد حدثنى غير واحد من خصوم الشعر القديم وأنصاره ، أنهم يحبون حديثك الأخير ، لولا أنه خلا من الشعر ، تروى منه البيت أو البيتين ؛ لتدل على ما تزعم ، ولتصدق ما تنبئ به ، ولتزين به حديثك من حين إلى حين . وهم لا يقبلون أن تتحدث عن الشعر والشعراء حديثاً طويلا ، ثم لا تروى لهم فى هذا الحديث من الشعر شيئاً . ولقد دافعت عنك ما وسعنى الدفاع ، وزعمت لهؤلاء الذين كانوا يعتبون عليك فى إعراضك عن رواية الشعر ، أنك إنما فعلت ذلك رفقاً بهم ، وإشفاقاً عليهم ، فكان كل واحد منهم يرد علىّ بأنه ليس فى حاجة إلى هذا الرفق ، وليس فى حاجة إلى هذا الإشفاق ، وبأنك تستطيع أن ترفق بى أنا ، وأن تشفق علىّ أنا ، فيما يكون بينك وبينى من حديث ، فإذا تحدثت إلى قرائك فى (الجهاد) فلا تأخذهم كلهم بذنبى ، ولا تعمهم كلهم بضعفى ، ولا تتخذنى لهم مثلا ، فهم عند أنفسهم ، وهم يحبون أن يكونوا عندك خيراً منى ، وأصبر على الشعر القديم وإن كرهوه ، وإن عرفوا أن أبياته أشبه شىء بالصخور ؛ وهم يرون أن الخير لهم فى أن يستقبلوا هذا الشعر ، ويستمعوا له ، ويقضوا فيه بأنفسهم ، وأن فى موقفك هذا منهم ازدراء لهم ، وشكّاً فيهم ، وتعالياً عليهم ؛ فاروِ لهم إذن من الشعر ما هم فى حاجة إليه ، واعفنى أنا من هذه الرواية حين يكون الحديث

(١) نشرت بجريدة الجهاد بتاريخ ١٣ فبراير سنة ١٩٣٥ .

خاصًّا بينك وبيني . قلت : فإنك تعلم يا سيدى أنى لا أتهيأ للحديث مرتين ، وأنى إذا تحدثت إليك بشيء فهو الذى أذيعه فى الناس ، وما رغبت فى إذاعة أحاديثنا لولا أنك قد ألححت علىّ فيها ؛ فأنت بين اثنتين : إما أن تقبل ما يريده الناس فتصبر لرواية الشعر حين نتحدث ، كما أنهم سيصبرون لها حين يقرءون ، وإما أن تعرض عما رغبت فيه إلى من إذاعة هذا الحديث . قال : فإنك ظالم وإنهم ظالمون ، ولقد صبرنا للظلم منذ أعوام ، فما يضرّنا أن نصبر لهذا الظلم الأدنى ، الذى إن كلفنا بعض الجهد فلن يؤذينا فى أنفسنا ، ولا فى أموالنا ، ولا فى مرافقنا . فهات من شعرك القديم ما ترى أن فى روايته إقامة لحجتك ، وتصديقاً لمذهبك ، فإنى ما زلت فى شكّ مما تزعم : وما زلت بعيداً عن الإيمان بأن فى شعرك القديم هذا لنا نفعاً وغناء . قلت : فسجل قبل كلّ شيء أنى قد ظهرت عليك ، وظفرت بك ، فهؤلاء الناس الذين يلحون عليك ، ويلحون علىّ فى رواية الشعر القديم ، لا يزيدون على أن يعلنوا أنهم ليسوا من بغض الشعر القديم ، والإعراض عنه ، والزهد فيه ، بحيث وضعت نفسك ، وبحيث تظنّ ، ولكن فى نفوسهم حنيناً إليه ، وكلفاً به ، فهم حين يطلبونه إنما يستجيبون لهذا الحنين ، ويصورون هذا الشوق ، ويعلنون فى صراحة أن مصر ما زالت بخير ، وأن حبّ الجديد لم يطغ على نفوسهم وقلوبهم . وأن كثيراً منهم يعرفون كيف يحبون الجديد دون أن ينصرفوا عن القديم أو ينفروا منه نفوراً . قال : فلا تعجل ولا تسرع إلى تسجيل الفوز والانتصار ، ولكن أجب إلى ما يطلبه الناس إليك ، وارو لهم الشواهد من شعر لبيد وغير لبيد من الشعراء . فما أظنّ أنك ستقف عند لبيد ، وأنا زعيم بأن رواية هذا الشعر ستفضح هذا الخداع الذى أنت ماض فيه ، وستبين للناس أنك تختلس إعجابهم بالشعر القديم اختلاساً ، لأنك تزينه لهم فى لغتهم الحديثة ، فإذا ظهروا عليه كما هو فسيمنحونه ما أمنحه من الإعراض والنفور .

على أنى قد أمهلتك حتى تعرض علىّ وعلى الناس من معانى صاحبك ما عرضت ، ولست أمارى فى أن هذه المعانى تصوّر شعراً رائعاً ، وخيالا قويًّا ، وقريحة خصبة ؛ ولكنك توافقنى فيما أظنّ على أن هذا ليس كلّ شيء ، وعلى أن الشعر لا يقوّم بجودة المعنى وروعته ، وقوّة الخيال وخصبه ، ونفاذ

البصيرة ودقتها ؛ فإذا اجتمعت كلّ هذه الخصال لشاعرك لبيد ، فهناك خصال أخرى يجب أن تجتمع له ليكون شاعراً حقًّا ، وليكون شعره رائعاً معجباً حقًّا ، فلا بد من جمال اللفظ ومتانته ، ولا بدّ من حسن الأسلوب ورصانته ، ولا بدّ من هذه الموسيقى التي يحسن وقعها في السمع والنفس معاً ، والتي تلائم بين الألفاظ والمعاني فتؤثر أحسن التأثير في الحسّ والشعور . ونحن ننتظر أن تبين لنا اجتماع هذه الخصال لشعرائك القدماء ، حين تعرض علينا الأبيات من شعرهم ، وحين تدلنا على ما في ألفاظها وأساليبها وأوزانها وقوافيها من الجمال ، على أن هناك شيئاً آخر أراك تتعمد إهماله والإعراض عنه ، لأنك تشفق فيما أظنّ من التعرّض له ، والوقوف عنده ، وهو استقامة بناء القصيدة ؛ فأنت تعلم ما يقوله الناس من أن أقبح عيب يمكن أن تؤخذ به القصيدة العربية في الشعر القديم خاصة ، هو أنها ليست وحدة ملتئمة الأجزاء ، وإنما تأتيها الوحدة من القافية ومن الوزن ، فلولا أن « لبيدك » هذا قد اختار البحر الذي اختاره ، والقافية التي اختارها ، لما تشابهت أجزاء قصيدته ، ولما اتصل بعضها ببعض ، ولكانت أبياتاً منثورة لا قران لها ؛ فحدثنا عن هذه الوحدة ما صنع الله بها في شعر القدماء ؟ وحدثنا كيف يستقيم للعقل الحديث أن يسمى قصيدةً هذا الكلام المفترق الذي لا يجمعه إلا نظام ظاهر من الوزن والقافية ؟ وكيف يستقيم للعقل الحديث أن يعرض هذا الكلام المفترّق على الشباب ، ليتخذوه نموذجاً ومثلا ، وليستوحوه ويستلهموه ؟ ألست تشفق على ملكات الشباب أن تفسدها هذه النماذج والمثل ، وأن تعوقها عن أن تبلغ ما تريد لها من فهم القصيدة وإنشائها ، على أن لها وحدة داخلية جوهرية تتصل بالمعنى قبل أن تتصل باللفظ ، بالوزن والقافية ؟

قلت : هوّن عليك ، واصطنع شيئاً من القصد ، ولا تنس أني لا أكتب ما تقول لأردّ عليه شيئاً فشيئاً ، وإنما أسمع منك فاردّ عليك ، فارفق بذاكرتي بعض الرفق ، فإنك تحملها ما لا تطيق . قال : أجبني ما صنع الله بوحدة القصيدة عند شعرائك القدماء ؟ قلت : صنع الله بها خير ما يصنع بآثاره ، فأوجدها وأتقنها ، وأتمها إتماماً لا شكّ فيه ، ولا غبار عليه ، وما سمعت من خصوم الشعر القديم حديثهم عن وحدة القصيدة عند المحدثين وتفككها عند

القدماء إلا ضحكت وأغرقت فى الضحك . والعجيب أن تنشأ الأساطير فى العصر الحديث ، وأن تنمو ويعظم أمرها ، وتسيطر على العقول ؛ مع أن عهد الأساطير قد انقضى ، وأصبح العقل الحديث أذكى وأرقى وأدنى إلى الحذر والفطنة من أن يذعن لها أو ينخدع بها ، وتفكك القصيدة العربية ، واقتصار وحدتها على الوزن والقافية دون المعنى ، أسطورة يا سيدى من هذه الأساطير التى أنشأها الافتتان بالأدب الأوربى الحديث ، والقصور على تذوّق الأدب العربى القديم ، والذين ينكرون الوحدة المعنوية للقصيدة العربية القديمة ، إنما يدفعون إلى هذا الإنكار لسببين :

الأول : أنهم لا يدرسون الشعر القديم كما ينبغى ، ولا يتعمقون أسراره ومعانيه ، وإنما يدرسونه درس تقليد ، ويصدقون فيه ما يقال لهم من الكلام ، فى غير تحقيق ولا استقصاء ، وهم يحفظون منه البيت أو الأبيات ، وقلّ منهم من يحفظ القصيدة كاملة ، ويدرسها كاملة ، فضلا عن أن يحفظ القصائد الطوال ؛ أما علماؤهم فيكتفون بالأغانى وما يشبه الأغانى من الكتب ولا يلتفتون إلى الدواوين . وأما عامتهم من أوساط المثقفين فيكتفون بكتب التاريخ الأدبى وما يشبهها من المذكرات التى تذاع فى المدارس بين الطلاب ؛ وكلّ هذه الكتب لا تتكلف ولا تستطيع أن تروى قصائد الشعراء كاملة ، لأنها لم تنشأ لذلك ، وإنما تختار من هذه القصائد ما يلائم الغرض الذى وضعت له ، وقصدت إليه ، فخاصة المثقفين المحدثين وعامتهم يعرفون الشعر العربى متفرّقاً لأنهم يحفظونه متفرقاً ، وهم من هذه الناحية يجهلون هذا الشعر ويقضون عليه حين يقضون قضاء الجهال .

والسبب الآخر الذى يدفع المثقفين المحدثين إلى إنكار هذه الوحدة المعنوية فى القصيدة يأتى من أنهم يقبلون ما يقوله الرواة ، وما ينقلونه إليهم ، فى غير تحفظ ولا احتياط ولا تحقيق ، وينسون أن كثيراً جداً من الشعر القديم لم ينقل إلى الأجيال مكتوباً ، وإنما نقلته الذاكرة ، فأضاعت منه ، وخلطت فيه ، ولم تحسن الرواية ، فكثر الاضطراب فى هذا الشعر ، وخيل إلى المحدثين أن هذا الاضطراب طبيعى فى الشعر العربى القديم ، ولم يفطنوا أنه علة طارئة ، ومرض عارض ، لم يصب الشعر العربى وحده ، وإنما أصاب كلّ قديم نقل

إلى المحدثين أجيالا طوالا من طريق الرواية لا من طريق التدوين .

ولو أنك يا سيدى فطنت لهذين الأمرين ، وقاومت فتنة الشعر الأوربى الحديث ، لما ذهبت مذهب هؤلاء الذين يتعللون ويتكلفون ، ويقولون فى الشعر القديم ما لا يعلمون .

ولست أريد أن أبعد فى التدليل على أن الشعر العربى القديم كغيره من الشعر . قد استوفى حظه من هذه الوحدة المعنوية ، وجاءت القصيدة من قصائده ملتئمة الأجزاء ، قد نسقت أحسن تنسيق وأجمله ، وأشدّه ملاءمة للموسيقى ، التى تجمع بين جمال اللفظ والمعنى والوزن والقافية .

وإنما أقف معك عند قصيدة لبيد هذه التى كانت موضوع حديثنا فى الأسبوع الماضى ، وأتحداك وأسألك أن تبين لى من أين يأتيها الاضطراب والاختلاف ، وكيف لا تتم لها الوحدة إلا من الوزن والقافية ؟ إنكم تقولون يا سيدى إن القصيدة العربية مضطربة التكوين ، بحيث نستطيع أن نقدم منها ونؤخر ، ونضع أبياتها فيما نحب لها من المواضع ، دون أن يصيبها من ذلك فساد أو اعتلال . فأمامك قصيدة لبيد هذه ، فأرنى كيف تقدم فيها وتؤخر ؟ وكيف تضع فيها بيتاً مكان بيت دون أن تفسد معناها إفساداً ، وتشوّه جمالها تشويهاً ؟ انظر إليها ، فسترى أنها بناء متقن محكم ، لا تغير منه شيئاً إلا أفسدت البناء كله ونقضته نقضاً . ألست ترى إلى الشاعر وقد استقبل الشعر ، فبدأ بما يبدأ به الشعراء ، فأنشأ لنفسه ولسامعيه وقارئيه هذه البيئة الشعرية التى يخرج فيها الإنسان عن أطوار الحياة الواقعة المادية ، ويرتفع إلى جو آخر فيه عواطف الحنين والشوق والاستعداد للغناء أو لاستماع الغناء ، وهو إنما أنشأ هذه البيئة بذكر الديار وما يتصل بها ، وما ذهب منها وما بقى ، وما اختلف عليها من الأحداث ، وما عرض لها من الخطوب ، ومن تحمل عنها من السكان .

وأنت تستطيع أن تقرأ هذا القسم من أقسام القصيدة ، فسترى أنك لاتستطيع أن تقدم فيه ولا أن تؤخر ، وإنما أنت مضطر إلى أن تدعه كما وضعه صاحبه :

عَفَتِ الدِّيَارُ مَحلُّهَا فمُقَامُهَا ... بِمِنى تَأَبَّدَ غوْلُها فرِجَامُهَا

فمَدَافِعُ الرَّيانِ عُرِّىَ رسْمهَا ... خَلَقًا كما ضَمِنَ الْوُحِيَّ سِلامُهَا

دِمَنٌ تَجَرَّمَ بَعْدَ عَهْدِ أَنِيسِهَا   حِجَجٌ خَلَوْنَ حَلالُهَا وَحَرَامُهَا

لا تجزع لهذه الألفاظ والأسماء التى تراها فى هذه الأبيات ، فالله عزّ وجل لا يكلف نفساً إلا وسعها . وقد كان لبيد يعيش فى بادية نجد . وكان يعرف هذه الأسماء ،لأنه كان يعرف هذه الأماكن ، ولم يكن يعيش فى مدينة القاهرة ولم يكن قادراً على أن يسمى أماكن نجد بغير أسمائها ، ولكن حدثنى عن هذه الأبيات الثلاثة ، أتستطيع فيها تقديماً وتأخيراً ؟ وكيف يستقيم لك ذلك ؟ ألست مكرهاً بحكم المعنى ، وبحكم التركيب اللفظى نفسه على أن تحتفظ لهذه الأبيات بالترتيب الذى أراده لها الشاعر ، لأن المعنى يفرض ذلك عليك فرضاً ؟

ثم يمضى الشاعر فى وصف هذه الديار ، وما مر بها من الأحداث والخطوب ، على نحو من هذا الترتيب الدقيق الذى لا سبيل إلى تغييره ، حتى يقول :

فَوَقَفْتُ أَسْأَلُهَا وَكَيْفَ سُؤَالُنَا   صُمًّا خَوَالِدَ ما يَبِينُ كَلامُهَا

عَرِيَتْ وَكَانَ بِها الجَمِيعُ فأَبْكَرُوا   مِنْهَا وَغُودِرَ نُؤْيُهَا وَثُمَامُهَا

وبهذين البيتين قد بلغ الشاعر إربه ، وأبلغك إربك من ذكر الديار ووصفها ، وتهيئته الجو الشعرى لنفسه ولك . فإذا أتم هذا المعنى انتقل منه إلى أشد المعانى اتصالا به ، ولزوماً له . وهو ذكر الأحبة الذين ارتحلوا عن هذه الديار ، وما يثيرون فى نفسك من شوق إليهم ، وكلف بهم ، ووصف ارتحالهم ، ذاك الذى أخلى هذه الديار ، فعرضها لما تعرضت له ، وأحيا فى نفس الشاعر وفى نفسك ما أحيا من الحزن :

شَاقَتْكَ ظُعْنُ الْحَيِّ حِينَ تَحَمَّلُوا   فَتَكَنَّسُوا قُطُناً تَصِرُّ خِيامُها

حتى إذا أثار هذه الذكرى ، وصور هذا الرحيل ، فى إيجاز ممتع مقنع ؛ وأتم إنشاء الجو الشعرى الذى لم يكن بد من إنشائه ، أدركه حزمه وعزمه ، فأخرجاه من هذا البكاء الذى لا ينبغى أن يطول ، ومن هذا الحزن الذى لا ينبغى أن يتصل ، فإذا هو يصور يأسه من صاحبته فى هذين البيتين البديعين :

بَلْ مَا تَذَكَّرُ مِنْ نَوَارَ وَقَدْ نَأَتْ   وَتَقَطَّعَتْ أَسْبَابُهَا وَرِمَامُهَا

مُرِيَّةٌ حَلَّتْ بِفَيْدَ وَجَاوَرَتْ أَهْلَ الْحِجازِ فأَيْنَ مِنْكَ مَرَامُها

وهو يمضى فى تصوير هذا اليأس ، وتعظيم أمره ، وإقامة الأدلة القاطعة على أنه محتوم لا منصرف عنه ، فيذكر الأماكن التى يمكن أن تكون فيها صاحبته فى الحجاز ، عن يساره ، أو فى اليمن ، عن يمينه ، حتى إذا أتم هذا المعنى إتماماً ، انتهى إلى نتيجته المحتومة ، وهى اليأس المريح والتعزى عن الحزن بالارتحال :

فَاقْطَعْ لُبَانَةَ مَنْ تَعَرَّضَ وَصْلُهُ وَلَخَيْرُ وَاصِلِ خُلَّةٍ صَرَّامُها

وأَحْبُ الْمُجامِلَ بِالْجَزِيلِ وصَرْمُه بَاقٍ إذَا ضَلَعَتْ وزَاغَ قِوَامُها

يقول : اقطع حاجتك من كل من لم تستقم لك مودته ، وانصرف عنه انصرافاً ، وأظهر المودة لمن أظهرها لك مجاملا ، وإن اعوجّ عليك ضميره ، والتوت عليك محبته فى حقيقة الأمر ، وتعز عن هذا كله باقتحام الصحراء وتجشم أهوالها .

بِطَلِيحِ أَسْفَارٍ تَرَكْنَ بَقِيَّةً مِنْهَا فَأَحْنَقَ صُلْبُهَا وَسَنامُهَا

فأنت تراه قد وصل إلى ناقته وصولا يسيراً ، لا تكلف فيه ، ولا تصنع ، ولا جهد فيه ولا مشقة ، إنما انتهى إليها كما تنتهى أنت إلى سيارتك فى مدينتك هذه المتحضرة ، حين يضيق بك الأمر ، وتزدحم على نفسك الهموم ، وتكره المقام حيث أنت ، فتخف إلى النزهة ، تلتمس فيها فرجاً من كرب ، وسعادة من ضيق . أما أنت فتعمد إلى سيارتك فتركبها ، وتمضى بها إلى حيث تريد أو لا تريد ، لا تلتفت إليها ، ولا تقف عندها ، إلا من حيث هى أداة تعينك على ما تقصد إليه من الأغراض ، وأما الشاعر ، والشاعر القديم خاصة ، فإنه لا يرى شيئاً ، ولا يستخدم شيئاً إلا حققه وتصوره ، وأمعن فى تحقيقه وفى تصويره ، ثم صوره فأحسن تصويره ، ثم أعرب عن هذا التصوير فأحسن الإعراب ، كما فعل لبيد .

ولو أن شعراءنا الأقدمين هؤلاء أدركوا السيارة ، والترام ، والطيارة ، والقطار ، لما رأوها ولا استخدموها جاهلين لها ، معرضين عنها ، ولما شكوا ما نشكو الآن من أن أدبنا العربى الحديث ما زال ينتظر وصفاً صادقاً ممتعاً رائعاً للسيارة ، والترام ، والطيارة ، والقطار .

وما طريق الشاعر إلى التحقيق والوصف الدقيق إذا هو لم يعمد إلى التشبيه والاستعارة والمجاز ، وإلى هذا الفن الذى عمد إليه لبيد من القصص الساذج اليسير ؟ فهو يشبه ناقته كما رأيت فى الأسبوع الماضى بالسحاب الخفيف الذى يطيع أيسر الريح ، وهذا التشبيه يتأتى له فى نصف بيت ، ثم هو يشبهها بالأتان الوحشية فيطيل فى هذا التشبيه ، لأنه يطيل فى وصف الأتان ، وفى تفصيل قصتها ، وهو لم يطل فى وصف السحاب الخفيف ، لأنه لا يستطيع أن يساير السحاب الخفيف ، ولا أن يجرى معه فى الجو ، ولا أن يسابقه تحت تأثير الريح اليسيرة أو العاصفة ، ولكنه يستطيع أن يتبع الأتان الوحشية ، وأن يبلو من أخبارها ، ويعرف من أمرها ، ما يعرضه عايلك فى هذا الشعر الرائع الجميل .

أَوْ مُلْمِعٌ وسَقَتْ لِأَحْقَبَ لَاحَهُ ... طَرْدُ الْفحولِ وَضَرْبُهَا وَكِدَامُهَا

يَعْلو بِهَا حَدَبَ الْإِكام مسَحَّجٌ ... قَدْ رابَهُ عِصْيَانُها وَوِحَامُهَا

يشبه ناقته بهذه الأتان الوحشية التى ظهر عليها الحمل ، وقد خلصت لفحلها بعد منافسة شديدة ، وخصومة عنيفة ، فيها مطاردة ومضاربة وعض ، ولكنه على كل حال قد استخلصها بعد هذا كله ، فهو يجشمها الهول ، ويعلو بها الآكام والهضاب ، وقد ظهرت فيه آثار العض ، وامتلأت نفسه ريبة بما تظهر له من عصيان وتمنع ، وما تتجنى عليه بما يعرض لها من الشهوات .

وما يزال الشاعر ماضياً فى وصف هذه الأتان وفحلها ، وقد انتهيا إلى ربوة فأقاما عليها بعيدين عن غيرهما ، حتى انحسر عنهما الشتاء ، وجف الرطب ، واحتاجا إلى الماء فاندفعا إليه عازمين بعد تردد ، ومقدمين بعد إحجام ، فانظر إليه كيف يصور هذا العزم والإقدام :

حَتىَّ إذا سَلَخَا جُمادَى سِتَّةً ... جَزْءاً فطَالَ صِيامُهُ وَصِيَامُهَا

رَجَعَا بِـأَمْرِهِما إِلَى ذِى مِرَّةٍ ... حَصِدٍ ونُجْحُ صَرِيمَةٍ إِبْرَامُهَا

فانظر إلى هذا البيت الأخير ، كيف صور فيه العزيمة المصممة ، والإقدام الذى لا تردد فيه ، وكيف لاءم بين هذا المعنى الحازم الشديد ، وبين هذه

الألفاظ الحازمة الشديدة ، فاستعمل كلمة المرة ، وكلمة الحصد ، ثم انظر إلى آخر البيت : كيف أرسله مثلا تجرى به الألسنة مهما تختلف العصور والبيئات ، وهو قوله : « ونجح صريمة إبرامها » يريد أن نجح العزيمة رهين بالتصميم عليها .

ثم انظر إلى هذا البيت الذى يصور فيه استباقهما فى العدو ، وإثارتهما للغبار الرقيق ، كأنما يتنازعانه كما يتنازعان الثوب ، وإلى تشبيه هذا الغبار بالدخان . كل هذا فى بيت واحد لا ينقطع عما قبله ولا ينفصل مما بعده .

فَتَنَازَعَا سَبْطاً يَطِيرُ ظِلَالُهُ   كَدُخَانِ مُشْعَلَةٍ يُشَبُّ ضِرَامُهَا

ثم انظر إليه وقد شبه الغبار بدخان النار المشتعلة ، كيف أبى إلا أن يحقق تشبيهه ويتقنه ، لأن الشاعر العربى كما قلت لك لا يمر بالأشياء مراً يسيراً ، وإنما هو يحققها ويتقنها ، فشاعرنا يحقق مصدر هذا الدخان الذى شبه به الغبار ، فيزعم أن النار التى تثير هذا الدخان ، قد شبت باليابس الذى يعينها على الاشتعال ، وبالرطب الذى يثير لها الدخان ، وقد نفخت فيها أثناء ذلك ريح الشمال .

مشْمُولَةٍ غُلِثَتْ بِنَابِتِ عَرْفَجٍ   كَدُخَانِ نَارٍ ساطعٍ أَسْنامُهَا

وما زالت الأتان وفحلها فى هذا العدو الطويل حتى انتهيا إلى غايتهما ، فانظر إليهما وقد بلغا الماء ، أو انظر إلى هذا الماء الذى بلغاه ، إنه ينبوع جميل ، ينساب منه غدير غزير ، تحفه غابة من القصب ، تعبث بقصبها الريح ، فمنه القائم الذى يثبت لها ، ومنه الصريع الذى يعجز عن المقاومة :

فتَوَسطَا عرْضَ السَّرِيِّ وَصَدعَا   مَسْجُورَةً مُتجَاوِراً قُلَّامُهَا

ومُحَففاً وسْطَ الْيراعِ يُظِلهُ   مِنْهُ مُصَرَّعٌ غَابَةٍ وَقِيَامُهَا

ولم يكفه هذا التشبيه ، ولم تكفه هذه الصور ، فانتقل إلى تشبيه آخر وعرض صوراً أخرى ، فى قصة البقرة التى فقدت طفلها ، وصارعت كلاب الصيد ؛ وأنت تستطيع أن تقرأ هذا القسم من القصيدة كما قرأت الأقسام التى سبقته ، فلن تجد فيه — كما تجد فى غيره — سبيلا إلى تغيير أو تبديل . ولا إلى تقديم أو تأخير .

وقد أتم الشاعر تصوير البقرة ، كما أتم تصوير الأتان فى أطوارها المختلفة ، فحقق تشبيهه تحقيقاً ، وأتقنه إتقاناً ، وانتهى به إلى غايته . ثم عمد إلى ناقته فذكرها ، وذكر ما يستعين بها عليه من الأسفار :

فبتِلْكَ إذْ رَقَصَ اللوامِعُ بالضُّحى   وَاجْتَاب أَرْدِيَةَ السَّرَابِ إكامُهَا

أَقْضِي اللُّبَانَةَ لاَ أُفَرِّطُ رِيبَةً   أَوْ أَنْ يلُومَ بِحَاجَةٍ لوَّامُهَا

فانظر إليه يستقبل الصحراء بناقته تلك ، وقد ارتفع الضحى ، وأخذ الآل يرقص فيها . ثم انظر إليه يمعن فى الصحراء وقد انتصف النهار ، والآكام والتلال قائمة منبثة أمامه ، منها القريب ، ومنها البعيد ، وكلها قد اتخذ من السراب أردية وثياباً . على أن الشاعر كما ترى لم يطل فى ذكر الناقة حين انتهى إليها ، ولا فى وصف الطريق حين اندفع فيها ، وإنما عاد إلى صاحبته « النوار » ، تلك التى كان يتعزى عنها فى أول القصيدة ، فقال متغنياً بما فيه من خصال الحزم ، والكرامة ، والعزة ، والإباء :

أَوَ لَمْ تَكُنْ تَدْرِى نَوَار بِأَنَّنى   وَصالُ عهْدِ حَبَائِلٍ جَذَّامهَا

تَرَّاكُ أَمْكِنَةٍ إذا لَمْ أَرْضَها   أَوْ يَعْتَلِقْ بَعْضَ النفُوسِ حِمامُهَا

وانظر إلى هذا البيت الأخير ، كيف يصور إباء الشاعر للضيم أبرع تصوير وأروعه ، فهو لا يقيم فى مكان إذا لم يرض الإقامة فيه . ولكن انظر إلى الشطر الأخير « أو يعتلق بعض النفوس حمامها » فهو غامض ولكنه جلى ، وهو مبهم ولكنه واضح ، هو لا يقيم فى مكان يسام فيه الضيم ، فإن أقام ، فلا بد لبعض النفوس من أن تزهق ويدركها الموت . أى النفوس ؟ نفسه هو ، أم نفس أعدائه الذين يسومونه الضيم ؟ لا يريد الشاعر أن يخصص شيئاً لأنه لا يدرى كيف يكون السبيل إلى هذا التخصيص . كل ما يعرفه هو أنه إن أقام فى مكان يسام فيه الضيم فهو لن يقبل الضيم . ولكنه سيأباه ويقاومه ، فإما أن يموت فى هذا الإباء وهذه المقاومة ، وإما أن يُميت .

ثم يتحول الشاعر من الحديث عن صاحبته إلى الحديث إليها ، قد فكر فيها وأطال التفكير ، وقد تحدث عنها وأطال الحديث ، فارتسمت فى نفسه

ارتساماً على بعد العهد ونزوح الدار ، ومثلت أمامه وإذا هو يراها ، وإذا هو يتحدث إليها عاتباً مفاخراً ، وإذا هو يصور لها حياته فى السلم لاهياً فى الليل ، ولاهياً فى النهار ، متردداً على الحانات ، مغالياً فى شراء الخمر ، مقامراً لا ليفيد ويستكثر من الربح ، ولكن ليغنى السائل ، ويطعم الجائع ، ويعطى المحروم . ثم يصف لها حاله أثناء الحرب وقد انتهى النذير إلى قومه بالغارة أو أشفقوا من الغارة ، فإذا هو أسرعهم إلى فرسه ، وماله لا يسرع إليها وقد اتخذ لجامها وشاحاً له ، كأنما ينتظر الفزع فى كل لحظة من لحظات النهار . ولم يكد يعلو فرسه حتى اندفع به طليعة لقومه ، يتحسس لهم أنباء العدو ، فيشرف بفرسه على مرقب عال يقيم فيه ما أقام النهار ، ينتظر أن يرى من العدو ما يدل على مقدمه ، لينبئ قومه :

حتى إذَا أَلْقَتْ يَداً فى كَافِرٍ ... وَأَجَن عَوْرَاتِ الثُّغُورِ ظَلَامُهَا

هناك يهبط إلى السهل ، فقد أقبل الليل ، ولم يبق له أرب فى ارتقاب العدو من هذا المكان المرتفع ، ولكن انظر معى إلى قوله « حتى إذا ألقت يداً فى كافر » يريد حتى إذا غربت الشمس ، ألست ترى فى هذا التعبير الموجز روعة وجمالا ؟

ثم يصف الشاعر لصاحبته بعد ذلك موقفه فى محافل الخصومة والمفاخر فاسمع له حين يقول :

وَكَثِيرَةٍ غُرَبَاؤُهَا مَجْهُولَةٍ ... تُرْجَى نوَافِلهَا وَيُخْشَى ذَامهَا
غُلْبٍ تَشَذَّرُ بِالذُّحولِ كأَنَّهَا ... جِنُّ الْبدِى رَوَاسِياً أَقْدَامهَا
أَنكَرْتُ بَاطِلَهَا وبُؤْتُ بِحَقِّهَا ... عِندِى وَلَمْ يَفْخَرْ عَلَيَّ كِرامُهَا

والرجل العربى مهما يعظم قدره ، ويرتفع أمره ، فرد من قبيلة لا عزّ له إلا إذا عزت ، ولا كرامة له إلا إذا كرمت ، فإذا تغنى لبيد بحياته الخاصة ، ومكارمه ومفاخره الخاصة ، وعدّد من ذلك كله ما أراد ، موجزاً فى أكثر الأحيان ، مفصلا أحياناً ، مجيداً دائماً ، فرغ إلى عشيرته ففخر بهم ووصفهم بما هم أهل له من الكرم والنجدة والبأس والسلطان .

قال صاحبي : لم تسرف علىّ فيما رويت لى من هذه القصيدة ، وقد

أخذت أحس بشيء من الحب يعطفني على شاعرك هذا ، وما أحسب إلا أن وراء هذا الشعر الرائع شاعراً بارعاً . ولكني أخشى أن تكون قد أسرفت على قرائك ، فهذا الشعر لا يخلو من مشقة ، وفى ألفاظه ضخامة وفخامة لم يألفهما الناس .

قلت : فأنبئني عن الوحدة المعنوية أتجدها فى هذه القصيدة ؟ أم لا تزال ترى أن ليس لهذه القصيدة وحدة إلا فى وزنها وقافيتها ؟

قال : ما أحرصك على الفوز ، وعلى تسجيل الظفر لنفسك ، فإنى ياسيدى أقرك على أن لهذه القصيدة وحدتها المعنوية ، ونظامها الشعرى المتسق البديع ؛ ولو لم تكن وحدة هذه القصيدة إلا فى هذه النفس القوية العالية السمحة الوديعة التى أنشأتها ، لكانت خليقة أن تكون من أروع ما حفظ الشعر العربى . أفيرضيك أنى قد اعترفت لك بكل ما تحب ؟ ولكن لا تطمع ولا يبطرك هذا الانتصار . فما يصح لهذه القصيدة قد لا يصح لغيرها من قصائد هذا الشاعر ، وما يصح لهذا الشاعر ، قد لا يصح لغيره من الشعراء .

قلت : حسبي يا سيدى أنى قد استنقذت هذه القصيدة مما تصبّونه على الشعر العربى القديم من عيب وإنكار ، على أنى لست يائساً من أن أستنقذ قصائد أخرى من عيبكم وإنكاركم .

قال وهو يبتسم : فهل لك ألا تترك لبيداً حتى نلم بمقدار آخر من شعره كثير أو قليل ؟ قلت : هذا لك .

ساعة أخرى مع لبيد[1]

قلت لصاحبي : أما اليوم فلن أشق عليك ، ولن أجشمك الشعر الغريب فى لفظه أو معناه ، فقد أحسبنى حملتك من ذلك ما يبيح لك أن تطمع فى أن أريحك وأرفه عليك . ولولا أناك اقترحت علىّ فى الأسبوع الماضى أن يتصل حديثنا عن لبيد لما عدت إليه هذا الأسبوع ، ولنقلتك منه إلى الحديث عن شاعر آخر ، وإن كان إعجابى بلبيد لا ينقضى ، وإن كنت أوثر أن يطول الحديث عن لبيد ما استطاع أن يطول .

وأنا أريد أن أحدثك اليوم عن الشاعر أكثر مما أحدثك عن شعره ، فقد كان القدماء يتحدثون عنه ، فيحبون الحديث ويطيلونه ، لأن لبيداً لم يكن شاعراً مجيداً فحسب ، وإنما كان رجلا كريماً أيضاً . كان أصحاب الشعر يحبون الحديث عن شعره ، وكان أصحاب المروءة يحبون الحديث عن مروءته . وما رأيك فى رجل تحدث الولاة عنه على منابرهم ؟ وفى أى عصر كان هذا الحديث ؟ فى عصر الخلفاء الراشدين ، لا فى عصر من هذه العصور المتأخرة ، التى كان الولاة يستبيحون فيها حرم المنابر ، ويقولون فيها على المنابر ما لا يحسن أن يقال . فقد يحدثنا الرواة ، وهم يتفقون فى الحديث ، أن لبيداً كان قد نذر فى جاهليته ألا تهب الصبا إلا أطعم الناس ، وقد وفى بنذره فى الجاهلية ، وحرص على الوفاء به فى الإسلام . ويصدّق حديثَ الرواة فى هذا قولُ لبيد نفسه فى مطولته التى تحدثنا عنها فى الأسبوعين الماضيين :

وَجَزُورِ أَيْسَارٍ دَعَوْتُ لِحَتْفِهَا ... بِمَغَالِقٍ مُتشابِهٍ أَجْسَامُهَا

أَدْعُوا بِهِنَّ لِعَاقِرٍ أَوْ مُطْفِلٍ ... بذِلَتْ لِجِيرَانِ الْجَمِيعِ لِحَامُهَا

---

(١) نشرت بجريدة الجهاد فى ٢٠ فبراير سنة ١٩٣٥ .

فالضَّيْفُ وَالْجَارُالْجَنِيبُ كَأَنَّما هَبَطَا تَبَالَةَ مُخْصِباً أَهْضَامهَا

تأوِى إلى الأَطْنابِ كُلُّ رَزِيَّةٍ مِثلِ الْبلِيَّةِ قَالِصٌ أَهْدَامهَا

وَيُكَلِّلونَ إذَا الرِّيَاحُ تَنَاوَحَت خُلُجاً تمَدُّ شَوارِعاً أَيْتامُهَا

فهو يتحدث بهذه الأبيات — وأظنك قد فهمت حديثه — عن عادته حين كان يقامر على نحر الإبل ، لا يبتغى بذلك ربحاً ولا كسباً ، إنما يبتغى إطعام الجائعين الذين كانوا يأوون إليه ، فيهم الضيف ، وفيهم الجار ، وفيهم العاقر لا ولد لها ، وفيهم المطفل قد كثر ولدها ، وفيهم هذه البائسة ، أو هؤلاء البائسات ، يلزمن أطناب الخيمة كأنهن النوق التى تشد إلى قبور الموتى ، لاتبرحه حتى تموت عليه، وكل هؤلاء يرزقون عنده رغداً ، تقدم لهم الجفان قد ملئت بالثريد ، وكللت باللحم ، فهم ينعمون كأنهم نزلوا « تبالة » وقد أخصبت وكثر فيها الرزق .

فيقول الرواة : إن المغيرة بن شعبة ، كان إذا هبت الصبا ، خطب الناس فقال لهم: أعينوا أبا عقيل على مروءته . ويقول بعض الرواة : هبت الصبا يوماً ، والوليد بن عقبة على الكوفة ، فصعد المنبر فخطب الناس ، ثم قال: إن أخاكم لبيد بن ربيعة قد نذر فى الجاهلية ألا تهب صباً إلا أطعم ، وهذا يوم من أيامه ، وقد هبت صباً فأعينوه ، وأنا أول من فعل . ثم نزل عن المنبر ، فأرسل إليه مائة بكرة ، وكتب إليه بأبيات قالها :

أَرَى الْجَزَّارَ يَشْحَذُ شَفْرَتَيْهِ إِذَا هَبَّتْ رِيَاحُ أَبِي عقِيلِ

أَشَم الأَنْفِ أَصْيَدَ عَامِرِيًّا طَوِيلَ الْبَاعِ كَالسَّيْفِ الصَّقِيلِ

وَفَى ابْنُ الْجَعْفَرِىِّ بِحِلْفَتَيْهِ عَلَى الْعِلاتِ وَالْمَالِ الْقَلِيلِ

بِنَحْرِ الْكُومِ إِذْ سَحَبَتْ إِلَيْهِ ذُيُولُ صَباً تَجاذَبُ بِالأَصِيلِ

فقال لابنته : أجيبيه ، فلعمرى لقد عشت برهة وما أعيا بجواب شاعر فقالت :

إذا هَبَّتْ رِيَاح أَبِى عَقِيلِ دعَوْنَا عِنْدَ هَبتِهَا الْوَلِيدَا

أَشَمَّ الأَنْف أَرْوَعَ عَبْشمِيًّا أَعَانَ عَلَى مُرُوءتِهِ لَبِيدَا

بِأَمْثَالِ الْهِضَابِ كَأَنَّ رَكْباً عَلَيْهَا مِنْ بَنِى حَامٍ قُعُودَا
أَبَا وَهْبٍ جَزَاكَ اللهُ خَيْراً نَحَرْنَاهَا فَأَطْعَمْنَا الثَّرِيدَا
فَعُدْ إِنَّ الْكَرِيمَ لَهُ مَعَادٌ وَظَنِّى بِابْنِ أَرْوَى أَن يَعُودَا

فقال لها لبيد : أحسنت ! لولا أنك استطعمته . فقالت : إن الملوك لا يُستحيا من مسألتهم . فقال : وأنت يا بنية فى هذا أشعر[1].

وأكبر الظن أن كلا الأميرين قد تقدم إلى الناس فى أن يعينوا لبيداً على مروءته ، ولكن المغيرة بن شعبة لم يعطه ، أو لم يعطه إلا قليلا لأنه كان ثقفياً حريصاً على المال ، ولأنه كان والياً لعمر . فأما الوليد بن عقبة ، فكان فتى من فتيان قريش ، سخياً كريماً ، يغلو فى السخاء والكرم ، ويحتفظ بكثير من السنن الجاهلية ؛ وكان غنياً ضخم الثروة ، فساق إلى لبيد ما ساق من الإبل . وكتب إليه ما كتب من الشعر .

قال صاحبي : فحقق من ذلك ما شئت إذا خلوت إلى طلابك فى الجامعة ، ولكن ، ألست تعجب معى بهذه الأبيات التى أرسلها إلى لبيد هذا الفتى القرشى ؟ أليس يعجبك منه أنه أضاف الرياح إلى أبى عقيل لما تعود أبو عقيل من إطعام الناس إذا هبت الرياح ؟ ثم ، أليس يعجبك أنه يرى الجزار وهو يشحذ شفرتيه لنحر الإبل إذا هبت هذه الرياح ؟ لأنه يتوقع أن يأمره لبيد بنحرها ؟ ثم أليس يعجبك هذان البيتان الأخيران اللذان يصور فيهما الأمير القرشى وفاء لبيد بنذره ، ونحره للإبل حين يقبل الأصيل ، وتتجاذب الرياح ذيولها ؟ وهذه الأبيات التى ردت بها ابنة لبيد على الأمير ، أليس يعجبك لينها ورقتها ، وهذا الصفاء الذى يترقرق فيها ، ويدل دلالة واضحة على أنها صدرت عن نفس صافية تشكر النعمة ، وتقدر الجميل ، وتحب الخير ، وتستعين عليه ؟

قلت : كل شىء يعجبنى ، ولكن الذى يعجبنى خاصة هو أنك قد أخذت تحب الشعر القديم ، وتدعو إليه ، وترغب فيه ، وتدل على ما فيه من جمال . فقال : فعد بنا إلى حديثك ، فما رأيت أعجل منك إلى تسجيل الفوز . قلت : لقد كنا نتحدث عن مروءة لبيد ، وعن حديث القدماء بها

---

[1] الأغانى جزء ١٤ صفحة ٩٧ و ٩٨ .

وإكبارهم لها ، فقد شهد له بها هذان الأميران من أمراء المسلمين ، وشهد له بها ابن سلاّم . فقال : إنه كان رجل صدق . والأخبار القليلة التي تروى عن حياته في الكوفة بعد أن أسلم ، تصور كلها رجلا كريم النفس ، صافي الطبع ، حلو الشمائل ، معتدل المزاج ، قد انصرف عن أكثر ما تعود من حياة الجاهليين ، لم يستبق من ذلك إلا مالا يكرهه الإسلام ؛ فهو كريم جواد ، لأن الإسلام يحب الكرم والجود ، ويدعو إليهما ، ويقر عليهما الكرام الأجواد من العرب . وهو معرض عن الفخر ، لا يتورط فيه إلا كارهاً ، ولا يكاد يقبل عليه حتى ينصرف عنه. وهو يستغفر الله منه ؛ ومع ذلك فقد كان لبيد فخوراً في الجاهلية ، ملحًّا في الفخر، يكاد يتورط في الغلو والإسراف ؛ كان يفخر بنفسه محتملا للخطوب ، متجشماً للأهوال ، وكان يفخر بنفسه مقبلا على اللهو ، شارباً للخمر إذا أصبح ، شارباً لها إذا أمسى ، منفقاً في شربها أيام أمنه ولياليه ، يصور ذلك في مطولته التي تحدثت عنها إليك من قبل . وكان يفخر بنفسه فارساً مغواراً ، وكان يفخر بنفسه كريماً جواداً ، ثم كان يفخر بعد هذا كله بعشيرته . ترى هذا كله في مطولته ، وتراه فيما بقي من شعره من هذه المقطوعات المنثورة في كتب الأدب ، وفي ديوانه . بل كاد الفخر أن يكون صناعة لبيد طوال حياته الجاهلية ، فهو قد جعل نفسه محاميًّا عن أحساب قومه، يناضل عنها كلما احتاج إلى النضال . والرواة يحدثوننا عن مقامه في النضال عن قومه في مواطن مختلفة ، فهم يزعمون لنا أنه بدأ حياته الشعرية بهذا النضال ، كان فتى غرًّا ، فصحب قومه في سفارة لهم عند النعمان ابن المنذر ، وكان قومه يرون من النعمان إقبالا عليهم ، وتلطفاً لهم ، ثم رابهم منه ريب ، وأخذوا يحسون إعراضه وصدوده ، والتمسوا مصدر هذا الإعراض والصدود ، فعرفوا أن الربيع بن زياد ، وهو شريف من أشراف عبس ، وخال من أخوال لبيد ، يدس لهم عند النعمان ، وكان من ندمائه ؛ فساءهم ذلك ، وأرقوا له ذات ليلة ، وأخذوا يتحدثون فيه ، والفتى لبيد يسمع لهم ولا يفهم عنهم ، فلما طال عليه ذلك ، سألهم أن يبينوا له جلية الأمر ، فأعرضوا عنه ، واعتلوا عليه ، فألح عليهم ؛ وما زال يلح حتى قصوا عليه قصتهم . فقال لهم : أنا أكفيكم الربيع بن زياد ، فإذا أصبحتم فاصطحبوني إلى مجلس الملك ، فأبوا

عليه لحداثته ، ثم امتحنوه فى قصة طويلة تجدها فى الأغانى ، فوافقوا منه فتى فصيحاً صارم اللسان ، فاصطحبوه حين غدوا على الملك ، فلما أذن لهم دخلوا ، فإذا الملك على طعامه ، ومعه صفيّه الربيع بن زياد ، وقد أخذ الربيع ابن زياد هذا ينتقص وفد بنى جعفر ، ويصرف الملك عنهم . فوثب لبيد فقال هذا الرجز الذى أستطيع أن أرويه لك ، ولكنى سأحذف آخره حين أذيع هذا الحديث فى الناس ، لأنه ليس مما يروى :

أَكُلَّ يَوْمٍ هَامَتِي مُقَزَّعَهْ ... يا رُبَّ هَيْجَا هِيَ خَيْرٌ مِن دَعَهْ
نَحْنُ بَنُو أُمِّ الْبَنِينَ الْأَرْبَعَهْ ... سُيُوفُ حَزٍّ وَجِفَانٌ مُتْرَعَهْ
نَحْنُ خِيارُ عَامِرِ بْنِ صَعْصَعَهْ ... والضَّارِبُونَ الْهَامَ تَحْتَ الْخَيْضَعَهْ
والْمُطْعِمُونَ الْجَفْنَةَ الْمُدَعْدَعَهْ ... مَهْلاً أَبَيْتَ اللَّعْنَ لَا تَأْكُلْ مَعَهْ

ويقول الرواة : إن النعمان لم يكد يسمع آخر هذا الرجز ، حتى تأذى ، وكف يده عن الطعام ، وقضى لبنى جعفر حوائجهم ، وصرفهم عنه ، فارتحلوا . ويقولون : إن الربيع بن زياد حاول أن يبرئ نفسه مما وصمه به الفتى فلم يفلح ، واضطر إلى الرحيل مغاضباً للملك ، مغاضباً للبيد ، وقد ثار الشر بين لبيد وبين خاله الربيع . والرواة يروون فى ذلك شعراً .

ولست أدرى أكانت القصة كما يصورها الرواة أم لم تكن . أم كانت شيئاً مقارباً لها . ولكن هذه القصة على كل حال تدل على أن لبيداً كان عند العرب صاحب فخر ودفاع عن أحساب قومه ، نشأ على ذلك ، وجدّ فيه منذ الصبا . قال صاحبي : إنك لتشك فى كل شيء ، وما يعنينى شكك وارتيابك ، إن الرجز القصير يعجبنى ، لأنه يصوّر اندفاع الشباب ، والشباب البدوى خاصة ، ولأنه يصور هذا الفخر الساذج ، الذى يواتى صاحبه دون أن يبحث عنه ، أو يتكلفه ، أو يجدّ فى طلبه . قلت : فإنك تخطئ فى هذا ، فالرواة يزعمون أن الفتى أرق لهذا الموقف ليله كله ، وإنما دعاك إلى هذا الخطأ أن هذا الشعر متقن قد صنع وصنع حتى خفيت فيه الصنعة ، وظهر كأنه ابن البديهة وعفو الخاطر ، قال : ولا هذا أيضاً يعنينى ، وإنما

يعنيني هذا الإقذاع فى الهجاء ، الذى يتصل بالفخر اتصالا ، ويدعونى إلى أن ألاحظ هذه الحلف بين هذين الفنّين من فنون الشعر العربى القديم ، وهما الفخر والهجاء . قلت وماذا يروعك من هذا ؟ وإنما الشاعر يمدح نفسه وقومه حين يفخر ، ويذم عدوه وعدو قومه حين يهجو ، فطبيعة الأشياء تقتضى أن يكون الشاعر المنافر بارعاً فى الهجاء ، حين يقوم من قومه مقام المحامى ، كما فعل لبيد . وما أظن إلا أنك تعرف نشاط لبيد حين كانت المفاخرة والمنافرة بين عظيمين من عظماء قومه ، هما علقمة بن عُلاثة ، وعامر بن الطفيل ، فقد اختلف هذان السيدان ، وعظم الشرّ بينهما ، وزعم كل منهما أنه خير من صاحبه . ويقول الرواة : إنهما تحاكما إلى أبى سفيان بن حرب الأموى ، فأبى أن يحكم بينهما . ثم تحاكما إلى ابن هشام المخزومى ، فأبى أن يحكم بينهما . فلما استيأسا من حكم قريش تحاكما إلى عبس ، وانتهى أمرهما إلى هرم بن قطبة ، وكانت قصتهما فى هذا عظيمة الخطر ، فاشية شائعة ، تحدثت بها العرب فى الجاهلية ، وتحدثت بها فى الإسلام دهراً طويلا ، وسأل عنها عمر ابن الخطاب هرماً ، فأبى أن ينبئه بسرها ، فحمد عمر منه أمانته ووفاءه وكتمانه . وكانت المخاطرة بين هذين السيدين على مائتين من الإبل : مائة للحكم ، ومائة لمن يحكم القضاء له . ولكن الحكم لم يفضل أحدهما على صاحبه ، ولم يأخذ منهما أجر التحكيم ، وإنما نحر عنهما الإبل ، وأطعم عنهما الناس . وقد نشط لبيد مع عامر بن الطفيل فى هذه القصة نشاطاً عظيماً تستطيع أن ترى صورة منه فى الأغانى ، ونشط الحطيئة مع علقمة ، ولكن الفرق بين نشاطهما عظيم : فقد كان لبيد صادقاً يدافع عن عشيرته الأقربين ، وكان الحطيئة مأجوراً يبيع شعره لسيده علقمة ، الذى كان براً به فى الجاهلية ، وأراد أن يكون براً به فى الإسلام ، فحال الموت بينه وبين ما أراد . وقال الحطيئة فى ذلك أبياته المشهورة .

وَمَا كَانَ بَيْنِي لَوْ لقيتُكَ سَالِماً ... وَبَيْنَ الْغِنَى إلا لَيَالٍ قَلَائِلُ

والرواة متفقون على أن لبيداً كان شاعر قومه ، يدافع عنهم إن خاصموا ، ويمدح كرامهم ، ويرثى موتاهم ، ويهجو عدوهم ؛ فهو كان براً بقومه فى

الجاهلية ، وهو ظل برًّا بقومه فى الإسلام ؛ كان إذا سمع من يعيبهم رده ردًّا حازماً ، رفيقاً مع ذلك ، ثم استغفر الله من الفخر . فإذا عرفت أن الفخر كان صناعة لبيد ، وأنه أنفق فيه حياته الطويلة فى الجاهلية ، وأنه مع ذلك قد كف عنه بعد أن أسلم ، فقد تستطيع أن تتصور الأثر العميق الذى تركه الإسلام فى نفس لبيد . والرواة يقولون إن لبيداً قد أعرض عن الشعر إعراضاً بعد الإسلام ، ويغلو بعضهم فيزعم أنه لم يقل فى الإسلام إلا بيتاً واحداً من الشعر وهو :

الْحَمْدُ لِلهِ إِذْ لَمْ يَأْتِنِى أَجَلِى حتّى اكْتَسَيْتُ مِن الْإِسْلام سِرْبَالاَ

وهم يروون أيضاً أن عمر أراد أن يمتحن الشعراء ، ويسأل عما أحدثوه من الشعر فى الإسلام ، وكتب فى ذلك إلى المغيرة بن شعبة ، وكان واليه على الكوفة ، فسأله الأغلب العجلى فقال :

أَرَجَزاً تُرِيدُ أَم قَصِيدا لَقَدْ سَأَلْتَ هَيِّناً مَوْجُودَا

وسأل لبيداً فقال : إن الله قد أغناه عن الشعر بسورة البقرة ، وآل عمران . ويقال : إن عمر نقص من عطاء الأغلب العجلى خمسمائة ، وزادها فى عطاء لبيد . ويقال أيضًا إن الأغلب العجلى راجع عمر ، وقال : تعاقبنى لأنى أطعت أمرك ! فرد عليه عمر ما نقص منه ، وحفظ للبيد ما زاد فى عطائه .

ولست أخفى عليك أن اطمئنانى إلى هذه القصة ليس تامًّا ، فسترى أن الرواة يضيفون إلى لبيد شعراً ، إن صح ، فقد كان لبيد إذن يقول الشعر فى الإسلام ؛ وإن صحت هذه القصة ، فقد كان الرواة إذن يكذبون على لبيد ؛ وإذن فما يمنعهم أن يكذبوا على غيره من الجاهليين والإسلاميين . وأكبر ظنى أن لبيداً ، أعرض عن الشعر فى الإسلام ، فلم يتخذه صناعة ، ولم يكثر من إنشائه وإنشاده ، وانصرف عنه إلى القرآن ، ولكنه قال فى الإسلام غير بيت . ولعله حين امتحنه المغيرة بن شعبة ، إن صحت القصة ، عرف سر هذا الامتحان ، فعرف كيف يجيب . ويقال إن معاوية لما قدم الكوفة ولّى لبيداً أراد أن يحط عطاءه إلى حيث كان قبل أن يزيده عمر . فقال له لبيد : إنما أنا هامة اليوم أو غد ، فدع لى هذه العلاوة ، فمن يدرى ! لعلى لا أقبضها . فرق له معاوية

وترك له عطاءه ، ومات لبيد قبل أن يقبض هذا العطاء .

والرواة مختلفون فى وفاة لبيد : فقوم يظنون أنه مات فى آخر أيام معاوية . وقوم آخرون يقولون : إنه مات فى أول خلافة معاوية . وهم على كل حال متفقون على أن لبيداً كان من المعمرين ؛ يقولون : إنه عاش قرناً وما يقرب من نصف قرن . ويقولون : إنه عاش خمسة وأربعين ومئة عام ، عاش منها فى الجاهلية تسعين عاماً ، ومات سنة خمس وخمسين للهجرة . ولكن ابن سعد ينبئنا فى الطبقات أنه مات فى أول أمر معاوية ، حين قدم الكوفة ليصالح الحسن بن على ، وقبل أن يدخل الكوفة . وإذن فابن سعد ينقص من حياة لبيد ، ، التى يثبتها الرواة ، نحو أربعة عشر عاماً . ومهما يكن من شىء ، فقد عمِّر لبيد وثقلت عليه الحياة ، ونُقل لنا عنه شعر فى ذلك ، منه ما قيل فى الجاهلية ، ومنه ما قيل فى الإسلام ؛ لا سبيل إلى الشك فى ذلك ، إلا أن يكون هذا الشعر مكذوباً عليه ، قد صنع لإثبات أنه كان من المعمرين . تحدث أبو الفرج عن رواته أن لبيداً لما بلغ السابعة والسبعين قال :

قَامَتْ تَشَكَّى إِلَىَّ النَّفْسُ مجْهِشَةً ... وَقَدْ حَمَلْتُكِ سبْعاً بَعْد سَبْعِينَا

فَإِنْ تُزَادِى ثَلاثاً تَبْلُغِى أَمَلاً ... وفى الثَّلاثِ وفَاءٌ لِلثَّمانِينَا

فلما بلغ التسعين قال :

كَأَنِّى وَقَدْ جَاوَزْتُ تِسْعِينَ حِجَّةً ... خَلَعْتُ بِهَا عَنْ مَنْكِبَىَّ رِدَائِيَا

فلما بلغ مائة وعشراً قال :

أَلَيْسَ فِى مِائَةٍ قَدْ عَاشَها رَجُلٌ ... وَفِى تَكامُلِ عَشْرٍ بَعْدَهَا عُمُرُ

فلما جاوزها قال :

وَلَقَدْ سَئِمْتُ مِنَ الْحَيَاةِ وَطُولِهَا ... وَسُؤَالِ هٰذَا النَّاسِ : كَيْفَ لَبِيدُ ؟

غَلَبَ الرجالَ وَكَانَ غَيْرَ مُغَلَّبِ ... دَهْرٌ طَوِيلٌ دائِمٌ مَمْدُودُ

يوْماً أَرَى يَأْتِى عَلَىَّ وَلَيْلَةً ... وَكِلاهُمَا بَعْدَ المَضَاءِ يَعُودُ

وَأَرَاهُ يَأْتِى مِثْلَ يَوْم لَقِيتُهُ ... لَمْ يَنْتَقِصْ وَضَعُفْتُ وَهْوَ يَزِيدُ

فالشعر الذى قاله حين بلغ عشراً ومئة . والشعر الذى قاله بعد ذلك ، إسلامى من غير شك . إن صحت نسبته إليه ؛ وإذن فقد كان يقول الشعر فى الإسلام ، وإذن فليس صحيحاً أنه لم يقل فى الإسلام إلا بيتاً واحداً هو الذى رويته لك آنفاً .

قال صاحبي : ما أشد إسرافك فيما لا حاجة إليه ، ألم أطلب إليك أن تدع هذا التحقيق إلى حيث تفرغ له مع طلابك فى الجامعة ؟ أليس الخير فى أن تقف بنا عند هذه الأبيات :

وَلَقَدْ سَئِمْتُ مِنَ الْحَيَاةِ وَطُولِهَا ... وَسُؤَالِ هٰذَا النَّاسِ : كَيْفَ لَبِيدُ ؟

فتعجب بهذا اللفظ السهل الجزل ، وبهذه المعانى الممتعة الخصبة ، التى تصور عقلا مفكراً ، ونفساً قد استقبلت الزمان ، ناظرة فيه ، غير معرضة عنه ، مقارنة مقبله بمدبره ، حتى أخذت من ذلك بحظها ، ثم احتملت الحياة فى شجاعة وصبر ، ثم طالت عليها الحياة ، وثقل عليها رفق الناس بها ، وعطف الناس عليها ، وسؤال الناس عنها مخلصين ، فسئمت ذلك وضاقت به ، وأعلنت فى صراحة وإخلاص هذا السأم :

وَلَقَدْ سَئِمْتُ مِنَ الْحَيَاةِ وَطولِهَا ... وَسُؤَالِ هٰذَا النَّاس : كَيْفَ لَبِيدُ ؟

قلت غير حافل به : والرواة يتحدثون إلينا بأن لبيداً قال شعراً قبل أن يموت ، يعلّم فيه ابنتيه كيف تؤديان إليه حقه من الحزن عليه بعد أن يموت ، وهو :

تَمَنَّى ابْنَتَاىَ أَنْ يَعِيشَ أَبُوهُمَا ... وَهَلْ أَنَا إِلَّا مِنْ رَبِيعَةَ أَوْمُضَرْ ؟

فَإِنْ حانَ يَوْماً أَنْ يَمُوتَ أَبُوكُما ... فَلَا تَخْمِشَا وَجْهاً وَلا تحْلِقا شَعَرْ

وَقُولاَ هُوَ الْمرْءُ الذى لاَ حَلِيفَهُ ... أَضَاعَ ، وَلَا خَانَ الصَّدِيقَ وَلاَ غَدَرْ

إلى الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلامِ عَلَيْكما ... ومَنْ يَبْكِ حوْلاً كامِلاً فَقَدِ اعْتَذَرْ

وأصحاب النحو يستشهدون بالبيت الثانى من هذا الشعر على أن التنوين قد يحذف من الاسم المنصوب الذى لم يمنع من الصرف . قال صاحبي : فإنك تأبى إلا أن تكون معلماً ، وما أنا وأصحاب النحو وحذف التنوين أو إثباته ! إنما يعجبنى هذا الأدب الذى أدّب الشاعر به ابنتيه ، ورسم لهما فيه ما يجب

عليهما من الحزن عليه بعد موته ، فهو لا يريد منهما إلا أن تذكراه بالخير : بأنه لم يُضيع حليفه ، ولم يخن صديقه ، ولم يتورط فى الغدر ، ثم هو معتدل لا يشتط على ابنتيه ، ولا يكلفهما أكثر مما يطيق الناس ، يريد أن تذكراه وأن تبكياه حولا ، فإذا تم الحول فسلام عليهما ، ولا بأس من أن يُلقَى بينه وبينهما ستار النسيان فى غير لوم ولا جناح ، أليستا قد بكتا حولا ؟ ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر .

أعترف أن شاعرك هذا يعجبنى ، ويقع من نفسى أحسن موقع ، ويثير فى قلبي عواطف الحب والحزن والرفق معاً ؛ ولكن احذر أن تفسد شعره بالتحقيق والتمحيص ، وأن تزعم لى أو لغيرى أن هذا الشعر منحول تكلفه الرواة . قلت باسماً : ومع ذلك فإن فى نفسى من هذا شيئاً ، ولكن إذا كان هذا النحو من الشعر يعجبك ، ويحبب الشاعر إليك ، فاسمع هذه الأبيات الأخرى ، التى يتحدث الرواة بأنه قالها لابن أخيه حين أحس الموت ، فقد تحدث أبو الفرج أنه لما حضرته الوفاة قال لابن أخيه — ولم يكن له ولد ذكر — يا بنى : إن أباك لم يمت ولكنه فنى . فإذا قُبض أبوك فأقبله القبلة ، وسجه بثوبه ، ولا تصرخنّ عليه صارخة ، وانظر جفنتىّ اللتين كنت أصنعهما فاصنعهما، ثم احملهما إلى المسجد ، فإذا سلَّم الإمام فقدمهما إليهم ، فإذا طعموا فقل لهم فليحضروا جنازة أخيهم ، وأنشد قوله :

أَبُنَىَّ هَلْ أَبْصَرتَ أَعْـ ـمامى بَنِى أُمٍّ الْبَنِينَا
وأَبِى الَّذِى كَانَ الْأَرَا مِلُ فى الشتَاء لَهُ قَطِينَا
وَأَبا شُرَيْكٍ وَالمَنا زِلَ فى المَضِيقِ إِذَا لَقِينَا
ما إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْـ ـتُ بِمِثْلِهِ فى الْعَالَمِينَا
فَبَقِيتُ بَعْدَهُمُ وَكُنْـ ـتُ بِطُولِ صُحْبَتِهِمْ ضَنِينَا
دَعْنِى وَما مَلَكَتْ يَمِيـ ـنِى إِنْ شَدَدْتُ بها الشؤُونَا
وَافعَلْ بِمالكَ ما بدا لَكَ مُسْتَعِيناً أَوْ مُعِينَا

وَإِذَا دَفَنْتَ أَبَاكَ فاجْـ ـعَلْ فَوْقَهُ خَشَباً وَطِينَا
وَسَقائِفاً صُمًّا رَوَا سِبُها يُسَدِّدْنَ الْغُضُونَا
لِيَقِينَ حُرَّ الْوَجْهِ سَفْـــــسافَ التُّراب ولَنْ يَقِينَا

قال صاحبي : فلست أدرى أيهما أحب إلىّ ، وأحسن موقعاً من نفسى ، أهذه القصة المنثورة التى سبقت هذا الشعر ، والتى هى شعر كلها ، شعر فيه ثقة وحزن واطمئنان إلى الموت ، وبر بالناس إلى اللحظة الأخيرة ، أم هذا الشعر الرقيق الخفيف ، ذو اللفظ اللين ، والمعنى المتين ؟ قلت : ومع ذلك فإنى أخشى أن تكون هذه القصة مصنوعة ؟ فأبو الفرج وأصحابه يزعمون فى هذه القصة أن لبيداً لم يكن له بنون . ولكن ابن سعد ينبئنا فى الطبقات ، أنه هاجر إلى الكوفة مع بنيه ، فلما مات دفن فى صحراء بنى جعفر ، وعاد بنوه إلى البادية فأقاموا فيها . وأكبر الظن أن لبيداً مات كما يموت غيره من الناس بين أبنائه وبناته وسائر أهله ، وأن ما يروى من هذه القصص والأخبار إنما صنع فى الأمصار صنعاً . قال صاحبي : إنكم معشر المعلمين لتلحون على الشعر الجميل بالنقد والتحليل ، حتى تذهبوا جماله ونضرته ، وتردوه كلاماً كغيره من الكلام ؛ فحقق حياة لبيد إن شئت ، واحذف منها وأضف إليها ، ولكن فى غير هذا الحديث ، فإنى لم ألقك لآخذ عنك هذا النحو من العلم ، وإنما لقيتك لتحبب إلىّ شعر لبيد ، وقد وفقت من ذلك إلى ما أردت ، فحببت إلىّ الشعر والشاعر جميعاً . قلت : فإنك حين تحب الشعر والشاعر ، لا تعدو أن تكون كالقدماء من العرب ، فقد كانوا يحبونهما حبًّا شديداً . فأما حبهم للشاعر ، فقد رأيت منه طرفاً . وأما حبهم للشعر ، فأيهم لم يعجب بالمطولة ، وأيهم لم يعجب بغيرها من شعره الذى كان كثيراً شائعاً ، فلم يبق لنا منه إلا الشىء القليل .

وقد زعموا أن الفرزدق سمع قوماً ينشدون مطوّلته فلما انتهوا إلى قوله :

وَجَلا السُّيولُ عَنِ الطُّلُولِ كَأَنَّها زُبُرٌ تُجِدُّ مُتونَها أَقْلامُها

سجد . فأنكر الناس منه ذلك ، وقالوا : ما هذا يا أبا فراس ؟ قال أنتم تعرفون

سجدة القرآن ، وأنا أعرف سجدة الشعر . وكانت فى الفرزدق محافظة بدوية لا تخلو من دعابة . قال صاحبي : لو لم يكن فى هذا البيت إلا هذه الموسيقى التى تأتى من الملاءمة بين كلمة السيول والطلول لكان الفرزدق خليقاً أن يسجد له ! فكيف بهذا التشبيه الجميل !

قلت : ومع ذلك فإن للبيد فناً آخر من فنون الشعر جوّده كل التجويد ، وبرع فيه كل البراعة ، وأعجب القدماء به كل الإعجاب ، وهو فن الرثاء ، ولست أدرى كيف يمكن أن تقدّم عليه الخنساء فى رثائها ! وهو عندى أبرع منها فى تصوير الحزن ، وصبّ اليأس فى القلوب صبًّا فى غير ضعف ولا وهن . ولعلك تذكر أن الرواة كانوا يتحدثون بأن لبيداً كان شاعر قبيلته ، يمدح أحياءها ، ويرثى أمواتها ، فدعنا من هذا الرثاء الذى كانت تفرضه عليه حياته فى قبيلته . وقف بنا عند هذا الرثاء الخاص ، الذى اختص به أخاه لأمه « أربد بن قيس » وأنت تعرف قصة أربد من غير شك ، فهو قد وفد على النبي صلى الله عليه وسلم مع عامر بن الطفيل ، وكانا يريدان الغدر به ، فعصمه الله منهما ، ثم ارتحلا عنه منذرين ، فدعا النبي عليهما . فأما عامر فأدركه الطاعون قبل أن يبعد عن المدينة ، فمات عند امرأة من بنى سلول . وأما أربد فانتهى إلى قومه ، ولكن حياته فيهم لم تطل ، وإنما أصابته صاعقة فقتلته . ووقع موته من لبيد أشد المواقع ، وأعمقها فى نفسه أثراً ، فرثاه بشعر كثير جيد كله ، يصور برّ لبيد ووفاءه وحزنه أجمل تصوير ، وكله يصور فى الوقت نفسه حكمة لبيد ، وفلسفته البدوية — إن صح هذا التعبير — وتفكيره فى الحياة وانصرافه عنها ، وزهده فيها بعد طول التأمل والتفكير . ومن يدرى لعل ما أصاب عامر بن الطفيل ، وأربد بن قيس ، بعد انصرافهما عن النبي مغاضبين ، قد كان مما حمل لبيداً على أن يفد على النبي فيسلم ، ويحفظ شيئاً من القرآن ، ثم يعود إلى بلاده ناسكاً أو كالناسك ، ثم يهاجر إلى الكوفة أيام عمر ، فيقيم فيها منقطعاً إلى الخير والبر والقرآن . ولست أروى لك من رثاء لبيد لأخيه إلا هذه الأبيات ، وأنت تستطيع أن تقرأ غيرها من الرثاء فى الأغانى ، ولكن اقرأ معى هذا الشعر ، وحدثنى عما فيه من حكمة وفطنة ، ومن جزالة ورصانة ،

ومن جمال فى اللفظ والمعنى والأسلوب جميعاً :

بَلِينا وَما تَبْلَى النُّجُومُ الطوالعُ ... وَتبْقَى الْجِبَالُ بَعْدَنا والمصَانِعُ
وَقدْ كُنْتُ فى أكْناف دَارِ مَضَنَّةٍ ... فَفارَقَنى جَارٌ بِأَرْبَدَ نافِعُ
فلا جَزَعٌ إنْ فَرَّق الدَّهْرُ بَيْننا ... فكلُّ امْرِئٍ يَوْماً له الدَّهْرُ فاجعُ
وَما الناسُ إلا كالدِّيارِ وَأَهْلِهَا ... بِهَا يَوْمَ حَلُّوها وَتَغْدُو بلاقعُ
وَيَمْضُونَ أَرْسَالاً وَنخلُفُ بَعْدَهُم ... كماضَمَّ إحْدَى الرَّاحَتَيْنِ الأَصَابعُ
ومَا المَرْءُ إلَّا كالشِّهاب وَضَوْئِهِ ... يَحُورُ رَماداً بَعْدَ إذْ هُوَ ساطعُ
وَما المَرْءُ إلاَّ مُضمَرات مِنَ التقَى ... وَما المالُ إلا عارِياتٌ وَدَائِعُ
أَلَيْسَ وَرَائى إنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتى ... لُزُومُ العَصَا تُحْنَى عَلَيْها الأَصابعُ
أُخَبِّرُ أخبارَ الْقُرُونِ الَّتى مَضَتْ ... أدِبُّ كَأَنِّى كلما قُمْتُ رَاكعُ
فَأَصْبَحْتُ مِثْلَ السَّيْفِ أَخلَقَ جَفْنَهُ ... تَقَادُمُ عَهْدِ الْقَيْنِ والنَّصْلُ قاطعُ
فَلا تَبْعَدَنْ إنَّ المَنِيَّةَ مَوْعِدٌ ... عَلَيْنَا فَدَانٍ للطلُوعِ وَطَالعُ
أعاذِلُ ما يدْرِيكَ إلاَّ تَظَنِّياً ... إذَا رَحَلَ الْفِتْيانُ مَنْ هُو رَاجعُ
أتجزَعُ مِما أَحْدَثَ الدَّهْرُ بِالْفَتَى ... وَأىُّ كَرِيمٍ لَمْ تُصِبْهُ الْقَوَارعُ
لَعَمْرُكَ ما تَدْرِى الضَّوارِبُ بِالْحَصَى ... وَلا زاجِراتُ الطَّيْرِ ما اللهُ صانعُ

أتعرف أجمل من هذا الشعر معنى ، وأرصن منه لفظاً ، وأروع منه أسلوباً ، وأدنى منه إلى الصدق ، وأنطق منه بالحق ، وأعظم منه حظًا من هذه السذاجة الحلوة التى لا تتناول معانيها الراقية من بعيد ، وإنما تتناولها من قريب ، تتناولها من أقرب ما تتناول المعانى ؟ فالشاعر لا يجهد نفسه ولا يجهدك ، وإنما ينظر ويحملك على أن تنظر معه إلى النجوم التى تطلع وتغيب ، وإلى الجبال المستقرة على الأرض ، ثم إلى الإنسان ، وإذا هو يرى — وأنت ترى معه — أن النجوم على اختلافها طلوعاً وغروباً باقية ، تذهب الأجيال والأجيال ، وهى تشرق فى السماء وتغرب ، لتشرق مرة أخرى وتغرب . وإذا الجبال كذلك ثابتة مستقرة ،

تذهب الأجيال والأجيال ، وهى فى مكانها لا تريم ، وإذا الإنسان شيء يسير ، لا يستطيع أن يشرق ويغرب ، كما تشرق النجوم وتغرب ، ولا يستطيع أن يثبت ويستقر ، كما تثبت الجبال وتستقر ، وإنما هو كالشهاب ، يشرق ساطعاً فيبهر الأبصار ، ثم لا يلبث أن يستحيل رماداً تذروه الريح . وإذن فما أشد غرور الإنسان وحبه للباطل ، وثقته بما لا ينبغى أن يثق به ، واطمئنانه إلى ما لا ينبغى أن يطمئن إليه ، وتعلله بالسخف من أحاديث العائفين ، والقائفين والمستشيرين للحصى ، والمتحدثين عن الغيب ، وإنما أمر هذا كله باطل ، وأمر الغيب إلى من استأثر بعلم الغيب :

لَعَمْرُكَ ما تَدْرى الضوَارِبُ بِالْحَصَى　　　وَلا زَاجِراتُ الطَّيْرِ ما اللّهُ صَانِعُ

ثم قلت لصاحبي بعد صمت غير قصير : ألست ترى أن شاعرى مجيد حين يقصد إلى ما يقصد إليه الشعراء من باطل الحياة : وصفاً ، وفخراً ، ومدحاً وهجاء ؟

أو لست ترى أنه مجيد حين يقصد إلى ما يقصد إليه الحكماء من جد الحياة : تأملا ، وتفكيراً ، وزهداً ، ونسكا ؟

قال : بلى ! ولكن ما أقل ما حفظت لنا الأيام من هذا الشعر الجميل ! قلت : فاقرأ معى هذا الحديث الذى يرويه أبو الفرج ، فهو أحسن ختام لحديثنا عن لبيد ، ولا بأس هنا برواية الإسناد ، فقيمة الحديث فى إسناده . قال أبو الفرج : حدثنا محمد بن جرير الطبرى قال : حدثنا أبو السائب سالم بن جنادة قال : حدثنا وكيع عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها كانت تنشد بيت لبيد :

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فى أَكْنَافِهِمْ　　　وبَقِيتُ فى خَلْفٍ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ

ثم تقول : رحم الله لبيداً ! فكيف لو أدرك من نحن بين ظهرانيهم ! قال عروة : رحم الله عائشة ! فكيف بها لو أدركت من نحن بين ظهرانيهم ! قال هشام : رحم الله أبى ! فكيف لو أدرك من نحن بين ظهرانيهم ! وقال وكيع : رحم الله هشاماً ! فكيف لو أدرك من نحن بين ظهرانيهم ! قال أبو السائب :

رحم الله وكيعاً ! فكيف لو أدرك من نحن بين ظهرانيهم ! قال أبو جعفر : رحم الله أبا السائب ! فكيف لو أدرك من نحن بين ظهرانيهم ! قال أبو الفرج الأصبهاني : ونحن نقول : الله المستعان ! فالقصة أعظم من أن توصف .

قال صاحبي : وكذلك تمضي الأجيال لا يستقبل بعضها الحياة إلا أحب الماضي وآثره ، وكره الحاضر وضاق به ؛ فرحم الله هؤلاء الناس جميعاً ! فليت شعرى ! ماذا كانوا يقولون لو عاشوا فى هذه الأيام ، ورأوا ما نحن فيه من خير قليل ، وشر كثير ؟ أكانوا ينشدون قول لبيد :

ذهَبَ الذِينَ يُعاشُ فى أَكْنَافِهِمْ وبقِيتُ فى خَلْفٍ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ

أم كانوا يستقلون هذا البيت ، ويرون أنه لا يفى بوصف ما يجدون من الضيق كما رأى أبو الفرج ؟

قلت : أما أنا يا سيدى ، فراضٍ على الجيل الذى أعيش فيه ، ولعلى لو خيرت أن أعيش فى الأجيال التى كان يعيش فيها هؤلاء الناس الصالحون ، لآثرت عصرى ، وجيلى ، وبيئتى ، ولقنعت بحظى من ذلك ، ولأنشدت قول لبيد :

فَاقْنَعْ بما قَسَمَ المَلِيكُ فإنَّما قسَم الْخَلائِقَ بَيننا عَلاَّمها

ساعة مع طرفة[1]

قال صاحبي : أما اليوم يا سيدى فلن يكون أمرك يسيراً ولا ممهداً ، فقد اخترت « طرفة » موضوعاً للحديث الذى أردت أن يكون بينك وبينى ، والذى أذنت فى أن أقترح موضوعه عليك من حين إلى حين ، وقد اخترت مطولته التى يسمونها المعلقة ، وأكاد أعترف بأنى لا أعرف له شعراً آخر ، فقد أقرأ له البيت أو البيتين فى هذه القصة أو تلك ، وقد سمعتك وقتاً ما تتحدث بأن له ديواناً مطبوعاً ، ولكن يدى لم تصل إلى هذا الديوان ، فأنا أجهل صاحبك جهلا تامًّا ، وقد حاولت أن أعرفه من قصيدته المطولة هذه فلم أجد من نفسى صبراً عليها . ولم أستطع أن أقرأ منها إلا الأبيات الأولى التى يبكى فيها الديار ، وينسب فيها بصاحبته فى غير سهولة ولا براءة من التكلف . فلما بلغت وصف الناقة عجزت عن التقدم ، وأعلنت الإفلاس وطويت الكتاب . فهلمّ يا سيدى أنبئنى عن هذه القصيدة ، وحدثنى بمظاهر الفن الرائع والشعر البارع فيها ، وما أرى أنك ستفعل ، فليس الشعراء القدماء كلهم لبيداً . وليست تستقيم لهم جميعاً هذه الخلال التى استقامت للبيد ، ولولا أنى كنت أوثر النفع ، ولا أريد أن أشق عليك ، ولا أن ألزمك الحجة منذ ابتدأنا الحديث ، لما رضيت منك لبيداً موضوعاً لأول الحوار ، ولاقترحت عليك طرفة أو أشباه طرفة من أصحاب المطولات ، ولكنى لا أكره أن أنهزم لك لأطمعك فى الفوز الآن ، وقد استمتعت بالفوز أسابيع ، لا تكره أن تلقى الجد كما ينبغى أن تلقاه ، وأن تعترف بالحق كما يفرض نفسه عليك ، وأن تؤمن لى بأن هذا الكلام الذى يقوله طرفة كلام ليس منا ولسنا منه فى شىء ، لانفع فى قراءته ، ولا قدرة لنا على قراءته ، ولا أثر له فى تثقيف عقل ، أو تهذيب طبع ، أو تقويم إنسان ، وإنما هو كلام مات ، والخير فى أن يموت . أم تراك ستحاور وتداور وتقسم الشَّعرة إلى نصفين لتثبت لنا أن فى شعر « طرفتك » هذا بقية من حياة ،

---

(١) نشرت بجريدة الجهاد فى ٢٧ فبراير سنة ١٩٣٥ .

وقدرة على النفع ، وغناء فى التثقيف والتهذيب والتقويم .

قلت ضاحكاً : وهل عرفت منى إلا المحاورة والمداورة ، وتقسيم الشعرة إلى نصفين أو إلى أثلاث أو إلى أرباع ، والجد فى إثبات ما ألف الناس أن ليس إلى إثباته سبيل ، ونفى ما استيقن الناس أن ليس إلى نفيه سبيل ! وقد يقال إنى رجل شاذ فى التفكير ، شاذ فى الحديث ، شاذ فى الفهم والحكم . فلم تريد أن تحولنى عن هذا الشذوذ وأن تجعلنى رجلا مثلك ، مستقيم المنطق ، معتدل المزاج ، أقر ما يقره الناس ، وأنكر ما ينكرون ، أعلم ما يعلمه الناس ، وأجهل ما يجهلون ؟ على أنى أظن أنك إنما تكلف بالتحدث إلىّ . والاستماع لى بهذا الشذوذ نفسه ، فأنت ترى عندى ما لا تراه عند غيرى ، فتسليك هذه الغرابة ، وتلهيك وتريحك من هذه الحياة المطردة التى لا نبو فيها ولا اختلاف .

قال وهو يظهر الدهش : فأنت إذن تريد أن تشذ ، وأنت إذن تزعم أو تتكلف أن لقصيدة « طرفة » هذه نفعاً وغناء ، وأن فيها شعراً وجمالا . قلت : نعم ، أريد أن أشذ ما دام الناس يروننى شاذًّا ، وإن كنت أنا أرى الشذوذ فيك وفى أصحابك . فأنا أحب قصيدة طرفة حبًّا شديداً ، وأكبرها إكباراً لا حدّ له ، وقد أعجب ببعض أجزائها إعجاباً لم أمنحه قصيدة لبيد . وأنا لا أرى فى هذا إغراباً ولا شذوذاً ، ولا ميلا إلى الإغراب والشذوذ ، وإنما أذهب فى هذا مذهب الذين لهم بالشعر علم من القدماء ، وأزعم أن المحدثين سيذهبون هذا المذهب يوم يكون لهم بالشعر علم . وما أشك فى أن بين المحدثين المعاصرين من يحب طرفة كما أحبه ، ويمنحه مثل ما أمنحه ، أو أكثر مما أمنحه من الإعجاب . وأى شىء أيسر من أن تجهل شعر طرفة ، أو تعجز عن فهمه ، أو تكسل عن محاولة فهمه ، فتنكره وترفضه ، وتقضى على الذين يفهمونه ويحبونه بالإغراب والشذوذ ! وإذا كنت تعترف بأنك لم تقرأ من هذه القصيدة إلا الأبيات الأولى ، وبأنك لم تكد تنتهى إلى وصف الناقة حتى عجزت ، وأقررت بالعجز ، وأعرضت عن القصيدة ، وطويت الكتاب ؛ فهل ترى من العدل الذى تطمئن إليه نفسك ، ويرضى به ضميرك ، أن تقضى بأنها لغو ، وعلى من يحب القصيدة بأنه شاذ ؟ ومع ذلك ، فما أظن إلا أننا سنتفق على حب طرفة ، والإعجاب بمطولته هذه فى غير مشقة ولا جهد ، بعد أن ننظر فيها معاً نظرة صدق وإخلاص

للحق والفن جميعاً . والخير فى أن تقرأ القصيدة من أولها إلى آخرها دون أن تتكلف فهماً ، أو تحاول تعمقاً واستقصاء ، وأن تنبئنى إذا فرغت من هذه القراءة بما تتركه فى نفسك من الأثر . قال : وأى أثر تريد أن تتركه فى نفسى وقد أنبأتك بأنى أخذت فى القراءة فلم أستطع أن أمضى فى وصف الناقة ؟

قلت : فاقرأها ، لعلك تستطيع أن تمضى فى وصف الناقة ، ولعلك تستطيع أن تجد فيه شيئاً ، ولعلك تستطيع بنوع خاص أن تجد بعده شيئاً . قال : فإنى مطمئن إليك ، وأنا أعلم أنك قرأتها ، فحدثنى عنها ، وأبن لى عن رأيك فيها ، ولك علىّ أن أقرأها بعد ذلك .

قلت : كلا يا سيدى! إنى لا أريد أن ألقى عليك درساً ، وإنما أريد أن أصل بينك وبينى حواراً ، فإما أن تقرأ هذه القصيدة ، وإما أن ينقطع الحوار . قال : إن إلحاحك هذا ، واستبدادك بى ، ليدلان على شيء من الضعف لا أكرهه ، فأمهلنى إذن لحظة لأقرأ القصيدة ، وإن كنت أكره القراءة فى غير فهم ، ولا سبيل إلى الفهم . قلت : لك من الوقت ما تشاء .

ثم انصرفت عنه إلى بعض الأمر ، وتركته خالياً إلى هذه القصيدة ساعة أو بعض ساعة ، ثم عدت إليه ، فإذا هو فى مكانه لم يتحول ، وإذا هو ما زال ينظر فى القصيدة ، ويطيل النظر فيها ، وإذا هو قد نهض من مكانه فأخذ قاموس « الفيروزابادى » من موضعه بين الكتب ، ثم عاد إلى حيث كان ، وأخذ يلتمس فى هذا المعجم بعض الألفاظ التى شقت عليه ، فلما رآنى مقبلا قال فى شيء من الحياء والغيظ : هلا وضعت بين يدى شرحاً من شروح المعلقات لتغنينى عن البحث والتفتيش فى هذا المعجم الضخم العسير ، قلت : فإنى يا سيدى لم أطلب إليك أن تفهم ، وإنما طلبت إليك أن تقرأ . فما حاجتك إلى المعجم ؟ وما حاجتك إلى الشرح ؟ قال مغضباً : فإذا كانت هذه القراءة التى طلبتها إلىّ تثير حاجتى إلى الفهم ، وتدفعنى إليه دفعاً ؟ قلت وقد أغرقت فى الضحك ، وأغرق هو فى الاستحياء : وإذن فما بال قراءتك الأولى لم تثر حاجتك إلى الفهم ؟ ولم تدفعك دفعاً إلى البحث والاستقراء ؟ لم تكد ترى الناقة حتى أعرضت عن القصيدة كلها إعراضاً ، فما بال الناقة لا تخيفك اليوم ؟ قال : إنها ناقة بغيضة قد حجبت عنى ، وما زالت تحجب عنى ، صوراً

ومعانى أظن أنها من أروع الصور والمعانى ، ولو استطعت ، لعقرت هذه الناقة عقراً ، أو لنحرتها نحراً ، أو لمحوتها محواً ، لأنفذ إلى هذه المعالى الرائعة . ولكنى أخشى أن أهمل وصف الناقة هذا فأهمل شعراً كثيراً ؛ فقد كنت أكره وصف الناقة فى قصيدة لبيد ، فلما درسناه معاً ، تبينت أن فيه جمالا وفنًّا ما أزال أذكرهما . قلت: لا بأس عليك ! فليست ناقة طرفة كناقة لبيد ، وما أظن أن بعقرها أو نحرها عليك أو على طرفة بأساً ، وقد كان طرفة نفسه مسرفاً فى إبله . وفى إبل أبيه عقراً ونحراً . فهو كان يهين الإبل لإكرام الضيف ، كما كان يهينها للهو ، وكما كان يهينها للميسر أيضاً ؛ فأهن ناقته هذه ولا تحفل بها ، ولا تطل الوقوف عندها ، فما أظن أن الوقوف عندها سينفعك أو يجدى عليك . قال وهو فى شيء يشبه الحيرة : أو لست تزعم أن طرفة شاعر مجيد ؟ قلت : بلى . قال : فكيف يستقيم للشاعر المجيد أن يكون فى قصيدته جزء من الأجزاء يمكن إهماله والإعراض عنه دون أن تفسد له القصيدة كلها ؟ قلت فى شيء من الأسف ، بل من الحزن العميق : لسنا يا سيدى بإزاء قصيدة لطرفة ، وإنما نحن فى أكبر الظن ، بإزاء بقايا قصيدة لطرفة ، وليست هذه الناقة التى تقوم بينك وبين المعانى الرائعة والصور الجميلة ناقة طرفة فى أكبر الظن ، وإنما هى ناقة قد دُسَّت عليه دسًّا ، وزُجَّتْ فى حظيرته زجًّا . ليست منه وليس منها فى شيء ؛ ألم تبلغ وسط القصيدة وآخرها ؟ قال : بلى . قلت : فكيف تستطيع أن تفهم هذا الاختلاف العظيم بين هذا الجزء الذى وصفت فيه الناقة وبين ما بعده وما قبله من الأجزاء ؟ ألست ترى فى وصف الناقة إغراباً وتكلفاً للألفاظ التى يقلّ استعمالها ويندر أن تنطق الألسنة بها إلا عند الإخصائيين ؟ ثم ألست ترى أن هذه الألفاظ الغريبة النادرة تقلّ وتكاد ألا توجد فى سائر القصيدة ؟ وأن لغة الشاعر تسهل وتلين دون أن تفقد جزالتها ومتانتها إذا تجاوز الناقة إلى غيرها من المعانى والأشياء ؟ قال : بلى . قلت : ألا تظن أن هذا دليل واضح على أن وصف الناقة على هذا النحو قد أقحم فى قصيدة الشاعر إقحاماً ؟ قال : لا أدرى . قلت : فإن للشاعر قصيدة أخرى رائية طويلة ، رويت فى ديوانه ، وقد عرض فيها للناقة فلم يكد يطيل ، وإنما أوجز فى وصفها كل الإيجاز ، وشغل عنها بما أهمه من الغزل والفخر . وأكبر ظنى يا سيدى ، أنه

لم يحفل بالناقة فى داليته هذه ، ولم يقل فيها إلا البيتين أو الأبيات القصار ، أو أنه حفل بهذه الناقة ، ولكن وصفه لها قد ضاع ، فطوّل الرواة حيث أوجز الشاعر ، أو عوّض الرواة ما ضاع من قصيدة الشاعر . وأى رواة ؟ الرواة المتأخرون ، الذين كانوا يتخذون العلم والتعليم صناعة ، و يحرصون على أن يعلموا الشباب أوصاف الإبل ، وأوصاف الخيل ، وأوصاف السحاب ، وأوصاف السلاح وما يشبه ذلك . فلم أقرأ هذه القصيدة يوماً من الأيام — وما أكثر ما قرأتها — إلا كان هذا الشعور فى نفسى قويًّا ؛ وازدادت ثقتى بأن هذا الجزء من أجزاء القصيدة مصنوع ، قد قصد به إلى تعليم الشباب طائفة من أوصاف الإبل أحصيت فيه إحصاء . ومن آية ذلك ، أنك تستطيع أن تنظر إلى وصف لبيد وغيره من الشعراء للنوق ، فسترى فى هذا الوصف حركة واطراداً وحياة قوية ، وسترى أن الشعراء يتبعون الإبل أو يسايرونها ، أو يشبهونها بحيوان كالنعامة أو البقرة أو حمار الوحش ، ثم يتبعون هذا الحيوان فى حركته واضطرابه ، وهم يتخذون هذا وسيلة إلى استحضار الصور الطبيعية المختلفة ، وعرضها عليك . فأما هذا الجزء من قصيدة طرفة ، فليس له حظ من حركة ولا حياة ، وإنما استحضر الشاعر أو الناظم ناقة من النوق ، فوقفها أمامه ، وأخذ يحدق فيها تحديقاً ، ثم يصورها تصويراً دقيقاً ، فهو معنىّ بالناقة من حيث هى ناقة ، يكاد ينسى أنها أداة للسفر ، وتجشم أهوال الصحراء ، فهو إلى أن يكون أستاذاً يسمى لك أجزاء الناقة ، و يعلمك ما يحمل على هذه الأجزاء من الصفات ، وما يستجاد لها من الخصال ، أقرب منه إلى أن يكون شاعراً يستوحى حياة نفسه ، كما يفعل غيره من الشعراء .

قال صاحبى — ولم أستطع أن أطيل حواره فيما قال ، ومن يدرى ! لعله موفق فيه إلى الصواب — : فإنى لا أرى رأيك فى هذا ولا أقرك على أن إعراض الشاعر هنا عن الحركة القوية ، والحياة المضطربة ، ووقوفه عند أجزاء الناقة يحققها ويصورها ويصفها ، دليل على أن هذا الشعر مصنوع ، فليس ضروريًّا أن يكون الشاعر متحركاً دائماً ، وليس ضروريًّا ألا يتعرض الشاعر إلا للحركة والحياة والنشاط . والشاعر يستطيع أن يصور ناقته قائمة مستقرة ، كما يستطيع أن يصورها متحركة نشيطة ، وهو فى هذا كله قادر على أن يحسن التصوير

ويأتى بالشعر . ومع أنى لم أفهم بعدُ كلّ ما قاله طرفة ، أو حمل عليه فى وصف الناقة ، فقد يخيل إلىّ أنه لم يقيد ناقته ، ولم يعقلها ، وإنما هو تركها حرة تذهب وتجىء وأخذ يصفها فى أثناء ذلك ،ولعله امتطاها ومضى بها فى الصحراء ، ثم أخذ يصفها خلال ذلك ، وأكبر الظن ، أنه شغل بها عن النعام والبقر وحمر الوحش . وأعود فأقول : إنى لم أفهم هذا الجزء من القصيدة بعدُ على وجهه ، فلا أستطيع أن أقطع فيه برأى . قلت : فمن أيسر الأشياء أن نقف عند هذا الجزء ، وأن ننظر فى أبياته بيتاً بيتاً ، لنتبين من أمره ما نستطيع أن نتبين . قال : كلا يا سيدى ! فإنى لست فى حاجة إلى هذا العناء ، وقد زعمت أنك لا تريد أن تلقى علىّ درساً فى اللغة أو فى غير اللغة ، وإنما تريد أن تصل بينك وبينى حواراً ، فأعفنى من هذا الجزء ، وليكن مصنوعاً كما ترى ، أو صحيحاً كما أظن ، فإن وجه الأرض لن يتغير إن صح رأيك أو صدق ظنى ، وأسرع بنا إلى القسم المفهوم من هذه القصيدة ، فإنى أرى فيه جمالا قلّ أن يشبهه جمال .

قلت : والغريب أننا نستطيع أن نأخذ فى هذا القسم المفهوم من القصيدة ، كما تقول ، دون أن نشعر بأننا فقدنا شيئاً ، ودون أن نحس هذا النقص الذى نحسه كلما عرضنا لدرس البقايا المنقوصة ، والآثار التى ألحّ عليها الزمن ، وحفظ منها ما حفظ ، وأضاع منها ما أضاع . ألا ترى أن أول ما يلقانا من هذا القسم إنما هو حديث الشاعر عن نفسه فى إيجاز وإجمال ، وفى أبيات قليلة جامعة ، كأنه يريد أن يعرّف نفسه لنا أو يقدمها إلينا ، كما يقول المحدثون ، فكأننا نلقاه لأول مرة ، وكأننا نحب أن نعرف من أمره ما نجهل ، وكأنه يصور لنا نفسه تصويراً يسيراً ، قبل أن يأخذ معنا فى الحديث المفصل الطويل . ألا ترى إلى هذه الأبيات القليلة ؟ كيف تقف الشاعر أمامك ، وتمثله تمثيلا صادقاً، فتحببه إليك ، وتعطفك عليه ، وتدعوك إلى أن تطيل سؤاله ، وتستمتع بالاستماع له :

إذا القوْمُ قالُوا مَنْ فتًى خِلْتُ أنَّنى ... عُنِيتُ فلَمْ أَكْسَلْ وَلَم أتَبَلَّدِ
وَلَسْتُ بِحَلَّالِ التِّلَاعِ مَخَافَةً ... وَلٰكِنْ مَتَى يَسْتَرْفِدِ القَوْمُ أَرْفِدِ
وإن تبْغِنى فى حَلْقَةِ القومِ تَلْقَنى ... وإنْ تَلْتَمِسْنى فى الحوَانيتِ تَصْطَدِ

مَتى تَأْتِنِي أُصْبِحْكَ كَأْسًا رَوِيَّةً وَإِنْ كُنْتَ عَنْهَا ذا غِنًى فاغْنَ وازْدَدِ
وإنْ يَلْتَقِ الحيُّ الجميعُ تلاقِنِي إلى ذِرْوَةِ البَيْتِ الشريفِ المُصَمَّدِ

فانظر إليه وهو يتقدم إليك ظريفاً ، لبقاً رشيقاً ، خفيف الروح ، حازماً مع ذلك كل الحزم ، واثقاً بنفسه أشد الثقة ، راضياً عنها كل الرضا ، شاعراً بواجبه الاجتماعى أوضح الشعور وأقواه ، يؤمن بأنه قد خُلق لقومه قبل أن يخلق لنفسه ، فهو يجيبهم إذا دعوه ، بل هو يجيبهم إذا دعوا وإن لم يوجهوا الدعوة إليه ، كأنهم لا يستطيعون أو لا ينبغى لهم أن يدعوا غيره ، وكأنه هو الفتى كل الفتى . هو الفتى الذى يختصر شباب قومه اختصاراً ، ويمثلهم تمثيلا ، ويحتمل عنهم أثقال القبيلة كلها . وهو يستجيب لدعوة الداعى ، سواء أوجهت إليه أم إلى غيره ، مسرعاً لا كسلا ولا متبلداً ، وكيف يكسل أو يتبلد وهو الفتى الذى ملأ نفسه إعجاباً بنفسه ، وملأ نفوس قومه إعجاباً به ، واعتماداً عليه ! فأول صفاته إذن هذا الشباب الذى يدفعه إلى أن يتمثل الواجب الوطنى أقوى التمثل ، ويسرع إلى الإجابة إليه . ثم هو بعد ذلك لا يكتفى بالمخاطرة والمغامرة فى سبيل هذا الواجب ، ولكنه كريم أيام السلم لا يستتر ولا يتوارى ولا يهرب بماله من السائلين واللاجئين . ولا يهرب بقوته من المستغيثين والمستجيرين . هو لا ينزل الأماكن الخفية التى لا ترى فيها المنازل ، ولا يقصد إليها المحتاجون ، وإنما ينزل الأماكن الظاهرة ، فيعطى إذا سئل ، كما يجيب إذا دعى . وإذا اطمأن الرجل إلى أنه يشعر بواجبه أصدق الشعور ، ويؤديه أحسن الأداء ، ويعطى قومه وغير قومه من نفسه وماله فى غير تحفظ ولا بخل ولا إشفاق ، فمن حقه ألا يبخل على نفسه بالخير ، وألا يحول بينها وبين نعيم الحياة . وصاحبنا لا يحرم نفسه كما أنه لا يحرم الناس ، هو لا يستتر منك ، ولا من غيرك ، وهو يدلك على الأماكن التى تستطيع أن تجده فيها إن احتجت إليه ، فأما فى ساعة الجد ، فتستطيع أن تلتمسه فى حلقة قومه هناك حيث يجتمعون فى ناديهم ، يتحدثون ويتشاورون إن عرض لهم من الأمر ما يدعو إلى التشاور ، فهو يشارك قومه فى جدهم كله ، وإن كان شابًّا ، لأن له من الرشد والحلم وحسن البلاء ما يمكنه من ذلك ، ويفرضه على قومه فرضاً . وأما فى غير ساعات

الجد ، فأنت تستطيع أن تلتمسه هناك ، حيث يلتمس أترابه من الشبان المترفين الذين لا يضنون بأنفسهم ولا بأموالهم حين يحتاج إليها ، ولا يقعدون عن اللذات حين تتاح لهم أوقات الفراغ . تستطيع أن تلتمسه فى الحانات عند هؤلاء الخمارين الذين يحملون خمرهم المعتقة من الحضر ، فيمتعون بها شباب البادية ويحببون بها إليهم لهو الحياة . ولن يضيع سعيك إذا سعيت إليه تلتمسه فى حانة من هذه الحانات ، فهو لن يلقاك بخيلا ولا شحيحاً ولا كزًّا ، ولكنه سيشركك فى لهوه، وسيسقيك حتى تروى، وهو لن يكرهك على ذلك فأنت وما شئت ، إن كان بك ظمأ نقعت غُلَّتك ، وإن كنت غنياً فليزدك الله غنى ، ولا بأس عليك . فإذا أردت أن تسأل عنه دون أن تلقاه ، فأنت تستطيع أن تسأل من شئت ، فستعلم أنه ليس من أوساط قومه ولا من أقلهم خطراً ، وإنما هو الشريف الكريم من أشرف البيوتات وأكرمها ، وهو منها فى أرفع مكانة وأرقاها .

أعرفت الآن هذا الشاعر فى نفسه ، وفى قومه ، وفى أسرته الأدنين ، فى جده ، وفى لهوه ، فى عمله وفى فراغه ، وإذن فلا بأس عليك من أن تمعن فى معرفته إمعاناً ، ومن أن ترى مجالسه حين يلهو و ينفق أوقات الفراغ . وهو يجد شيئاً من اللذة فى التحدث إليك بهذا ، لا يتكلف ولا يتحفظ ، ولكنه لا يسف ولا يتبذل .

نَدَامَاىَ بِيضٌ كالنُّجُومِ وَقَيْنَةٌ ... تَرُوحُ عَلَيْنا بين بُرْدٍ ومُجْسَدِ
رَحِيبٌ قِطابُ الجَيْبِ مِنْها رَفِيقَةٌ ... بِجَسِّ النَّدَامَى بَضَّةُ المتَجَرَّدِ
إذا نحنُ قُلْنا أَسْمِعِينا انْبَرَتْ لنا ... عَلَى رِسْلِها مَطْرُوفَةً لم تَشَدَّدِ
إذا رَجَّعتْ فى صوتِها خِلْتَ صَوْتَهَا ... تَجَاوبَ أَظْآرٍ على رُبَعٍ رَدِى

فأنت لا تجده فى الحوانيت متبذلا ، ينادم الصعاليك وأخلاط الناس ، وإنما تجده فيها كريماً ممتازاً ، ينادم قوماً كراماً ممتازين أحراراً مثله ، بيضاً كأنهم النجوم ، وهم لا يحبون هذا الشراب الجاف الخشن — إن صح هذا التعبير — وإنما هم أصحاب لهو مترف له حظ من الفن ، فهم يشربون ويسمعون ويستمتعون أيضاً ، لهم قينة جميلة حسنة الصوت ، قد ملئ صوتها رقة وحناناً

وحنيناً أيضاً ، وهى بضة رخصة ، وهى متبذلة لهم لا تحتجب عنهم ، ولا تبخل عليهم بما يحبون من دعابة وتجميش، هى أشبه شىء بهذه الفتاة التى تصورها الأغنية الفرنسية ، التى كان يتغنى بها الجند أيام الحرب والتى يسمونها « مدلون » وفى تصوير هذه القينة بهذه الحرية ، وهذه السذاجة ، ومن غير تكلف ولا غلوّ فى الاحتياط ، جمال بدوى رائع حقًّا ، وإياك أن تظن أن صاحبنا على شبابه وفراغه يلهو عبثاً ، أو ينفق وقته فى الشراب والاستمتاع بالنساء استجابة لحسه ، وطاعة لهذا الميل الفطرى إلى اللذة ، فإنك إن ظننت به هذا أخطأت فهمه وأسأت إليه ، فهو ليس صاحب لذة غليظة تصدر عن الحس لترضى الحس ، وإنما هو صاحب لذة رقيقة تصدر عن تفكير ، وعن فلسفة وعن اختبار للحياة ، وعن حكم دقيق على حوادثها وخطوبها ونتائجها ، وقد ظن به قومه مثل هذا الظن ، فأنكروا عليه إسرافه فى اللهو ، وإتلافه الطارف والتليد ، فاجتنبوه وقاطعوه وتحاموه ، ولكنه لم يحفل بذلك ، لأن قومه لم يفهموه ، فاحذر أن تكون كقومه عاجزاً عن فهمه ، مقصراً فى إدراك فلسفته ، فهى فلسفة يسيرة سهلة خليقة أن تفهم ، وهى فلسفة خالدة تجدها فى كثير من البيئات البادية التى لم ينفذ إليها الدين ، أو الحاضرة التى لم يؤثر فيها الدين :

وما زالَ تَشْرابِى الخمور ولَذَّتِى ... وَبَيْعِى وإنْفاقى طَرِيفِى ومُتْلَدِى

إلى أنْ تحامَتْنِى العَشِيرةُ كلُّها ... وأُفرِدتُ إفْرَادَ البَعِيرِ الْمعبَّدِ

على أن قومه إن عجزوا عن فهمه فأنكروه ، فهناك قوم آخرون لم يحاولوا فهمه . ولكنهم لم ينكروه على كل حال ، وهم الفقراء المحتاجون إلى عونه وإعانته ، والأشراف المكبرون لسؤدده ومكانته، أولئك يفزعون إليه ، وهؤلاء يعترون به ، وهو مع ذلك حريص على أن يعرض فلسفته ، ويجادلك فيها ، ويذود عنها ، ويقنعك بها إقناعاً . فاسمع له كيف يقول :

ألا أيُّهذا الزَّاجِرِى أَحْضرَ الوَغى ... وأن أَشْهَدَ اللَّذَّاتِ هَلْ أنتَ مخْلِدِى

فإن كُنتَ لا تَسْتطِيع دَفْع مِنِيَّتِى ... فَدَعْنِى أُبادِرْها بِما مَلَكتْ يَدِى

فالذين يلومونه حين يخاطر ويغامر ، ويسرع إلى الحرب أداء للواجب

وذوداً عن قومه : يخطئون لأنهم لا يستطيعون أن يضمنوا الخلود إذا أعرض عن الحرب ، فالموت ساع إليه إذا هو لم يسع إلى الموت . والذين يلومونه على شهود اللذات ، والأخذ بحظه من نعيم الدنيا ولهو الحياة ، مخطئون لأنهم لا يستطيعون أن يضمنوا له حياة خالدة إذا أعرض عن اللذات ، وماقيمة هذه الحياة الطويلة الخشنة الجافة التى لا لذة فيها ولا نعيم ؟ وهل يحرص الناس على الحياة إلا لما فيها من لذة ؟ وإذا لم يكن بد من الموت ، وإذا لم يكن وراء الموت شيء ، وإذا كان الموت ملمًّا بالفقير والغنى ، بالجواد والبخيل ، وبالشجاع والجبان ، أفليس الخير أن يأخذ المرء فى هذه الحياة بلذات النفس والجسم جميعاً ، فيرضى نفسه بأداء الواجب . والارتفاع عن الدنيات ، ويرضى جسمه بالأخذ بأعظم نصيب ممكن مما يتاح له من اللذة والمتاع ؟

لَعَمْرُكَ إنَّ المَوْتَ ماأَخْطأَ الفَتَى   لكالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنياهُ بالْيدِ

متى ما يشَأْ يوماً يَقُدْهُ لِحَتفِه   ومن يَكُ فى حَبْلِ المَنِيَّةِ يَنْقَدِ

قال صاحبى : أما أنا فمفتون بهذين البيتين إلى غير حد ، هذا التشبيه البدوى الصادق الصارم الذى لا يدع سبيلا إلى الأمل ، ولا يشق عليك باليأس المظلم القاتم ، وإنما هو مؤنس فى شيء من الدعة والحلاوة والإذعان المطمئن المحبب إلى النفوس . هذا التشبيه القريب الذى يفهمه كل إنسان دون أن يتكلف فى فهمه جهداً ، أو يحتاج إلى التفكير شاق . هذا التشبيه الذى لا تكاد تسمعه وتفهمه ، حتى ترى نفسك فى البادية مع الشاعر تسمع له . وتفهم عنه ، وتنظر إليه ، وتهم أن تسير سيرته ، لولا أن لك ديناً ينبئك بأن للحياة غاية أخرى غير اللذة ، وبأن الموت ليس هو الأمد الذى ينتهى إليه الأحياء . هذا التشبيه الرائع من جميع جهاته يفتننى ويخلبنى ، ويحبب إلى الشاعر ويحملنى على أن أطلب إليك أن نطيل عنه الحديث .

قلت : لا بأس ، ولكن ليكن هذا فى الأسبوع المقبل .

ساعة أخرى مع طرفة[1]

لم يكن صاحبي مبتهجاً ، ولا مبتسماً ، ولا ظاهر النشاط ، حين لقيته فى الموعد الذى كان بيننا ، وإنما كان كئيباً محزوناً كاسف البال ظاهر الفتور فلما سألته عن أمره ، أعرض عنى وأبى أن يجيب ، فلما ألححت عليه فى السؤال ، قال : وماذا تريد أن أرد عليك ، وأنت قد أشمت بى العدو ، وأثرت إشفاق الصديق علىّ ، ورثاه لى ، وأطلقت فىّ ألسنة الناس بالفكاهة والسخرية وكدت تجعلنى مثلا فى الأندية يضرب للجهل والغفلة ، وبلادة الذهن وقلة الاطلاع .

قلت : وما ذاك ؟ قال : إنك تذيع أحاديثنا فى شىء من التبسط ، لا تتحفظ ولا تحتاط ، فتروى عنى كثيراً مما أقوله لك . لا تصفّيه ولا تنقيه ، ولا تزيل منه الغثاء ، ولا تنفى عنه كثيراً من هذا السخف الذى تجرى به الألسنة فى المألوف من الحديث ، ولكن الأقلام تتجافاه . وترتفع عنه حين تسجل هذه الأحاديث ، فأنت تظهرنى دائماً على حظ لابأس به من الغباء والقصور ، ومن الإهمال والتقصير ، حتّى لقد ظن بعض الناس أنى لست شخصاً موجوداً بالفعل ، وإنما أنا شخص خيالى قد اخترعته اختراعاً ، وابتكرته ابتكاراً ، وصورته كما تحب أن يكون خصمك من الضعف والعجز ، لا كما هو فى حقيقة الأمر . قلت مبتسماً : إن فيما تقول بعض الحق ، فقد رأيت قوماً يسخرون منك ، ويتندرون عليك . وقد زعم لى صديق من الأصدقاء أنى قد استضعفت رجلا من الناس ، لا حول له ولا قوة ثم اتخذته خصماً فى هذا الحوار . وما أرى إلا أن هذا الصديق الماكر قد أحصى واستقصى ، وبحث حتّى اهتدى إليك فوشى بى عندك ، وما زال بك يهيجك ويغريك ، حتّى ملأك غيظاً وحنقاً . ولست أرى عليك مما يقول الناس بأساً ، ولست أحب لك أن تسمع لهذا الصديق الذى سيجد لذة فى المكر ، ولا يتحرج من أن يعبث بأصدقائه . وإنما أحب

(١) نشرت بجريدة الجهاد فى ٦ مارس سنة ١٩٣٥ .

لك أن ترتفع عن هذا كله ، وأى الناس أمن ألسنة الناس ! وأى الناس استوثق من أن الناس سيحسنون به الظن ، وسيقولون فيه الخير ، وسيكفون عنه ألسنتهم ، وأقلامهم ، وسيصدون عنه سعايتهم ووشايتهم ! وإنما تجرى أمور الحياة على الشر أكثر مما تجرى على الخير ، والناس إلى الإساءة أسرع منهم إلى الإحسان ، فاصبر لما يقال فيك ، وما يساق إليك ، ولا تظهر الضعف فتطمع فيك من لا ينبغى أن يرقى إليك .

قال صاحبي : هذا كلام يسير حين يقال ، سهل حين يكتب ، ولكنك لا تستطيع فيما أعتقد أن تلقى بعض ما ألقى ، وأن تصبر عليه كما تريد أن أصبر ، وتغضى عنه كما تريد أن أغضى ، وأنا رجل مثلك لا ينبغى أن تعرضنى لما لا تحب أن تتعرض له . وما يعنيني من أمر لبيد وطرفة ، وأمثال لبيد وطرفة ، إذا كان الحديث عنهما وعن أمثالهما سيعرضنى لمثل هذه السخرية ، ومثل هذا الازدراء . لقد أذعت فى الأسبوع الماضى أنى لم أر ديوان طرفة ، ولم أنظر فيه ، فما أكثر ما سمعت من استهزاء المستهزئين وعيب العائبين ! قلت : لا بأس عليك ، لقد تحدثت بهذا فى صراحة صريحة ، ووضوح ليس بعده وضوح ؛ ومع ذلك فلم آمن أن تظن بى الظنون ، وأن يشفق علىّ المشفقون ، وأن يتفضل كاتب أديب مقيم فى الريف ، فيكتب إلى (الجهاد) أنه يظن أنى لم أر ديوان طرفة ولم أعرف أنه قد طبع ، وأنه مستعد لإرسال نسخة إلىّ إن احتجت إلى ذاك ، ثم ينبئنى من أمر هذه النسخة بالمفصل الذى لا بأس به . ومع أنى أشكر للكاتب الأديب فضله أجمل الشكر ، فإنى قد رأيت هذا الديوان الذى تحدث عنه ، ورأيت له طبعة أخرى نشرت فى الخارج مع دواوين جماعة من الجاهليين ، فإذا كان الناس يعيبونك بما أذعت من أنك لم تر ديوان طرفة فإن منهم من ظن أنى لم أره ، فلا يسوءك عيب الناس لك ، فإنى لا يسوءنى أن يظن الناس بى الظنون . قال يا سيدى أنت صاحب صراع وخصام ، وبينك وبين الناس شؤون لا تنقضى ، تثبت لهم ويثبتون لك ، وتصبر عليهم ويصبرون عليك ، وتقول فيهم ويقولون فيك ، فأنت وما شئت من خصومتهم ، أما أنا فلست من هذه الخصومات فى شىء ، ولا أعيب أحداً فلا أحب أن يعيبنى أحد ، وإذا كانت أحاديثنا عن هؤلاء الشعراء ستجر علىّ هذا الشر الذى

لا أريده ولا أقبله ، فإنى زاهد فى هذه الأحاديث فلنقطعها منذ اليوم . وأعود فأقول لك : إنى رجل مثلك أكره ما تكره وأحب ما تحب ، فما ينبغى أن تعرضنى للوم والعيب ، ولا للسخرية والاستهزاء ؛ لا لشىء إلا لأنى أتحدث إليك ، وأسمع منك ، فى صراحة وصدق ، وفى اجتناب للتكلف والتكثر ، وللتزويد والغرور .

قلت : وأى غرور أكثر مما أنت فيه ؟ ! ها أنت ذا تجادلنى وتحاورنى ، وتسرف فى الجدال والحوار ، وتظهر التمنع والإباء ، وكأنك تريد أن تأخذ علىّ العهود ، وتملى على الشروط ، وأنت تعلم حق العلم أنك مدين لهذه الأحاديث بالوجود ، وأنك ما كنت لتشهد الحياة ، أو لتشهدك الحياة ، لو لم أخترعك اختراعاً ، وأبتكرك ابتكاراً ، وأمنحك من الحياة والحركة ما يمكنك من أن تجادل وتحاور ، وتلقى السؤال وتنتظر الجواب . وإلا فحدثنى من أنت ؟ ومتى كنت ؟ وكيف تستطيع أن تكون إذا قطعنا هذه الأحاديث ؟ وهل تظن أن الناس يتحدثون عنك أو يلهجون بك أو يجادلون فيك ؟ ولقد كتب إلىّ من كتب يسألنى عن وجه الحق فى أمرك : أموجود أنت بالفعل ؟ أم أثر أنت من آثار الخيال ؟ وقد رفقت بك ، وأشفقت عليك ، فلم أجب من سأل ، وتركته يقدر أنك شخص موجود حقاً . ولعله ظن هذا ، ثم رجحه ، ثم صدقه ، واطمأن إليه . وأى غرابة فى هذا وقد انخدعت أنت عن نفسك ، وظننت أن لك وجوداً خاصاً مستقلا ، وأخذت تناضل دونه وتذود عنه ، وتملى الشروط وأى شروط ، فكيف بك لو أنك موجود فى حقيقة الأمر ؟ أفرأيت غروراً أكثر من هذا الغرور ؟

قال : غروركم أنتم يا سيدى ليس أقل من غرورى ، فأنتم ترون أنكم شىء ، وما أنتم فى حقيقة الأمر بشىء ، وأنتم ترضون وتسخطون ، وتعرفون وتنكرون ، وتحمدون وتذمون ، وتقبلون من القضاء وترفضون ، ولولا القضاء ما كنتم ، ولو شاء القضاء لذهبتم من حيث أقبلتم . فما بالك تأبى علىّ ما أنت غارق فيه إلى أذنيك ! وما بالك تنكر منى ما تعرفه من نفسك ! كلا يا سيدى ! لست أول من تجنى على مُنشئه ، وتمرد على موجده . ولم يكن لى بدّ من هذا التجنى والتمرد ، فقد تزعم أنك أوجدتنى ، فينبغى إذن أن أكون صورة صادقة

لك وأثراً دالاً عليك ، ومختصراً يتمثل فيه كل ما يظهر أو يخفى فيك من عيب ؛ وما زلت ألحّ الآن كما كنت ألح من قبل فى أنى لا أحب أن تتحدث عنى بما تشاء دون أن تحتاط فى حديثك ، فتحول بينى وبين سوء الظن بى ، وتعصمنى من هذه الأحكام الخاطئة التى لا أحب أن أتعرض لها ، ومهما يكن فى هذا الكلام من شطط ، فإنه لن يخطئ لومك لأنك لم تحسن تصويرى حين صورتنى ، ولا ابتكارى حين ابتكرتنى . فقد كان ينبغى أن تنشئ لك خصماً خليقاً بهذا الاسم، قادراً على أن يحاور فى غير ضعف ، ويجادل فى غير جهل ، ويتحدث عن طرفة بعد أن يكون قد قرأ ديوانه وفهم مطولته ، فأما أن تتخذ لك خصماً جاهلا غافلا ، ثم تقول وهو عاجز عن القول ، وتثبت وهو عاجز عن النفى . فهذا شىء لا يدل على براعة . ولا على مهارة . ولا على خيال خصب قوى . ولا بأس عليك من أن أثور بك وأتنكر لك ، فما زلتم جميعاً تثورون وتتنكرون بمن لا ينبغى أن تثوروا به أو تتنكروا له .

والآن وقد جليت عن نفسى غمرتها ، وتحدثت إليك بما كنت أريد أن أتحدث به ، فلست أرى بأساً من أن نعود إلى الحديث فى طرفة ، ولك أن تذيع من هذا الحديث ما شئت ، على أن تتحفظ وتحتاط . فإن أبيت إلا أن تصورنى كما تعودت أن تفعل ، فثق بأنى أنا المنتصر لأنى سأراجعك ، وأراجعك ، وألح عليك فى المراجعة حتى أضطرك إلى ما أحب ، أو أنغص عليك الحديث عن الشعراء القدماء . وما أظن أنك تجهل أن جماعة غير قليلة من أمثالك الكتاب يخلقون الأشخاص فى القصص والأحاديث خلقاً ، ثم يلقون منهم شططاً . والخطأ أن تظن أنى لا أوجد إلا بك ، وأنك تستطيع أن تستغنى عنى متى شئت ، فما دمت قد أنشأتنى يا سيدى ، فلا بد من أن تحتملنى كما أنا ، ولا بد أن تذعن لبعض ما أريد ، إن لم تذعن لكل ما أريد ، وثق بأن الأشخاص الخياليين قد يكونون أعظم أثراً وأشد سلطاناً على حياة الأحياء من الأشخاص الذين يستمتعون بالحياة الواقعة التى لا شك فيها ولا ريب . وأظننا كنا نتحدث فى الأسبوع الماضى عن هذه الفلسفة التى يعرضها طرفة فى قصيدته ، ويعتمد عليها فى تفسير تلك الحياة التى كان يحياها ، والتى لم تكن حياة جد مظلم ، ولا حياة لهو مفسد للنفس ، وإنما كانت مزاجاً معتدلا من الجد واللهو ، ومن

العمل والفراغ ، كانت مقسومة قسمة عادلة بين ما ينبغى لقومه ، وما ينبغى لنفسه من الحق عليه ، وكانت مع هذا كله حياة واضحة كل الوضوح ، لا غموض فيها ولا إبهام ، واضحة لصاحبها على أقل تقدير ، وواضحة لكثير من الناس الذين لن تؤثر فيهم الحياة الدينية ، إما لأنهم لم يألفوها ، وإما لأن نفوسهم لم تذعن لها . وما دام الشاعر لم يعرف أن بعد الموت شيئاً ، فهو مضطر إلى أن يرى الموت آخر الحياة وغايتها ، وهو مضطر إلى أن يلائم بين سيرته وبين هذه الحياة التى تنتهى إلى الموت . والشاعر قد وفق إلى هذه الملاءمة أحسن توفيق ، فأرضى قومه ، وأرضى نفسه ، وأخذ لا ينظر إلى عمله ، ولا إلى سيرته ولا إلى حياته كلها إلا اطمأن واستراح ، وأحس أنه يسلك الطريق التى لا ينبغى له أن يسلك غيرها . هو ميت من غير شك ، فليس ما يمنعه من أن يسعى إلى الموت ، كما يسعى الموت إليه ؛ وهو يسعى إلى الموت حين يغيث المستغيث ويستجيب للداعى ، كما أنه يسعى إلى الموت حين يأخذ بحظه من لذات الحياة ، فيشرب الخمر ، مصطبحاً حيناً ، ومغتبقاً حيناً آخر ، وهو يسعى إلى الموت حين ينفق من أيامه ما ينفق ، مستمتعاً بلذات الحب يسيرة ساذجة كما كان يستطيع أن يتصورها ، وأن يستمتع بها فى غير تكلف ولا تصنع ولا اختراع لما لا حاجة إلى اختراعه من الخواطر والمعانى ، ومن الغايات والأغراض . وهو من أجل هذا قد جعل لحياته أغراضاً ثلاثة لولاها لما حفل بالحياة ، ولا اهتم لها ، وهى : شرب الخمر ؛ ونجدة المستغيث ، والاستمتاع بالحب . ولو أنه عاش فى بيئة معقدة غير البيئة التى عاش فيها ، أو أدرك عصراً معقداً غير العصر الذى أدركه ، لتغير مثله الأعلى فى الحياة ، ولا بتغى لنفسه لذات أخرى غير هذه اللذات اليسيرة الساذجة .

قلت مبتسماً : فقد أصبحت أنت المتحدث ، ولم يبق لى إلا أن أستمع ، وما أرى إلا أنك قد تهيأت لهذا الحديث قبل أن تجىء ، وما أشك فى أنك لو فعلت هذا وتهيأت للأحاديث الماضية قبل أن تقبل عليها لما تورطت فيما تورطت فيه من قصور أو تقصير ، ولما لمتنى بعد ذلك فى تصوير ما صورته من هذا القصور أو التقصير . على أنى أستأذنك فى أن ألاحظ أنك لا تقول شيئاً حين تزعم أن طرفة لو عاش فى بيئة غير التى عاش فيها ، أو أدرك عصراً

غير الذى أدركه . لكان مثله الأعلى فى الحياة أرقى من هذه اللذات اليسيرة التى صورها فى أبياته الرائعة :

وَلَوْلَا ثَلَاثٌ هُنَّ مِنْ عِيشَةِ الْفَتَى　　وجَدِّكَ لم أَحْفِلْ متى قامَ عُوَّدِى
فمنهُن سَبْقِى العاذِلاتِ بِشَرْبَةٍ　　كميْتٍ متى ما تُعْلَ بالْماءِ تُزبدِ
وكَرِّى إذا نادَى المُضافُ مُحنَّباً　　كَسِيدِ الغَضَا نَبهتَهُ المتوردِ
وتقصِيرِ يومِ الدَّجنِ وَالدَّجْنِ معْجبٌ　　ببهْكَنَةٍ تحْتَ الطِّرَافِ المُعمَّدِ
كأنَّ الْبُرِينَ وَالدمالِيجَ علِّقتْ　　على عشرٍ أوْ خِرْوَعٍ لم يُخضَّدِ

فواضح جداً أن المثل العليا تتغير بتغير البيئات والعصور ، ولكن واضح أيضاً أن الأشخاص كذلك يتغيرون بتغير البيئات والعصور ، فلو عاش طرفة فى بيئة غير بيئته ، أو عصر غير عصره ، لما كان طرفة ، ولكان تغير فلسفته نتيجة لتغير شخصيته ، ولكان من الجائز ألا تعجبنا فلسفته لو أنه صوّرها فى أبيات من الشعر كهذه الأبيات التى رويناها .

وما رأيك فى شاعر أو كاتب أو متحدث يزعم لك الآن أنه إنما يحب الحياة ، ويكلف بها ، ويحرص عليها ، لأنه يستمتع فيها بالتدخين ، وشرب القهوة وقراءة الكتب ، أو قراءة الصحف ، أو الاستماع للمحاضرين ، أترى أن فلسفته هذه تعجبك ، أو ترضيك مهما يتكلف فى تصويرها وتزيينها من أسباب الفن ؟ إنما تعجبنا فلسفة طرفة هذه لأنها ساذجة تمثل حياة ساذجة ، ولأن الشاعر قد صورها فأجاد تصويرها . فنحن لا نعجب بمعانى هذا الشعر وحدها ، وإنما نعجب أيضاً بلفظه الجزل ، وأسلوبه الرصين : وأسره القوى . وآية ذلك أننا نساير الشاعر مطمئنين إليه : راضين عنه ، معجبين به ، حتى إذا بلغنا البيت الأخير من هذه الأبيات لم نستطع أن نمنع أنفسنا من ابتسامة فيها شىء غير قليل من التسامح والتبسط : فإن مثله الأعلى فى جمال المرأة لايخلو مما يثير الابتسام . وما رأيك فى صاحبته هذه التى تطول وتعظم تحت الخباء، حتى كأنها شجرة علق عليها الحلى تعليقاً ؟

قال صاحبى : قل إن هذه الصورة لا تعجبك أنت ، ولكن ثق بأن

بين الناس من يعجبون بها أشد الإعجاب ، ولا يكرهون أن يكون مثلهم الأعلى في جمال المرأة ارتفاع القامة ، وضخامة الجسم . وهذا النحو الذى يثير مثل هذا التشبيه . قلت : فدعنا من لذات الشاعر . ومن مثله العليا فى الحياة ، وقف بنا عند هذا البيت البديع الذى يصور حبه للحياة . وحرصه عليها . وكلفه بأن يأخذ من لذاته بأعظم حظ ممكن . ومن لذة الشراب خاصة قبل أن يدركه الموت ، فيقضى عليه بالظمأ الأبدى . وتقطع الأسباب بينه وبين الرى .

كريمٌ يُرَوِّى نَفْسَهُ فى حياتِهِ　　　سَتعْلَمُ إن مِتْنا غداً أَيُّنا الصَّدِى

فانظر إلى هذا النذير المؤنس فى الشطر الأخير . وانظر إلى مقدار ما يصور من هذه الحسرات التى لا آخر لها حين تنقطع الأسباب بين الحياة والأحياء . وبين اللذات والمستمتعين بها : وانظر إلى هذه الموازنة بين رجلين . أحدهما شرب فى الحياة حتى ارتوى ، والآخر أخذ نفسه بالظمأ واحتمال الصدى : فأما أحدهما فسيحال بينه وبين الشرب إذا مات ، وقد حال بين نفسه وبين الشرب قبل أن يموت ، وأما الآخر فسيحال بينه وبين الشرب إذا مات . ولكنه قد ارتوى قبل أن يموت ، ومن يدرى ! لعله يجد أثر هذا الرى . ولعل حظه من الصدى أن يكون أقل من حظ صاحبه ذاك الذى حرم نفسه الرى أثناء الحياة !

ثم انظر إلى هذه الأبيات وإلى ما تصوره من اليأس وما تصوّره من المساواة أيضاً بعد الموت :

أَرَى قَبْرَ نَحَّامٍ بَخِيلٍ بِمالِهِ　　　كَقَبْرِ غوىٍّ فى البَطَالَةِ مفْسِدِ
تَرى جُثْوَتَيْن مِنْ ترابٍ عَلَيهما　　　صفائحُ صمٌ مِن صفيحٍ منَضدِ
أَرى المَوْتَ يَعتامُ الكِرامَ ويَصْطفِى　　　عَقِيلَةَ مالِ الْفاحِشِ المُتَشَدِّدِ
أرى الْعَيْشَ كَنزاً ناقِصاً كلَّ ليلَةٍ　　　وما تنقُصِ الْأَيامُ والدَّهْرُ يَنْفَدِ
لَعمْرُكَ إنَّ المَوْتَ ما أَخْطأَ الْفَتى　　　لكالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنْياهُ بِالْيَدِ
متى ما يشأْ يوْماً يَقُدْهُ لحتْفِهِ　　　ومَن يكُ فى حَبْلِ المنيَّةِ يَنقَدِ

أترى إلى هذه الصورة التى تمثل لك ما بين قبر البخيل الحريص وقبر الكريم الذى يفسد ماله ، ويستمتع بحياته ، من التشابه والمساواة ؟ كلاهما جثوة تراب عليها حجارة منضدة ، لا يفرق بينهما أن أحدهما يضم رجلا قد حرص على ماله فأبقاه . وأن الآخر يضم رجلا قد طابت نفسه عن ماله فأتلفه إتلافاً . فالذين يرثون مال البخيل كالذين يرثون إعدام الكريم . لن يستطيعوا أن يغيروا ما بين هذين القبرين من الشبه ، ولا أن يمحوا ما بينهما من المساواة . وانظر إلى هذه الأبيات التى تبتدئ بفعل « أرى » ، والتى تصدر عن الشاعر حِكماً مرسلة لا سبيل إلى إنكارها ولا إلى الجدال فيها ، وإنما هى مقنعة ملزمة ، لا تحتمل مكابرة ولا مراء ، وهى مع ذلك لا تسقط عليك كما تسقط الصواعق الموئسة ، وإنما تنزل على نفسك كما تنزل السكينة التى تمنحك الأمن والراحة والهدوء .

وانظر إلى هذا البيت خاصة :

أرى الْعَيشَ كنزًا ناقِصاً كُلَّ لَيْلَةٍ ... وما تنقُصِ الأيامُ والدهْرُ يَنْفَد

وإلى هذا التشبيه القوى الصارم الذى لا سبيل إلى إنكاره ، ولا إلى عيبه ، ولا إلى الشك فى طرف من أطرافه ، وإلى هذا الجمال الذى يجعل الحياة كنزاً ، ويجعل الأيام والليالى كأنها رجال تنقص من هذا الكنز فى غير انقطاع حتى تأتى على آخره ، وهى واثقة بأنها ستستنفده لأنها واثقة بأنها أطول منه بقاء .

قال صاحبى : وما ينبغى أن تهمل هذا التشبيه الذى كنت وما زلت مفتوناً به فى قوله :

لَعَمْرُكَ إن الموت ما أخطأَ الفتَى ... لكالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنْياهُ بِاليَدِ

قلت : نعم ، أنا أعرف أنك مفتون بهذا البيت ، ولكنك توافقنى على أن البيت الذى يليه ليس من شعر طرفة فى أكبر الظن ، وإنما هو تفسير لهذا البيت . قال : وما يعنينى ؛ إنه بيت جميل على كل حال . قلت : وما دامت الحياة منتهية إلى هذا اليأس ، وما دامت الأعمال والآمال فرصاً تنتهز ، وخلساً تختلس ، وأشياء إن لم تظفر بها حين تتاح لك فستفوتك أبداً ، فما ينبغى أن يكبر الإنسان من أمرها ، ولا أن يعظم من خطرها ، ولا أن يتخذها وسيلة

إلى إفساد الصلات بينه وبين أمثاله من الناس ، وما ينبغي للرجل الرشيد أن يعدل بالمودة الصادقة ، والإخاء الكريم ، والوفاء الذى لا غبار عليه ، شيئاً من الأشياء ؛ ولكن الناس يغرهم الغرور ، وتفسدهم أعراض الدنيا . فيؤثرون بها أنفسهم ويضنون بها على غيرهم ، ويتكلفون فى سبيلها ما لا ينبغى أن يتكلفه الرجل الكريم من البخل والضيق ، ونقص المروءة وإيذاء الإخوان ؛ والتقصير فى ذاتهم ، والتقصير فى ذات أنفسهم أيضاً ، حين يكفّون خيرهم عن الناس ، فيجعلون حياتهم وموتهم بالقياس إلى الناس سواء . وهذه السيرة التى يسيرها الناس المغرورون الذين تخلبهم الدنيا ، وتأسرهم أعراضها ، وتصرفهم عن الكرم والوفاء . هذه السيرة المخزية ، التى يتورط فيها أكبر الناس فى كل عصر ، وفى كل بيئة ، والتى تفرض عليهم النفاق فرضاً ، والتى تصغرهم فى نفوسهم وفى نفوس نظرائهم ، هذه السيرة هى التى ألهمت « طرفة » فيما يظهر . شعره هذا الجميل ، فليس من شك فى أنه قد أنشأ قصيدته وأنشدها عاتباً على ابن عمه لهنات بدت له منه ، ولتقصير أحسه فى بعض ما كان بينهما من الأمر ، والقدماء يفسرون هذه الهنات ، ويقولون فى هذا التقصير ما تخيلوا ، أو ما نقل إليهم من قصة طرفة مع ابن عمه ، أو مع أخيه ، أو معهما جميعاً ، فى شأن هذه الإبل التى أضلها . ولكن ما الذى يعنينا نحن من هذه القصة أن تصح على نحو ما يرويها الرواة ، إنما نحن أمام شاعر يؤذيه تقصير ابن عمه فى ذاته ، وإيذاء ابن عمه له ، وإسراف ابن عمه عليه ، والتواء ابن عمه بحقوق المودة والقربى بخلا وشحًّا وأثرة ، فهو يألم لذلك ، ويضيق به ، ويشكو منه ، ولا سيما وهو فى سيرته بعيد كل البعد عن هذه الخصال ، مرتفع كل الارتفاع عن هذه الهنات ، فمن حقه أن يلقى من أكفائه ونظرائه مثل ما يلقى منه الأكفاء والنظراء . والذى يحتقر أعراض الحياة ويصغر المال ويزدريه ، بل يصغر المنافع كلها ويزدريها ، ولا يكبر إلا الخلق الكبير ، ولا يقدر إلا السيرة التى هى خليقة أن تقدر . لأنها مملوءة بما ينفع الناس ويصلح أمورهم ؛ الرجل الذى لا يبخل بالمال حين يطلب إليه المال ، ولا يبخل بالحياة نفسها حين تطلب إليه الحياة . خليق أن يزدرى البخل والجبن ، وأن يزدرى معهما البخيل والجبان ، وهو خليق أن يألم حين يرى من أكفائه ، أو ممن كان يعدهم أكفاءه ، جبناً وبخلا .

وانظر إلى هذه الأبيات التي يشكو فيها طرفة سيرة ابن عمه معه . وإسراف ابن عمه عليه . وتعاليه ضنًّا بالمعونة . وبخلا بالمال والجهد :

فمالِي أراني وابن عَمِّيَ مالكاً ... مَتى أَدْنُ منه يَنأَ عني ويَبْعُدِ
يَلوم وَما أدري عَلَام يَلومُني ... كما لامني في الحيِّ قُرْطُ بنُ مَعْبَدِ
وَأيأسَني منْ كلِّ خيرٍ طَلَبْتُه ... كأنَّا وَضعناهُ إلى رَمْسِ مُلْحَدِ
على غير شَيءٍ قلتهُ غير أنني ... نشَدْت فلمْ أغْفِلْ حَمُولةَ مَعْبَدِ
وقَرَّبْتُ بالْقربى وَجدِّكَ إنهُ ... مَتى يَكُ أمرٌ لِلنكيثَةِ أشهَدِ
وَإنْ أُدْعَ لِلجُلَّى أكنْ من حُماتِها ... وإن يَأْتِكَ الأَعداءُ بالجهدِ أَجْهَدِ

ثم يقول :

فَذرني وخُلْقِي إنَّني لك شاكرٌ ... ولوْ حَلَّ بَيْتي نائياً عندَ ضَرْغَدِ
فَلوْ شاءَ ربِّي كنتُ قَيْسَ بنَ خالد ... ولوْ شاء ربي كنتُ عَمْرَو بْن مَرْثَدِ
فأصبحتُ ذا مالٍ كثيرٍ وَزَارَني ... بَنُونَ كِرَامٌ سادَةٌ لِمُسَوَّدِ

أفترى عتباً أرق من هذا العتب . وألماً ألذع من هذا الألم ؟ أفترى شعراً أرق من هذين البيتين الأخيرين خاصة ؟ وقد يقال إن القدماء أنفسهم رقوا لهذين البيتين . وأن أحد هذين الرجلين اللذين سماهما رق له فحباه كثيراً من المال ، وإن لم يستطع أن يحبوه من الأبناء كثيراً ولا قليلا . على أن الشاعر يكره أن يمضي في هذا العتب المؤلم دون أن يشوبه بشيء من الفخر يثبت ما ينبغي له من الكرامة وعزة النفس والارتفاع عن الحاجة المذلة ، فانظر إليه كيف يقول :

أَنَا الرَّجلُ الضَّرْبُ الذي تَعرِفونَه ... خَشَاشٌ كرَأْسِ الحَيَّةِ المتَوقِّدِ
فآلَيْتُ لا يَنفَكُّ كَشْحِي بِطانَةً ... لِعَضبٍ رقيقِ الشَّفْرَتَين مُهَنَّدِ

وانظر إلى قوله الذي تعرفونه ، فإني أرى فيه جمالا لا يعدله جمال . ثم امض في قراءة هذه الأبيات التي يصف بها سيفه ، فهي من أروع الشعر العربي في تصوير القوة والمنعة والاعتداد بالنفس . وإذا فرغ الشاعر بعد هذا العتب

وهذه الشكوى من تصوير قوته وعزته وامتناعه على الضيم ، لم يكره أن يعود إلى كرمه وسخائه فيصورهما أجمل تصوير وأرقه وأظرفه وأدناه إلى السذاجة واليسر في هذه الأبيات :

وَبرْكٍ هُجودٍ قدْ أثارَتْ مخافتى بوَادِيَها أمْشِى بِعَضبٍ مجَرَّدِ
فمرّت كهاةٌ ذات خَيفٍ جُلالة عقيلةُ شَيخٍ كالوَبيلِ يَلَنْدَدِ
يقولُ وقدْ تَرّ الوَظيفُ وساقها ألسْتَ تَرَى أنْ قدْأتَيتَ بمُؤيِدِ
وَقالَ ألا ماذا ترَوْنَ بشاربٍ شَديدٍ علَينا بَغْيُهُ مُتَعَمِّدِ
وقال ذَرُوه إنَّما نَفْعُها له وَإلا تَكفوا قاصيَ البرْكِ يزْدَدِ
فَظَلَّ الإماءُ يَمْتَلِلْنَ حوارَها ويُسْعى عَلينا بالسديفِ المُسرهَدِ

أترى إلى هذه الإبل وقد أخذت تطمئنّ لولا أنها رأت هذا الفتى ، وهى تعلم من إتلافه لها وعدوانه عليها ما تعلم . فلما رأته أشفقت منه . ومن هذا النصل المجرد فى يده ، فندّت متفرقة منتشرة فى الأرض ؛ تلتمس مهرباً من هذا الموت الذى يلمع فى يد هذا الشاب ، ومرت منها ناقة ضخمة عظيمة أمام الفتى فيعقرها بهذا السيف فتسقط ، ويراها أبوه وهو شيخ حريص عاقل فى غير بخل ولا ضيق ؟! فانظر إليه كيف يلوم ابنه مداعباً له كأنما يشجعه على هذا الكرم . وانظر إليه كيف يتحدث إلى من حوله من مشيخة قومه مفاخراً بابنه هذا السكران ، الذى إذا شرب بغى على مال أبيه فأسرف فى البغى ؛ ثم انظر إليه وهو يمنع مَنْ حوله من لوم الفتى ، ولم يلومونه والمال صائر إليه غداً أو بعد غد ! فمن حقه أن يتعجل إتلافه والانتفاع به . ثم انظر إلى الحى وقد أقبلوا على عيدهم يشتوون ويأكلون ، ويطوف الإماء بأطايب هذه الناقة على الفتى وندمائه الذين صورهم منذ حين . فقد عرّفنا « طرفة » نفسه ، ثم صور لنا مذهبه فى الحياة ، ثم عتب على ابن عمه وشكا ، ثم عاد إلى فخره فوصف قوته ومنعته ، ووصف كرمه وجوده . وانظر إليه كيف يتحدث إلى ابنة أخيه فيقول :

فإنْ مِتُّ فانْعَيْنِى بِما أنا أهلهُ وشُقّى علىَّ الجَيْبَ يا بنةَ مَعْبَدِ
وَلا تَجْعلينى كامْرِئٍ ليسَ همُّهُ كهمِّى ولا يُغْنِى غَنائى ومَشْهَدِى

ثم انظر إليه كيف يعود فى آخر القصيدة إلى فلسفته التى كان فيها ، مجدداً تهوين الحياة ، وتحقير أمرها ، وتعظيم أمر الموت ، وما يصور من اليأس فيقول:

أَرَى المَوْتَ أَعْدَادَ النُّفوسِ ولا أَرَى بعيداً غَداً ما أَقرَبَ اليوْمَ منْ غَدِ

سَتُبْدِى لكَ الأَيامُ ما كنت جاهلاً وَيَأْتِيك بالأَخبارِ من لم تزَوَّدِ

قال صاحبى : ألم أقل لك إن هذه القصيدة من أجود الشعر وأجمله وأروعه وأرقاه ! قلت : وهل أريد منك يا سيدى ومن أمثالك الذين تصورهم إلا أن تعترفوا بأن فى الشعر القديم جمالا وروعة وغناء ومتاعاً ، لا للقدماء وحدهم بل للمحدثين مهما يبعد بهم العهد !

ساعة مع زهير (١)

قال صاحبي : أما زهير فإني أراه قريباً منا ، يسيراً علينا ، لا نجد في قراءته جهداً ، ولا نحتمل في فهمه مشقة ، ولا نحس بيننا وبينه هذه الفروق العظيمة التي نحسها بيننا وبين غيره من الشعراء ، ولهذا استثنيته من أصحابه القدماء منذ زمن بعيد ، وقرأت مطولته غير مرة ، وحفظت منها شيئاً كثيراً ، وأوشك أن أكون قد حفظتها كلها ، ثم قرأت له قصائد أخرى غير هذه المطولة ، وما أرى إلا أن المطولة ، ليست خير ما روى عن زهير من الشعر ، بل ما أشك في أن في ديوان زهير قصائد هي أروع وأجمل من هذه المطولة .

قلت : وما دمت تعرف زهيراً وتحبه : وتألف ديوانه ، وتعجب بشعره، وتحفظ منه مقداراً ليس به بأس ، فما ينبغي أن نتحدث عنه ، أو أن نضيع الوقت فيه ، والخير أن نعدل عنه إلى شاعر آخر من هؤلاء القدماء الذين تظلمهم ، وتتجنى عليهم ، لأنك لم تفهمهم ، أو لأنك لم تتكلف فهمهم .

قال : إن فيك لخصلتين أمقتهما منك ، وأنكرهما عليك ، فأنت لا تريد أن تتحدث إليّ إلا في الأشياء التي لا أحسنها ولا أتقنها ، والتي يظهر فيها فضلك عليّ ، وتقوم فيها مني مقام الأستاذ من التلميذ ، وما كنت أحسب أنك مشغوف بالتفوق والرغبة في الاستعلاء قبل أن نأخذ في هذه الأحاديث . وما يضرك أن نتحدث في شيء أستطيع أن أقول فيه ، وتستطيع أن تسمع ؟ وما بالك لا تريد أن تريح نفسك من الكلام ؟ فإني أرى كلامك لا ينقطع ، وأحب لك أن يتصل استماعك ساعة من نهار . فهذه إحدى خصلتيك . وخصلة أخرى لا أحبها منك ، وأودّ لو تتخلص منها ولو قليلا ، وهي تعمدك للصعب ، وقصدك إلى العسير ، وازدراؤك أو انصرافك عن السهل الميسور ، كأنك تؤمن لنفسك بقوة نادرة ، لا ينبغي لها إلا أن تواجه المشكلات والمعضلات ، وتتجافى عن الأمور الهينة الممهدة . والناس يحمدون هذا أحياناً ، ويرون فيه

---

(١) نشرت بجريدة الجهاد في ١٣ مارس سنة ١٩٣٥ .

شجاعة وجرأة وإقداماً . ولكنى أخافه عليك ، وأشفق أن تصيبك بعض آثاره السيئة ، فهو قد يصدر عن شجاعة وإقدام ، ولكنه قد يصدر أيضاً عن غرور وإسراف فى الاعتداد بالنفس ، ولو أنى ملكت من أمرك بعض الشيء ، لقمت منك مقام المعلم ، ولنفعتك بهذا التعليم ، فجنبتك بعض ما تتورط فيه من الشر ، وأتحت لك بعض ما تحتاج إليه من الراحه ، وعلمتك أن الحياة ليست كلها جهداً ومشقة وعنفاً وعسراً ، وإنما فيها اللين والخفض ، وفيها النعيم واليسر ، وإلا فا تعمدك لشعر لبيد ، وأمثال لبيد من هؤلاء الشعراء الذين يُحزنون ولا يُسهلون ، والذين يضطرون قارئهم ودارسهم إلى أن يحزن كما حزنوا ، ويشق على نفسه كما شقوا على أنفسهم ؟ فإذا عرض لك شاعر سهل قريب المأخذ ، يسير اللفظ ، محبب المعانى ، زهدت فيه ، وزهّدت فيه الناس ، وزعمت أنه معروف مألوف ، وأن الخير فى أن تعدل إلى من هو أقل منه وضوحاً ، وأبعد منه مالا ، كأنك ترفع نفسك عن أن تقف عند هؤلاء الشعراء الذين مُهِّد شعرهم تمهيداً ، وكشفت أغراضهم كشفاً ، وأتيحت لنا معانيهم من قريب .

قلت : ما أظن أنك مخطئ حين تستكشف لى هذه العيوب التى تحصيها من حين إلى حين ، وما أبرئ نفسى من العيب ، وما أظنك أنك تستكشف من عيوبى وسيئاتى إلا أقلها شأناً ، وأيسرها خطراً ، ومن يدرى ، لعلك لو عرفتنى حق المعرفة أن تظهر منى على سيئات ما كنت لتظنها أو تقدرها ، ولكنى مع هذا لا أعتقد أنك ناصح لى ، ولا مخلص فيما تحاول من إصلاحى ، وما أظن إلا أنك تشاركنى فى بعض هذا الغرور الذى تأخذنى به وتنعاه علىّ ، وما أحسب إلا أنك قد ضقت بالاستماع ، وكرهت هذا المقام الذى يشبه مقام التلميذ ، وسئمت ألا تظهر للناس فيما أذيع من أحاديثنا إلا هذا المظهر الذى أخذت تنكره منذ الأسبوع الماضى ، فأنت تريد أن تتحدث إلىّ كما تحدثت إليك ، وأن أسمع منك كما سمعت منى ، وأن يراك الناس مرشداً إلى جمال الشعر ، دالا عليه ، مبيناً لما فيه من المحاسن ، ولست أكره أن أتيح لك هذا الذى تريده ، وإنك لتخطئ إن ظننت أنى أحب الكلام ، وأكلف

به . وأكره الاستماع . وأتجافى عنه ، فالله يعلم ما أضيق بشيء كما أضيق بالكلام . وما أهيم بشيء كما أهيم بالاستماع . وما ذنبي إذا كان الله قد امتحنني بالكلام ، وحرمني لذة الاستماع . وما ذنبي حين يسوقك الله إليّ . فلا أكاد أسمع منك حتى أضطر للرد عليك ، وما أكاد آخذ فى ذلك حتى يتصل الكلام بى على كره منى ! وها أنت ذا تنبئنى بأنك تحب زهيراً ؛ وتكلف به ، وتراه قريباً منا ، فأنت إذن ترى فى شعره نفعاً ، وفى قراءته وفهمه لذة . وليس بينك وبينى فى ذلك خلاف . أو شيء يشبه الخلاف . والأصل فى هذه الأحاديث ، أنها أحاديث حوار بين رجلين يختلفان فى حب الشعر القديم وتقويمه ، فإذا اتفق هذان الرجلان . فقد يحسن أن ينقطع الحوار بينهما فيما اتفقا عليه .

قال : وخصلة ثالثة يتكشف عنها هذا الحديث ، وهى حبك للخصومة وإسرافك فى حبها . فأنت لا تتصور الحوار أو لا تكاد تتصوره إلا أن يكون هذا الحوار خصومة بينك وبين من تحدثه ، ولست أدرى ، لم لا يحاور الناس بعضهم بعضاً ؟ أو لم لا يحدث الناس بعضهم بعضاً فيما يحبون ، وفيما يتفقون على إكباره ، والرضا عنه ، والإعجاب به ؟ ويخيل إليّ أن هذا فن من الكلام لم تحسنه ، لأنك نشأت مخاصماً ، فغلب عليك حب الخصام . والخير فى أن تتعلم هذا النوع من الحوار الهادئ الحلو الذى لا خصام فيه ؛ والذى لا ينتهى بالفوز والهزيمة ، ولا بالانتصار والاندحار ، وأنا واثق بأنك ستجد فى هذا الحوار الذى لم تألفه راحة ولذة لا عهد لك بهما ، فابتسم للأيام وللناس ، فلعل الأيام أن تبتسم لك ، ولعل الناس أن يلقوك بغير الحذر والخوف ، وليكن بعض حديثك إلى الناس صلحاً وأمناً وسلاماً .

قلت : إنك لخصب الذهن : منطلق اللسان منذ اليوم ، وما أرى إلا أنك قد تهيأت لهذا الحديث . قال : وما يعنيك أن أكون قد تهيأت له ، أو لم أتهيأ ؟ وما يعنيك أن أكون خصب الذهن أو جدبه ؟ منطلق اللسان أو معقوله ؟ ألست ترى أنك ما تفتأ مشغوفاً بالخصومة ، متعلقاً بأسبابها ! تجدّ حيناً فتكون مرًّا ، وتسخر حيناً فتكون لاذعاً ! ألست ترى أنك خليق أن تظهر لنا ناحية من نواحي نفسك لا مرارة فيها ولا لذع ! فإن اتصال هذه الخشونة منك قد يؤذى

الصديق . ويسئم الخليط ، وقد ينتهى إلى عزلة تكرهها .

قلت : سمع الله لك ، وعفا الله عنك ! فما أعرف أنى أحب شيئاً أو أتمناه كما أحب أن يتاح لى حظ من العزلة ، أرجع فيه إلى نفسى ، وأستريح فيه من هذه الحياة الاجتماعية التى سئمت تكاليفها ، وآدتنى أثقالها . قال : فإنك لم تعش بعدُ ثمانين حولا لتسأم كما سئم زهير . قلت : وأين تقع تلك الثمانون التى عاشها زهير ، فملأت نفسه سأماً ومللا وضيقاً ، من عشرين سنة أو عشر سنين أو خمس سنين نعيشها نحن فى هذه الأيام ! إن الناس يزعمون أن أعمارهم تقصر بالقياس إلى أعمار القدماء ، وقد يصح هذا فى الحساب وعدد الأيام والشهور والسنين ، ولكنه لن يصح فى حقيقة الأمر ، وقد كانت أيام القدماء فارغة بالقياس إلى أيامنا ، وقد كانت أعوامهم لا تعد شيئاً بالقياس إلى أعوامنا . وأى شىء أيسر من أن تقيس يوماً من أيامنا فى القاهرة إلى يوم من أيام أهل المدن فى الأقاليم ، ومن أن تقيس يوماً من أيام أهل المدن هؤلاء إلى يوم من أيام أهل القرى والريف ، وأن تقيس يوماً من أيام أهل القرى هؤلاء إلى يوم من أيام أهل البادية فى نجد أو فى الحجاز ، فترى أن ساعاتنا أيام ، وأن أيامنا شهور ، وأن أعوامنا عصور طوال بالقياس إلى أزمنة أهل البادية . فإذا سئم زهير لأنه عمر ثمانين عاماً ، وإذا سئم لبيد لأنه تجاوز المئة ، فمن حقنا أن نسأم حين نعيش أعواماً قليلة تبلغ العشرة أو تزيد عليها شيئاً . قال : كلا يا سيدى ! فليس فى حياتنا من الاطراد والتشابه مثل ما فى حياة أهل البادية . وتشابه الأوقات والأحداث وطلوع الشمس عليك اليوم بمثل ما طلعت به عليك أمس ، وغروب الشمس عنك غداً بمثل ما تغرب به عنك اليوم ، هو الذى يغرى بك السأم ويبسط عليك سلطانه ، فأما أن تستقبل اليوم بغير ما استقبلت به أمس ، وأن يلقاك الليل بغير ما لقيك به النهار ، وألا تقدم على ساعة من ساعات اليقظة إلا بغير ما أقدمت به على الساعة التى سبقتها ، وبما ستقدم به على الساعة التى تليها ، فهذا خليق أن يتعبك ويضنيك ، لا أن يثير فى نفسك سأماً ولا مللا .

وقلت : فهبنى أخطأت الصواب فى التعبير ، ووضعت السأم مكان التعب ، ولكن ألست ترى أن العدوى قد مستك ، وأنك أخذت تلتمس الخصومة ،

وتتعلق بأسبابها ، وتتكلف ما يتيح لك الفوز والاستعلاء ؟ قال :

عن المَرءِ لا تسْألْ وَسَلْ عن قَرِينِه فكلُّ قَرِينٍ بالمقَارِنِ يَقْتَدِى

قلت : ما أكثر هذه القافات ، كأنما نحن فى صحن الأزهر الشريف ! أو عند القبلة القديمة . خذ بنا فى الحديث عن زهير إن شئت ، فإنى أخشى إن مضينا فى هذا الحوار أن تأخذنا القافات من كل وجه . قال : فإذا لم نُبعد عن زهير منذ بدأنا هذا الحديث ، فإنى أدعوك إلى إيثار السلم ، وتجنب الحرب والخصومة ، وهل أنشأ زهير مطوّلته إلا فى هذا ! وأى بأس عليك فى أن تخلق بيئة يملؤها السلم والأمن ، أو الرغبة فى السلم والأمن ، قبل أن نتحدث فى هذه القصيدة التى يدعو صاحبها إلى السلم والأمن ! وهذه خصلة أخرى من خصالك التى أود لو تخلص منها ، فأنت لا تحب التبسط ، ولا الأناة ، ولا التهيؤ الهادئ المترف لما تأتى من الأمر ، أو تستأنف من الحديث ، وإنما تدفع نفسك إلى ما تريد دفعاً ، وتهجم بها على ما تبتغى هجوماً ، لا تمهد الطريق ، ولا توطئ المجلس ، ولا تحب خلق البيئة كما يقول الفرنسيون . أنت عاجل مندفع ، وما ينبغى أن يدرس الشعر على عجل ، ولا أن يذاق الشعر بالاندفاع ، إنما ينبغى أن يتهيأ دارس الشعر للشعر ، وأن يسعى إليه رفيقاً به وبنفسه ، فقد تضر العجلة ، ويسوء الاندفاع ، وقد يراع طائر الشعر فيرتفع ، ثم يمضى فى الجو حتى إذا بلغت موقعه لم تجد شيئاً .

قلت : ونستطيع أن نمضى فى الحديث على هذا النحو ، لا أقول شيئاً إلا كشفت من ورائه عن عيب . حتى إذا فرغنا منه ، كنت قد أحصيت علىّ طائفة من العيوب ، ولست أرى بذلك بأساً لولا أنى أظن أنا إنما التقينا لنتحدث عن زهير لا عنى .

قال : فهل نتحدث إلا عن زهير ! ألست تلاحظ أنى حين أذكرك بما ينبغى من خلق البيئة وتهيئة الجو ، إنما أمعن معك إمعاناً فى درس زهير ؟ فقد كان زهير من أقدر الشعراء القدماء على خلق البيئة هذه ، وتهيئة الجو الشعرى ، قبل أن يمعن بالسامعين فيما يقصد إليه من الأغراض ، وأى خلق للبيئة وأى تهيئة للجو ، وأى إعداد للسامعين والقارئين ، أبرع من هذا القسم الأول من قصيدته المطولة ؟ إنه يعمد إلى هذا فى رقة وظرف ورفق ، وفى وداعة نفس

وحلاوة روح ، تثير فى نفسك هذه الأشجان الهادئة الرقيقة التى تخرجك عن طورك العادى ؛ ولا تبلغ بك الحزن الممض . ولا اليأس المهلك ، ولا الأسى العميق . وإنما هى تحيي فى قلبك طائفة من الذكرى البعيدة ، التى طال عليها العهد . فلم يبلها ولم يفتها ولم يمحها ؛ وإنما خفف من حدتها . وجعلها خليقة أن تثير فى النفس شوقاً حلواً . وحزناً هادئاً . لا لوعة محرقة . انظر إليه وهو يتخيل أنه مر بآثار لم يعرفها . فيلقاها بالحزن الصريح ، والبكاء الصريح ، لم يجهلها فيمر بها غير حافل ولا مكترث ، وإنما هو يشك فيها ؛ فيقف عندها ؛ وينظر إليها ، ويسأل عنها . وما يزال ينظر ويستقصى ، وما يزال يفكر ويسأل . حتى يكد نفسه ويجهدها . ولكنه ينتهى بعد الكد والجهد إلى معرفة الدار . وأى غرابة فى ذلك ؟ لقد بعد العهد بها . فهو لم يرها منذ عشرين عاماً . وفى عشرين عاماً ما يغير المعالم ، ويمحو الآثار . وفى عشرين عاماً ما ينسى المألوف ، ويصرف عما لم يتعود الناس أن ينصرفوا عنه . فحسب زهير أنه استطاع أن يلتفت إلى الدار حين مرّ بها ، وأنه استطاع أن يقف عندها ، ويسأل عنها ، ويطيل الوقوف . ويلح فى السؤال حين التفت إليها ، وهو بعد ذلك ، يصور ما بقى من هذه الدار تصويراً هادئاً أيضاً . فزهير فى هذه القصيدة كلها هادئ ، بل هو فى شعره كله هادئ ، وليس من شك فى أنه أطال الوقوف ، وألح فى السؤال ، وأحس حزناً مهما يكن هادئاً ، فقد كان طويلا ملحاً ، ولكنه على ذلك لا يريد أن يجهدك ، ولا أن يشق عليك ، فهو يجتزئ باليسير من هذا التصوير ، باليسير الذى ألفه الناس ، ويؤديه إليك فى لفظ سهل ، ليقرب نفسك إلى نفسه ، وليهيئك تهيئة حسنة لتسمع له ، وتفهم عنه :

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمنَةٌ لَمْ تَكلَّمِ ... بِحَوْمانَةِ الدَّرّاجِ فالمُتَثَلَّمِ

دِيَارٌ لها بالرَّقْمَتَيْنِ كأَنَّها ... مَراجِيعُ وَشْمٍ فى نَواشِرِ مِعْصَمِ

بها العِينُ والأَرْآمُ يَمْشِينَ خِلفَةً ... وَأَطْلاؤُها يَنْهَضْنَ من كل مَجْثَمِ

وقَفْتُ بها من بعد عِشْرِينَ حِجَّةً ... فَلأْياً عرفتُ الدارَ بعد تَوَهُّمِ

أَثافِيَّ سُفعاً فى مُعَرَّسِ مِرْجَلِ ... وَنُؤْياً كَجِذْمِ الحَوْضِ لم يَتَثَلَّمِ

فلما عرفتُ الدَّارَ قلتُ لربعِها ألا انعمْ صباحاً أيها الرَّبْعُ واسْلَمِ

فهذه المعانى كلها مألوفة شائعة بين الشعراء ، فتشبيه الرسوم الباقية فى الأطلال البالية برجع الوشم على المعصم أو على ظاهر اليد كثير ، وتصوير الدار آهلة بالوحش بعد أن كانت آهلة بالأحياء كثير أيضاً ، وتسمية هذه الآثار القليلة التى بقيت ولم يمحها قدم العهد ، كهذه الأثافى التى كان يقام عليها المرجل ، وهذا النؤى الذى كان يعصم الخباء من الماء ، كثيرة شائعة أيضاً . ولكن ظرف زهير فى أنه لم يطل فى وصف هذا كله ، وإن أطال الوقوف عنده ، والنظر فيه ، وإنما لمح هذا فى شعر لمحاً ، واختاس منه بعض الصور اختلاساً ، فكانت صوراً جميلة ، منها الرائع الذى يبعث فى النفوس بهجة ، ومنها القاتم الذى يبعث فيها حزناً وأسى ، فصورة هذه الوحش التى اتخذت الدار مرتعاً ومقاماً ، فهى تمشى فيها خلفة ، أى فى جهات متضادة ، وأطلاؤها الصغار ينهض من هنا ومن هناك ، جميلة تثير البهجة فى النفوس لما فيها من تمثيل الحياة الطبيعية ، وما يضطرب فيها من حركات هذه الوحش التى تقبل وتدبر ، وتجثم وتنهض ، متأثرة بغرائزها ، وهذه البهجة نفسها لا تخلو من حزن ، فإن هذه الوحش إنما تنعم بالحياة والحرية فى ديار قد كان ينعم فيها بالحياة والحرية قوم أحبهم الشاعر وأحبوه ، ثم أزعجوا عنها وانقطع عهدهم بها . وصورة هذه الآثار التى قاومت البلى ، وبقيت على بعد العهد ، وهى قليلة جداً ، هى هذه الأثافى وهذا النؤى ، هذه الصورة قاتمة ، مثيرة للحزن المظلم حقاً . ثم انظر إلى تحيته لهذه الدار بعد أن عرفها ، كيف يؤديها فى ظرف ودعة ، وفى لفظ جميل يسير ، لا جهد فيه ولا عناء :

* ألا انْعِمْ صَباحاً أيها الرَّبْعُ واسْلَمِ *

وقد زعمت لك أن زهيراً هادئ فى قصيدته هذه كلها ، هو فى أولها محزون مذعن لصروف القضاء ، وهو فى آخرها حكيم يفكر فى الحياة والأحياء ، ويستخرج من تفكيره هذا العبر والعظات ، وهو بين ذلك يمدح الأخيار ، ويشجعهم على حب الخير ، ويدعو الناس إلى أن يتواصلوا بالبر والمعروف ، ويتناهوا عن الإثم والعدوان ، فنفسه حين كان ينشئ هذه القصيدة ، نفس

الحكيم المطمئن ، الذى لا يزدهيه فرح ولا حزن ، ولا تستخفه عاطفة مهما تكن . وانظر إليه كيف عرف الدار بعد جهد فحياها فى هدوء ؛ ثم لم يستخفه الشوق . ولم يخرجه الطرب عن طوره ؛ وإنما وقف مفكراً متذكراً ، ثم أحيا ما كان فى نفسه من الذكرى ، وبعث فيه حركة ونشاطاً ، وخيل إلى نفسه أنه يعيش مع صاحبه فى تلك الأيام أو فى ذلك اليوم الذى ارتحل فيه أحباؤه عن هذه الديار . فهو يراهم ، وهو يتبعهم طرفه ، حتى إذا بعدوا عنه ، وفاتوا مرمى الطرف ، أتبعهم نفسه ، ورافقهم فى سيرهم من قريب ، وهو يصور لنا هذا كله فى طائفة من الصور ، قريبة يسيرة مألوفة ، ولكنها على هذا أو لهذا جميلة حقاً :

تَبَصَّرْ خَلِيلِى هل تَرَى مِنْ ظَعائِنٍ ... تَحَمَّلْنَ بالعَلياءِ من فَوْقِ جُرْثُمِ

جَعلن القَنانَ عن يَمينٍ وَحزْنَهُ ... وَكَمْ بالقَنَانِ من مُحِلٍّ ومُحْرِمِ

علَوْنَ بأَنْماطٍ عِتَاقٍ وَكِلَّةٍ ... وِرَادٍ حواشِيها مشاكِهة الدَّمِ

ظَهرْنَ مِن السُّوبانِ ثُمَّ جَزَعْنه ... عَلَى كلِّ قَيْنِيٍّ قَشِيبٍ وَمفْأَمِ

ووَرَّكْن فى السُّوبانِ يَعْلُونَ مَتْنَه ... عَليْهِنَّ دَلُّ النَّاعِمِ المُتَنَعِّمِ

بكَرْن بكوراً واسْتحَرن بِسُحْرَةٍ ... فهُنَّ لوادِى الرَّسِّ كاليَدِ للْفَمِ

وفِيهنَّ مَلهًى لِلصَّدِيقِ ومَنْظَرٌ ... أَنِيقٌ لِعيْنِ النَاظِرِ المُتوسِّمِ

كَأَنَّ فُتاتَ العِهْنِ فى كلِّ منزِلٍ ... نَزَلْنَ بِهِ حَبُّ الفَنَا لَم يُحطَّمِ

فلما وَرَدْنَ الماءَ زُرْقاً جِمامُهُ ... وضَعْنَ عِصِىَّ الحَاضِرِ المتَخَيِّمِ

أرأيت كيف رسم لأحبائه الطريق التى سلكوها ؟ أو كيف رافق أحباءه فى الطريق التى سلكوها ؟ يتبعهم بطرفه أولا ، فيصف ركبهم وقد بعد عنهم ، ثم يسايرهم من قريب . فيصفهم وصف المرافق لهم ، وأى وصف ، برىء من كل تكلف ، حرّ من كل قيد ، يظهر عليه من السذاجة ما يخيل إليك أن صاحبه لم يتكلف فيه عناء ، ولم يحتمل فيه جهداً ، ولم ينفق فيه وقتاً ، ولكن احذر أن تنخدع ، فلم يكن زهير من هؤلاء الشعراء الذين يقولون فى غير تكلف ولا عناء ، إنما كان صاحب فن وتجويد ، وهو صاحب الحوليات

فيما يقول الرواة ، إنما آية البراعة الصحيحة فى الفن ، أن تتكلف الجهد ، وتحتمل العناء ، ثم تخدع الناس عن ذلك . فتخيل إليهم أنك قد أنشأت ما أنشأت كأنه جاء عفو الخاطر ، وأىّ سذاجة أحلى من هذا البيت :

كأَن فتَاتَ الْعِهْن فى كلِّ منزلٍ   نزلْنَ بِهِ حَبُّ الْفَنا لم يُحَطَّمِ

أترى إليه كيف آثر هذه القطع من الصوف التى كانت تسقط من أهداب ما كان ينشر على الهواج من الثياب والأنماط ؟ فوقف عندها ، وشبهها هذا التشبيه الظريف بحب الفنا ، أو بعنب الثعلب ، إن كنت فى حاجة إلى التفسير ! ثم أى سذاجة أصدق فى تمثيل الحب والشوق والرغبة معاً من هذا البيت ؟

وفِيهِنَّ مَلْهًى لِلصَّدِيق ومَنظَرٌ   أَنِيقٌ لِعَيْنِ النَّاظِرِ المتوَسِّمِ

ثم انظر إلى هذا البيت الذى ختم به قصته القصيرة الجميلة :

فَلما وَرَدْنَ الْماءَ زُرقاً جمامُه   وَضَعْنَ عِصِىَّ الْحاضِرِ الْمُتَخَيِّمِ

ولماذا قصر هذه القصة ؟ وأوجز الوصف لهذه الرحلة ؟ وما باله نسى ناقته ، أو أعرض عنها فلم يصفها ساكنة ولا متحركة ، ولم يمض فى هذه التشبيهات التى تعوّد الشعراء أن يمضوا فيها ؟ لأنه عن هذا كله مشغول ؛ مشغول ، لا أقول بمدح صاحبيه اللذين مدحهما ، بل بالدعوة إلى السلم التى يحبها ، ويكلّف بها، ويريد أن يحببها إلى الناس ، ويتخذ مدح صاحبيه هذين وسيلة إلى ما يريد .

ولست أريد أن أتحدث إليك عن مدح زهير فى هذه القصيدة ، فهو مدح لا حظ له من هذه البراعة الشعرية التى نعرفها لزهير ، وإنما يلتمس مدح زهير فى قصائد أخرى ، لم تشغله فيها الحكمة عن الحياة الواقعة ، ولم تشغله فيها الجماعة عن الفرد ، ولم تشغله فيها المنفعة العامة عن منفعته الخاصة . أما فى هذه القصيدة فزهير شاعر قومه وهو يتحدث عنهم ، ويتحدث إليهم ، وهو يصرفهم عما يكرهون ، وعما يكره لهم ، وعما يدفعون إليه بهذه الأحقاد التى لا تريد أن تخمد ، وهذه الحزازات التى لا تريد أن تنقضى ، وهذه الدماء التى لا تريد أن تجف ، وهو من أجل ذلك ، لا يفرغ لهرم ، ولا للحارث ، إلا

من حيث إنهما قد نصرا السلم : وعصما قومهما من الفتنة والفساد .

ولست أحب أن أقف من كل هذا القسم الجميل من قصيدة زهير إلا عند قطعتين اثنتين ، إحداهما هذه التي يصف فيها الحرب فيقول :

أَلا أَبْلِغِ الأَحْلافَ عَنِّي رِسالَةً	وَذُبيانَ هَلْ أَقسَمْتُمُ كُلَّ مُقسَمِ
فَلا تَكْتُمُنَّ اللهَ ما فِي نُفُوسِكُمْ	لِيَخْفَى وَمَهْما يُكتَمِ اللهُ يَعْلَمِ
يُؤَخَّرْ فَيوضَعْ فِي كِتابٍ فَيُدَّخَرْ	لِيَوْمِ الْحِسابِ أَوْ يُعَجَّلْ فَيُنْقَمِ
وَما الْحَرْبُ إِلا ما عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمُ	وَما هُوَ عَنْها بِالْحَدِيثِ الْمُرَجَّمِ
مَتَى تَبْعَثُوها تَبْعَثُوها ذَمِيمَةً	وَتَضْرَ إِذَا ضَرَّيْتُمُوها فَتَضْرَمِ
فَتَعْرُكُكُمْ عَرْكَ الرَّحَى بِثِفالِها	وَتَلْقَحْ كِشَافاً ثُمَّ تُنْتَجْ فَتُتْئِمِ
فَتُنْتِجْ لكُمْ غِلْمانَ أَشْأَمَ كُلُّهُمْ	كَأَحْمَرِ عادٍ ثُمَّ تُرْضِعْ فَتَفْطِمِ
فَتُغْلِلْ لَكُمْ ما لا تُغِلُّ لِأَهْلِها	قُرًى بِالْعِراقِ مِنْ قَفِيزٍ وَدِرْهَمِ

فزهير فى هذه الأبيات شيخ مجرب ، طويل التجربة ، كثير الانتفاع بها . وهو شيخ بدوى ؛ تجاربه طويلة نافعة ؛ ولكنها على ذلك قليلة فى النوع ، لم يجرب إلا أمور البادية . ثم هو بعد ذلك . وقبل ذلك كله ، شاعر يحس الأشياء حساً قوياً ، ويشعر بها شعوراً عنيفاً ، ويصورها تصويراً رائعاً ؛ فانظر إلى هذه التشبيهات التى تزدحم ، حتى يكاد بعضها أن يركب بعضاً ، كما تقول أنت فى بعض ما كتبت عن زهير ؛ فالحرب مشبهة بالرحى ، وهى مشبهة بالناقة ، وهى مشبهة بالنار . وهى مشبهة بالأرض الخصبة التى تغل لأهلها الغلة الموفورة ، وكل هذا فى لفظ جزل وسهل معاً .

وأما القطعة الثانية فهى قصة حصين بن ضمضم هذه التى صورها أجمل تصوير وأروعه وأصدقه فى تمثيل حياة أهل البادية ، فحصين بن ضمضم هذا موتور ؛ قد قتل أخوه فى بنى عبس ؛ وقد تصالح القوم ، واستقرت بينهم السلم ، ولكنه هو لم يرض عن الصلح ، ولن يرضى حتى يثأر لأخيه ، فهو يكتم أمره فى نفسه ، وينتظر حتى تسنح له الفرصة ، وما أسرع ما تسنح له الفرصة ! وإذا هو يظفر برجل من عدوه فيقتله . لا خائفاً ولا متأثماً ، فهو يعلم حق

العلم أنّ قومه لن يخذلوه ، وكان يعلم حق العلم أن قومه سيمنعونه من اقتراف الإثم إن علموا به قبل وقوعه . فليكتمهم الأمر إذن . وليضعهم أمام الأمر الواقع كما يقول المحدثون ؛ وها هو ذا قد فعل ، وهؤلاء عدوّه قد ركبوا يطلبون القصاص ، وهؤلاء قومه قد أزمعوا نصر صاحبهم ؛ ولكن هرماً والحارث يكرهان الحرب ، ويريدان لقومهما السلم . فهما ينهضان بجناية حصين حتى يرضيا عبساً .

فانظر كيف صوّر زهير هذه القصة :

لعمرى لنِعمَ الْحيُّ جرَّ عليهم	بما لا يواتِيهم حُصَينُ بنُ ضَمْضَمِ
وكان طوى كَشْحاً على مسْتَكِنَّةٍ	فلا هو أبداها ولم يتجَمْجَمِ
وقال سَأَقضِى حاجتِى ثم أتَّقِى	عَدُوِّى بِألْفٍ مِنْ وَرائِىَ مُلْجَمِ
فشدَّ وَلَمْ يُفْزِعْ بُيُوتاً كثِيرَةً	لَدَى حَيثُ أَلْقتْ رَحْلَها أمُّ قَشْعَمِ
لَدَى أَسَدٍ شاكِى السِّلاحِ مُقَذَّفٍ	لَهُ لِبَدٌ أَظْفارُهُ لم تُقَلَّمِ
جَرِىءٍ مَتَى يُظْلَمْ يُعاقِبْ بِظلْمِهِ	سرِيعاً وَإلا يُبْدَ بِالظلْمِ يَظْلِمِ

ألست ترى فى هذه الأبيات أجمل صورة . وأكملها للرجل البدوى ، الذى يجمع إلى الشجاعة والإقدام . مكراً ودهاء وثقة بالنفس ، واعتماداً على القبيلة وقدرة على الكتمان ؟ فهذا الأعرابى حصين بن ضمضم قد رأى الصلح فلم ينكره جهرة ، ولم يعرفه فيما بينه وبين نفسه . وإنما طوى كشحه على خطة دبّرها وأحكم تدبيرها ، ثم أخفاها وأحكم إخفاءها ؛ لم يصرّح بها ولم يشر إليها ، وإنما أسرّها بينه وبين ضميره . واستوثق من أنها ناجحة . ومن أنه آمن بعدُ من إنفاذها ، أليس من ورائه قومه يحمونه راضين أو كارهين بألف من الخيل ؟ فلما أتم خطته ، أقدم وهو قوى قادر على الإقدام ، هو أسد مقذّف . يقذف نفسه ويقذفه قومه كلما جد الجد، لم يقلّم أظفاره خوف ، ولم يقلم أظفاره أمن ، لا يهاب حرباً . ولا يذعن لسلم ، لا يرضى من ظالم ظلماً . ولا يطمئن إذا مسه الظلم ، حتى يعاقب الظالم ، فإن لم يظلمه أحد فهو لا يتحرج من أن يظلم الناس . وفى هذه الأبيات جزالة لفظ تملأ الفم دون أن تتعبه ، وتروع السمع دون أن تشق عليه .

ثم انظر إلى هذين البيتين اللذين أعجبت بهما إعجاباً قوياً فى بعض كتبك ، واللذين أعجب بهما أنا إعجاباً لا حد له ، واللذين يصور الشاعر فيهما حياة هؤلاء الناس الذين لا يكفون عن الحرب إلا ليستعدوا لها ، ولا يقدمون على الحرب إلا ليتحملوا أثقالها وآلامها، حتى إذا بلغوا من ذلك حظهم الذى لا زيادة فيه لمستزيد ، لجأوا إلى السلم يجددون فيها قوتهم ، ويستكملون فيها عُدَّتهم ، ثم استأنفوا نشاطهم للحرب من جديد :

رَعوْا مارعوا مِنْ ظِمْئهمْ ثُمّ أَوْرَدُوا غِمارًا تَسِيلُ بِالرِّماح وَبِالدمِ
فَقَضَّوْا مَنَايَا بَيْنَهُمْ ثُمَّ أَصدَرُوا إِلَى كَلَإٍ مُسْتَوْبَلٍ مُتَوَخَّمِ

ويعجبنى هذا التمثيل البديع الذى يشتق اشتقاقاً من حياة البادية ، ويضرب فيه المثل بأقطاع الإبل إلى رعيها إياها ، ثم ورودها الماء ، ثم انصرافها إلى الرعى ، لترد الماء إذا أدركها الظمأ . وهكذا ما تنفك مضطربة بين إيراد وإصدار ، ولكنها لا ترد ماء صفواً ، وإنما ترد غماراً تسيل بالدم وبالرماح ، وهى لا ترعى عشباً هنيئاً ، وإنما ترعى كلأ وبيلا كله علل وأدواء .

قلت لصاحبى : ألا ترى أنك قد ألقيت محاضرة طويلة عن زهير ، أو عن قصيدة زهير هذه ؟ أو لا ترى أنك قد بلغت من الحديث فى غير مقاطعة ولا محاورة ما يرضيك ؟ ولكن ألا تسمح بعد أن أصبح الأمر كله لك ، أن أنبهك إلى أن فى هذه الأبيات التى ترويها لزهير ، وتطيل فى تفسيرها وتحليلها ، شيئاً كثيراً من الخلط والاضطراب ! فألفاظ توضع مكان ألفاظ ، وأبيات تقدم حيث يجب أن تتأخر ، وأخرى تؤخر حيث يجب أن تتقدم . ألا تظن أن من الخير أن تحاول إصلاح هذا الاضطراب أو تعليله ، أو التماس أثره فى صحة القصيدة أو نحلها ؟ قال مغضباً ، وقد ضرب يداً بيد : كلا يا سيدى ! كل هذا لا يعنينى ، وإنما يعنيك أنت ، ويعنى أمثالك من الذين يدعون اللباب ويتعلقون بالقشور ، ويريدون أن يصححوا هذا النص ، ويقدحوا فى ذاك ، وما يعنينى من هذه الثرثرة إذا كان النص فى نفسه جميلا ، يعجبنى ويبعث فى نفسى من الحياة والنشاط ، ومن اللذة والمتاع ، ما أنا فى حاجة إليه ، ومن زعم لك أنى طالب من طلاب الجامعة أتعلم عليك وعلى

زملائك تحقيق النصوص ؟ قلت : فإنى أخشى أن تكون هذه القصيدة من شعر زهير قد فتنتك وصرفتك عن غيرها من روائع هذا الشاعر القديم ، فلزهير ، مدح ، من الحق أن يستكشف عما فيه من الجمال ، ولزهير وصف ، ليس أقل دقة ولا قوة ولا حياة من وصف لبيد ، ولزهير غزل أيضاً ، لا يخلو من عاطفة رقيقة قوية . قال ، وهو ينهض وقد ملأ فاه بضحك فيه شيء غير قليل من الاعتداد بالنفس : فلست أكره أن نتحدث فى ذلك ، ولست أكره أن أدع لك الحديث فى ذلك إذا كان الأسبوع المقبل .

ثم انصرف عنى ، وهو راض عن نفسه كل الرضا ، فذكرت لقاءه فى الأسبوع الماضى ، حين أقبل علىّ وهو ساخط علىّ وعلى نفسه كل السخط ، وحمدت لزهير ولشعر زهير أثرهما فى هذا الكائن الغريب .

ساعة أخرى مع زهير [1]

قلت لصاحبي : إن ما بقّى لنا من شعر زهير هو الذى حفظه الديوان ، وقد ذهب أكثره فى المدح ، وقليل منه فى الهجاء ، وأقله فى الرثاء ، وبعضه فيما يعرض من هذه الأحداث التى كانت تدفع البدوى لقول الشاعر ، ولم يكد يعرض زهير فيما حفظ لنا عنه على الأقل بهذا الشعر الخالص الذى لا يريد الشاعر به إلا الغناء ، وتصوير ما يضطرب فى النفس من خواطر ، ويثور فيها من عواطف ، هذا الشعر الذى لا يتخذه الشاعر وسيلة إلى غرض من أغراض الحياة ، أو عرض من أعراضها المألوفة ، وإنما هو غاية فى نفسه ، لا يقصد الشاعر به إلى غيره ، هو يحس ويشعر ويفكر ، وهو يريد أن يصور ما يجد من حس وشعور وتفكير ، والمعروف من سيرة زهير ، إن صح أن نسمى ما حفظته كتب الأدب من أخباره سيرة ، أنه كان كثير المدح ، انقطع إلى جماعة من أشراف غطفان فاستنفد فى مدحهم أكثر ما قال من الشعر ، وكان يتكسب بهذا الشعر ، وكان يفيد عنه مالا كثيراً ؛ والمعروف كذلك من أمر زهير ، فيما يروى الرواة ، أنه كان مجوداً ، شديد العناية بشعره ، يطيل التهيؤ له ، والعمل فى إنشائه ، ثم يطيل النظر فيه ، ثم يناله بالحذف والإصلاح حتى يستقيم له ، ثم ينشره بعد ذلك ويذيعه فى الناس ، وما بقّى لنا من شعر زهير يصدق هذا المعروف من سيرته ، ويحقق ما تحدث به الرواه ، فديوان زهير مملوء بمدح الأشراف من غطفان ، وبمدح هرم بن سنان وقومه خاصة ، ونحن حين نقرأ هذا الشعر نحس فيه العمل ، ونتبين فيه الصنعة ، ولا نشك فى أن صاحبه قد تكلف فى إنشائه وتجويده جهداً غير قليل .

ولكن زهيراً مع أنه لم يكد يقصد فى شعره إلا إلى المدح والهجاء والرثاء ، قد مس فنوناً أخرى من الشعر فى مقدمات قصائده : فأحسن مسها ، بل

---

(١) نشرت بجريدة الجهاد فى ٢٠ مارس سنة ١٩٣٥ .

عالجها فأحسن علاجها ، ووفق فيها لإجادة قلما أتيحت لغيره من الشعراء الذين عاصروه . لا ينبغى أن نستثنى من ذلك إلا أفراداً من الفحول الذين حفظ لنا من شعرهم شيء غير قليل ، ولو قد حفظ لنا شعر زهير كله أو أكثره لكان من الجائز بل من الراجح ، أن نقدمه ، كما كان يقدمه أهل الحجاز على الفحول الذين عاصروه وناظروه .

ولك أن تختار المذهب الذى نتخذه فى الإلمام بما نحب أن نلم به فى هذا الحديث من شعر زهير . فأمامك طريقان : إحداهما أن نعمد إلى قصيدة من شعر زهير فنتحدث عنها . ونلم بما طرق فيها من فنون الشعر فنًّا فنًّا . حتى إذا فرغنا منها ، عمدنا إلى قصيدة أخرى فذهبنا فى العناية بها هذا المذهب .

والأخرى أن نعنى بفنون زهير دون تشدد فى الوقوف عند قصائده . لنرى كيف يعالج هذه الفنون فى قصائده المختلفة : وهذا المذهب الثانى أحب إلى ، فما أظن أنك فى حاجة إلى أن أثبت لك أنّ قصيدة زهير مستقيمة . مطردة الأجزاء . تتحقق فيها الوحدة الشعرية على أكمل وجه وأدقه .

قال صاحبي : فأى المذهبين أحببت فإنى راض به ، مطمئن إليه ، فما يعنيني أن تذهب هذا المذهب أو ذاك ، أو تسلك هذه الطريقة أو تلك ، ما دمنا نقرأ شعراً جميلا . ونتحدث عما فيه من جمال ؛ وأنا أعرف أنك لا ترضى عن مثل هذا النحو من الإهمال والتهاون ، لأنه لا يلائم ما ينبغى للدرس العلمى من نظام ، ولكن قلت غير مرة ، وسأقول لك غير مرة ، فيما يظهر : إنى تركت الدرس العلمى للجامعة والجامعيين . وآثرت الحرّية المطلقة فى الحديث ، هذه الحرّية التى لا يقيدها شيء من هذه الأوضاع التى تخلقونها لأنفسكم ، وتفرضونها عليها ، فتجعل علمكم جافياً خشناً وغليظاً فجًّا ، لا أدرى كيف تسيغونه أو تجدون فيه لذة ومتاعاً .

قلت : فدع الاستطراد هذه المرة ، والوثوب من فكرة إلى فكرة . ومن موضوع إلى موضوع ، وقف بنا عند شعر زهير لا نعدوه ، وقد أكثرت الكلام فى الأسبوع الماضى ، وأصبح من حقك أن تستريح ، قال : بل أصبح من حقك أن تقول فى هذا الأسبوع ، فأنت لا تريد لى رحلة . وإنما تريد أن تفرض علىّ الصمت لتستأثر من دونى بالكلام ، ولست أدرى ما حبك للكلام

وتهالكك عليه وأنت تتكلم فى غير انقطاع ! فقلت : إنى أردك إلى زهير مرة أخرى . ولست أكره أن تقول إذا وجدت ما يدعو إلى القول ، أو إذا وجدت ما تقول ، فلست مشغوفاً بالكلام ، ولا متهالكاً عليه ، وما كنت أظن أن ذاكرتك قصيرة إلى هذا الحد ، فأنت الذى دفعتنى إلى هذا الحديث دفعاً ، ولولا تحدّيك وتصديك لما خضنا فى هذه الأحاديث . قال : ففى أى فنون الشعر التى طرقها زهير تريد أن نتحدث ؟ قلت : إنك لذكى نادر الذكاء ، وإنك لتلقى من الأسئلة ما لا يحتاج إلى إلقائه رجل يحسن ما يأتى وما يدع ؛ إنما ينبغى فيما أظن أن نبدأ بالفن الذى يبدأ زهير به حين يعمد إلى قول الشعر فزهير غزل كغيره من الشعراء إذا أخذ فى النظم . قال : إنك لسيئ الخلق منذ اليوم ، فما عرفت منك هذه الحدة منذ أخذنا فى هذه الأحاديث ، وما أظن أن مذاكرتنا لشعر القدماء تستقيم وتتصل إذا مضيت مع حدتك هذه ، فأنكرت علىّ كل شىء ، ولمتنى فى كل شىء ، وفى غير شىء ، ولست أدرى كيف يستقيم لصاحب الخلق السيئ ، والمزاج الحاد ، أن يفهم الغزل أو يذوقه أو يتحدث فيه ؟ فرفه على نفسك يا سيدى ، وانصرف عن هذا الحديث إلى التدخين ، أو إلى شرب القهوة ، أو إلى شىء من الرياضة ، حتى إذا اطمأنت نفسك ، واعتدل مزاجك ، أمكن أن نأخذ فيما نحن بسبيله من حديث الشعر ، فنقد الغزل محتاج إلى جوّ غير هذا الجو ، وإلى استعداد غير هذا الاستعداد . قلت : إنك لم تقرأ شعر زهير كله فيما يظهر ، ولم تر أنه قد يتغزل كارهاً للغزل ، ويشبب زاهداً فى التشبيب ، ويتحدث عن صاحبته ضيقاً بها ، زاهداً بها ، معرضاً عنها ، متمنياً لو استطاع أن يرسلها إلى الشيطان كما يقول الفرنسيون ، وأين أنت من همزيته المشهورة التى يهجو بها بنى عليم والتى يقول فيها :

فَلَمَّا أَنْ تحَملَ آلُ ليْلى جَرَتْ بَينى وَبَيْنهم ظِباءُ
جَرَت سُنُحاً فَقلْتُ لَها أجيزِى نوًى مشْمولَةٌ فَمَتَى اللقاءُ
تَحَمَّلَ أهْلها منها فبانُوا عَلَى آثارِ منْ ذَهَبَ العفاءُ

لقدْ طَالَبتها ولِكلِّ شَيْءٍ وَإنْ طالَتْ لَجاجتهُ انتِهاءُ

فأنت ترى أن زهيراً ليس أقل منى حظًّا من سوء الخلق ، ولا ضيقاً بالغزل وبمن يقال فيهم الغزل قد سافرت صاحبته على غير رضى منه ، أو فى غير ضرورة إلى السفر ، وقد ألحت عليه بالهجر وألح عليها فى المطالبة ، ولكل شيء أجل ؛ مهما يطل أمره ، وتشتد اللجاجة فيه ؛ حتّى حسن الخلق ، وحسن الخلق مع الأحباء . فإذا أبيح لزهير ، أو إذا أباح زهير أن يكون سيئ الخلق مع صاحبته ، فقد أبيح لنفسى أن أكون سيئ الخلق معك ، وليس إظهار الضجر بطول الهجر ، واتصال البعد مقصوراً على زهير . فقد قال فيه غيره من القدماء الذين عاصروه ، وما أظنك نسيت قول لبيد :

فَاقطَعْ لُبانَةَ مَن تعَرضَ وَصْلهُ ولَخَيْرُ وَاصِلِ خَلَّةٍ صَرَّامُها

وأظنك قد قرأت أول قصيدة دريد بن الصمة الّتى يقول فيها :

أرثَّ جديدُ الْحَبْلِ مِنْ أمِّ مَعبدِ بِعاقِبةٍ وَأَخْلَفَت كُلَّ موْعِدِ

وَبانَتْ ولمْ أَحْمَدْ إليْك لِقاءها ولَمْ أَرْجُ مِنها رَجعَةَ الْيَوْم أوغَدِ

وضيق امرئ القيس بصاحبته حين امتنعت عليه ، وأسرفت فى الامتناع ؛ مشهور وأشهر من أن أذكر به :

أَفاطِمُ مهْلاً بعْضَ هذا التَّدَلُّلِ وإنْ كنْتِ قدْأَزْمَعْتِ صَرْمِى فَأَجْمِلِى

وإنْ تكُ قد ساءتكِ منى خليقَةٌ فسُلى ثِيابِى مِن ثِيابِك تَنسل

أَغَرَّكِ مِنى أَنَّ حُبَّكِ قاتِلِى وَأَنَّكِ مَهْماتأْمُرِى الْقَلبَ يَفعلِ

قال صاحبي : إنك لتذهب اليوم مذهب القدماء تردنى عن الاستطراد ولكنك تمعن فيه ، فتدع زهيراً إلى لبيد ، ثم إلى دريد ؛ ثم إلى امرئ القيس . ومن يدرى ! لعلك لو خليت بينك وبين الاستطراد أن تمضى متنقلا بين شاعر وشاعر من هؤلاء الذين ضاقوا بصاحباتهم حتّى ننسى زهيراً . قلت : ومع ذلك فإن زهيراً لم يكد يظهر هذا الضيق حتى عاد إلى صاحبته ، وقد استحضر صورتها ، فأثنى عليها فى هذه الأبيات الّتى كان القدماء يعجبون بها إعجاباً

شكليًّا – إن صح هذا التعبير – لأنه جمع فيها بين هذه التشبيهات الثلاثة ، وإن لم يصور فيها حبًّا ولا عاطفة ، وذلك حين يقول :

تَنازَعَها المها شَبهاً وَدُرُّ النَّ ... حورِوَشاكَهتْ فيها الظِّباءُ

فأَما ما فُوَيْقَ العِقدِ منها ... فمِن أَدْماءَ مرْتَعها الخَلاءُ

وأما المُقلَتانِ فمن مهاةٍ ... ولِلدُّرِّ المَلاحَةَ والنَّقاءُ

فهو كما ترى يشبهها بالدر والمها والظباء جملة ، ثم يعود إلى تفصيل هذه التشبيهات ، فيبين وجوه الشبه فيها تصريحاً لا تلميحاً ولا إشارة ، وأنا أكره هذا التكليف ، وإن أحبه القدماء وأعجبوا به ؛ على أن هذه الصورة التى استحضرها زهير لصاحبته ، والتى كانت خليقة أن تزيده لها حبًّا ، وبها كلفاً ، لم تمنعه من أن يقول :

فَصرِّم حبْلَها إذ صَرّمَتْهُ ... وَعادكَ أَن تُلاقيَها العداء

وليس ضيق زهير بالغزل والحبيبة الملحة فى الهجر والبعاد وقفاً على هذه القصيدة ، بل نحن نراه فى قصيدة أخرى مشهورة هى التى يقول فيها :

صَحا القلبُ عن سَلْمَى وقد كان لا يَسْلو ... وأَقْفَرَ من سَلْمَى التعانيقُ فالثقْلُ

وقد كنتُ منْ سَلْمَى سِنينَ ثمانياً ... على صِيرِ أمرٍ ما يَمُرُّ وما يحْلو

وكنتُ إذا ما جئتُ يَوْماً لِحاجة ... قَضتْ وأَجمَّتْ حاجةُ الغدِ ما تَخلو

وَكلُّ مُحِبٍّ أَحْدَث النَّأْيُ عِنْدَهُ ... سُلُوَّ فُؤَادٍ غيرَ حُبِّك ما يَسْلو

فهو فى هذه الأبيات محب يشكو الصدّ والهجر ، ويزعم أن قلبه قد صحا ، وأنه قد أفاق من هذه اللوعة التى عذبته أعواماً طوالا . ولكن انظر إليه كيف عادته الذكرى فساء لها خلقه ، وضاق بها ذرعاً وفرّ منها فراراً :

تأوَّبَنى ذِكرُ الأَحبَّةِ بَعدما ... هجعْتُ ودونى قُلَّةُ الحَزْنِ فالرمْلُ

فأَقسَمتُ جَهْداً بِالمنازِلِ منْ مِنًى ... وما سُحِقتْ فيها المَقادِمُ والقَمْلُ

لأَرْتَحِلَنْ بالفَجْرِ ثُمَّ لأَدْأَبَنْ ... إلى اللَّيْلِ إلا أن يُعَرِّجَنى طِفلُ

ولا تغضب من ذكر القمل ، فإن زهيراً لم يقدر أنك ستقرؤه على ما فيك من ترف ورقة مزاج ، ولو قد فعل لآثر على هذه الكلمة البغيضة إليك كلمة أخرى لا تؤذيك ؛ ولكن انظر إليه ، كيف عادته ذكرى الحبيبة أثناء الليل بعد أن صحا عن حبها ، وبعدت عنه ، فضاق ذرعاً بهذه الذكرى ، ونهض من مضجعه مقسماً على أن يرتحل مع الصبح ، وعلى أن يدأب فى السير لا يلوى على شيء ، إلا أن تضطره ناقته إلى الوقوف ، فقد كانت وشك أن تلد . وضيق الخلق هذا بالحب والأحباء ، فى شعر زهير ، يحتاج إلى شيء من التعليل . وأكبر الظن ، أن الرجل كان عجلا حين ينظم قصائد المدح أو قصائد الهجاء ، يريد أن ينتهى إلى الفن الذى ينظم فيه الشعر ، ويكره أن يطيل الوقوف عند الديار ، أو عند وصف الأحباء ، ولعل شيئاً آخر يعلل هذا الضيق ، وهو كذب الكاذبين على زهير ، فالرواة يتحدثون ، فيما ينقل عنهم أبو الفرج ، أنهم كانوا فى دار أمير المؤمنين المهدى بعيساباذ ، وقد اجتمع فيها عدة من الرواة والعلماء ، بأيام العرب وآدابها وأشعارها ولغاتها ، إذ خرج بعض أصحاب الحاجب ، فدعا بالمفضل الضبي الراوية ، فدخل فمكث ملياً ، ثم خرج إلينا ومعه حماد والمفضل جميعاً ، وقد بان فى وجه حماد الانكسار والغم ، وفى وجه المفضل السرور والنشاط ، ثم خرج حسين الخادم معهما فقال : يا معشر من حضر من أهل العلم ، إن أمير المؤمنين يعلمكم أنه قد وصل حماداً الشاعر بعشرين ألف درهم لجودة شعره ، وأبطل روايته لزيادته فى أشعار الناس ما ليس منها ووصل المفضل بخمسين ألفاً لصدقه وصحة روايته ، فمن أراد أن يسمع شعراً جيداً محدثاً فليسمع من حماد ، ومن أراد رواية صحيحة فليأخذها عن المفضل . فسألنا عن السبب ، فأخبرنا أن المهدى قال للمفضل لما دعا به وحده : إنى رأيت زهير بن أبى سلمى افتتح قصيدته بأن قال :

* دَعْ ذا وَعَدِّ القَوْلَ فى هرِمٍ *

ولم يتقدم له قبل ذلك قول ، فما الذى أمر نفسه بتركه ؟ فقال له المفضل : ما سمعت يا أمير المؤمنين فى هذا شيئاً ، إلا أنى توهمته كان يفكر فى قول يقوله ، أو يروّى فى أن يقول شعراً فعدل عنه إلى مدح هرم ، وقال : « دع ذا » ، أو كان مفكراً فى شيء من شأنه فتركه وقال : دع ذا ، أى دع ما أنت فيه

من الفكر ، وعد القول فى هرم ، فأمسك عنه . ثم دعا بحماد فسأله عن مثل ما سأل عنه المفضل ، فقال : ليس هكذا قال زهير يا أمير المؤمنين . قال : فكيف ؟ قال ؟ فأنشده :

لِمَنِ الديارُ بقُنَّةِ الحِجْرِ أَقْوَيْنَ مذ حِجَجٍ ومذ دَهْرِ
لعِب الزمانُ بها وغيَّرها بَعْدِى سَوافِى المُورِ والقَطْرِ
قَفْراً بمُنْدَفَعِ النَّحائِت مِنْ صَفوَى أُولاَتِ الضالِ والسِّدْرِ
دَع ذا وعَدِّ القوْلَ فى هرِمٍ خيرِ البُداةِ وسيِّدِ الحَضَر

قال : فأطرق المهدى ساعة ، ثم أقبل على حماد فقال له : قد بلغ أمير المؤمنين عنك خبر لا بد من استحلافك عليه ، ثم استحلفه بأيمان البيعة ، وكل يمين محرجة ليصدقنه عن كل ما يسأله عنه . فحلف له بما توثق منه . قال له : أَصدقنى عن حال هذه الأبيات ومن أضافها إلى زهير ، فأقر له حينئذ أنه قائلها ، فأمر فيه وفى المفضل بما أمر به من شهرة أمرهما وكشفه . فهذه القصة الظريفة تنبئنا بأن القدماء كانوا يبدءون هذه القصيدة بهذا البيت :

* دَع ذا وَعَدِّ القَوْلَ فى هَرِمٍ *

وكان المهدى لا يفهم هذا الابتداء ، وكان المفضل يتأوله كما رأيت مقدراً أن الشاعر إنما يريد أن يعدل عما كان يفكر فيه ، وجائز أن يكون تأويل المفضل صحيحاً ، وجائز أيضاً أن يكون فى القصيدة حين أنشأها زهير شعر آخر أضاعه الرواة ، وإلى هذا المذهب الثانى ذهب حماد ، ولكنه عوض هذا الشعر الذى ضاع فيما ظن بشعر آخر صنعه من عند نفسه ، وذهب فيه مذهب زهير فى ذكر الديار . فما الذى يمنع أن يكون هذا الغزل الذى يتعجل الشاعر فيه ، ويظهر فيه من الضيق ما يظهر مضافاً إليه ، مصنوعاً عليه ، قد دسه حماد أو أشباه حماد من الرواة ، ولا سيما ما جاء فى هذه اللامية بعد قوله :

تأوَّبنى ذِكرُ الأَحِبةِ بعدَ ما هَجعْت ودونى قُلةُ الحَزنِ فالرملُ

فإن هذين البيتين اللذين أضيفا بعد هذا البيت يظهر فيهما التكلف

والتصنع وحب التخلص ، والرغبة فى وصل ما مضى من الغزل بما هو مقبل من المديح .

قال صاحبي : ما تنفك تلح فى بحثك وتحقيك ، وتثقل علينا بنقدك وتمحيصك ، فدع عنك هذا ، وعد بي إلى شيء من غزل زهير ، لا يظهر فيه فساد ولا اضطراب ، ولا يدعوك إلى هذا التحقيق والتمحيص .

قلت : فانظر فى لاميته الأخرى التى يمدح بها حصن بن حذيفة بن بدر والتى يقول فيها :

صحا القلبُ عن سَلْمَى وَأَقصَرَ باطِلُه ... وعُرِّى أَفراسُ الصِّبا ورَوَاحِلُه

فأصحاب البيان مشغوفون كما تعلم بهذا البيت ، وبالشطر الثانى منه خاصة ، لأنه جعل فيه للصبا أفراساً ورواحل كان يركبها حين كان الشباب يواتيه ، وحين كانت تتاح له اللذات ، ويدفعها إليه نشاطه ومرحه ، فلما أدركته الكبرة ، وتقدم به العمر ، أقصر عن هذا كله ، وعرى أفراس الصبا ، وعرى رواحله ، وتركها مهملة ، لاتعينه على رواح ، ولا على غدو .

ثم انظر إليه كيف يقول بعد ذلك :

وَأَقصَرْتُ عَما تَعلمين وسُددتْ ... عَلَيَّ سِوى قَصدِ السَّبِيلِ مَعادِلُهُ

وقالَ العَذارى إنما أنتَ عَمُّنا ... وكان الشَّبابُ كالخَلِيطِ نُزايِلُهُ

فأَصْبَحْنَ ما يَعرِفْنَ إلا خَليقَتى ... وَإلا سَوادَ الرأْسِ والشَّيب شَامِلهُ

فهو هنا يفسر إعراضه عن اللذة ، وإقصاره عن اللهو ، وإقباله على الجد ، لا رغبة فيه ، ولا زهداً فى متاع الحياة ، بل قصوراً وعجزاً ، فهو يذكر الكبر والشيب اللذين يصرفان عنه العذارى ، ويطلقان ألسنتهن بهذه الكلمة التى تؤذيه ، والتى آذت الأخطل من بعده : « إنما أنت عمنا » ، وأظنك تذكر قول الأخطل :

وإذا دَعونَكَ عَمهُنَّ فإنَّهُ ... نَسَبٌ يَزِيدُك عندَهُنَّ خَبالا

ولعلك تذكر قوله أيضاً :

يا قاتَلَ الله وصْلى الغانيات إذا ... أيْقن أنك ممَّن قد زها الكِبَرُ
أعْرضْنَ لما حَنَا قَوسِى مونِّرها ... وابيضّ بعد سَوادِ اللِّمة الشَّعرُ
ما يرْعَوِينَ إلى داعٍ لحاجتِه ... وما بهنَّ إلى ذى شَيْبَةٍ وَطَرُ

على أن زهيراً لم يكد يذكر تقدم سنه ، وما اضطر إليه من الجد ، حتى حن إلى عهوده الأولى ، فذكر الديار ، واستأنف قصيدته استئنافاً ، كأنه يبتدئها دون أن يقدم بين يديها شعراً . فقال :

لِمَنْ طَلَلٌ كالْوحى عافٍ منازِلُهْ ... عفا الرَّسُّ مِنهُ فَالرَّسِيسُ فَعاقِلهْ

على أنه لا يزيد بهذه الذكرى على أن ينظم أسماء الأماكن التى كان يلتى فيها أحباءه ، ويستقبل فيها لهوه ومتاعه . ثم يسرع إلى فن آخر من فنون الشعر هو وصف الصيد ، فهو كما ترى صاحب غزل ، ولكنه مقتصد فيه ، أو معجل عنه ، لا يمنحه من وقته وجهده وتفكيره ما ينبغى .

وانظر إليه فى قافيته التى يمدح بها هرماً كيف يقول :

إنَّ الْخليطَ أجَدَّ الْبيْن فانْفرَقا ... وعُلِّقَ الْقلْب مِن أسماءَ ما عَلِقا
وفارقَتكَ برهْنٍ لا فَكاكَ لَهُ ... يومَ الْوَداعِ فأمْسَى الرَّهْنُ قَدْغَلِقا
وَأخلفتْكَ ابْنَةُ الْبَكْرِىِّ ما وَعدَت ... فَأصْبَحَ الحَبْلُ مِنها واهِياً خلَقا
قامَت تَراءَى بِذِى ضالٍ لِتحزُنَنِى ... وَلا محالةَ أنْ يشْتاقَ مَنْ عشِقا
بجيدِ مغزِلَةٍ أدْماء خاذِلَةٍ ... مِنَ الظِّباء تُرَاعى شادِناً خَرِقا
كأنَّ رِيقَتَها بَعدَ الكرَى اغْتُبِقَتْ ... مِنْ طَيِّبِ الراحِ لَمَّا يَعدُ أن عتَقا
شَجَّ السُّقاةُ على نَاجُودِها شَبِمًا ... مِنْ ماءِ لينَةَ لا طَرْقاً ولا رَنَقَا

فهو فى البيت الأول يعرض قصته ، وقصته يسيرة فى أول الأمر ، ولكنها عسيرة أشد العسر بعد ذلك ، فأول أمره أن الخليط قد جد البين فانفرق ، وبعد الأمد بينه وبين من كان يألف ، ولكن قلبه قد علق من أسماء شيئاً لا سبيل إلى وصفه ، ولا إلى تصويره ، وإنما هو شىء يعبر عنه هذا التعبير

العام المحيط الذى لا يحتمل تصويراً ولا تفصيلا . لأنه فوق التصوير والتفصيل « وعلق القلب من أسماء ما علقا » . ثم انظر إليه فى البيت الثانى : كيف يصوّر ارتباطه بأسماء وحرصه عليها ، وعجزه عن أن يسلوها . أو يفيق من حبها ، انظر إليه كيف يعبر عن هذا كله بهذا النحو اليسير المألوف من الكلام الذى لايجد أحد فيه مشقة ولاعسراً ، وإنما يفهمه الناس جميعاً . ويقدره الناس جميعاً ، ولاسيما أهل البادية ، فهى قد ارتهنت قلبه ومضت به ، وليس من سبيل إلى أن يفك هذا الرهن . ثم هى لم ترتهن قلبه فحسب ، ولكنها على ذلك بخيلة تعد ولا تفى ، وتمنى ولا تحقق الأمانى ، وترتحل مع ذلك فتقطع الأسباب بينه وبين الأمل فى الوفاء بالوعد ، أو الانتظار لتحقيق المنى :

وأخلفَتكَ ٱبنَةُ ٱلْبَكْرى ما وعدتْ فأَصْبح الحَبل مِنها واهِناً خلَقا

وهذه الفتاة ماكرة حقًّا ، لا رحمة عندها ولا حظ لها من رفق أو إشفاق . إنما هى قاسية أشد القسوة ، ظالمة أشد الظلم . ألست ترى إليها مع هذا كله تعرض للشاعر فتتراءى له لتشوقه إليها ولتحزنه لهذا الفراق المؤيس الذى لا أمل معه فى اللقاء ؟ فمن رأى مثل هذه الفتاة ! من رأى مثل أسماء ابنة البكرى هذه التى تملأ قلب الشاعر حبًّا ، وترتهن قلبه ارتهاناً لا فكاك له ، وترتحل بهذا القلب مؤيسة من اللقاء ، ومن الأمل فى اللقاء ، ثم هى مع هذا كله ترسل صورتها إلى الشاعر لتعينه وتمنيه وتذيقه ألوان العذاب ! وانظر إلى قوله :

* ولا محالة أن يَشْتاق من عشِقا *

على أن الذكرى التى تثيرها هذه الصورة حين تتراءى لزهير فتعذبه وتشقيه ، ذكرى مادية خالصة — إن صح مثل هذا التعبير — فصاحبنا يرى أسماء فيعجب بشكلها ولونها وجيدها الذى يشبه جيد الظبية . ثم إذا أمعن فى الذكرى ، ذكر ريقها فشبهه بالخمر المعتقة التى مزجت بالماء النقى البارد العذب . وفى هذه السذاجة البدوية صدقٌ نُحبه من زهير ، فهو لا يتكلف ولا يغلو ، ولا يصف إلا ما يجد . ومن هذا الغزل اليسير الساذج الذى ذهب إليه زهير فى هذه القصيدة ، وفى غيرها من الشعر ، أخذ الشعراء الإسلاميون ، والأخطل خاصة ، كثيراً من معانيهم التى جودوها وأتقنوها ، لأنهم بسطوها بسطاً ، وفصلوها تفصيلا ،

اتخذوها وسيلة إلى تصوير قلوبهم ونفوسهم ، وما يثور فيها من العواطف والأهواء . على حين لم يزد زهير على أن ألم بهذه المعانى إلماماً ، وأجملها إجمالا ، كأنه يريد أن يرسم النهج ، ويبين الطريق، ويقيم الأعلام للذين سيقتفون أثره من الشعراء المتأخرين .

وانظر إليه وهو يصور بعد ذلك تتبعه لهؤلاء القوم المسافرين ، فى لفظ بدوى جزل عذب متين ، وفى معان بدوية ساذجة كل السذاجة ، يسيرة كل اليسر :

ما زلتُ أَرْمقهُمْ حتى إذا هَبَطَتْ ... أَيدِى الركابِ بهِم مِنْ راكِسٍ فَلَقَا

دانِيةً من شَرورَى أَو قفا أَدمٍ ... يَسْعَى الْحُداةُ على آثَارِهِمْ حِزَقَا

فهو يتبعهم طرفه فى مسيرهم هذا ، وهم يمضون لوجههم ، والحداة يتبعونهم ، ويدفعونهم جماعات، حتى إذا دنوا من هذه الأماكن التى سماها ، وشق عليه أن يتبعهم بطرفه ، لأنهم أبعد من أن يبلغهم الطرف، ملكه اليأس ، واستأثر به الجزع ، فانهلت دموعه مرسلة فى غير انقطاع . وهنا يوشك الشاعر أن ينسى حبه وغزله ، وأن يشغل عنهما بالوصف والتشبيه ، فهو يشبه عينه وهى تسكب الدمع سكباً بدلو تملأ ثم تصب فى جدول ، وقد شغلته الدلو ، وشغلته الأدوات التى تصحبها ، وشغلته الناقة التى تستقى بها ، وشغله الجدول الذى يصب فيه الماء ، وشغلته الضفادع التى تعيش على شاطئ هذا الجدول — شغله هذا كله عن الخليط الذى أجد البين ، وعن ابنه البكرى التى ارتهنت قلبه وأخلفت موعدها . فزهير محقق إذا وصف ، متمم للتشبيه إذا أخذ فيه ، وما دام قد عرض له هذا التشبيه ، فلا بد من أن يتمه ويستكمله وقد فعل ، ولكنه لم ينشئ القصيدة ليتغزل ، ولا ليصف ، وإنما هو ينشئها ليمدح هرماً ، فحسبه أن قال فى الغزل ما قال ، وأن وصف من نفسه ومن صاحبته ومن حزنه ما وصف ، وليمض لما أنشأ القصيدة من أجله ، فيأخذ فى الثناء على هرم بن سنان ؛ وأنت تستطيع أن تقرأ رائية الأخطل أو غزل الأخطل فى رائيته :

* خف القطين فراحوا منك أَوْ بكَرُوا *

فسترى أن زهيراً قد كان من أشد الشعراء تأثيراً فى شعر هذا الشاعر الإسلامى العظيم .

قال صاحبي : ولكنك استغرقت حديث اليوم كله فيما تسميه غزل زهير ، ولم تصل إلى وصفه ، ولا إلى مدحه ، ولا إلى ما طرق من الفنون غير الوصف والمدح .

قلت : وما يمنعنا أن نعود إلى زهير مرة أخرى ؟ فنتحدث عن وصفه ، وعن مدحه ؟ فإنى أرى أن زهيراً من أبرع الشعراء فى الوصف ، وقد أجمع القدماء على أنه من أبرع الشعراء فى المدح .

ساعة أخرى مع زهير [1]

قلت لصاحبي : أما اليوم فعندى لك معرض من معارض الصور ، لست أدرى أيروعك أم لا يبلغ من نفسك شيئاً ؟ ولكنى أعلم أنه كان يروع القدماء ، ويملأ نفوسهم إعجاباً وإكباراً . ولعله هو الذى جعل زهيراً أستاذ جماعة من كبار الشعراء الجاهليين والإسلاميين ، منهم ابنه كعب وحفيداه عقبة والعوّام، ومنهم الحطيئة وتلميذه جميل ، وكثيّر تلميذ جميل ، ومنهم الأخطل فيما أعتقد أنا ؛ ومنهم غير هؤلاء من الشعراء الذين عاصروا زهيراً وسمعوا منه أو نقل إليهم شعره . ومن الشعراء الآخرين الذين لم يعاصروه ، ولكن شعره انتهى إليهم من طريق الرواية والرواة .

ولست أريد أن أطيل عليك فى المقدمات ، ولا أن أشغلك بحديثى عن حديث زهير ، وإنما أريد أن أهجم بك على ميدان من هذه الميادين التى كان زهير يحسن أن يذهب فيها ويجيء . وملى لا أبدأ بهذا الفضاء الجميل . الرائع العريض الذى لا حد له ، أو الذى لا تستطيع العين أن تتبين له حداً من أى نحو نظرت فيه . فاهبط مع زهير إلى هذا الفضاء العريض ذى الآماد البعيدة . فإن الهبوط إليه مستحب نافع . ألست تعلم أن السماء قد غمرت هذا الفضاء منذ حين بمائها الغزير الذى يملؤه الخصب والحياة ، فامتلأ هذا الفضاء خصباً وحياة ! ولو قد رأيته لرأيت بهجة وجمالا ، هذا النبات الكثير المختلف الذى ملأ الفضاء . سواء منه هذه الربى المرتفعة ، وهذه الوهود المنخفضة ، وهذه السفوح بين هذه وتلك . انظر فإن لك فى هذا النظر متعة ولذة وروحاً ؛ هذا الفضاء لم يكد يثور فيه ما ثار من النبات فيزينه ويجمله حتى عرف ذلك الإنسان ، وعرفه الحيوان أيضاً ، بل عرفه الحيوان قبل أن يعرفه الإنسان ، فأسرع إليه وعاش فيه ، واستمتع بهذه الرياض والجنات وقتاً من حياته التى يملؤها الجوع والضر ، إذا لم تعطف السماء على الأرض ولم ترسل إليها مع

(١) نشرت بجريدة اجهاد فى ٢٧ مارس سنة ١٩٣٥ .

هذا الماء شيئاً من الخصب والحياة . كثُر الحيوان فى هذا الفضاء ، وأمن برهة . ولكن الإنسان لم يلبث أن عرف هذا الفضاء . ومكان هذا الخصب والنعيم فيه وإسراع هذا الحيوان إليه. فأسرع هو إليه أيضاً ليستمتع بنعيمه . ويصيب من خيره ، ويصيد من حيوانه. وهذا زهير فى نفر من قومه قد أقبلوا هم أيضاً يلتمسون الصيد . فانظر إليهم يهبطون ومعهم فرسهم هذا الضخمُ الذى أحكم خالقه إحكاماً . وارتفع فى السماء ارتفاعاً . على قوائمه المفتولة أشد الفتل ، الممرة أشد إمرار . وهو قوى صلب ، وهو عنيف شموس ، ليس سهلا ولا مذللا . حتى إذا بلغوا من هذا الفضاء مكاناً يستقرون فيه ، أقبل إليهم غلامهم وكانوا قد أرسلوه يلتمس لهم أماكن الصيد ، فبحث ، ثم عاد إليهم محتاطاً محتالا يمشى فى خفة . ويضائل شخصه مضاءلة حتى لا يرى ولا يحس ؛ حتى إذا انتهى إليهم ، أنبأهم فى همس وصوت سريع بأنه قد رأى لهم صيداً فيه الخير كل الخير ، رأى لهم جماعة ضئيلة من حمر الوحش ترعى بعد أن عبث الصائدون بها ؛ فأخذوا معظمها ولم يبق منها إلا أتن ثلاث ضامرات مقوسات لقلة ما شربن من الماء ، وكثرة ما رعين من هذا النبت الرطب. يستغنين به عن الماء ، ومعهن فحلهن يراعيهن ويرعاهن . ولم يكد الغلام ينبئهم بمكان هذا الصيد ، حتى ائتمروا فيما بينهم أيخادعونه خداعاً ، ويأخذونه بالغدر والمكر أم يصاولونه جهرة فى غير مكر ولا ختل ولا احتيال . ثم يستقر رأيهم على الحرب المعلنة ، والمصاولة التى لا مكر فيها . وما حاجتهم إلى الخداع ، ومعهم هذا الجواد الذى لا يفوته شىء ! نعم ! ولكن هذا الجواد صعب عسير ، مسرف فى الشموس والجموح ، كأنه لم يُرَضْ قبل اليوم . ألست ترى إليه رافعاً رأسه فى السماء مستعصياً على من يريد إلجامه؟ ثم ألست ترى إلى هؤلاء الناس من حوله يضربونه ويعنفون عليه فى الضرب حتى أعياهم أو كاد ؟ ولكنهم على كل حال أشد منه بأساً ، وأعظم منه قوة ، فقد قهروه واضطروه إلى أن يخفض رأسه ويمكن من نفسه ، وهذا صاحب اللجام قد أقبل عليه ليلجمه ، ولكن انظر : إن هذا الجواد لمرتفع ، وإن صاحب اللجام ليجد فى بلوغ رأسه مشقة وجهداً ، إنه ليقف على أصابع رجليه مرتفعاً فى الجو ليبلغه ، وهاهو ذا قد انتهى إلى إلجامه ، وهذا الغلام قد استطاع أن يثب إليه فيركبه ، وها هو ذا

يريد أن يدفعه فى طلب الصيد ، واسمع لزهير يوصى الغلام بما ينبغى له ليدرك من الصيد ما يريد : هو يوصيه بالجواد خيراً ، وهو يوصيه بأن يلتمس غرة الصيد ، ولكن الغلام مشغول بالجواد الشموس الصعب عن أن يسمع لزهير أو يعقل عنه ، وها هو ذا قد دفع الجواد إلى أمام ، وزهير ينظر إليه وقد بعد عنه ، فيرى أنه يكلف الغلام ألواناً من المشقة ، ويرى أنه مع ذلك ينصب بالغلام على الصيد كما يهوى الشؤبوب من السماء . وهذا الغلام يعود بعد حين ، وقد أصاب حمار الوحش ، وعاد به دامياً جريحاً ، وعاد بفرسه دامياً لما تناثر عليه من دم هذا الصيد . واقرأ هذه الأبيات التى أفسدتها إفساداً بهذا التخليص الذى لا دقة فيه ، فإنك واجد فيها حين تقرؤها صوراً جميلة رائعة ، وألفاظاً متينة جزلة ، وسذاجة مع ذلك فى التعبير والتفكير لا تكلفك جهداً ولا عناء :

وَغَيثٍ مِنَ الوسْمِيِّ حُوٍّ تِلاَعُهُ أجابَت رَوَابِيهِ النِّجَا وهوَاطِلُهْ
هَبطتُ بِمَمْسودِ النواشرِ سَابحٍ مُمَرٍّ أسِيلِ الْخد نَهْدٍ مَراكلُه
تَمِيمٍ فلوْنَاهُ فأُكمِلَ صُنْعُهُ فَتَمَّ وعَزَّتْهُ يداه وكاهلُه
أمِينٍ شظاهُ لم يُخَرَّقْ صِفاقُهُ بِمَنْقَبةٍ ولمْ تُقَطَّعْ أبَاجلُهْ

فهو فى هذه الأبيات قد عرض عليك صورتين لم يكن بد من عرضهما قبل أن يبدأ قصة الصيد . فأما أولاهما : فصورة هذا النبات الذى ملأ الفضاء العريض مرتفعه ومنخفضه . وأما الثانية : فصورة هذا الجواد الذى أقبل به فى أصحابه يلتمسون الصيد وهذا الجواد، كما قلت لك ، عظيم ، محكم الخلق ، شديد الأسر ، حديث عهد بالشباب ، قد فطموه منذ حين ، وتعهدوه بالعناية والرعاية ، فلم يحتج إلى البيطار ، ولم يتعرض لعلة ، ولم يشك ألماً ولا سقماً ، وإنما هو مرح أشد المرح ، نشيط أشد النشاط . ثم يقص عليك الشاعر قصة الصيد ؛ فاسمع له أو انظر إليه ، فهو يتحدث إلى أذنيك باللفظ ، وهو يتحدث إلى عينيك بالصور :

إذا ما غدَوْنا نبتغِى الصيْدَ مرَّةً متى نَرَهُ فإنَّنَا لا نُخَاتِلُهْ
فبَيْنَا نُبَغِّى الصَّيْد جاءَ غُلامُنَا يَدِبُّ ويُخْفِى شَخْصَه ويُضَائِلهْ

انظر إلى هذا البيت الأخير ، أو إلى هذا الشطر الأخير . وإلى صورة هذا الغلام الذى جاء ينبئهم بمكان الصيد وهو حذر محتاط . يدب ويخفى شخصه ويضائله ، فأنت توافقنى على أنها صورة قوية صادقة معجبة حقاً :

فَقالَ شِياهٌ رَاتِعاتٌ بِقفْرَةٍ   بمسْتَأْسِدِ القُرْيانِحُوٌّ مَسَايِلُهْ
ثلاثٌ كأقْواسِ السراءِ ومِسْحَلٌ   قدِ اخضَرّمِنْ لَسِّ الغَمِيرِجحافِلُهْ
وَقَدْ خَرّمَ الطُّرّادُ عنْهُ جُحاشَهُ   فَلَمْ يَبْقَ إلا نفسُهُ وَحَلائِلهْ

وانظر إلى البيت الثانى من هذه الأبيات الأخيرة ، فسترى فيه دقة الشاعر فى التصوير ، وإحاطته بما يريد أن يصوّره ، فهذه الحمر أربع ، فأما ثلاث منها فإنهن ضامرات ، تمتاز بهذا الضمور ، وأما الرابع فهو الفحل . وانظر إلى الشطر الثانى من هذا البيت ، فهو أبلغ فى الدقة ، لأنه يصوّر لك هذا الحمار وقد أكثر من رعى النبات المخضر ، حتى ظهرت خضرة هذا النبات فى فيه ، ثم اسمع للأبيات الثلاثة كلها وحدثنى . أليس هكذا يكون حديث هذا الغلام الذى ذهب يبتغى الصيد لقومه ثم عاد إليهم ينبئهم بما رأى حذراً هامساً محتاطاً مرَغِّباً فى وقت واحد :

فبِتنَا عُراةً عِنْدَ رَأسِ جَوادِنَا   يُزاوِلنَا عَن نَفْسِه ونُزاوِلُهْ
فنَضرِبُهُ حتى اطْمَأَنّ قَذَالُهُ   وَلَمْ يطْمَئِنّ قَلْبُهُ وَخَصَائلُهْ
ومُلْجِمُنَا ما إن يَنَالُ قَذَالَهُ   ولا قدماهُ الأَرْضَ إلا أنامِلُه
فلأياً بِلأْىٍ ما حملْنَا ولِيدَنَا   علىظَهْرِمحْبُوكٍ ظِماءٍ مفاصِلُهْ

فى البيتين الأولين من هذه الأبيات تصوير للجهاد العنيف بينهم وبين الفرس ، وقد انتهى هذا الجهاد إلى أن خفض الجواد رأسه ، فاطمأن قذاله ، ولكن قلبه لم يطمئن ، فهو مضطرب شديد النشاط . وفى البيت الثالث صور الملجم وهو يحاول إلجام هذا الجواد فى جهد ومشقة ، وفى البيت الأخير صورة الغلام وقد استطاع بعد العناء الطويل الثقيل أن يركب هذا الجواد . واسمع لزهير وهو يوصى الغلام :

فَقلْتُ لهُ سَدِّدْ وَأبْصِرْ طَرِيقهُ   وما هُوَ فِيهِ عنْ وصَاتىَ شَاغِلُهْ

وقلتُ : تعلَّمْ أن للصيدِ غِرَّةً وإلا تُضَيِّعْها فإنكَ قاتِلُهْ
فَتَبِّعَ آثارَ الشياهِ وليدُنا كشُؤبُوبِ غَيْثٍ يَحْفِشُ الأُكْمَ وَابلُهْ
نظرْتُ إليه نَظرَةً فرأيْتُهُ على كلِّ حالٍ مَرةً هُوَ حامِله
يُثِرْنَ الحَصَى فى وَجْهِهِ وَهو لاحقٌ سِرَاعٌ تَوالِيهِ صِيابٌ أوائلهْ

وانظر إلى هذا البيت الأخير الذى يصور الطرد أجمل تصوير وأبدعه ، فهذه الحمر تثير الحصى فى وجه الجواد ، ولكنه مع ذلك ماض فى أثرهن ، غير وان فى الطلب ، وقد اشتد نشاطه حتى كأن أجزاءه تعدو يتبع بعضها بعضاً ، فقدمه نشيط مسرع ، ومؤخره يتبعه فى الإسراع والنشاط ، ولم يكن بد لهذا الإلحاح فى الطلب من أن ينتهى إلى الظفر ، وقد ظفر الغلام وجواده :

فرَدَّ علينَا العَيْرَ مِنْ دونِ إلْفِهِ عَلَى رَغْمِهِ يَدْمَى نَسَاهُ وفائلُهْ

فهو قد ظفر بالفحل ، ولكنه لم يظفر بحلائله ، وإنما فاتته هذه الأتن الضامرة ، وهو على كل حال قد عاد بهذا العير دامياً جريحاً محزوناً أشد الحزن لفقد إلفه . أما الجواد فهو بعد هذا العدو المتصل ، والطلب الملحّ ، والجهد العنيف : قد عاد موفوراً شديد النشاط لا ضعيفاً ولا متهالكاً .

وَرُحْنَا بِهِ يَنْضُو الجِيادَ عَشِيةً مُخضَّبَةً أَرْسَاغهُ وَعوَامِلُهْ

فانظر إليه كيف يرجع متقدماً غيره من الجياد ، لم يفتر عزمه ، ولم تنكسر حدّته ، وإنما يمشى مرحاً ، قد لونت دماء الصيد قوائمه وأرساغه .

ألست ترى فى كل هذه القصة وما اشتملت عليه من الصور المختلفة جمالا وروعة وسذاجة وقدرة على استغلال الحس ، واستحضار الأشياء لا حدّ لها ؟ قال صاحبى : أما هذا فليس إلى الشك فيه من سبيل ، والذى يعجبنى فى هذه القصة أنها على ما فيها من الحركة وكثرة الاضطراب لا تتعب ولا تجهد ، وإنما تعجب وتروع فى يسر ومهل ، كأننا ننظر إليها ونحن مطمئنون ، كما يشهد النظارة هذه الصور المتحركة فى دار من دور السينما .

قلت : فإنى أريد أن أعرض عليك الآن صورة أخرى هادئة كل الهدوء ، مريحة كل الراحة ، فيها حركة واضطراب ، ولكنها حركة يسيرة مطردة مطمئنة ،

تثير فى النفس حزناً خفيفاً، وحناناً هادئاً مطمئناً : ولا غرابة فى ذلك ، فالشاعر قد أقبل على رسم هذه الصورة وهو محزون ، قد امتلأ قلبه حناناً وشوقاً . فهو قد كان يتبع أحباءه الظاعنين بطرْفه ، حتّى إذا بعدوا عنه وغابوا عن عينه بكى ، فانهمرت دموعه انهماراً ، كما ينهمر الماء من الدلو ، وهذا التشبيه دعا الشاعر إلى أن يحققه ويستوفيه ، كأنه وجد فى تحقيقه واستيفائه تسلية لنفسه عن هذا الحزن ، فاستطرد وأمعن فى الاستطراد ، وذكر لنا أن هذه الدلو التى ينهمر منها الماء كما ينهمر الدمع من عينيه لا تمتلىء مرة ولا مرتين ، وإنما تمتلئ ثم تفرغ ، ثم تمتلىء ثم تفرغ ، وهكذا ما تزال تهبط فارغة ، وتصعد ممتلئة ، ثم تهبط فارغة وتصعد ممتلئة ، ثم لم ير الشاعر بأساً من أن يصوّر لنا الناقة التى تستقى بهذه الدلو ، ومن أن يصور لنا السائق الذى يحدو من ورائها ، وينذرها بالسوط إن أبطأت ، ومن أن يصور لنا هذا الرجل القائم أمامها الذى يتناول الدلو فيفرغها إذا امتلأت ، ثم لم ير بأساً من أن يصور لنا الجدول الذى يجرى فيه هذا الماء الذى تصبه فيه الدلو ، ثم لم ير بأساً من أن يصور هذه الضفادع التى تعيش على شواطئ هذا الجدول ، وفى هذه الحفرة التى تحيط بالنخيل ، ولم ير بأساً من أن يصوّر لنا فزع هذه الضفادع حين ينصب الماء فيجرى فى الجدول ويصب فى الحفر ، فهى تخرج مشفقة تخاف الغُرق . والغريب أن القدماء من أصحاب اللغة والنقد عابوا هذه الصورة الجميلة الأخيرة على زهير ، وأنكروها أشد الإنكار ، وغلطوا شاعرنا العظيم ، وزعموا أن الضفادع لا تخرج من الماء مخافة الغرق وإنما تخرج لأنها تبيض على الشاطئ ، كأن شاعرنا إنما ذهب مذهب التحقيق العلمى فى خصال الحيوان ، مع أنه لم يرد إلا أن هذا الماء الذى يصبّ فى الجدول وينصبّ فى الحفر متوالياً متدافعاً بين حين وحين ، يخيف هذه الضفادع فيدفعها إلى الشاطئ ، ويخرجها من الماء . واقرأ معى هذه الأبيات واعجب معى بلفظها الرصين ، وأسلوبها الحلو ، وقافيتها المتينة .

كأنَّ عينَيَّ فى غرْبَىْ مقَتَّلَةٍ ... منَ النواضِحِ تَسْقِى جنَّةً سُحُقا

تَمْطوا الرِّشاءَ وتُجْرِى فى ثِنَايَتِها ... منَ المَحالَةِ ثَقْباً رَائداً قَلِقا

لها مَتاعٌ وَأَعْوَان غَدوْنَ بِهِ ... قِتْبٌ وغرْبٌ إذا ما أُفرِغَ انْسَحقا

وَخَلْفَهَاسائقٌ يَحْدُو إذا خشِيَتْ   مِنْهُ اللّحاقَ تَمُدُّ الصُّلْبَ وَالعُنُقَا
وَقابِلٌ يَتَغَنَّى كُلّما قَدَرَتْ   عَلَى الْعَرَاقِي يَدَاه قائماً دَفَقَا
يُحِيلُ فى جَدْوَلٍ تَحْبُو ضَفادِعُه   حَبْوَ الجَوارِى تَرَى فى مائه نُطُقَا
يخرجْنَ مِن شَرَباتٍ ماؤها طَحِلٌ   على الجذوع يَخَفْنَ الْغمَّ والْغَرقَا

قال صاحبي : نعم ! إن هذه الصور جميلة ، ولكن ألفاظ الشاعر عسيرة بعض الشيء ، تحتاج إلى التفسير . وما أظن أن قرّاءك إن نشرت لهم مثل هذا الشعر يرضون عنه إلا أن تفسر لهم غامضه . قلت : فإلى أين تريد أن نمضي إذا فسرنا كل غامض ، ويسرنا كل عسير ؟ أليس يحسن أن يكون الجهد قسمة بين القراء وبيننا ، عليهم بعضه ، وعلينا بعضه الآخر ؛ وأيّ شيء أيسر من أن يشترى القارئ طبعة من هذه الطبعات اليسيرة التى نشر فيها شعر زهير مفسراً مشروحاً ؛ بل أنا لا أذيع هذه الأحاديث إلا لأغرى القراء بشراء هذه الدواوين ، وإطالة النظر فيها من حين إلى حين . قال صاحبي : فإن فى هذين البيتين الأخيرين تشبيهاً جميلا يعجبنى حقًّا ، وهو تشبيه هذه الضفادع التى تحبو فى الجداول والحفر بالصبيان اللاعبين ، حتى إذا أدركها الماء أشفقت منه فارتفعت إلى جذوع النخل تريد أن تتقيه اتقاء . قلت : نعم ، ولكن الذى يعجبنى أنا من هذه القطعة كلها هو بنوع خاص هذه الحركة الهادئة المطمئنة التى تلائم حزن الشاعر وحنانه ، والتى يلوذ بها الشاعر ليتعزى بها عن هذا الحزن ويستبقى بها بعض هذا الحنان .

على أنى أريد أن أعرض عليك الآن صوراً أخرى رسمها زهير فى شعره فأبدع وأجاد ، ومن هذه الصور ما هو مألوف عند شعراء آخرين غير زهير ، فهو فى بعض قصائده يريد أن يرسم ناقته فيذهب مذهب لبيد ، فيشبهها بالنعامة ، حتى إذا أتم هذا التشبيه وحققه ، عدل عنه إلى تشبيه آخر كما فعل لبيد فشبه ناقته بحمار الوحش الذى يدفع حليلته أمامه يبتغى الماء ويفر بها من الفحول ، وهو يذهب فى هذا التشبيه وفى قصته مذهبَ لبيد كأنه يحاكيه ، أو كأن لبيداً هو الذى حاكى زهيراً .

وفى قصيدة أخرى يريد أن يصوّر ناقته فيذهب مذهب طرفة ، أو مذهب

الذين حملوا وصف الناقة على طرفة . فيصف أجزاء الناقة ، وربما استعمل فى بعض وصفه ألفاظ طرفة نفسها . وانظر إلى هذه الأبيات .

قال صاحبي : حسبك رواية من هذا الشعر : فلست أشك فى جماله ولا فى روعته ، ولكنى أعلم أنك لن تعرض له حتى تدخل فى الموازنة بين زهير ولبيد ، وبين زهير وطرفة ، وحتى تبحث عمن سبق ، ومن سرق ، وحتى تنتهى آخر الأمر إلى مذهبك الذى فتنت به فتوناً ، وهو أن بعض هذا الشعر منحول ، قد حمل على زهير أو على لبيد أو على طرفة ، فأرحنى من هذا البحث ، ومن هذا العناء الذى لا أحبه ، ولا أجد فيه خيراً .

قلت : لك ذلك ، فما زلت فيما أرى ضعيف الجهد . قصير الباع ، عن مثل هذا البحث العنيف الخصب ، ولكنك ستسمع هذه الأبيات على كل حال ، لأنها سهلة حلوة ، لا مشقة فيها ولا جهد ، وهى لهذا كله تريحك من هذا الشعر العسير الذى جشمتك عسره ومشقته . وزهير فى هذه الأبيات يصور لهوه ولهو أصحابه فى لفظ جميل يسير . وفى معان مقتصدة لا غلو فيها ولا إسراف :

وَقَدْ أغدوا عَلَى ثُبَةٍ كِرامٍ   نَشاوَى وَاجِدِينَ لِما نَشاءُ

لهمْ راح وراوُوقٌ وَمِسْك   تُعَلُّ بِهِ جلودُهم وماءُ

يَجرُّونَ الْبرُودَ وقَدْ تَمَشَّتْ   حُمَيَّا الْكاسِ فِيهِم وَالْغِنَاءُ

تَمَشَّى بَيْنَ قَتْلَى قَدْ أُصِيبَتْ   نفوسهُمُ وَلَمْ تُهْرَق دِماءُ

قال صاحبي : ما أيسر : هذين البيتين الأخيرين ! وما أجمل يسرهما ! إنهما ليصوران البهجة والمرح أيسر تصوير وأصدقه . وإن فى البيت الأخير خاصة لجمالا لا يخلو من غرابة . قلت : إن صحت هذه الأبيات لزهير فعنه إذن قد أخذ الغزلون الإسلاميون ، حين زعموا أن عيون الحسان سهام يصبن العاشقين فيقتلنهم دون أن يرقن دماء ترى . قال : فإنك تشير إلى قول الشاعر الإسلامى :

إذا هُنَّ سَاقَطْنَ الْحدِيثَ لِذِى الْهوَى   سِقاطَ حصى الْمرْجانِ مِنْ سِلْكِ ناظِمِ

رَمَيْن فَأَقْصَدْنَ الْقلوب فَلَمْ تَجِدْ   دَماً مائِراً إلاَّجَوَى فى الْحيازِمِ

قلت : نعم ! وإلى غير هذا الشعر مما نجده كثيراً شائعاً عند أصحاب الغزل .

قال : وأنت تشك فى صحة هذه الأبيات لزهير ؟ قلت : بل أنا أشك فى صحة الكثرة من أبيات هذه القصيدة ، وأى شيء أيسر من أن تتبين النحل ؟ قال : حسبك ! فإنى أكره حديث النحل ، وأتوسل إليك ألا تشركنى فيه ، أو تثقل به علىّ ، ولكننا مع ذلك لم نصل إلى الفن الذى تفوّق فيه زهير على غيره من الشعراء الذين عاصروه ، وهو فن المديح . قلت : فإن أمر المدح عند زهير يسير ، أيسر جداً مما تظن ، وقد فهمه القدماء على وجهه أحسن فهم وأصدقه . ولعلك تذكر أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يحب مدح زهير لأنه كان مدحاً صادقاً لا يضيف إلى الرجل غير ما فيه ، ولأنه كان مدحاً خليقاً أن يبقى ، وأن يحفظه الناس لصدقه ، وارتفاعه عن السخف ، وبعده عن الإحالة . وتوخيه هذه الخصال التى يحبها الناس ، ويحبها العرب خاصة . فالذين يمدحهم زهير قوم كرام أجواد ، لا يحفلون بالمال ، ولا يؤثرون به أنفسهم ، وإنما هم يهينونه ، ويؤثرون به عشائرهم ، يشترون به سلم العشيرة ، ويشترون به راحة الضمير ، ويشترون به الحمد والثناء ، وهم شجعان لا يؤثرون أنفسهم بالعافية ، ولا يبخلون بحياتهم عند مواطن البأس ، لا يفْرَقون مهما تكن الملمات ، ولا يحجمون مهما يقدموا على الهول ، وهم على ذلك كله ناس لا يخرجون عن طور الناس ، حتى حين يريد زهير أن يغلو ويلح فى المدح ، فهو مهما يَغلُ يكره الإحالة ، وينفر من أن يقول غير الحق ، وانظر إلى هذا البيت ، فإنه يلخص مذهب زهير فى المدح أحسن تلخيص ، ويصدق فيه رأى عمر رحمه الله :

وَلَوْ أَنَّ حَمْداً يُخلِدُ النَّاسَ لَمْ تَمُتْ ... وَلٰكِنَّ حمْدَ النَّاسِ لَيْسَ بِمُخلِدِ

وإذا لم يكن بدّ من أن تستعرض بعض هذا المدح ، فاقرأ معى هذه الأبيات التى يمدح بها زهير حصن بن حذيفة بن بدر الفزارى :

وَأَبْيضَ فَيّاضٍ يَداهُ غَمامَةٌ ... عَلَى مُعْتَفِيهِ ما تَغِبُّ فواضِلهْ

بَكَرْتُ عَلَيْهِ غُدْوَةً فَرَأَيْتهُ ... قعوداً لَدَيْهِ بالصَّرِيمِ عَواذِلهْ

يُفَدِّينَهُ طوْراً وطوْراً يَلمْنَه ... وَأَعْيا فما يدرِينَ أَيْنَ مَخاتِله

فَأَقْصرْنَ مِنهُ عَن كرِيمٍ مُرَزّإٍ ... عزُومٍ عَلَى الْأَمْر الذِى هُو فاعِلُهْ

أَخِي ثِقَةٍ لا تُتْلِفُ الْخمْرُ مالهُ ولٰكِنه قَدْ يُهْلِكُ المالَ نائِلُهْ
تَرَاهُ إذا ما جِئْتَهُ متهلِّلاً كأَنك تعْطِيهِ الَّذِى أَنت سائِلهْ

أجمل شيء فى هذا الشعر أنه واضح سهل . لا يجهد سمعك إن سمعته . ولا يجهد عقلك إن وعيته ، وإنما هو نقى ناصع كصفحة الشمس . وخصال الممدوح فيه ، هى هذه الخصال التى يحبها الناس ، ويألفها العرب . والظريف أنه قد اصطنع القصص اليسير وسيلة إلى إظهار هذه الخصال ، فهو قد غدا على صاحبه حصن ، فألفاه وقد أحاط به عواذله يلمنه ، ويلححن عليه فى اللوم . لكثرة ما ينفق من المال ، وهن مع ذلك يحببنه ، ويؤثرنه . ويرفقن به . ويفدينه بأنفسهن ، يأخذنه بالعنف حيناً ، ويأخذنه بالرفق حيناً آخر . ولكنه يعييهن ويعجزهن ، فلا يبلغن منه شيئاً . ولا يعرفن كيف ينتهين إلى نفسه . ليصرفنه عن هذا الإسراف ، فإذا بلغ منهن العجز أقصرن عنه ، وتركنه وما هو فيه من إهلاك للمال ، لا فى لهو ولا فى عبث ، ولكن فى إغاثة الملهوف . وإعانة المحروب . ثم يمضى الشاعر فى مدحه ، فيصل إلى هذا البيت البديع الذى لا أعرف أبدع منه فى سذاجته ويسره ، وارتفاعه عن التكلف ، وتصويره لطبيعة الإنسان السهلة السمحة التى لم تعقدها الفلسفة ، ولم يلح عليها الترف ، ولم تخرجها الحضارة عن طورها :

تَرَاه إذا مَا جِئْتَه مُتَهَلِّلا كأَنك تعطيه الذِى أَنتَ سائِلُهْ

وصاحبه لسِنٌ فصيح . قوى الحجة ، بالغ البرهان . حليم مع ذلك شديد الصفح ، معرض عن اللغو ، متفضل على الضعيف المغلوب :

وَذِى خَطَلٍ فى القوْلِ يَحْسَبُ أَنَّه مُصِيبٌ فَما يُلْمِمْ بِهِ فهُوَ قائِلهْ
عَبَأْتُ لهُ حِلْماً وَأَكْرَمْتُ غَيْرَهُ وَأَعْرَضْتُ عَنْهُ وهْوَ بادٍ مُقاتِلُهْ

وأظن أن من الإطالة ، بل من الإسراف فى الإطالة ، أن نصل الحديث فى مدح زهير ، فقد قال فيه القدماء ما كان يمكن أن يقال ، وأىّ القدماء ؟ عمر بن الخطاب وجماعة من خيرة العلماء . وأنبه النقاد . لا يحتاج مدح زهير إلى النقد ولا إلى التقريظ . وإنما يحتاج إلى أن يقرأ ويقرأ . وأن يجد القارئ فيه

هذه اللذة التي لا تفنى . والتي توجد في الشعر الصادق الذى لا إسراف فيه ولا إحالة ولا تكلف . ولزهير هجاء لاذع عنيف مخيف ، وأظنك قد رأيت في ديوانه قصته مع ذلك الأسدى الذى أغار على إبله فاستاقها ، وأخذ معها عبداً له يسمى يساراً ، فأنشأ زهير كافيته المشهورة التي أولها :

بانَ الخَلِيطُ وَلَمْ يأْوُوا لِمَنْ تَرَكُوا   وَزَوَّدُوكَ اشْتياقاً أيَّةً سَلَكُوا

والتي يقول فيها :

يا حارِ لا أُرْمَيَنْ مِنْكُمْ بِداهِيةٍ   لَمْ يلْقها سُوقَةٌ قَبْلِي وَلا مَلِكُ
فارْدُدْ يَساراً وَلاتعْنُفْ عليهِ وَلاَ   تَمْعَكْ بِعِرْضِكَ إنَّ الْغادِرَ المَعِكُ

فلم يلتفت الأسدى إلى هذه القصيدة . ولم يحفل بما فيها من نذير . بل أمسك يساراً . فقال زهير أبياتاً أخرى فيها هجاء مقذع ، لا سبيل إلى روايته ، ولكنه على كل حال يدل على أن زهيراً لم يكن يتجنب الإقذاع حين تدعو إليه ضرورة الحياة . وحسبك أنه اتهم الأسديين بحب هذا العبد ، وأن الأسديين إنما يمسكونه عندهم إرضاء لنسائهم . فلما انتهت هذه الأبيات إلى الأسديين طلبوا إلى صاحبهم أن يقتل هذا الغلام ، ولكن صاحبهم كان عاقلا رشيداً كريماً ، فكسا الغلام ورده إلى مولاه . وانطلق لسان زهير بمدح هذا الأسدى والثناء عليه ، وهجاء قومه والإسراف في هجائهم .

فزهير كما رأيت ، وكما ترى ، قد فتح للشعراء أبواباً في الغزل والحنين ، وفتح لهم أبواباً في الوصف والتصوير ، وسنّ لهم سنناً في المدح والهجاء ، فأى غرابة في أن يكون إماماً من أئمة الشعر العربى النابهين ! وأى غرابة في أن يتخرج عليه هؤلاء الشعراء الذين أشرت إليهم آنفاً ! وكم يكون طريفاً وقيماً أن ندرس شعر هؤلاء التلاميذ الذين تعلموا على زهير لنتبين أثره فيهم ؛ وانتفاعهم بتأثره واتباعه ! . قال صاحبي : وما يمنعنا أن نمضى بالحديث نحو كعب بن زهير والحطيئة ؟ فهما أظهر تلاميذه ، وأشدهم به اتصالا ، وأى بأس في أن ندع أصحاب المعلقات حيناً لنعود إليهم بعد أسبوع ، أو بعد أسبوعين ؟ قلت : لا أرى بذلك بأساً ، ولا أكره أن يكون موضوع حديثنا في الأسبوع المقبل

قصيدة كعب المشهورة : بانت سعاد . قال : ومن يدرى لعل الاستطراد أن يغلب علينا فنتخذ هذه القصيدة الرائعة طريقاً إلى شيء من العناية بشعر المحدثين ، وهل ترى بأساً فى أن ننتقل من « بانت سعاد » إلى « البردة » ، ومن البردة إلى نهجها الذى أنشأه شوقى ، أو إلى ميمية البارودى ؟ قلت : ياسيدى ، لا تسرف فى التقدير ، ولا تبعد فى الحساب ، فإنى لا أحب ذلك ولا أميل إليه ، وحسبنا أن نتحدث فى الأسبوع المقبل عن « بانت سعاد » . قال : فإنى أريد أن أريحك وأريح نفسى بعض الشىء من هذا الشعر القديم ، ولكنى فيما يظهر لم أحسن الاحتيال عليك .

ساعة مع كعب بن زهير (١)

قلت لصاحبي : إن لزهير عند القدماء صورتين مختلفتين . إحداهما ألممنا بها إلماماً فى الحديثين الماضيين ، والأخرى يجب أن نلمّ بها اليوم ، لنبلغ بها إلى ابنه كعب .

فأما الصورة الأولى ، فهى التى كان يألفها الأدباء والنقاد وأصحاب اللغة ، وهى صورة الشاعر الجاهلى البارع المجيد ، الذى كان يزاحم فحول الشعراء ، ويستأثر من دونهم بالسبق عند أهل الحجاز عامة ، وعند عمر بن الخطاب خاصة ، وعند جرير وغير جرير من بعد عمر ، والذى كان ينفق شعره فى المدح كما كان يقول القدماء ، ويتوسل إلى هذا المدح بفنون أخرى من الشعر أجادها وبرع فيها كالغزل والوصف ، والذى كان يعنى بشعره عناية ، ويجوّده تجويداً ، ولا يظهره إلا إذا أتقنه وأطال النظر فيه ، والذى كان يعلم الشعر جماعة من الشبان ، منهم ابنه كعب ، وراويته الحطيئة . وسترى أننا سنحتاج إلى هذه الصورة ، وسنستعين بها على فهم كعب ، أو على فهم هذه القصة الوحيدة التى بقيت لنا من شعره كاملة أو تشبه الكاملة (٢) .

وأما الصورة الأخرى ، فهى هذه التى كان يألفها القصاص وأصحاب السير ، والتى تتخذ سبباً إلى هذه القصيدة الرائعة التى بقيت لنا من شعر ابنه كعب ، والتى تستخلص استخلاصاً من بعض الشعر الذى صح لزهير ، أو الذى حمل عليه ، فزهير فى بعض شعره يلمّ بأمور تتصل بالدين ، فهو يذكر البعث فى مطوّلته المشهورة فيقول :

فلا تَكْتُمُنَّ اللهَ ما فى نُفُوسِكُمْ   لِيَخفَى وَمَهْما يُكْتَمِ اللهُ يَعْلَمِ
يُؤَخرْ فيُوضَعْ فى كِتابٍ فَيُدَّخَرَ   لِيومِ الحسابِ أوْ يُعَجَّلْ فيُنقَمِ

وقد تنبه لذلك القدماء أنفسهم فذكروه ، كما أن شعراً قد حمل على زهير

---

(١) نشرت بجريدة الجهاد فى ٣ أبريل سنة ١٩٣٥ .

(٢) لقد عثر على ديوان كعب ، وطبعته دار الكتب المصرية سنة ١٩٥٠ .

وتنبه القدماء إلى أنه حمل عليه ، وفيه ذكر مفصل لأمور الدين . واقرأ هذه الأبيات اليائية التى أنكر الأصمعى أن تكون لزهير ، والتى أولها :

أَلا ليتَ شِعْرِى هل يَرَى النَّاسُ ما أَرَى ... مِنَ الأَمْرِ أَوْ يبدُو لهمْ ما بَدَا لِيا

بدا لِى أَنَّ الناس تَفْنَى نفُوسُهُمْ ... وأَمْوالهُمْ وَلا أَرَى الدهْرَ فانِيا

وَإِنِى مَتَى أَهْبِطْ مِنَ الأَرضِ تَلْعَةً ... أَجِدْ أَثَرًا قَبْلِى جَدِيداً وَعافِيا

أرانِى إذا ما بِتُّ بِتُّ عَلَى هَوَى ... وَأَنِّى إذا أَصْبَحْتُ أَصْبَحْتُ غادِيا

إِلَى حُفْرةٍ أَهْدَى إِلَيْها مقِيمَةٍ ... يحُثُّ إِلَيْها سائقٌ مِنْ وَرائِيا

ثم يمضى الشاعر فى هذه الحكمة الطبيعية اليسيرة على نحو ما رأيت فى عينية لبيد التى مطلعها :

بلِينا وَما تَبلى النُّجُومُ الطَّوالِعُ ... وَتَبْقَى الْجِبالُ بَعْدنا وَالمصانِعُ

ولكنه يعدل بعد ذلك إلى نوع آخر من الفلسفة الدينية فيقول :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهُ أَهْلَكَ تُبَّعاً ... وَأَهْلَكَ لُقْمانَ بْنَ عادٍ وَعادِياً

وأَهْلَكَ ذا الْقرْنَيْنِ مِنْ قَبْلِ ماتَرَى ... وَفِرْعَوْنَ جَبَّارًا طَغَى والنَّجاشِيا

فأنت ترى أن للشاعر فى هذه الأبيات التى سمعتها طريقتين مختلفتين فى الفلسفة ، إحداهما طبيعية يسيرة ، تلائم تفكير أصحاب السذاجة من حكماء البادية ، والأخرى دينية كأنها أخذت من القرآن أخذاً . ومن الواضح أن هاتين الفلسفتين لم تجتمعا فى هذا الشعر ، إلا لأنهما خلطتا فيه خلطاً ، ولكن الواضح على كل حال هو أن شعراً دينيًّا قد نسب إلى زهير ، وإنما نسب إليه لأنه عرف بالحكمة وضرب المثل من جهة ، ولأنه أبو كعب وبجير من جهة أخرى ، وما دام إسلام بجير ، ثم إسلام كعب ، قد تمّا على النحو الذى سطرته السيرة والذى سنتحدث عنه ، فلا بدّ من تفسيره . ومن تنظيم القصة التى تبينه وتوضحه وتجلوه ، وقد رتبت هذه القصة ترتيباً ظريفا ، قد لا يستقيم للعقل الحديث ، ولعله لم يستقم للعقل القديم أيضاً . ولكنه على ذلك حلو ساذج ، محبب إلى

النفس ، مثير لهذه العواطف الجميلة الحلوة الهادئة ، التى تثيرها أحاديث الأولين ، وهو إنما يثير هذه العواطف لأن فيه شعراً جميلا حقًّا لو نظم لكان من أروع الشعر وأبقاه .

فقد تحدثوا أن زهيراً كان كثيراً ما يلقى أهل الكتاب ، ويسمع منهم ، ويتحدث إليهم ، ويفكر فيما وعى عنهم ، ويظهر أن حديثه وتفكيره قد أثرا فى نفسه ، وكادا يغيّران من سيرته ، فرأى ذات ليلة فيما يرى النائم كأنه قد رفع إلى السماء ، فما زال يصعد حتى كاد يبلغها ، فلما أحس ذلك أراد أن يتناول السماء بيده ، فردّ عنها وهوى إلى الأرض ، فلما استيقظ لم يشك فى أن هذه الرؤية تصور شيئاً ! وتدل على شىء ، وأن الحوادث ستعبرها ، وما أكثر ما يتاح للحوادث أن تعبر الأحلام ، ويقال إنه رأى ذات ليلة فيما يرى النائم أن أسباباً من السماء قد مدّت إليه ، فلما همّ أن ينالها نأت عنه ، ثم أفاق من نومه ، فلم يشك فى أن لهذه الرؤية دلالتها وتأويلها ، وقال لابنيه : إنه كائن بعدى للسماء خبر . ثم أوصاهما أن يستقصيا هذا الخبر ، وأن ينتفعا به ، وأن يتبعا صاحبه إن أدركاه .

وكانت بعثة النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانت الخصومة بينه وبين قومه من قريش ، ثم كانت الهجرة ، ثم كانت الخصومة بينه وبين قريش وغيرهم من العرب ، ثم أذن الله بالفتح ودخل النبى وأصحابه مكة ظافرين ، ثم كان يوم حنين ، وأتم الله نصره للمسلمين على من اجتمع لحربهم من العرب . وقد تسامع الناس منذ عهد غير قصير بهذا النبى العربى ، وبما يحدّث به من أخبار السماء ، وبما صدّق الله به حديثه من الآيات البينات ، وكأن بجيراً وأخاه كعباً قد سمعا هذا كله ، فلم يحفلا به ، ثم سمعاه فأعرضا عنه ، ثم سمعاه ورأيا من آياته ما رأيا ، فذكرا حديث أبيهما زهير ، وذكرا وصيته ، وحرصا على أن يتبينا خبر السماء لعله قد كان . وأن يعلما علم هذا الرجل الذى يتحدّث بخبر السماء . فانطلقا حتى إذا بلغا الأبرق ، قال بجير لأخيه كعب : أقم هنا حتى آتى هذا الرجل فأسمع منه ، وأعلم علمه ، ثم أعود إليك ، أو قال كعب لأخيه بجير : اذهب إلى هذا الرجل فاسمع منه ، واعلم علمه ، ثم عد إلىّ ، فلعل خبر السماء قد كان ، ولعله صاحب هذا الخبر ؛ فإن

كان إياه ذهبنا إليه واتبعناه . وأقام كعب ، وذهب بجير ، ولكن كعباً أقام وأقام ، وانتظر أخاه وأطال الانتظار ، وأخوه لا يعود إليه ، ذلك أن بجيراً قد أتى هذا الرجل فسمع منه ، وعلم علمه ، واستيقن أنه صاحب خبر السماء ، وأن خبر السماء هذا قد كان ، فأقام مع صاحبه ، وآمن به ، وانصرف إليه وإلى دينه عن أخيه هذا الذى قدمه بين يديه مستطلعاً ورسولا ، واستيأس كعب من مقدم أخيه ، واستيقن كعب أن أخاه قد صبأ ، كما كان العرب يقولون لمن تبع النبي فى ذلك الوقت ، فغاظه ذلك وساءه ، فقال هذه الأبيات التى يختلف الرواة فى نصها وترتيبها اختلافاً غير قليل :

ألاَ أَبْلِغا عنى بُجَيْراً رِسالَةً   فَهَلْ لَكَ فِيما قُلْتَ وَيْحكَ هَلْ لَكا

سقاكَ أَبو بَكْرٍ بِكَأْسٍ رَوِيَّةٍ   فَأَنْهَلَكَ المَأْمُورُ مِنْها وَعلَّكا

ففارَقْتَ أَسْبَابَ الهُدى وَاتبعْتَهُ   عَلَى أَىِّ شَىءٍ وَيْبَ غَيْرِكَ دَلَّكا

على مذهَبٍ لَمْ تُلفِ أُمًّا ولا أَباً   عَليهِ وَلَمْ تَعْرِفْ عَلَيْهِ أَخاً لَكا

فَإِنْ أَنْتَ لم تفْعلْ فَلَسْتُ بِآسِفٍ   وَلَا قائِلٍ إما عثرت لَعاً لَكا

وانتهت هذه الأبيات إلى المدينة فيما كان ينتهى إليها من الشعر الذى كان يقال فى هجاء النبي صلى الله عليه وسلم والتحريض عليه ، وسمع النبي هذه من بجير نفسه فيما يقول الرواة ، أو من غير بجير ، فتوعد كعباً وأباح دمه لمن لقيه .

والقصة فى أكبر الظن على هذا النحو قد رتبت ترتيباً ، وإذا كان لنا أن نفقه هذه الأحاديث التى ترويها السير ، ونستخرج منها المعقول ، فإنى أرجح أن بجيراً وأخاه كانا قد ائتمرا بالنبي ، وأن بجيراً كان قد سبق إلى محضر النبي ، ليؤذيه ويسوءه ، فلما انتهى إليه آمن واهتدى كغيره من الذين سعوا إلى النبي يريدون به السوء ، فلم يجدوا عنده إلا هدى ورحمة ونوراً ، واستبطأ كعب أخاه ، وعرف من أمره ما عرف ، أوشك من أمره فيما شك فيه ، فقال هذا الشعر ، وأنت تذكر أن البيت الأول يروى على نحو يؤيد هذا المذهب الذى أذهب إليه ، فهو يروى :

* فهَلْ لَكَ فيما قُلْت بالخَيْف هَلْ لكا *

فهوْ إذن كان قد قال شيئاً بالخيف وكعب يذكره به ، ويحرضه عليه ، ويستبطئه فى إنفاذ ما قال ، والبيت الأخير صريح فى هذا :

فَإنْ أَنْت لمْ تَفْعلْ فَلست بآسف   وَلا قائِلٍ إما عَثَرْتَ لعاً لكا

وعلى هذا النحو يفهم إبعاد النبي لكعب وإهدار دمه ، فقد كان كعب يلهج بالنبي ويحرض عليه ، ويدس إلى محضره من يناله بالمكروه ، ثم يقول الشعر كما كان يقوله غيره من شعراء قريش ومن شعراء العرب الذين كانت تأجرهم قريش لذم النبي والإغراء به .

وأكبر الظن أن انتصار النبي فى مكة وحنين ، وإذعان العرب كلهم لسلطانه الجديد ، وقتل من قتل بعد الفتح من خصوم الإسلام وأعداء النبي ، وفرار من فر ، كل ذلك قد ملأ كعباً فزعاً ورعباً . وأكبر الظن أن كعباً حاول الفرار والاستخفاء فيمن حاول الفرار والاستخفاء ، ولكن الأرض ضاقت به ، والناس تخاذلوا عنه ، ونظر فإذا هو مأخوذ فهالك إذا لم يحتط لنفسه ، وجاءته فى أثناء هذا كله رسالة أخيه بجير بأن النبي رءوف رحيم يأخذ العفو ، ويأمر بالعرف ، ويعرض عن الجاهلين ، ولا يعاقب تائباً بما قدم قبل أن يتوب ، فاستقرت عزيمة كعب على أن يستجير بعفو النبي من غضب النبي ، وانطلق حتّى بلغ المدينة ، فأوى إلى رجل من جهينة ، فيما يقول بعض الرواة ، وأوى إلى أبي بكر رضى الله عنه ، فيما يقول بعضهم الآخر . فلما صليت الصبح ، أقبل أبو بكر ومعه كعب وقد تلثم حتّى استخفى وجهه ، فلما انتهيا إلى النبي ، قال له أبو بكر : هذا رجل يريد أن يبايعك على الإسلام ، فبسط النبي يده فبايعه كعب وأسلم ، ثم حسر عن وجهه ، وقال : هذا مكان العائذ بك يا رسول الله ، أنا كعب بن زهير . وهمّ الأنصار به لما قدم من الإساءة إلى النبي ، ولكنه صلى الله عليه وسلم ردهم عنه ، وماذا كانوا يستطيعون أن يصنعوا به ، وهو قد دخل فى الإسلام ، وبايع النبي ، واتخذه له جاراً ؟ ويقال إن النبي استنشد أبا بكر هذه الأبيات التى رويتها آنفاً ، فأنشده إياها ، فلما بلغ قوله :

* فأَنْهلَكَ المَأْمُورُ منْها وعَلَّكا *

قال كعب : لم أقل المأمور يا رسول الله ، وإنما قلت المأمون . فقال النبي مأمون والله ، ورضى عن كعب ، وقام كعب فأنشده قصيدته هذه الرائعة :

بانَتْ سُعادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُولُ   مُتَيَّمٌ إِثْرَها لَمْ يُفْدَ مَكْبُول

ويقال إنه ظل ينشد حتى إذا انتهى إلى مدح قريش ، أومأ النبي إلى الناس أن اسمعوا ، فلما بلغ من هذا المدح أروعه وأجمله ، أومأ النبي إلى المهاجرين أن اسمعوا ، ولكن كعباً عرّض بالأنصار فيما يقول الرواة ، فغضب المهاجرون ، أو غضب النبي نفسه ، واضطر كعب إلى أن يثني على الأنصار في هذه الأبيات الجميلة المشهورة :

مَن سرَّهُ كَرَمُ الحياةِ فَلَا يَزَلْ   فى مِقنَبٍ مِنْ صالِحِى الْأَنصارِ
الْمُكْرِهِينَ السَّمْهَرِىَّ بِأَذْرُعٍ   كسوافِلِ الْهِنْدِىِّ غَيْرِ قِصارِ
وَالْباذِلِينَ نُفُوسهُمْ لِنَبِيِّهِمْ   لِلْمَوْتِ يَوْم تَعَانُقٍ وَكِرَارِ
يَتَطهَّرُون يَرَوْنه نُسُكاً لهُمْ   بِدِماءِ مَنْ عَلِقُوا مِنَ الْكُفارِ

قال صاحبي : ما أجمل هذا البيت الأخير ! وما أروع هذا التطهير بدماء من علقوا من الكفار ! وما أظن إلا أن هذا البيت قد أرضى الأنصار ، وبلغ من نفوسهم أقصى الرضا . قلت : نعم وأرضى المهاجرين أيضاً . وأكبر الظن أن الذين كانوا حديثي عهد بالإسلام من قريش قد غاظهم هذا البيت ، ولكن ألا يعجبك الشطر الأول من هذا البيت ؟ فإن فيه ضميراً يعجب النحويين كل الإعجاب ، وهو هذا الضمير في قوله « يرونه نسكاً لهم » .

ففي رد الضمير على ما يفهم من الفعل جمال رائع حقاً . وينبئنا الرواة بأن قصيدة كعب قد أعجبت النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يكتف بالعفو عن كعب والاستماع له ، والإقبال عليه ، بل أراد أن يجيزه ويصله فكساه بردة كانت له . . وقد زعموا أن معاوية أراد أن يشتري هذه البردة من كعب بعد ذلك فأغلى له الثمن ، ولكن كعباً أبى ، فلما مات راجع معاوية أهله فاشتراها منهم بثمن ضخم ، وهي التي توارثها الخلفاء فيما يقول الرواة . وكانوا يخرجون بها للناس في العيدين .

فأنت ترى أن هذه القصة من أولها جميلة رائعة حلوة محببة إلى النفوس حقاً . وسواء أصحت كلها أم لم تصح إلا فى جملتها ، فإنها تهيئ لقصيدة كعب جواً شعرياً ملائماً كل الملاءمة لجمالها وروعتها ، وملائماً بنوع خاص كل الملاءمة لمكان الممدوح صلى الله عليه وسلم من البأس أول الأمر ، ثم من العفو والحلم بعد ذلك ، ثم من الكرم والجود آخر الأمر ، فهذا الرجل كان يلهج بالنبي ويحرض عليه ويأتمر به ليسوءه ؛ وقد أهدر النبي دمه حين أتم الله له النصر ، وحين دانت له العرب . فلما بلغه الوعيد استطير ، ولفظته الأرض — كما يقول ابن سلام — و نفاه الناس ؛ ونبا عنه الأصدقاء ؛ وخذله النصير ، فلجأ من النبي إلى النبي . فوجد عنده حلماً واسعاً وعفواً كريماً ، ثم مدحه فوجد منه إقبالا عليه واستماعاً له ، ثم وجد منه بعد هذا كله كرماً وبذلا وجوداً .

ونحن نقرأ هذه الأنباء . ونرى هذه المرآة الصافية التى تجلو لنا طرفاً من أخلاق النبي ، فلا نجد فى ذلك غرابة ولا طرافة ، وإنما نحب ذلك ونستعيذ به ونعجب به ، لأننا نشأنا ، ونشأت الأجيال من قبلنا . على إكبار النبي ؛ والإيمان له بمكارم الأخلاق ومحاسن الشمائل والخصال ، ولكننا خليقون أن نخرج من أنفسنا وننسى ما تعوّدنا ، وما ورثنا عن الأجيال من قبلنا ؛ ونعيش لحظة فى ذلك العصر الذى عاش فيه النبي ، وفى تلك البيئة التى امتحن فيها كعب ، ونتمثل الصورة الصادقة لهؤلاء العرب الذين كانوا قد أخذوا يدينون لهذا السلطان الجديد ، يحبه أقلهم وهم المهاجرون والأنصار ، ويرغب فيه أو يرهبه أكثرهم ، وهم هؤلاء المغلوبون من قريش وغير قريش ، والمتقدمون بالطاعة عن رضا قبل أن يتقدموا بها عن كره . يجب أن نعيش فى ذلك العصر ، وفى تلك البيئة ، وأن نتمثل هذه الصورة الصادقة لنقدّر ما تجلوه هذه القصة من أخلاق النبي ، ولنتبين موقع هذه الأخلاق من نفوس هؤلاء العرب الذين كانوا يزدحمون فى المدينة ، أو يستبقون فى الطريق إلى المدينة ، أو ينتظرون فى مواطنهم النائية والدانية ليعلموا من أمر هذا الرجل العظيم أكثر مما علموا ، وليتبينوه من خلاله أكثر مما تبينوا .

ولكننا قد بعدنا عن زهير ، وبعدنا عن كعب ، وآن لنا أن نعود إليهما .

قال صاحبي : إنك لعجل إلى كعب وإلى أبيه ، وإني لأوثر أن نمضي في الحديث عن ممدوح كعب ، فحديثه آثر عندى وأحب إلىّ ألف مرة ومرة من شعر الشعراء . قلت : وهو كذلك آثر عندى وأحب إلى . ولكن ممدوح كعب قد سمع هذا الشعر ورضى عنه ، وأقبل عليه وأجازه . فالحديث عن هذا الشعر حديث عن هذا الممدوح ؛ وأنت تعلم من غير شك ؛ أننا لم نستأنف هذه الأحاديث في السيرة وإنما استأنفناها في الشعر والشعراء . وأنا حين أقرأ قصيدة كعب أراها تأتلف من ثلاثة أجزاء متباينة في ظاهر الأمر . ولكنها مؤتلفة أحسن الائتلاف في حقيقة الأمر ؛ لولا أني أكاد أرجح أن جزءاً منها قد كثر فيه عبث الرواة .

قال صاحبي : فإني أعزم عليك أن تعفيني من التحقيق والتمحيص ، ومن الإبانة عن الكذب والانتحال ، وعن العبث واللعب ، وعن التقديم والتأخير . قلت : ما من بعض ذلك بدّ يا سيدى ، فأجزاء هذه القصيدة ثلاثة كما قلت . فأما أولها : فهو هذا الغزل الذى قصد إليه كعب في أول القصيدة كما تعوّد الشعراء أن يفعلوا . وأما الثانى ، فهو هذا الوصف الذى انتقل إليه كعب بعد الغزل كما تعود الشعراء أن يفعلوا أيضاً . وأما الثالث : فهو المدح الذى أنشئت القصيدة من أجله . وانتهت القصيدة إليه ، وأنت تستطيع أن تسمع هذا الغزل ، فستحبه وتطمئن إليه ، وستعجب به إعجاباً شديداً ، وسترى فيه أثر زهير نفسه واضحاً جليًّا ، واسمع هذه الأبيات الحسان :

بانَتْ سُعادُ فَقَلْبِي الْيَوْمَ مَتْبُول مُتَيَّمٌ إثْرَها لَمْ يُفْدَ مَكبولُ

وأظنك توافقني على أن هذا البيت الظريف إنما يصور في إيجاز جميل ما صوره زهير في بيتين حين قال :

إنَّ الْخَلِيطَ أَجَدَّ الْبَيْنَ فانفَرَقا وعُلِّق القَلْبُ مِن أَسْماء ما علِقا

وَفارَقَتْك بِرَهْنٍ لا فَكاكَ لَهُ يَوْمَ الْوَداعِ فَأَمْسَى الرَّهْنُ قَدْغلِقا

فأنت ترى أن المعنى الذى قصد إليه كعب هو نفس المعنى الذى سبق إليه زهير ، فقد ذهبت سعاد بقلب كعب وارتهنته ؛ فهو عندها مكبول لايفك ، كما ذهبت أسماء بقلب زهير وارتهنته ، فليس له عندها فكاك، ولكنّ

كعباً قد أوجز حيث أطنب أبوه ، وآثر قافية أيسر وأحلى موقعاً من قافية أبيه .

ثم يقول كعب :

وَما سُعادُ غَداةَ الْبَيْنِ إذْ برزَتْ ... إلاَّأَغَنُّ غَضِيضُ الطَّرفِ مكْحُولُ

تَجْلُواعَوارِضَ ذِى ظَلْمٍ إذاابْتَسَمت ... كأنَّه مَنْهَلٌ بِالرَّاحِ معْلولُ

شجَّتْ بِذِى شَبَمٍ مِنْ ماءِ مَحْنِيَةٍ ... صافٍ بِأَبْطحَ أضحىوَهْومَشْمُول

تنْفِى الرياحُ الْقَذَى عنهُوَأَفْرَطه ... مِنْ صَوبِ غادِيَةٍ بِيضٌ بَعَالِيلُ

وهذا المعنى أيضاً عليه طابع زهير ، وهو من معانى المدرسة ، إن صح هذا التعبير الحديث . فكعب يشبه سعاد بالظبي ، ثم يفصل بعض صفات الظبي ، ثم يلح فى وصف ثغر سعاد الجميل ، وفى تشبيه ريقها بالخمر التى مزجت بالماء الصافى العذب البارد . وقد قال زهير فى نفس هذا المعنى ، وفى القصيدة التى تحدثت عنها آنفاً :

قامتْ تَرَاءَى بِذَى ضالٍ لِتَحْزُنَنى ... ولا محالةَ أنْ يشْتاقَ مَنْعَشِقا

بِجِيدِ مغْزِلَةٍ أَدْماء خاذِلَةٍ ... مِنَ الظِّباء تُرَاعِى شَادِناً خَرِقا

كَأَنَّ رِيقَتَها بعْدَالكَرَىاغْتَبَقَت ... مِنْ طَيِّبِ الرَّاحِ لمَّا يَعْدُأنعَتَقا

شَجَّ السُّقاةُ عَلَى نَاجُودِها شَبِماً ... مِنْ ماءِ لِينَةَ لا طَرْقاً ولا رَنِقا

فسعاد كعب كأسماء زهير ، تشبه الظبي ، وريق سعاد كريق أسماء يشبه الخمر الممزوجة بالماء البارد العذب .

ويقول كعب :

ويْلُ اَمِّها خُلَّةً لَوْ أَنَّها صَدَقَتْ ... بِوعْدِها أَوْ لَوَ اَنَّ النُّصْحَ مقبُولُ

لٰكِنَّها خُلَّةٌ قَدْ سِيطَ مِنْ دَمِها ... فَجْعٌ ووَلْعٌ وَإخلافٌ وتبْدِيلُ

فما تَدُومُ على حالٍ تكون بها ... كَما تلونُ فى أثوابِها الغُولُ

وَلا تَمَسَّكُ بِالعهْدِ الَّذِى زعَمَتْ ... إلاَّ كما يُمْسِكُ الماءَ الغرابِيلُ

كانت مَواعِيدُ عُرْقُوبٍ لَها مَثَلاً ... وَما مَواعِيدُها إلاَّ الأَباطِيلُ

أَرْجُو وآمُلُ أَنْ تَدْنُو مَودتُها ... وما إخالُ لَدَيْنا مِنْكِ تَنْوِيلُ

فَلا يغُرَّنْكَ ما مَنَّتْ وَما وَعَدَتْ إنَّ الأَمانِيَّ والْأَحْلامَ تَضْليلُ

وهذا المعنى أيضاً قد سبق إليه زهير ، وطبعه بطابعه ، فهو من معانى المدرسة . ولكنّ كعباً قد أطنب حيث أوجز أبوه ، وكان فى إطناب كعب جمال وروعة ، لأنه فصل من أخلاق سعاد ما لم يفصله أبوه من أخلاق أسماء ، فزهير لم يزد على أن وصف أسماء بأنها أخلفت الوعد فرثت حبالها ، وذلك حيث يقول :

وأَخْلفَتْكَ ابنَةُ الْبكرِيِّ ما وَعدَتْ فَأَصْبَحَ الْحبْلُ مِنها واهِناً خَلَقَا

أما كعب فإنه يفصل هذا تفصيلا ، فيذكر تلوّن سعاد وتغيرها ، كما تتلون الغول ، ويذكر أنها لا تمسك العهد الذى تقطعه إلا كما تمسك الماء الغرابيل . وأظنك توافقنى على ما فى هذين التشبيهين من سذاجة رائعة ، ثم يخلص كعب إلى ناقته ، فيقول :

أَمسَتْ سُعَادُ بِأَرضٍ لا يُبَلِّغُهَا إلا الْعِتَاقُ النَّجيبَاتُ المَرَاسِيلُ

وأنا أريد أن أعفيك ، وأن أعفى نفسى من حديث الناقة ، فإن لى فيه آراء لعلك لا تطيقها . ولكنى أحب أن ألفتك إلى أن هذا النوع من شعر كعب وزهير قد أثر فى الشعراء المعاصرين . ولست أصدّق أن المصادفة وحدها هى التى أنطقت شاعراً معاصراً لكعب بهذه الأبيات الحلوة التى تشبه غزل كعب ، لا فى المعانى والألفاظ وحدها ، بل فى الوزن والقافية أيضاً ، وهذا الشاعر هو عبدة ابن الطبيب ، وقد قال قصيدته التى أشير إليها بعد كعب من غير شك ، لأنه قالها فى أثناء الفتح أيام عمر . وأنت تستطيع أن تقرأ هذه القصيدة فى المفضليات ، فسترى فيها كثيراً جداً من معانى كعب وزهير ، ومن ألفاظ كعب وزهير أيضاً . وأولها :

هلْ حَبْلُ خَوْلَةَ بَعْدَ الْهَجْرِ مَوْصُولُ أَمْ أَنْتَ عنْها بَعِيدُ الدَّارِ مشغُولُ

وقد قال كعب فى ناقته ما قال ، وما أراد الرواة المتكلفون له أن يقول مما تستطيع أن تقرأه وتدرسه إذا شئت ، ومما لا أكره أن أدرسه معك إذا أحببت . ولكن على مذهبي الذى تعرفه .

قال صاحبي : وقاني الله شر هذا المذهب ، فإني لا أحبه ولا أرتاح إليه .

قلت : فانظر إلى انتقال كعب من وصف ناقته وتخلصه إلى تصوير خوفه وفزعه ، وضيق الأرض به ، وتنكر الناس له في هذا الشعر الجميل :

تَسْعَى الْوُشَاةُ جَنابيْها وَقَوْلُهُم ... إِنَّكَ يا بْنَ أَبِي سُلْمَى لَمَقْتُولُ
وَقالَ كلُّ خَلِيلٍ كُنتُ آمُلُهُ ... لا أُلْهِيَنَّكَ إِنِّي عَنْكَ مَشْغُولُ
فَقُلْتُ خَلُّوا سَبِيلِي لا أَبا لَكُمُ ... فَكُلُّ ما قَدَّرَ الرَّحْمَنُ مَفْعُولُ
كُلُّ ابْنِ أُنثَى وإِن طَالَتْ سَلَامَتُهُ ... يوماً عَلَى آلَةٍ حَدْبَاءَ مَحْمُولُ

أفترى إليه وقد كثر من حوله الخائفون عليه ، والمخوفون له ، والمرجفون به ، والنابون عنه ، وهو متأثر بما يرى وما يسمع ، خائف مما يرى وما يسمع ، حتى انتهى به الخوف إلى اليأس ، وحتى ضاقت به الأرض وحتى لم يجد من الهول ملجأ إلا إلى الهول :

كُلُّ ابْنِ أُنثى وإِنْ طالت سلامَتهُ ... يَوماً عَلَى آلَةٍ حدباءَ مَحْمُولُ

على أنه لم يكد يذكر أن الذي يوعده هو رسول الله حتى انجلى عنه اليأس وثاب إليه الأمل :

أُنْبِئْتُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ أَوْعَدَنِي ... والعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ مأْمُولُ

فوازن بين هذا البيت وبين بيت آخر ، تذكره من غير شك إذا أنشدت هذا البيت ، وهو قول النابغة للنعمان :

أُنبِئتُ أَنَّ أَبَا قابُوسَ أَوْعَدَنِي ... وَلا مُقامَ عَلَى زَأْرٍ مِنَ الأَسَدِ

فسترى هذا الفرق العظيم بين هذين الليثين اللذين يوعدان فيخاف وعيدهما ، فأما أحدهما ، وهو النعمان . فوعيده مخيف موئس ، وأما الآخر فوعيده مخيف ، ولكن الأمل من ورائه ؛ لأن صاحبه هو النبي الذي عرف بالعفو والحلم والرحمة وسعة الخلق ، والذي أنزل الله عليه السكينة حين أنزل عليه القرآن :

مهْلا هداكَ الَّذِي أَعْطاكَ نَافِلَةَ الْـ ... ـقُرْآنِ فِيهِ مَوَاعِيظٌ وتَفْصِيلُ
لا تَأْخُذَنِّي بِأَقْوَالِ الْوُشَاةِ ولَمْ ... أُذْنِبْ وإِنْ كَثُرَتْ فِيَّ الأَقاوِيلُ

وما يزال كعب يستعطف ، ويصور خوفه وفزعه . ثم يصور بأس النبي وقوته وحزمه ، ويذهب فى ذلك مذهب زهير يشبه النبي بالليث . كما شبه زهير « هرما » بالليث ، ولكنه يفصل من صفات الليث وبأسه ما لم يفصل زهير ، حتّى إذا فرغ من ذلك وصوره فى أجمل لفظ وأروعه ، انتهى إلى هذا المدح الخالص الرائع الذى يحسن أن نختم به الحديث ، فقال :

إنَّ الرسول لَسَيْفٌ يُسْتضاءُ به مُهنَّدٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ مَسْلُولُ

فى فِتْيَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ قالَ قائِلُهُمْ بِبَطْنِ مكَّةَ لَمَّا أَسْلَمُوا زُولوا

زَالوا فَما زالَ أَنْكاسٌ ولا كُشُفٌ عِنْدَ اللقَاءِ وَلا مِيلٌ مَعازِيلُ

شُمُّ الْعَرَانِينِ أبطَال لَبُوسُهُمُ مِنْ نَسْجِ داوُدَ فى الهَيْجا سَرَابِيلُ

بِيضٌ سَوَابِغُ قَدْ شُكَّتْ لَها حلَقٌ كأَنَّها حلَق الْقَفْعاءِ مَجْدُولُ

لا يَفْرَحُونَ إذا نَالتْ رماحُهُم قَوْماً وَلَيْسُوا مَجازِيعاً إذا نِيلوا

يَمْشُونَ مَشْيَ الجمالِ الزُّهْرِ يَعْصِمُهُمْ ضَرْبٌ إذا عرَّد السُّودُ التنابِيلُ

لا يَقَعُ الطَّعْنُ إلا فى نُحُورِهِمُ وَما لَهُمْ عَنْ حِيَاضِ المَوتِ تَهْلِيلُ

قال صاحبي : إن مما يحزن حقًّا أن يذهب شعر كعب ، فما أشك فى أنه لو بقى لنا لبقى لنا شعر رائع حقيق بالإعجاب . قلت : حسبه هذه ! فما أرى إلا أن مدحه فيها يعدل مدح زهير كله .

ساعة مع الحطيئة[1]

أقبل عليّ صاحبي جذلان فرحاً شديد النشاط وهو يقول : أما أنا فلست أعدل بالحطيئة أحداً ، ولا بشعره شعراً ، ولا بحديثه حديثاً ، فأنا مفتون بهذا الرجل ، وبما يروى له من الشعر ، وبما يتصل حوله من الحديث . قلت : لست أحسدك على هذه الفتنة ، فما أراك قد فتنت بخير . لئن كان شعر الحطيئة جيداً رائعاً ، من أجود ما قال العرب وأروعه ، فما كان الحطيئة ولا حديثه خليقين أن يفتنا أحداً من أصحاب الجد . قال وهو يضحك: فمن زعم لك أنى من أصحاب الجد ؟ أو لست أنت وأمثالك من الذين يتجهمون للحياة والأحياء خليقين أن تملئوا الأرض جدًّا بعد أن ملئت دعابة وهزلا ؟ أو ليس لىَ ولأمثالى من الذين يحبون الابتسام، ولا يقطبون جباههم لما تقبل به الأيام من الأمر ، أن نرضى إذا سخطتم ، ونبسم إذا عبستم ، ونستقبل الحياة مبتهجين إذا استقبلتموها أنتم مكتئبين ؟ ومن زعم لك أن حب الحطيئة والافتتان به مظهر من مظاهر الهزل ، أو دليل على الانصراف عن الجد ! قلت : فإنى لم أزعم ذلك ، وإنما زعمت أن الحطيئة لم يكن صاحب خير وبر ووفاء ، فالكلف به والانصراف إليه كلف بالشر وانصراف إلى من لا يستحق أن يعنى به إلا العلماء الذين يدرسون ويكشفون . وقد عرفتك تكره الدرس والكشف ، ولا تحب أن تلمّ إلا بما يلهيك ويسليك . قال: فإن الحطيئة يلهينى ويسلينى ، ويحبب إلىّ القراءة فى كتب القدماء ، والتفكير فيا تركوا من الآثار ، وأنا أزعم أن حديث الحطيئة لا يثير ضحكاً ولا ابتساماً ، وإنما يثير فى النفس رثاء وإشفاقاً ، فقد كان الحطيئة فى رأيى بائساً كأشد ما يكون البؤس ، محزوناً كألذع ما يكون الحزن ، مكتئباً كأقوى ما يكون الاكتئاب . ولو قد استقامت الأمور للحطيئة ، كما كانت تحب طبيعته أن تستقيم ، لكان خليقاً أن يكون له شأن آخر . قلت ضاحكاً : وكيف كان ذلك ؟ قال مبالغاً فى الضحك : زعموا أن ما

---

(١) نشرت بجريدة الجهاد فى ١٠ أبريل سنة ١٩٣٥

أدركه الحطيئة من تطوّر الحياة العربية قد أفسد عليه أمره الخاص ، وإن كان قد أصلح للعرب أمرهم العام ، فإني أرى الحطيئة شاباً ذكيًّا قوى العقل ، حاد اللسان ، قد اتصل بزهير ، وأخذ يختلف إليه مع ابنه كعب فيسمع منه ، ويحفظ عنه ، ويروى شعره فى الأندية والمجالس ، ويحاول تقليده فيبلغ من ذلك ما يريد ، ويظفر منه بما كان يظفر به كعب ، ويرضى الأستاذ عن تلميذيه أو عن تلاميذه ، ويجتهد فى تأديبهم ، وأخذهم بما كان يأخذ به نفسه من إتمام الشعر ، وتجويده والعناية به جملة وتفصيلا . قلت : وكيف تكون العناية به جملة وتفصيلا ؟ قال : لا تقطع علىّ حديثى ، فإن العناية به جملة هى العناية بالقصيدة من حيث هى قصيدة ، والعناية به تفصيلا هى العناية بالبيت ، بل بالشطر ، بل بالكلمة فى البيت أو فى الشطر ، والعناية بالمعنى من المعانى يطرقه الشاعر ، فلا يدعه حتى يحققه ويستوفيه ، ولكنك قد ألهيتنى ، أو كدت تلهينى بهذه المقاطعة عما كنت آخذاً فيه ، فإنى أرى الحطيئة كما قلت متصلا بزهير ، يتعلم عليه الشعر ، رواية وإنشاء ، ويرى أن يكون مثله الأعلى فى حياته كمثل أستاذه الذى كان الناس يعظمونه ، ويكبرونه من شأنه ، فصاراه أن يتصل بجماعة من الأشراف يختصهم بالمدح والثناء ، ويختصونه بالمنح والعطاء ، وقد نعم زهير حين اتصل بهرم بن سنان والحارث بن عوف المرّيين ، وحصن بن حذيفة بن بدر وأمثالهم من سراة غطفان ، فما يمنعه هو أن يتصل بجيل ناشئ من الأشراف ، كما اتصل أستاذه بهذا الجيل الفانى .

وأكبر الظن أن كعباً كان كزميله الحطيئة . قد اتخذ أباه زهيراً مثلا أعلى له فى الشعر ، وفى الحياة اليومية أيضاً ، ونحن نقرأ فى أخبار الحطيئة أنه كان يصاحب كعباً فى الاختلاف إلى زهير ، وكان يصاحبه فى الصيد واللهو ، وكان يتعاون معه على قول الشعر ، والإشادة بهذه المدرسة الشعرية التى أسسها أوس ، ورفع أمرها زهير ، وكان يريد أن يفرض هذه المدرسة على البيئة التى كان يعيش فيها فرضاً ، فهو يستعين بكعب على ذلك ، ويحمله على أن يقول الشعر يفضل فيه نفسه ، ويفضل فيه الحطيئة ، ويزعم لنفسه وللحطيئة التفوق فى الإجادة والانفراد بالإتقان ، ويضطر أخا الشماخ إلى أن يردّ عليه فيقذع فى الرد ، وقد أخذت أمور الحطيئة ، فيما يظهر من الأخبار القليلة المفرقة التى

بقيت لنا ، تجرى على ما كان يحب ، فهو قد اتصل بعلقمة ابن عُلاثة الكلابى ، وكان رجلا من أشراف العرب وعظمائهم ، وكانت مضاربه نحو الشام ، وهمّ الحطيئة أن ينقطع له ، وأن يظفر منه بمثل ما ظفر به زهير من أصحابه ، فهو قد دافع عنه ، وأحسن الإشادة به ، حين كانت الخصومة بينه وبين عامر بن الطفيل ، ولكن أمور العرب تتغير فجاءة ، فإذا سلطان قريش يندك ، وإذا التوازن بين القبائل العربية فى نجد والحجاز يختل ، وإذا وقعة حنين تحطم آخر مقاومة للعرب الجاهليين ، وإذا كلمة الإسلام هى العليا . وإذا أشراف العرب وصعاليكهم وأوساطهم مصروفون عن هذه الحياة الجاهلية التى كانوا فيها ، إلى هذه الحياة الجديدة التى كان الإسلام يدعوهم إليها دعاء ، فأصبح يدفعهم إليها دفعاً ، وإذا أنظار هؤلاء العرب على اختلافهم لا تتجه نحو العراق ، حين كان ذلك السلطان العربى يضطرب فى ظل الفرس ، ولا تتجه نحو الشام حين كان ذلك السلطان العربى يضطرم فى ظل الروم ، ولا تتجه إلى مكة حين كانت قوة قريش وثروتها وقيامها دون البيت ، وإنما تتجه نحو المدينة حين كان هذا السلطان الجديد ينهض فى قوة وأيد ، وفى بأس وسماحة أيضاً ، وحين كانت المثل العليا الجديدة قد استقرت ، وأخذت تبسط سلطانها على النفوس والقلوب ، كما أخذت تبسط سلطانها على الأجسام أيضاً . فأما كثرة الناس ، فقد دخلوا فى هذا الأمر أفواجاً ، وأقبلوا على النبى صلى الله عليه وسلم يسلمون أو يؤمنون . وأما أقل الناس فقد أبوا وامتنعوا ، ومنهم من أقام حيث هو ، ومنهم من تفرق فى الأرض ، يهرب بحياته الجاهلية الغليظة التى كان يؤثرها من هذه الحياة الجديدة اللينة السمحة التى كان ينفر منها أشد النفور ! وما أرى إلا أن كعباً قد كان كالحطيئة ، نافراً من الحياة الجديدة ، منصرفاً عنها ، متأذياً بها ، حريصاً على حياته الأولى تلك وعلى ما كان فيها من لهو ومتاع وحرية لا تحد ، وما أظن إلا أنه كان خليقاً أن تصيبه مثل ما أصاب الحطيئة ، لولا أنه كان أرفع من الحطيئة شأناً ، وأنبه منه ذكراً ، وأظهر منه مكاناً ، وأعجز منه عن الحرب والاستخفاء فاضطر إلى أن يذهب إلى المدينة ، ويلجأ إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، ويعتذر مما قدم ، ومنّ الله عليه بالهدى ، فثاب إليه ولزمه ، ولم ينحرف عنه . فأما الحطيئة ، فقد

كان خامل الذكر ، لم يكن ابن زهير ، بل لم يكن معروف النسب ، وإنما كان يضطرب بنفسه ونسبه بين القبائل ، فهو مضرى حيناً ، وربعى حيناً آخر ، فكان هربه يسيراً ، وكان استخفاؤه هيناً . وأكبر الظن أنه لم يحتج إلى الهرب ، وإلى استخفاء ، وإنما ظل كما كان لم يحفل به أحد . والرواة كما نعلم مختلفون : فنهم من يزعم أنه أسلم أيام النبي ووفد عليه ، ثم ارتد مع المرتدين أيام أبي بكر ، ثم تاب مع التائبين بعد ذلك ، ومنهم من يزعم أنه لم يسلم أيام النبي ، وإنما ظل على شركه وجاهليته ، حتّى كانت الردة ، فاشترك فى مقاومة المرتدين للإسلام ، اشترك بلسانه حين قال هذا الشعر الذى حفظ منه الرواة هذين البيتين :

أَطَعْنَا رَسُولَ اللهِ إِذْ كانَ بَيْنَنَا ... فَيا لَهْفَتَى ما بَالُ دِينِ أَبِى بَكْرِ
أَيُورِثُها بَكْراً إِذا ماتَ بَعْدَه ... فَتِلْكَ وَبَيْتِ اللهِ قَاصِمَةُ الظَّهْرِ

ومهما يكن من شيء ، فقد كان الحطيئة أخمل ذكراً ، وأهون شأناً ، من أن يظهر له خطر فى الإسلام أيام النبي ، ولكنه اضطر حين انهزم المرتدون إلى أن يذعن لما أذعنت له العرب ، ويدخل فيما دخل فيه الناس ، فاتخذ لنفسه من الإسلام رداء ، لم يشك الرواة فى أنه كان رقيقاً جدًّا يشف عما تحته من حب الجاهلية وإيثارها والحزن الشديد عليها ، رداء لم يحمد الله عليه كما حمد لبيد حيث يقول :

الْحَمْدُ لِلّهِ إِنْ لَمْ يَأْتِنِى أَجلِى ... حَتَّى اكْتَسَيْتُ مِنَ الإِسْلامِ سِرْبالاَ

وأكاد أعتقد أن الحطيئة لم يكد يظهر الإذعان والطاعة والدخول فى دين الله حتى حدثته نفسه أن ينفض هذا كله ، وأن يهرب إلى حيث يستطيع أن يعيش عيشته تلك التى كان يحبها ويهواها ، فالرواة يحدثوننا بأنه قصد إلى علقمة بن علاثة ، ذلك الذى اتصل به فى الجاهلية ، ولم يكن ولاء علقمة للإسلام ظاهراً ولا صادقاً ولا مقطوعاً به ، ومن الرواة من يزعم أنه لم يسلم ، أو أنه أعان الروم على المسلمين . على أن الحطيئة لم يكن موفقاً ، فقد اصطلحت الظروف كلها على أن تمكر به وتناله بما لا تحب . فلم يكد

علقمة حتى بلغه أنه قد مات ، فعادمحزوناً أسفاً ، وقال قصيدته المشهورة التى يقول فيها :

وما كانَ بَيْنِي لَوْ لَقِيتُكَ سَالِماً   وبَيْنَ الغِنَى إلاَّ لَيالٍ قَلائِلُ

ونظر الحطيئة بعد موت علقمة فإذا هو وحيد أو كالوحيد فى هذه البيئة العربية التى كان يحبها ويهواها ، ويتخذ لنفسه فيها آمالا عراضاً من الثراء ، وارتفاع الشأن ، وبعد الصوت ، وخفض العيش ، ولين الحياة ، يرى الناس من حوله قد تركوا كل ما كانوا عليه أو أكثر ما كانوا عليه ، فأما شبابهم ، فقد تحولوا إلى المدينة ، أو أقاموا حيث كانوا ، ولكن قلوبهم تحولت إلى المدينة حيث الدين ، وحيث السلطان والقوّة .

نظر الحطيئة فرأى كل شيء من حوله قد تغير إلا نفسه ، فإنها ظلت كما كانت شديدة الحنين إلى العهد القديم ، شديدة الامتناع على العهد الجديد ، محتاجة مع هذا إلى أن تعيش ، وإلى أن تعيش عيشة خمول وخمود ، فالناس منصرفون عن الشعر ، وأشراف العرب منصرفون عما كانوا فيه أيام زهير من هذه الحروب والخصومات التى كانت تطلق لسان زهير بما كان ينفعه من المدح والهجاء . نعم ، نظر الحطيئة ، فإذا هو غريب فى وطنه ، خليع أو كالخليع فى داره ، مضطر إلى أن يلتمس الحياة والسؤال ، يحملها من مكان إلى مكان ، ومن حى إلى حى ، ومن رجل شريف إلى رجل شريف . وإنى لأراه ، وقد وفد على المدينة يلتمس الرزق ، وجمعت له قريش من العطاء ، فإذا هو يقوم فى المسجد ويدعو : من يحملنى على بغلين ؟ وإنى لأراه كذلك ، وقد خرج مع امرأته أمامة وابنته مليكة ، ومعه أجمال له ، فلما أدركته القائلة نزل بمستراح وسرح أجماله ، ثم يقوم للرواح ، فإذا هو يفتقد جملا من أجماله فيأخذ منه الحزن كل مأخذ ، ويقول هذين البيتين :

أَذِئْبُ القَفْرِ أَمْ ذِئْبٌ أَنِيسٌ   أَصابَ البَكْرَ أَمْ حَدَثُ اللَّيالِى

وَنَحْنُ ثَلاَثَةٌ وَثَلاثُ ذَوْدٍ   لَقَدْ جارَ الزَّمانُ على عِيالِى

فأين حياته هذه التى يملؤها البؤس واليأس ، من حياته تلك التى كان يملؤها الأمل والرجاء حين كان يختلف إلى زهير ، ويشارك كعباً فى اللهو

والصيد ، ويحاول أن يتصل بعلقمة بن علاثة ، أو بعيينة بن حصن ، أو بزيد الخيل ، وقد أسره ومنّ عليه ؛ أين حياته هذه البائسة اليائسة ، من حياته تلك التى لم تكن تخلو من نعيم ومرح ، والتى كان يملؤها الانتظار لما ستشرق عنه شمس الغد من ارتفاع الشأن وحسن الثراء .

على أن بأس الحطيئة وحزنه لم يكونا فيما أرى مقصورين على حياته المادية ، بل كانا يأتيانه من ناحيتين أخريين : كانا يأتيانه من دخيلة نفسه التى لم تطمئن إلى الدين الجديد ، ولم تؤمن به فيما يظهر إلا تكلفاً ورياء ، واتقاء للسيف الذى لم يكن للعربى إلا أن يختار بينه وبين الإسلام ، فنفس الحطيئة لم تكن ساخطة على حياته المادية وحدها ، بل كانت ساخطة على حياته المعنوية أيضاً ، كانت ساخطة على هذه الحياة التى حالت بين عواطفه الجاهلية ، وبين أن تظهر وتنمو وتؤتى ثمرها كما كان يحب أن تؤتيه ، وتلذق لذات الحياة وآلامها كما كان يحب أن يذوقها . والناحية الأخرى هى ناحية جسمه ، فقد كان الحطيئة قصيراً جداًّ ، قريباً من الأرض ، ولهذا سمى الحطيئة كما يقول الرواة ، وكان دميماً قبيح المنظر مشوّه الخلق ، لا تأخذه العين ، ولا تطمئن إليه ، فكان منظره بشعاً ، وكان من غير شك يحس اقتحام الأعين له ، ونبوّها عنه ، فيسوءه ذلك ويؤذيه ؛ أضف إلى هذا كله أنه لم يكن مستقر النسب ، وإنما كان مدخولا مضطرباً ، ينتسب هنا وينتسب هناك ، وكان العرب يعرفون منه ذلك ويذكرونه به ، ويزدرونه من أجله ، فكان الحطيئة مهاجماً من جميع نواحيه ، مضطراًّ إلى أن يدافع عن نفسه من جميع نواحيه أيضاً ، كان سيئ الدين ، فكان محتاجاً إلى أن يتقى عواقب سوء الدين . كان سيئ الحال ، فكان محتاجاً إلى أن يرد عن نفسه عوادى الفقر والبؤس والإعدام . كان مشوه الخلق ، فكان مضطراًّ إلى أن يحمى نفسه من السخرية والاستهزاء ، وكان كل شىء يقوى فى نفسه سوء الظن بالناس ، وقبح الرأى فيهم ، وكان ابتلاؤه للناس يزيده إسراعاً إلى ذلك وإمعاناً فيه ، فأصبح الحطيئة شيئاً مخوفاً مهيباً يكره منظره ، ويتقى لسانه ، ويشترى الأعراض منه بالأموال . ولأمر ما تحدث الرواة بأن عمر بن الخطاب اشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم . وقصة الحطيئة مع عمر رائعة حقاًّ ، تملأ النفس حزناً

وأسى ، وتملؤها إعجاباً بهذا الخليفة القوى الرحيم معاً ، وتملؤها إعجاباً بالحطيئة أيضاً . فأما عمر فقد ارتفع إليه هجاء الحطيئة للزبرقان بن بدر بالقصيدة المشهورة التى يقول فيها :

دَعِ المَكارِمَ لا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِها وَاقْعُدْ فإنَّكَ أنتَ الطَّاعِمُ الكاسِى

فأظهر أنه لا يرى فى هذا البيت شيئاً ، وليس من شك فى أنه كان يرى فى البيت شيئاً ، ومن ذا الذى يرتاب فى فهم عمر للشعر وعلمه بأسراره ودخائله ؟ وهو أذكى قريش قلباً ، وأنفذهم بصيرة ، وأشدهم دقة حسّ ، ورقة شعور ، وهو الذى كان يحب زهيراً ويقدمه على الشعراء لأسباب فنية خالصة ، ولكن عمر كان يريد أن يدرأ العقوبة بالشبهة ، وأن يتجاوز للشاعر عن هذه الهفوة التى لا يتحرج منها الشعراء ، وألا يعاقب على هذه القصيدة التى يقول فيها الحطيئة أصدق بيت قالته العرب فى رأى عمرو بن العلاء .

مَنْ يفعَلِ الخَيْرَ لا يَعْدم جوازِيَهُ لَا يَذهَبُ العُرْفُ بَيْنَ اللهِ وَالناس

وكان الزبرقان شاعراً ، ولم يكن حسان بعيداً عن عمر ، فلما سأله لم ينكر أن فى البيت هجاء ، وهجاء قبيحاً ، فاضطر عمر إلى أن يعاقب الحطيئة ، ومن الرواة من زعم أنه همّ بقطع لسانه . ولكن هذا كذب من غير شك ، فليس قطع اللسان من العقوبات التى أذن الله بها للخلفاء ، وعمر أتقى لله ، وأحرص على دينه من أن يتجاوز الحدود ، إنما اكتفى عمر بحبس الحطيئة ، ولو وسعه ألا يفعل لما فعل ، ولكن العدل كان يقتضيه إرضاء الزبرقان ، وقد استعطف الحطيئة عمر من سجنه بهذه الأبيات المشهورة ، فعطف عليه ، ورق له ، ويقال إنه بكى لما سمعها ، ثم أطلق الشاعر ، وأعطاه ما يمنعه من الهجاء .

ولست أدرى أكان الحطيئة صادق اللهجة والعاطفة فى هذه الأبيات التى وجهها إلى قلب عمر ! ولكن الشىء الذى لا شك فيه ، أنه عرف كيف يبلغ قلب هذا الرجل العظيم ، ويترك فيه أعظم الأثر وأبقاه ، فاسمع هذه الأبيات فسترى أنها لم تفقد جمالها ، ولن تفقده مهما تتغير الظروف وتتعاقب الأيام .

ماذا تقولُ لأفرَاخٍ بِذِى مَرَخٍ زُغْبِ الْحَواصِلِ لا ماءٌ وَلا شَجَرُ
أَلْقَيْتَ كاسبَهمْ فى قَعرِ مُظْلمَةٍ فاغْفِرْ عَليكَ سَلامُ اللهِ ياعُمَرُ
أَنْتَ الْإمامُ الذِى مِنْ بَعْدِصاحِبِهِ أَلْقَى إِلَيْهِ مَقالِيدَ النُّهَى الْبَشَرُ
ما آثَروكَ بِها إِذْ قدَّمُوكَ لَها لَكِنْ لأَنْفُسِهِمْ كَانَتْ بِكَ الإِثَرُ

وأما الحطيئة نفسه فهو خليق بالإعجاب حقًّا إذا تبينا موقفه مع الزبرقان بشيء من الإنصاف ، فهو قد اطمأن إلى الزبرقان حين عرض عليه جواره ، وما فيه من أمن ولبن وتمر ، وهو قد سبقه إلى أرضه ونزل ضيفاً على امرأته ، وأقام وقتاً غير قصير ينتظر عودته ، ويلقى من امرأة الزبرقان جوداً مدخولا إلى حد ما ، لأنها كانت تجهل مكانه ، أو لأنها كانت تغار من ابنته مليكة ، أو لشيء آخر . وكان خصوم الزبرقان من أبناء عمه يغرون الحطيئة ويرغبونه ، ويلحون عليه بالإغراء والترغيب ، والحطيئة يأبى عليهم ، ولا يريد أن يأخذ الزبرقان بتقصير امرأته وجهلها ، حتى إذا طال إهمال امرأة الزبرقان له ، وإعراضها عنه ، تحول إلى هؤلاء الذين كانوا يغرونه ، فتلقوه أحسن لقاء ، ومنحوه فوق ما كان ينتظر ، وانتظروا منه هجاء الزبرقان فلم يفعل ، ودعوه إلى ذلك فلم يفعل ، وألحوا عليه ، وزادوا فى إكرامه فلم يفعل ، ولكن الزبرقان جرّ على نفسه الشر ، فأغرى بأبناء عمه من هجاهم ، واضطر الحطيئة إلى أن يدافع عن هؤلاء الذين أكرموه وأغنوه ، فكان فى دفاعه ما أغضب الزبرقان ، وانتهى بالحطيئة إلى سجن عمر . أترى إلى هذا الرجل كيف وفى لصاحبه ، واحتمل إعراض امرأته ! وكيف وفى لصاحبه بعد أن تحول عنه ، ولم يهجه إلا كارهاً ! على أنه لم يسرف فى هجائه ، وإنما غاظه وأحفظه حين أغرق فى مدح خصومه وتفضيلهم عليه .

لا غرابة إذن فى أن يكون الحطيئة شيئاً مخوفاً مرهوباً ، ما دامت ظروف الحياة قد اضطرته إلى ما رأينا من سوء الحال . ولا غرابة فى أن تشيع عنه الشائعات ، وتكثر من حوله الأساطير ، ويصوره الرواة فى هذه الصورة البشعة التى نجدها فى الأغانى وفى طبقات الشعراء لابن قتيبة وفى طبقات الشعراء لابن سلام . ولست أستبعد أن تكون ظروف الحياة هذه قد غيرت نفس

الحطيئة تغييراً ، فجعلته كما يقول الرواة جشعاً سئولا ملحفاً فى السؤال ، طويل اللسان ، مسرفاً فى الاعتداء على الناس ، ولكن لا إلى الحد الذى صوره الرواة ، فهم يزعمون أنه هجا أمه وأخاه وأباه ، وانتهى به الأمر إلى هجاء نفسه ، وهم يروون له فى ذلك كله شعراً ، وليس من شك عندى، فى أن المبالغة قد أثرت فى هذه الأحاديث آثارها ، ولكنها على كل حال تعطى من الحطيئة صورة كان القدماء ينفرون منها أشد النفور ، ولكنى أعطف عليها أشد العطف ، فهى لا تدل إلا على أن الحطيئة كان بائساً شقيًّا ، غريباً فى هذا الطور الجديد من أطوار الحياة العربية ، كأنما ارتحل العصر الجاهلى ونسيه وحيداً فى العصر الإسلامى ، فهو ضائع الرشد ، ضائع الصواب ، قد فقد محوره ، إن صح هذا التعبير . ولى على هذا دليلان . أحدهما : أن أكثر ما يروى عن الحطيئة من النوادر وغريب الأحاديث إنما يروى عنه فى الإسلام لا فى العصر الجاهلى ، فما بقى لنا من أخباره فى العصر الجاهلى لا يصوره شاذًّا ولا غريباً ولا مضطرب النفس ، إنما اضطربت نفسه فى الإسلام ، لأن سماحة هذا الدين لم تمس قلبه الجاهلى العريق فى جاهليته . والآخر أن أكثر ما يروى من النوادر عن الحطيئة ، لو حاولنا تأريخه ، يكاد يرجع إلى أيام عمر وأوائل أيام عثمان ، أى إلى هذا العصر الإسلامى الخالص ، الذى سيطر النظام الإسلامى الدقيق فيه على حياة العرب من جميع وجوهها . فلما تقدمت أيام عثمان ، وأقبلت أيام معاوية ، وظهر من سادة قريش وشبابها من عادوا إلى شىء من حياة فيها غير قليل من بقايا الحياة الجاهلية ، اطمأنت نفس الحطيئة بعض الشىء ، ولعلها ابتسمت للحياة قليلا ، فقد اتصل الحطيئة بالوليد بن عقبة بن أبى معيط ، عامل عثمان على الكوفة ، وكان الوليد سيداً من سادات قريش ، لم تكد الفرصة تمكنه حتى استأنف حياة أقل ما توصف به أنها لم ترض المسلمين ، وأنها حملت عثمان على عزله عن الكوفة ، بل على أن يقيم عليه حد الشراب ، فيما تحدث الرواة . اتصل الحطيئة بالوليد فمدحه ، وما زلت أذكر حديث الوليد هذا مع لبيد ، فلما عزل الوليد ، كان الحطيئة أسرع الناس إلى مدحه ومواساته والثناء عليه ، فى هذه الأبيات التى عبثت بها الشيعة فيما بعد ، فبدلتها تبديلا ، وصرفتها عن موضعها . واسمع هذه الأبيات ، فسترى فيها وفاء الحطيئة للوليد ، وسترى فيها أيضاً صورة للمثل الأعلى عند الحطيئة للرجل الكريم :

شَهِدَ الْحُطَيْئَةُ حِينَ يَلْقَى رَبَّهُ أَنَّ الْوَلِيدَ أَحَقُّ بِالْعُذْرِ
خَلَعُوا عِنَانَكَ إِذْ جَرَيْتَ وَلَوْ تَرَكُوا عِنَانَكَ لَمْ تَزَلْ تَجْرِى
وَرَأَوْا شَمَائِلَ ماجد متبرعٍ يُعْطِى عَلَى المَيْسُورِ والْعُسْرِ
فنُزِعْتَ مَكْذُوباً عَلَيْكَ وَلَمْ تُرْدَدْ إلى عَوَزٍ ولا فَقْرِ

ويقول المفضل الضبى ، فيما يروى ابن الشجرى ، إن من الرواة من يروى هذه الأبيات على نحو آخر ، وهو عندى وعندك ، فيما أذكر ، من تجنى الشيعة على الحطيئة والوليد أيضاً ، وهذه هى الرواية الأخرى :

شهدَ الْحُطَيْئَةُ حِينَ يلقَى رَبَّهُ أَنَّ الْوَلِيدَ أَحَقُّ بالْغدْرِ
نَادَى وَقَدْ كَمُلَتْ صَلاتُهُمُ أَأَزِيدُكُمْ ثَملاً وما يَدرِى
لِيَزِيدَهُمْ خيراً وَلَوْ فَعَلوا لَقَرَنْتَ بَيْن الشَّفْعِ والْوَتْرِ
فَأَبَوْا أَبَا وَهْبٍ ولَوْ فَعَلوا زادَتْ صَلاتُهُمُ عَلَى العَشْرِ
كَفُوا عنانَكَ إِذْ جَرِيْت ولَوْ خلَّوْا عِنانَكَ لَمْ تَزَلْ تَجْرِى

فليس من شك عندك ولا عندى فى أن الرواية الأولى هى الصادقة ، وفى أنها تمثل حزن الحطيئة لما أصاب الوليد . على أنا نرى الحطيئة راضياً بعض الرضا أو كله ، حين تقدمت به السن ، ودنت به الأيام إلى القبر ، نراه عند سعيد بن العاص والى معاوية على المدينة ، وهو كالوليد بن عقبة سيد من سادات قريش ، قد اتخذ لنفسه ولمن يلوذ به من الناس حياة فيها كثير من المحافظة التى تذكر بعادات الجاهليين ، ومن التجديد الذى كانت تقتضيه سنن الإسلام ، فهو كريم يطعم الناس ، ويشهد عشاءهم بنفسه ، ونحن نرى الحطيئة عنده فى ليلة من هذه الليالى التى كان يعشى فيها الناس ، وهو يتحدث بأيام العرب وأخبارها وأشعارها ، يسمر بذلك ويجد فى السمر به لذة ، إليه يلجأ الفرزدق حين يريد زياد أن يعاقبه لاحتفاظه بعادات الجاهلية ولإسرافه فى الهجاء ، وإليه يقصد الحطيئة نفسه ويمدحه بهذه الأبيات التى تصور شاعراً جاهلياً حقاً ، يمدح شريفاً من أشراف الجاهلية ، لا عظيماً من عظماء الإسلام . وعند سعيد بن العاص يلقى الحطيئة شاعراً شاباً هو الفرزدق ، ويسمع منه

مدح سعيد فيعجب به ويثني عليه ، ويراه صاحب لواء الشعر الجديد ، وكأنه يطمئن إلى ما سيلقاه من الموت قريباً حين يعلم أن الشعر لا بأس عليه . أليس قد زعم الرواة أن الحطيئة حين حضره الموت وسأله من حوله أن يوصى ، أوصاهم بالشعر خيراً ! واسمع هذه الأبيات التى يقولها فى مدح سعيد :

لَعَمْرِى لَقدْأمْسىعلىالْأمرِسائِسٌ بَصِيرٌ بِما ضَرَّ الْعَدوَّ أرِيبُ

جَرِىءٌ عَلَى مايَكْرَه المَرْءُ صَدْرَه وللفَاحِشاتِ المُنْدِيات هَيُوبُ

سَعِيدٌ وَما يَفْعَلْ سَعيدٌ فإنَّهُ نَجيبٌ فَلَاهُ فى الرباطِ نجيبُ

سَعيدٌ فَلا تَغرُرْكَ خِفَّةُ لَحْمِهِ تَخَدَّدَ عَنْهُ اللَّحْمُ وهُوَ صليبُ

إذاحافَ إصْعاباًمِنْ الأَمْرِصَدْرُهُ عَلَاهُ فَباتَ الْأمْرُ وهُوَ رَكُوبُ

إذا غابَ عَنَّا غابَ عَنَّا رَبِيعُنا ونُسْقَى الغَمامَ الغرَّ حِينَ يَئُوب

فنِعْمَ الْفَتَى تَعْشُو إلى ضوءِ نارِهِ إذا الريحُهَبَّتْ وَالمَكانُ جديبُ

ولم يكد يفرغ صاحبي من إنشاد هذه الأبيات ، فقد كان شديد الإعجاب بها ، لا يلقى البيت حتى يعيده ، ويطيل فى تحليله والثناء عليه ، فلما فرغ بعد لأى من هذا الشعر وهمّ أن يمضى فى حديثه ، قلت له : حسبك ! فما رأيت كاليوم محامياً عن شاعر قديم . قال : إنك لتريد أن تقفنى عن الحديث ولما أبدأ ، فإنى أتحدث عن شعر الحطيئة . قلت : فتحدث عنه إن شئت فى الأسبوع المقبل .

ساعة مع الحطيئة[1]

وما كاد يستقر بصاحبي مجلسه عندى حتّى ابتدرنى بالسؤال ، وهو يبتسم ابتسامة فيها شيء من سخرية . فقال : أتعلم لماذا أحب الحطيئة ؟ قلت : ومن أعلمنى ذلك ؟ إنما أعلم أنك تحبه وتغلو فى حبه ، فأما تعليل هذا الحب فأمره عندك ، وقد أنبأتنى بأنك ستبين لى عنه إذ التقينا اليوم ، فقل ما عندك ، فإنى مستمع لك . قال : إنما أحب الحطيئة يا سيدى لأنه عبد من عبيد الشعر ، لا سيد من سادته ، فليس أبغض إلىّ ولا أثقل علىّ من هؤلاء الذين يؤثرون أنفسهم ، ويزعمون لها القوة والتفوّق ، ويتحكمون فى الفن كأنهم قد ملكوا أعنته ، وهم لا يتحرجون من أن يقولوا ذلك ويجهروا به ، أليس من القول المستفيض فى أحاديث الناس حين يتكلمون ، وفى رسائلهم حين يكتبون ، وفى نقدهم وتقريظهم حين ينقدون ويقرظون : إن فلاناً قد ملك أعنة البيان ؟ فإنى أبغض هذا الذى يملك أعنة البيان ، وأزعم أنه إن كان صادقاً فبيانه أكذب البيان ، وأدبه أسخف الأدب ، وإنتاجه أسمج الإنتاج ، وهو لا يعدو أن يكون مشعوذاً متكثراً ، يقول عن غير علم ، ويصدر عن هذه الطبيعة السهلة التى لا تكلف صاحبها جهداً ولا عناء ، ولا تحمله مشقة ولا نصباً ، وإنما تستجيب له كلما دعاها ، وتدفعه إلى الإنتاج دون أن يسألها الإنتاج ، فهى خليقة أن تغريه وتغويه ، وأن تخدعه عن نفسه وتخدع الناس عنه ، وأن تخيل إليه أن سهولة إنتاجه آية من آيات الخصب ، ومظهر من مظاهر الثروة والغنى ، على حين أنها ليست فى أكبر الظن إلا آية من آيات الثرثرة ، ومظهراً من مظاهر التفيهق الذى لا خير فيه . إنما الأديب عندى هو الذى يصنع أدبه ، ويعمله عملا ، ويتهيأ له ، فيطيل التهيؤ ، ويفكر فيه فيمعن فى التفكير ، ويتكلف لذلك من الجهد والمشقة ما يضنيه ويعنيه ، فيوفق حيناً ، ويخطئه أحياناً التوفيق ، ويشقى بما يلقى من الجهد والكد ، وينعم بما يتاح له من الإصابة والتوفيق .

---

(١) نشرت بجريدة الجهاد فى ١٧ أبريل سنة ١٩٣٥ .

هذا الشاعر الذى يغترف من بحر لا يعجبنى ، لأنه قد يغترف فيصيب الجيد ويصيب الردىء ، ولأنه حين يغترف من بحر لا يعدو أن يكون أداة يعبث بها شيطان الشعر ، فينطقها بما يشاء كما يشاء ، لا متخيراً ولا مجوداً ، أما الشاعر الذى ينحت من صخر ، فهو الذى يعجبنى ويرضينى ، لأنه لا يقول الشعر وإنما يعمله ، كما تحدث شاعرك الفرنسى الذى فتنك فتوناً ، ولأن الشعر لا يصدر عن طبعه وحده ، وإنما يصدر عن طبعه وعقله وإرادته ، وأنا يا سيدى إنسان أكره أن أكون أداة ، وأحب أن أشعر بأنى أريد ، وبأنى لا أقول ولا أعمل إلا حين أريد ، وهذا الحطيئة الذى يتحدث عن نفسه لأنه كان يعوى فى أثر القوافى كما يعوى الفصيل ، والذى يقول الأصمعى عنه : « إنه كان من عبيد الشعر » . أحب إلىّ ألف مرة ومرة من هؤلاء الشعراء الذين تنهال عليهم القوافى انهيالا ، وينثال عليهم الكلام انثيالا ، وتواتيهم المعانى والألفاظ دون أن يطلبوها أو يلحوا عليها فى الطلب ، وهو أحب إلىّ ألف مرة ومرة من هؤلاء الشعراء الأحرار الذين يتصرفون فى القول ، كما يتصرف المالك فى ملكه ، دون أن يتصرف القول فيهم قليلا أو كثيراً . نعم يا سيدى ! إنى لا أخاف أحداً على الأدب كما أخاف هؤلاء الأدباء المطبوعين ، وهؤلاء الشعراء الموهوبين ، الذين يرسلون أنفسهم على سجيتها ، ثم يفرضون علينا ما تجرى به ألسنتهم ، وتجيش به نفوسهم من الجيد والردىء على أنه عفو الخاطر ، ونتاج البديهة ، قد برئ من التكلف ، وسلم من التصنع ، وارتفع عن العمل والاحتيال ، وليس معنى هذا أن الشاعر المتكلف المتصنع المحتال كما أفهمه أنا ، وكما فهمه الحطيئة وأمثاله ، ليس مطبوعاً ولا مرسلا نفسه على سجيتها ، كلا ! إنما هو مطبوع ، ولكن لأنه يريد أن يكون مطبوعاً ، وهو مرسل نفسه على سجيتها ، لأنه يريد أن يرسلها على سجيتها ، وهو ينتهى إلى الإجادة بعد البحث والدرس ، وبعد التحقيق والتمحيص ، وبعد الاجتهاد الطويل فى اختيار الجيد ، وإسقاط الردىء ثم الاجتهاد الطويل بعد ذلك فى اختيار أجود الجيد وإسقاط ما عداه ، هو رقيب نفسه قبل أن يراقبه غيره ، وهو ناقد فنه قبل أن ينقده غيره ، وهو منته إلى حيث انتهى الحطيئة ، وهو ملزم للأصمعى وأشباه الأصمعى أن يبرئوا شعره من العيب ، ويرفعوه عن كل ابتذال ؛ لهذا كله يا سيدى أحب الحطيئة

وأكبره ، وأتخذه لى أستاذاً وإماماً لو أنى موكل بقول الشعر ، ولكنى أتخذه لى أستاذاً وإماماً فيما أحاول من كتابة النثر أحياناً ، فقانون التجويد الأدبى ليس مقصوراً على الشعر وحده ، بل هو يتناول الشعر والنثر جميعاً ، بل قانون التجويد والجدّ فيه والحرص عليه لا يتناول الأدب وحده ، وإنما يتناول الفن كله . وما أشد إعجابى بهذه الأبيات التى يضيفها القدماء إلى الحطيئة ، سواء أرضيت أنت نسبتها إلى الحطيئة أم أنكرتها عليه ! فهى تمثل مذهبه ، ومذهب أستاذه وأصحابه ، أصدق تمثيل وأنفعه :

الشِّعْرُ صَعْبٌ وطَوِيلٌ سُلَّمُهْ — إذا ارتَقَى فِيهِ الَّذِى لايَعْلَمُهْ

زَلَّتْ بِهِ إلى الْحضِيضِ قَدَمُهْ — وَالشِّعْرُ لا يَسْطِيعُهُ من يَظْلِمهْ

يُرِيدُ أن يُعْرِبَهُ فَيُعْجِمُهْ — مَن يسِمِ الأعْداءَ يَبْقَ مِيسَمُهْ

وإذا لم تعجبك هذه الأبيات التى تعجبنى ، فما أشك فى أن أبيات كعب تعجبك وترضيك ، وهى أصدق تمثيلا لمذهب المدرسة فى الشعر وطريقتها فى قوله أو فى عمله إن أردت التدقيق . واقرأ هذه الأبيات ، فهى إلى أن تكون تصويراً لمذهب من المذاهب ، أدنى منها إلى أن تكون مفاخرة ودفاعاً عن شاعر من الشعراء :

فَمن لِلْقَوافِى شَانَها من يَحُوكُها — إذا ما ثَوَى كَعْبٌ وفوَّزَ جَروَلُ

كَفيْتُكَ لانَلْقَى مِنَ النَّاسِ واحِداً — تَنَخَّلَ مِنْها مِثْلَ ما نَتَنَخَّلُ

نُثقِّفُهَا حَتَّى تَلِينَ مُتُونُها — فَيَقْصُرَ عَنْها كُلُّ مَن يَتَمثَّلُ

فهم يتنخلون الشعر ويصفّونه ، ولا يرسلونه إرسالا ، ولا يهملونه إهمالا ، وهم يقوّمون الشعر تقويماً ، ويثقفونه تثقيفاً ، يحاولونه ويزاولونه ، ويديرونه فى عقولهم ، ثم يديرونه فيما بينهم ، ثم لا يذيعونه فى الناس حتى يرضوا عنه ويطمئنوا إليه ، ومن هنا تستطيع أن تقرأ ما أحببت من شعر الحطيئة فى المدح والهجاء ، وفى الوصف والرثاء ، وفيما يعرض له من الغزل القليل ، فلن تنكر منه شيئاً ، قد اختار لك شعره قبل أن تحتاج أنت إلى الاختيار . واقرأ معى هذه الأبيات التى كانت مصدر امتحان عمر بن الخطاب له بالسجن ، ثم حدثنى أين ترى

فيها العيب ، أو تحس فيها النقص ؟ وأى بيت منها تحتاج إلى أن تسقطه أو تلغيه :

واللهِ مَا مَعْشَرٌ لامُوا امرَأً جُنُباً	فى آلِ لأْيِ بْنِ شَمَاسٍ بِأَكْيَاسِ
لَقَدْ مَرَيْتُكُمْ لَوْ أَن دِرَّتَكم	يَوْماً يَجِيءُ بها مَسْحِي وإبْسَاسِي
وقَدْ مَدَحْتُكُمْ عَمْداً لِأُرشِدَكُم	كَيْما يَكُونَ لَكم مَتْحِي وإمْراسي
وقَدْ نَظَرْتُكُمُ أَبْنَاءَ صَادِرَةٍ	لِلْخِمْسِ طَالَ بِهاخَوْذِى وتَنْسَاسى

فانظر إليه كيف بدأ هذه الأبيات بلوم آل الزبرقان لأنهم أنكروا عليه تحوّله إلى آل شماس ومدحه إياهم ، ثم أراد أن يبين عذره فيما صنع من ذلك ، فأبان عن غرضه فى أجمل صورة وأروعها وأدناها إلى أفهام هؤلاء الناس من أهل البادية ، حين مثل حاله معهم بحاله من الناقة ذات اللبن القليل ، أو غير ذات اللبن ، يريد أن يحلبها فلا تدرّ له شيئاً . فما يزال يمرى ضرعها ويمسه ويمسحه ، يتكلف من ذلك ما يريد ومالا يريد ، لعله يظفر بشيء ، ولكنه لا يصيب شيئاً ، ثم هو ينتظر وينتظر فلا يفيده الانتظار شيئاً . وانظر إلى كل ما قصد إليه من التشبيه والتمثيل ، فلن ترى شيئاً غريباً ، وإنما هى كلها معان قريبة مألوفة يراها الأعراب ويعيشون عليها ، كلها معان لا تعدو حياة الأعرابى حين يبتغى اللبن عند ناقته ، أو حين يبتغى الماء مستقياً من البئر ، أو حين ينتظر ، فإذا هو يوقت انتظاره بما تعودت العرب أن يوقتوا به فى حياتهم اليومية ، من إيراد الإبل وإصدارها حين يوردون ويصدرون ، وهو فى هذا كله يتبع زهيراً ويسير على نهجه ؛ فإنى لم أنس بعد ذلك التمثيل البديع الذى ذهب إليه زهير حين أراد أن يصور اضطراب عبس وذبيان بين الحرب المهلكة والسلم المدخولة ، فشبه هذا كله بما يكون من رعى الإبل ، ثم ورودها إلى الماء ، ثم انصرافها إلى المرعى ، كذلك فعل الحطيئة فأحسن الإحسان كله ، لأنه إنما يقول شعره ، أو يصنعه للأعراب ، فلا بدّ من أن يفهم عنه الأعراب قبل أن يفهم عنه غيرهم من الناس ؛ والظريف الجميل الرائع أننا نحن نفهم عنه كما فهم عنه الأعراب ، ونعجب به كما أعجب به الأعراب ، وأىّ الناس

يستطيع أن يجحد جمال هذه التشبيهات الرائعة الساذجة ، التي تكسب روعتها من هذه السذاجة نفسها ! ثم اقرأ معي هذين البيتين :

لَمَّا بَدا لىَ منكمُ غَيْبُ أَنْفُسِكم   ولم يكنْ لجِراحي منكمُ آسِي
جَمَعْتُ يَأْساً مُرِيحاً من نَوالِكُم   ولنْ تَرَى طارداً للحُرِّ كاليَاسِ

أترى إلى البيت الأول ، وإلى الشطر الثانى من هذا البيت خاصة ، وإلى تشبيه الفقر والبؤس والحاجة بالجرح ، وإلى تشبيه العطاء الذى يذود الفقر ويدفع البؤس ويرضى الحاجة بطبّ الطبيب الذى يأسو هذه الجراح ، أترى أيسر من هذا التعبير ، وأدنى إلى الفهم ، وأحسن وقعاً فى النفس ، وأبلغ تأثيراً فى القلب ! ثم انظر إلى هذا اليأس المريح الذى انتهى إليه فى البيت الثانى ، ثم انظر إلى قوله « ولن ترى طارداً للحر كالياس » . كيف أرسله مثلا صادقاً خالداً على اختلاف الأزمنة وتباين الظروف ، وكيف جعله مصدر ثروة للشعراء الذين افتتنوا بعده فى اليأس وإراحته لليائسين ! ثم اقرأ معى :

ما كانَ ذَنْبُ بَغِيضٍ أن رأى رَجُلاً   ذَا فاقةٍ حَلَّ فى مسْتوْعَرٍ شَاسِ
جاراً لِقَوْمٍ أطالوا هُونَ منزلِهِ   وغادرُوهُ مُقيماً بَينَ أَرْماسِ
مَلّوا قِراهُ وهَرَّتْهُ كلابُهُمُ   وجَرَّحُوهُ بِأنْيابٍ وأضراسِ

أترى إليه كيف يدفع عن بغيض لوم اللائمين ، وإنكار المنكرين ! فبغيض لم يزد على أن رأى رجلا بائساً قد أقبل مستجيراً فلم ير من جاره برًّا ولا عطفاً ولا كرماً ، وإنما نزل عندهم منزلا وعراً ، وأحس منهم مللا وسأماً ، ثم صدوداً وإعراضاً ، ثم جاءته منهم الملامة ، وانتهى إليه التقريع والتعنيف ، فعطف عليه بغيض فواساه وآسى جراحه ، وأرضى نفسه وحفظ كرامته ، وأحسن منزله ، أفيلام صاحب البرّ لأن غيره أبى أن يكون برًّا ؟ أفيلام المعترف بالجميل لأنه أبى أن يكون جاحداً كنوداً ؟ ثم اقرأ معى :

لاذنْب لى اليوْم إن كانت نفوسُكُم   كفَارِكٍ كَرِهت ثَوْبِي وإلْباسِي
من يَفعَلِ الخيْرَ لا يَعْدَم جَوازِيَهُ   لايَذْهَبُ العُرْفُ بَينَ اللهِ والنَّاس

دَعِ المَكارِمَ لا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِها ... وَاقعُدْ فإنَّك أنتَ الطَّاعِمُ الكاسى

وتستطيع أن تمضى فى القصيدة كلها فلن تجد فيها بيتاً واحداً ينبو كله ، أو ينبو جزء من أجزائه ، أو يستحق إسقاطاً أو إلغاء ، وليس من شك فى أن الحطيئة نفسه قد أسقط من هذه الأبيات ما أسقط ، وألغى منها ما ألغى ؛ ولم يدع إلا ما رجح أنه خليق بالبقاء .

ولو أنك تركت هذه القصيدة إلى داليته المشهورة ، ولم تقرأ منها إلا هذا المدح الخالد الذى يبقى على الدهر ، لما كان تأثرك بجمال هذا الشعر وروعته ، وصدقه ودقته ، وصفاء لفظه ، وارتفاع معناه ، بأقل من تأثرك بما رأيت فى هذه القصيدة التى ننصرف عنها الآن . واقرأ هذه الأبيات :

وَإنّ التى نَكَّبْتها عن مَعاشِرٍ ... غِضابٍ عَلَىَّ أن صَددْتُ كما صَدُّوا

أَتَتْ آل شَمّاس بن لأْيٍ وإنما ... أتاهُمْ بها الأَحْلامُ والْحَسَبُ الْعِدُّ

فإنَّ الشَّقِىَّ من تُعادِى صُدورُهم ... وذو الجدّ من لانُوا إليْه ومن ودُّوا

يَسُوسُون أحلاماً بعيداً أناتها ... وإنْ غَضِبوا جاءَ الحفِيظَةُ والجَدُّ

أليس من هذا البيت الأخير قد أخذ الأخطل ؟ أو أليس بهذا البيت الأخير قد تأثر الأخطل حين قال بيته المشهور :

شُمْسُ العداوة حتى يُسْتقَادَ لهمْ ... وأعظمُ الناسِ أحلاماً إذا قدَرُوا

ثم اقرأ :

أَقِلُّوا عَليْهمْ لا أَبًا لِأَبِيكُم ... من اللّوْمِ أَوْسُدُّوا المكانَ الّذى سَدُّوا

أُولئك قوْمٌ إن بَنَوْا أَحْسَنُوا البِنَا ... وإن عاهَدُوا أَوْفَوا وإن عَقَدوا شَدُّوا

وإن كانَت النُّعْمَى عليْهم جَزَوْا بها ... وإن أَنْعَموا لَا كَدَّروها ولا كَدُّوا

وإن قال موْلاهم عَلى جُلّ حادث ... منَ الدَّهْرِ ردُّوا بَعضَ أَحْلامِكم رَدُّوا

وتعذُلنى أفناءُ سعدٍ عليهمُ ... وما قلتُ إلا بالذى علمَتْ سَعْدُ

* * *

لا تخدع نفسك ، ولا يخدعك غيرك عن الحق ، فقد كان الحطيئة بهذه القصيدة — ما روينا منها وما لم نرو — أستاذ الأخطل وإمامه حين مدح بنى أمية بشعره الخالد فى رائيته المشهورة .

وللحطيئة فى هؤلاء الناس شعر كثير . له دالية أخرى مطلعها :

آثَرْتُ إِدْلاجى عَلَى لَيْلِ حُرَّةٍ ... هَضيمِ الْحَشَا حُسانةِ الْمُتَجَرَّدِ
إذا النَوْمُ ألهاها عَنِ الزادِ خِلْتُها ... بُعَيْدَ الكَرَى باتَتْ عَلَى طى مُجْسَدِ
إذا ارتفَقَتْ فَوْقَ الفِراشِ تَخالها ... تخافُ أنبتات الخَصْرِ ما لم تَشَدَّدِ
عميقَةُ ما تَحتَ النِّطاقِ وفوْقَهُ ... عَسيبٌ نَما فى ناضِرٍ لم يُخَضَّدِ
تراها تَغُضُّ الطَّرْفَ دونى كأنما ... تَضَمنَ عيناها قَذى غيْرَ مُفْسِد
وتُغرِقُ بالمِدْرَى أثيثاً نباتُهُ ... عَلَى واضحِ الذِّفْرى أسيلِ المقَلَّدِ
تَضوَّعَ رَياها إذا جئتَ طارقاً ... كريحِ الخُزامَى فى نباتِ الخَلا الندى
لها طِيب رَيَّا إن نأتْنى وإن دنَت ... دنَت وعْثَة فوْق الفِراشِ المُمَهدِ

وإنما أقرأ هذه الأبيات عليك لتجد نفحة يسيرة من غزل الحطيئة الذى يقدمه بين يدى ما يقصد إليه من المدح والهجاء ، وإنك لتوافقنى ، من غير شك ، على أن الحطيئة ليس ضعيفاً ولا فاتراً ولا رخواً حين يقصد إلى الغزل ، كما أنه ليس ضعيفاً ولا فاتراً ولا رخواً حين يقصد إلى غيره من الفنون .

وهل تذكر همزيته التى أولها :

ألاَ قالت أُمامَةُ هل تعزَّى ... فقلتُ أمامَ قد غلِب العَزاءُ

فما أشك فى أن هذه القصيدة الرائعة قد تأثرت بقصيدة زهير التى مطلعها :

* عفَا من آلِ فاطِمة الجِواءُ *

والتى كثر فيها كما تقول خلط الرواة ، ولكن قصيدة الحطيئة هذه لم يفسدها الخلط ، ولشدّ ما أحب أن أقرأها عليك ، وأن أقف معك عند بعض أبياتها . قلت مبتسماً : وهل تظن أنى لم أقرأ هذه القصيدة ، ولم أقف عند

أبياتها جميعاً ؟ قال : هذا صحيح ، لقد فتنني الحطيئة ، وأنساني أني أتحدث إليك ، وخيل إليّ أني أكتب فصلا لصحيفة من الصحف ، أو ألقي محاضرة على جماعة من الطلاب ، ومع ذلك فإني أحب أن تسمع مني هذه الأبيات التي قالها الحطيئة يفضل فيها صاحبه علقمة بن علاثة على عامر بن الطفيل ، فإني أرى في هذه الأبيات جذالة وصلابة ومتانة وارتفاعاً ، وأجد فيها جمالا لا أعرف كيف أصوره ولكنه يملك عليّ أمري ، ولو أني أطعت نفسي لقلت : إني أجد في هذه الأبيات رجولة الشعر . ثم اندفع ينشد :

يَا عامِ قد كُنْتَ ذا بَاعٍ ومَكْرُمَةٍ ... لو أن مَسْعاة من جارَيْتهُ أَمَمُ

جارَيت قَرْماً أجادَ الأَحْوصانِ به ... طَلْقَ اليَدَيْنِ وفي عِرْنِينِه شَمَمُ

لا يَصعُبُ الأَمْر إلا رَيثَ يركَبُهُ ... ولا يَبيتُ عَلَى مالٍ له قَسَمُ

ومثله من كِلَابٍ في أَرُومَتِها ... يُعْطَى المقاليد أو يُرْقَى له السَّلمُ

هابَت بَنُو مالكٍ مجداً ومَكْرُمَةً ... وغايَةً كانَ فيها المَوْتُ لو قَدمُوا

وما أساءوا فِراراً عن مُجَلِّيَةٍ ... لا كاهنٌ يَمْتَرِي فيها ولا حَكَمُ

وله قصيدة أخرى يمدح بها علقمة وأولها . . . .

قلت : حسبك ! فإني أفهم أن ألح عليك أنا في رواية هذا الشعر لأحملك على حب الشعراء القدماء ، فأما أن تستحيل داعية ، وقد كنت مدعوًّا . فهذا غريب .

ساعة مع عنترة[1]

قلت لصاحبي : تحدث أنت عن عنترة إن شئت ، فإنى لا أعرف من أمره شيئاً ، أولا أكاد أعرف من أمره إلا أن الناس كانوا يذكرونه ويتحدثون بحسن بلائه فى الحرب ، وقل أنت فى عنترة ما أحببت ، فإنى حسن الاستعداد للاستماع لك ، والرضا عما تقول ، والتصديق لما تقص من الأحداث والأنباء ، ولقد كثر الحديث عن هذا البطل الجاهلى القديم ، كما لم يكثر عن أحد من الأبطال الذين عاصروه ، وقلّ مع ذلك ما يمكن الاطمئنان إليه من هذه الأحاديث التى ملئت بها الأسفار الضخام ، والتى أعانت الناس قروناً ، وما تزال تعينهم ، على أن يتخففوا من أثقال الحياة ، ويلقوا عن أنفسهم أعباءها إذا أقبل الليل وفرغوا لأسمارهم فلا بأس بأن تقبل باسمين ما يروى عنه من الأخبار والأساطير ، ومن يدرى ! لعل ما يرفضه العقل من أحاديث الأجيال الماضية ، أجدر أن يقبل ، وأحرى أن يصدّق ، من هذه الأشياء التى يراها العقل حقائق ثابتة ، وأموراً لا يستطيع الشك أن يعرض لها ، فهذه الحقائق الثابتة التى تحمل اليقين ، أو ما يشبه اليقين ، إلى الناس ، كثيراً ما تحمل إليهم الحزن اللاذع واليأس الممضّ ، وكثيراً ما تصرفهم عن الخير صرفاً ، وتدفعهم إلى الشر دفعاً ، وتفسد فى نفوسهم صور ما كانوا يحبون من الآمال العراض والمثل العليا ، وتمحو من قلوبهم أثر ما كانوا يحرصون عليه من الثقة بالنفس ، والاطمئنان إلى الناس .

قال صاحبي وهو باسم كالعابس : إن شكك المظلم هذا ليغيظنى ويحفظنى ، وإن إغراقك فى طلب الحق ، والتحفظ حين تروى لك أنباء القدماء وأحاديثهم ، لخليق أن يردّ قلبك إلى شىء من القسوة الساخرة ، أو من السخرية القاسية لا أحبه لك ، ثم انجلى العبوس عن وجهه وأشرق الابتسام فى ثغره ، وقال : ولست أدرى ماذا تنكر من أمر عنترة ! وما الذى تشك فيه من أنبائه وأخباره ! لقد كان شجاعاً مقداماً ، وأىّ غرابة فى أن يكون رجل من الناس شجاعاً مقداماً

---

[1] (١) نشرت بجريدة الجهاد فى ٨ مايو سنة ١٩٣٥ .

لقد كان يفعل الأفاعيل ، ويملأ قلوب خصومه فزعاً ورعباً ، ويغير من حوله كل شيء . وأى غرابة فى هذا كله أو بعضه ! صدقنى إن العقل الإنسانى يغر نفسه فتغتر ، ويخدع نفسه فتنخدع ، وهو مغرور حين يصدق ، وهو مغرور حين يكذب ، وهو مغرور فى حالى الشك واليقين جميعاً . وإن بين المعاصرين الذين نلقاهم فنسمع منهم ، ونتحدث إليهم ، وتقص علينا أنباؤهم وآثارهم ، فيما يحيط بهم من الأشياء ، ومن يحيط بهم من الناس ، لقومًا ستنكر الأجيال المقبلة من أمرهم ما تنكره أنت من أمر عنترة ، ولو أنهم عاشوا منذ قرنين أو قرون لأنكرتهم ولشككت فيهم ، كما تنكر عنترة وتشك فيه ، وهل تظن أن الأجيال المقبلة ستصدق ما سيؤثر لها عن عنترة هذا العصر الحديث ! ألست ترى أنهم سيلقونه بمثل ما تلقى أنت به عنترة العرب الجاهليين من الشك والإنكار ، ومن السخرية والدعابة ، ومن الاستماع لأحاديثه مبتسماً ، وإظهار التصديق لهذه الأحاديث فى كثير من الرفق والإشفاق ، وأنت تضمر التكذيب العنيف البغيض ! قلت : ومن عسى أن يكون عنترة هذا العصر الحديث ؟ قال : فابحث إن كنت لا تعرفه عن أعظم الناس المعاصرين حظًّا من البطولة وأحسنهم بلاء ، كلما ألمت ملمة أو ادلهم خطب ، وأشدهم صرفاً للناس إلى نفسه وحديثه عن كل شيء ، وعن كل إنسان ، وعن كل حديث ، وأحقهم أن يستقبل بحديثه الليل إذا آن أوان السمر وأراد الناس أن يتخففوا كما تقول من أثقال الحياة ، ويلقوا عن أنفسهم أعباءها ويتسلوا عن آلامها ، باللذيذ الطريف من لهو الحديث . قلت : ما أرى إلا أن يكون وزير التقاليد ، قال : هو هذا ، أفتظن أن الأجيال المقبلة ستصدق من أخباره ما يذاع ويشاع ، وما تصدقه أنت الآن كل التصديق ؟ ألست ترى أن وزير التقاليد إذا بعد به العهد ، وطال عليه الزمان فسيصبح أسطورة من الأساطير ، وقصة من القصص ، وسينكر الناس من أمره وأحاديثه مثل ما تنكر أنت من أمر عنترة وأحاديثه ! فقد كان القدماء يرون عنترتهم معجبين به مصدقين لأخباره ، كما تعجب أنت بوزير التقاليد وتصدق أخباره ، وتتخذه مثلا أعلى فى كل مايمكن أن تتخذ فيه المثل العليا ! ثم بعد العهد وطال الزمن ، فذهب القدماء ، وذهب معهم بطلهم العظيم ، وأخذت أنت وأمثالك تشكون فيهم وفيه ، وسيبعد العهد ، وسيطول

الزمن ، وسيخلف خلف من الناس لا ينظرون إلى وزير التقاليد ، إلا كما تنظر أنت إلى عنترة ، ولا يعجبون بوزير التقاليد ، إلا كما تعجب أنت بعنترة ، ولا يصدّقون ما يروى لهم عن وزير التقاليد ، إلا كما تصدّق أنت ما روى لك عن عنترة ، ومع ذلك فهل تستطيع أن تشك فى هذا البلاء الحسن الخالد العظيم الذى أبلاه وزير التقاليد فى الجامعة ، وفى وزارة المعارف ، وفى فروع التعليم ، وفى مدارس الصناعة والزراعة ، وفى معاهد التمثيل ؟ كلا ليس إلى الشك فى هذا البلاء من سبيل الآن ، ولكن سيكون إلى الشك فيه بعد حين ألف سبيل وسبيل .

وأنت تشك فيما يضاف إلى عنترة القديم من الشعر ، وتزعم أن الرواة قد صنعوه صنعاً ، وحملوه عليه حملا ، فسيخاف من الناس خلف يشكون فيما يضاف إلى وزير التقاليد من الخطب والمقالات والأحاديث ، ومن يدرى ! لعلهم يزعمون أن قد كان فى عصر وزير التقاليد من الموظفين الموصولين به والمنقطعين إليه ، من كانوا يصنعون الخطب والمقالات والأحاديث ، ينفقون فيها بياض النهار وسواد الليل ، حتى إذا استقامت له أذاعوها فى الناس ، وحملوها على الرجل حملا ، وهو منها برىء كل البراءة ! ومن يدرى لعلهم يمارون فيما قد يروى لهم من الشعر الرائع الذى يوصف فيه الدجاج ، وتصور فيه الأرانب ، ويزعمون أن وزير التقاليد لم يعرف أرانب ولا دجاجاً ، ولم يقل فيها شعراً ولا نثراً ، وإنما هو كلام حمل عليه حملا ، وأضيف إليه إضافة ، وذهب به أصحابه مذهب الدعابة والمزاح ؟

لا تسرف فى الشك إذن ، ولا تغل فى المراء ، ولا تستقبل أحاديث عنترة وشعره بهذا الاستخفاف ، فإن لكل عصر عنترته ، والرجل العاقل هو الذى يجتنب الغرور ما استطاع اجتنابه ، ويطرح الشك ما استطاع اطراحه ، ويصدّق ما يقوله الناس دون إغراق فى البحث والاستقصاء ، وفى التحقيق والتمحيص ، ومع ذلك فما الذى يعنيك من أحاديث عنترة إن صحت أو لم تصح ! وما الذى يعنيك من شعر عنترة إن ثبت أو لم يثبت ! ألم نتفق منذ أخذنا فى هذه الأحاديث على أننا لا نلتمس فيها تحقيقاً ولا تمحيصاً ؟ وإنما ندع التحقيق والتمحيص للجامعيين فى جامعتهم ، ونلتمس هذا الجمال الفنىّ الذى يعجب

القلوب ، ويلذ العقول ، ويرد إلى النفوس أملا بعد يأس ، وابتهاجاً بعد اكتئاب ، ونشاطاً بعد فتور ! فهل تستطيع أن تنكر أن أحاديث عنترة وما يضاف إليه من الشعر مملوءة كلها بهذا الجمال الفنيّ الذى أرضى الناس وأمتعهم قروناً طوالا ، وسيرضيهم ويمتعهم قروناً طوالا أخرى ؟ وهؤلاء اليونان الذين فتنت بهم فتوناً ، وجننت بهم جنوناً ، كانوا يعجبون بهوميروس وأبطاله وأحاديثه ، وكانوا يؤمنون بوجود هذا الشاعر ووجود أبطاله ، وصدور أحاديثهم عنهم ، كما صورها فى شعره الخالد ، ثم جاء العقل الحديث ، فغير هذا تغييراً ، ورفضه رفضاً ، فهل قلّ من أجل ذلك إعجاب الناس بهوميروس وشعره ، وبأبطال هوميروس وأساطيرهم !

قلت : فإنى لا أفهم فيم كل هذا الحديث الطويل ، ولم أنكر شيئاً ، ولم أمار فى شىء ، وإنما دعوتك إلى ما تحب من الحديث ، وأعلنت إليك استعدادى لما ترغب فيه من الاستماع . قال : فإنى لا أحب هذه السخرية ، ولا أرضى منك هذا الترفع الذى يحملك على إظهار ما تظهر من عطف وإشفاق على القدماء وأحاديث القدماء ، وعلى المحدثين الذين يصدقون هذه الأحاديث ويطمئنون إليها . قلت : فإنى لا أترفع ولا أظهر عطفاً ولا إشفاقاً ، وإنما أنا مخلص كل الإخلاص فيما أعلن إليك من حبى لعنترة وأحاديثه ، وحرصى على أن أسمع لما ستقص علىّ من هذه الأحاديث ، ولما ستظهر لى من جمال ذلك الشعر الجميل . قال : ومن زعم لك أنى قد استحلت قصاصاً يحدث بأحاديث عنترة ، كما يفعل المتحدثون فى هذه القهوات الوطنية ! هذه أشياء أحبها وأكلف بها ؛ ولو استطعت لأنفقت وقتى كله فى الاستماع لها ، والاختلاف إلى مجالسها ، ولو استطعت لانصرفت عن أكثر هذا الجد الذى أنفق فيه وقتى ، إلى قراءة هذه الكتب التى تقص أنباء عنترة وسيف وأبى زيد ومن يشبههم من الأبطال ، نعم ! هذه أشياء أحبها وأكلف بها ، وأرى فيها المتاع كل المتاع ، ولكن لا أحسنها ، ولا أجيد التحدث بها ، كما يجيده أصحابها ، إنما أحب أن أتحدث ، أو نتحدث إن شئت ، عن هذه القصيدة المطوّلة التى تضاف إلى عنترة وتعدّ بين السبع أو بين العشر المطوّلات ، والتى مهما تنكرها وتشك فيها ، فلن تستطيع أن تنكر أنها قصيدة قديمة ، كان القدماء ينشدونها ، ويتغنون بكثير من

أبياتها فى القرن الأول للهجرة ، وكان علماؤهم يرضون عنها ويعجبون بها . ويسجلونها بين روائع الشعر العربى القديم فى القرن الثانى والثالث للهجرة . قد لا يكفيك هذا ، ولكنه يكفينى ، ويجب أن تكتفى به أنت حين تخرج من طور المحقق الممحص ، إلى طور الفنان الذى يلتمس المتعة والجمال ، وأنا أعرف أنك لا تطمئن إلى ما فى هذه القصيدة من سهولة ولين ، قلما يوجدان فى الشعر النجدى القديم ، ولكنك تطمئن إلى شعر الحطيئة وهو من نجد ، وفى شعره مثل ما فى هذه القصيدة من هذه السهولة التى لا تخلو من فخامة ، ومن هذا اللين الذى لا يبرأ من جزالة ، ولست أدرى ما بالك قد وكلت بإنكار الشعر القديم كلما ظهرت فيه سهولة . أو بدا فيه لين ، مع أنك تريد أن تحبب إلينا الشعر القديم ، وهل تظن أن شيئاً يستطيع أن يحبب إلينا هذا الشعر ويزينه فى قلوبنا ، ويحملنا على أن نسمعه ونتبعه ونحفظه وننشده ونتغناه ، كما يستطيع ذلك ما قد يظهر فيه من سهولة ويبدو فيه من لين ؟ إنك تحب قصيدة لبيد ، وأنا أيضاً أحبها ، ولكنك تستطيع أن تكتب فى نقد هذه القصيدة وإطرائها فصولا طوالا دون أن تظفر بتحبيبها إلى نفوس الشباب ، لأنها أضخم وأفخم من هذه النفوس الرقيقة المترفة ، إنما يحب الشباب قصيدة لبيد حين تترجم لهم ترجمة ، وتفسر لهم تفسيراً ، وتعرض عليهم صورها الشعرية الرائعة فى لغتهم السهلة المألوفة ، فأما قصيدة عنترة هذه فاقرأها على الشباب ، فسيفهمون منك أكثرها ، لا يحتاجون إلى تفسير ، ولا إلى ترجمة ، لأنها واضحة جلية ، ولأنها سهلة اللفظ ، قريبة المعنى ، ليس بينها وبين نفوسهم حجاب من هذه الجزالة التى تكاد تبلغ الغرابة ، ومع ذلك فقد ذهب صاحب هذه القصيدة مذهب غيره من الشعراء القدماء فسار سيرتهم ، واتبع سنتهم ، وذكر الديار كما ذكروها ، ووصف الناقة كما وصفوها ، وافتخر بالكرم والجود والنجدة ، كما افتخروا بكل هذه الخلال ، ولكنه أسهل ولم يحزن ، ويسر ولم يعسر ، وارتفع عن الإسفاف والابتذال ، دون أن يتورط فى الغلظة والإغراب ، وانتهى إلى معان قلما انتهى إلى مثلها غيره من الشعراء ، وما أرى أن ابن سلام قد أخطأ حين قال : إن هذه القصيدة نادرة فهى نادرة حقاً ، ولست أدرى أتحس حين تقرأ هذه القصيدة مثل ما أحس ، وتجد مثل ما أجد ! فإنى أحس

كأن القصيدة طائفة من الأنغام الموسيقية الكثيرة المختلفة فيما بينها أشد الاختلاف، ولكن فيها نغمة واحدة متصلة منذ تبدأ القصيدة إلى أن تنتهى ، تظهر واضحة حيناً وتحسها النفس ، وإن لم تسمعها الأذن حيناً آخر . وهذه النغمة التى تكوّن وحدة هذه القصيدة كما كوّنت الوحدة فى قصيدة لبيد ، هى حديث الشاعر إلى صاحبته ، واستحضار صورتها فى نفسه منذ ابتدأ إلى أن انتهى ، ولكن بين هذه النغمة فى قصيدة عنترة وقصيدة لبيد فرقاً واضحاً جدًّا ، فهى فى قصيدة عنترة حلوة رقيقة ، تمازج النفس فتمتزج بها ، لأن عنترة فيما يظهر قد كان حلو النفس ، رقيق القلب ، قوىّ العاطفة ، جاءه ذلك من أنه عز بعد ذلة ، وتحرّر بعد رق ، فهو قد تألم فى طفولته وصباه ، واحتمل الأذى فى شبابه وأى أذى ! هذا الذل يداخل النفس ، ويختلط بها اختلاطاً ، فيصفى عواطفها تصفية ، ويلطف مزاجها تلطيفاً ، على حين تجد هذه النغمة من لبيد غليظة بعض الشىء ، لا تخلو من خشونة وجفاء بدوى ، فلبيد يتحدث عن صاحبته فى أول القصيدة ، ويذكرها فى أثناء القصيدة ولا ينساها ، ولكنه ليس متهالكاً عليها ، ولا فانياً فيها ، ولا متحرجاً من الإعراض عنها ، وجزاها بمثل ما تجزيه به من الهجران والصدّ ، فهو يلقى قطيعة بقطيعة ، ونأياً بنأى ، أما عنترة فيقول لصاحبته :

وَلَقَدْ نَزَلْتِ فَلاَ تَظُنِّى غَيْرَهُ   منى بِمنزِلةِ المُحَبِّ المكْرَمِ

وفى عنترة تحبب إلى صاحبته ، وتهالك عليها ، وحنين متصل إليها ، فهو إذا فخر لا يفخر على صاحبته ، وإنما يفخر لها ، يريد أن يقنعها بأنه خليق أن تحبه وتميل إليه ، وليست رقة عنترة مقصورة على صاحبته ، بل هو رقيق بالقياس إلى عدوه الذى يقتله ويمثل به ، أليس يقول :

فَشككتُ بالرُّمحِ الطَّوِيلِ ثيابَهُ   ليس الكرِيمُ عَلَى القنا بِمُحَرَّمِ

بل هو رقيق على فرسه ، يألم لألمه ، ويشفق لشقائه ، ويرى بكاءه ، ويسمع توجعه حين تعبث به رماح الأعداء ، ويجعل نفسه ترجماناً له ، فيقول :

فازْوَرَّ من وقع القَنَا بِلَبانِهِ وَشَكا إليَّ بَعبْرَةٍ وتَحَمْحُمِ
لوْ كانَ يَدْرِي ما المحَاوَرةُ اشتكى وَلَكان لوْ علِمَ الكلامَ مكلمى

وفى عنترة معنى الرجولة العربية الكاملة ، فهو رقيق دون أن تنتهى الرقة به إلى الضعف ، وهو شديد دون أن تنتهى الشدة به إلى العنف ، وهو صاحب شراب ، دون أن ينتهى به السكر إلى ما يفسد الخلق والمروءة ، وهو صاحب صحو ، دون أن ينتهى به الصحو إلى التقصير عما ينبغى للرجل الكريم من العطاء والندى ، وهو مقدم إذا كانت الحرب ، وهو عفيف إذا قسمت الغنائم ، وهو يحاول أن يصف من أخلاقه ما يشرف به الرجل العربى الكريم ، فيذكر هذه الخصال التى أشرت إليها ، ثم يحس كأنه لم يحط بخلاله كلها ، وأخلاقه كلها ، فيقول هذا الشطر الرائع :

* وكما عَلِمتِ شَمائِلى وتَكرُّمى *

وكثير جداً من أبيات هذه القصيدة قد ظفر بحظ عظيم من الإيجاز والامتلاء ، والبراءة من اللغو والفضول ، حتى جرى مجرى الأمثال فأى الناس لا يتمثل قوله :

وإذا شَرِبْتُ فإننى مُستهلِكٌ مالى وعِرْضِى وافرٌ لم يُكلَمِ
وإذا صَحَوْتُ فما أُقصرُ عن نَدًى وكما عَلِمتِ شمائِلى وتكرُّمى

وأىّ الناس لا يتمثل قوله ؟ :

يُنبئْكِ مَنْ شهدَ الوَقيعةَ أنَّنى أغْشى الوَغَى وأَعِفُّ عند المَغْنمِ

وأى الناس لا يتمثل قوله :

ولقد خَشِيتُ بأنْ أموت ولم تَدُرْ للحرْبِ دائِرَةٌ على ابْنَىْ ضَمْضَمِ

وأى الناس لا يتمثل قوله :

الشَّاتِمَىْ عِرْضِى ولم أَشْتُمْهما وَالنَّاذِرَيْنِ إذا لم أَلْقَهمَا دمى

أليس من هذا الشطر الأخير أخذ جميل بيته المشهور :

فلَيْتَ رجالاً فيكِ قد نَذَرُوا دَمِى وهَمُّوا بقتلى يا بُثَيْنَ لَقُونى

وأى الناس لا يتمثل قوله :

إن يفْعلا فلقد تركْتُ أباهُما جَزَرَ السّباعِ وكلّ نَسْرٍ قَشعَمِ

كل هذه القصيدة ، أو أكثر هذه القصيدة ، يجرى مجرى المثل ، وينشد على اختلاف العصور والبيئات والظروف ، فلا يملّ إنشاده ، ولا تحسّ النفس نبوًّا عنه أو نفوراً منه ، وإنما تحس كأنها تجرى فيه ، وكأن هذا الشعر مرآة صافية صادقة لكل نفس كريمة ، ولكل قلب ذكى ، ولكل خلق نقى . تستطيع أن تقرأ القصيدة من أوّلها إلى آخرها ، فستجد فيها هذا المعنى الذى أشرت إليه ، لا فرق فى ذلك بين غزل ووصف ، وفخر ووعيد . ولا أكاد أستثنى إلا هذه الأبيات القليلة التى ذكر الشاعر فيها ناقته ، ومع ذلك ، فإن هذه الأبيات إن لم تجر مجرى الأمثال ، وإذا كانت كغيرها مما قال الشعراء فى وصف الإبل ، فإنها لا تخلو من شىء طريف . انظر إلى هذا البيت الذى يشبه فيه الظليم وقد تبعته النعام بالعبد الأسود وقد ثابت إليه الإبل ، وانظر إلى هذا التعبير الظريف عن العبد الأسود الذى لا يحسن الإعراب عما يريد :

تأوِى له قُلُصُ النعامِ كما أوَت حِزَقٌ يَمانِيةٌ لأعْجَمَ طِمْطِمِ

وهل يمكن أن أهمل هذه الأبيات التى كان القدماء يحبونها ويعجبون بها أشد الإعجاب ، وهى هذه التى يصف فيها ثغر صاحبته بالجمال وطيب النشر ، فيذكر فأرة المسك ، ويذكر الروضة الأنف التى ألحّ عليها الغيث حتى زكا نبتها ، وحتى كثر فيها الذباب مبتهجاً نشوان ، متغنياً بما يجنى من طيباتها :

وكأن فأْرَةَ تاجِرٍ بِقَسِيمةٍ سبَقَتْ عَوارِضُها إلَيْكَ مِنَ الفَمِ
أو رَوْضةً أُنفاً تَضَمَّنَ نَبْتَها غَيْثٌ قليلُ الدِمْنِ ليسَ بِمُعْلَمِ
جادتْ عليهِ كلُّ بِكْرٍ حُرَّةٍ فتَركْنَ كلَّ قرَارةٍ كالدرْهَمِ
سحًّا وتسْكاباً فكل عَشِيةٍ يجرِى عليها الماءُ لم يَتَصرَّمِ
وَخَلا الذبابُ بها فليسَ ببارِحٍ غَرِداً كفِعْلِ الشّارِبِ المُترنمِ
هَزِجاً يَحُكُّ ذراعَهُ بِذِراعِهِ قَدْحَ المُكِبِّ عَلَى الزنادِ الأَجْذَمِ

وانظر معى إلى هذه الأبيات الأربعة ، فلست أعرف أبلغ منها فى تصوير الحنين والحب واليأس معاً :

حُيِّيتَ مِنْ طَلَلٍ تقادَمَ عهْدُهُ أَقوى وأَقفرَ بعْدَ أُمِّ الهيْثَمِ
حَلَّتْ بأرضِ الزائرين فأَصْبَحَتْ عَسِراً عَلَيَّ طِلابُكِ ابنَةَ مَخرَمِ
عُلِّقْتُها عرَضاً وأَقتُلُ قوْمها زَعْما لعَمْرُ أَبيكَ ليسَ بمَزْعَمِ
ولقد نزَلْتِ فلاَ تَظُنِّى غَيْرَه مِنى بمنزلةِ المُحَبِّ المُكْرَمِ

كل القصيدة جيدة ، وكل أبياتها خليق أن نطيل الوقوف عنده ، والتفكير فيه ، والإعجاب به . قلت : فإنى لا أنكر عليك من هذا شيئاً ، ولكنى لم أفهم إقحامك لوزير التقاليد فى هذا الحديث . قال : فإنى يا سيدى رأيتك فاتراً عن حديث عنترة القديم ، فأردت أن أثير فيك النشاط بذكر عنترة الحديث .

ساعة مع سويد بن أبى كاهل[1]

قلت لصاحبى وهو يتهيأ لقراءة إحدى المطوّلات المعروفة : أرحْ نفسك وأرحنى اليوم من هذه المطوّلات ، فقد أكثرنا القول فيها ، وتعال نقرأ مطوّلة أخرى ، ليست شائعة ولا ذائعة فى هذه الأيام ، وإن أذاعتها المطبعة فى غير كتاب ، وإن كانت فى العصر القديم شائعة ذائعة يحبها العرب ، ويكلفون بها ، ويتمثل الخطباء المجيدون بأبياتها ، ويحرص الرواة على روايتها ، ويؤثرونها على كثير من الشعر ، ويزعمون أن العرب كانت تسميها اليتيمة . قال صاحبى : وما عسى أن تكون هذه القصيدة ؟ قلت : هى عينية سويد بن أبى كاهل ، وهو كما تعلم شاعر جاهلى أدرك الإسلام وعمّر فيه غير قليل ، وجهل الرواة أكثر أمره ، ولم يعرفوا عنه إلا أنه كان مختلط النسب ، ينتسب فى ربيعة حيناً ، وفى مضر حيناً آخر . وقد اجتهد الرواة فى تعليل هذا الاختلاط ، فزعموا أنه ولد فى قيس من مضر ، ثم تزوجت أمه أثناء طفولته رجلا من ربيعة فانتسب إليه وإلى قبيلته .

والشاعر على كل حال يمدح الربعيين فى قصيدته هذه التى سنقرؤها ، ويهجوهم ويمدح المضريين فى قصيدة أخرى ، أو فى قصائد أخرى .

ويحدثنا الرواة أن هذا الشاعر كان هجّاء فاحش اللسان ، وأن أميراً من أمراء الكوفة حبسه فى الهجاء فأطال حبسه ، ولم يخرجه من السجن إلا جماعة من عبس ، وهى قبيلة قيسية مضرية كما تعلم ، وإنما أعانته هذه القبيلة لما أهدى إليها من المدح والثناء ، فهى قد عرفت له يده عندها . ولا يكاد الرواة يعرفون بعد هذا من أمر الشاعر شيئاً إلا أن شعره كان يجرى مجرى المثل على ألسنة الخطباء والأمراء والشعراء ، فقد تمثل به عبد الله بن الزبير ، وتمثل به الحجاج ، وتمثل به الفرزدق أيضاً ، وتمثل به غير هؤلاء من أعلام الناس . وكان الأصمعى — فيما روى أبو الفرج — يعجب بعينيته هذه إعجاباً شديداً ؛

(١) نشرت بجريدة الجهاد فى ١٥ مايو سنة ١٩٣٥ .

وكان ابن سلام يزعم أن له شعراً كثيراً ، ولكن هذه العينية امتازت منه وبرزت عليه ، ثم حاول ابن سلام أن يروى له شيئاً من هذا الشعر الكثير فلم يزد على بيت واحد . وروى أبو الفرج له أبياتاً متفرقة من قصائد مختلفة ؛ ولم يرو له ابن قتيبة حين أراد أن يترجم له إلا أبياتاً من هذه العينية الرائعة .

وأظنني قد ألممت بأكثر ما عرفه القدماء من أمر هذا الرجل ، فهم كما ترى لم يعرفوا منه إلا هذه القصيدة ، وهي خليقة أن تعرف وتحفظ حقاً ، ولست أدري كيف لم ترو بين هذه المطوّلات التي كثر فيها الكلام وانتشرت حولها الأساطير ، ولكنّ في الشعر القديم قصائد أخرى جياداً ليست أقل جودة ولا روعة من هذه المطولات السبع أو العشر ، وهي مع ذلك لم تظفر بمثل ما ظفرت به المطوّلات من العناية وكثرة الذكر والرواية ، وليس عبث الحظ مقصوراً على الناس ، فهو ينال الأشياء أيضاً ، وهو ينال الشعر والنثر فيما ينال .

وأظنك ستوافقني على أن هذه المطوّلة البديعة من أروع الشعر العربي وأرقاه ، ومن أعذبه وأحسنه موقعاً في السمع ومسلكاً إلى النفس ، وإذا كان شعر صاحبها قد ضاع ، فإنها تكاد تغني عما ضاع من شعره ، لأنها تصوّر مذهبه في الشعر ، وحظه من إجادته تصويراً قويًّا واضحاً . ذلك لأنها جمعت ألواناً من فنون الشعر التي كان يطرقها القدماء ، وأكبر الظن أنها جمعت فنون الشعر التي كان يطرقها سويد نفسه ، ففي القصيدة غزل طويل مكرر ، وفي القصيدة وصف ، وفيها فخر بقومه ، وفيها فخر بنفسه ، وفيها بعد ذلك هجاء لخصومه ومنافسيه ، وما أظنه طرق فنًّا آخر غير هذه الفنون ، إلا أن يكون المدح الذي يغني عنه الفخر أحسن الغناء .

وشاعرنا كما سترى قوي الحسّ جدًّا ، دقيق الشعور جدًّا ، وهو كذلك مالك لأمر الشعر ، يصرّفه كما يحب ، لا يجد في تصريفه مشقة ولا جهداً .

وإذا جاز أن نتخذ قصيدته هذه نموذجاً لشعره الذي ذهب عنا ، فقد كان الشاعر مطيلا ، لأن قصيدته هذه قد نيفت على المائة ، وقد كان الشاعر سهل اللفظ في غير إسفاف ولا ابتذال ، وقد كان الشاعر لا يتحرج من اصطناع الكلمات التي تغرب بعض الشيء ، إذا أطال القصيدة ، أو دفعته القافية إلى

شيء من البحث والتفتيش عن الألفاظ .

وسترى حين تقرأ القصيدة أن الشاعر كان يحسن بناء قصيدته ، فلا يضطرب فيها ، ولا يختلط عليه الأمر ، وإنما يتصور الأغراض التى يريد أن يقول فيها الشعر ، ثم يلائم بينها ملاءمة حسنة ، ثم يتمثل قصيدته كما يتمثل المهندس صور البناء الذى يريد أن يقيمه ، ثم يندفع فى إنشاد القصيدة فلا يكف حتى يتم ما كان يريد أن يقول :

وهو فى هذه القصيدة يقصد إلى غرضين واضحين ، فأما أولهما فهو الفخر بقومه من بنى بكر بن وائل ، وأما الآخر فهو الفخر بنفسه خاصة ، ومهاجمة الذين كانوا يعيبونه ويريدونه بالسوء ، ولكنه لا يسرع إلى هذين الغرضين إسراعاً ، وإنما يسعى إليهما متمهلا ، كأنه مالك لوقته كله لا يدفعه دافع ، ولا يعجله معجل ، إنما هو يسعى متروّضاً متنزهاً فى جنات الشعر ، يتغنى بما يثور فى نفسه من العواطف والأهواء والخواطر . والغزل أول شيء يثور فى نفسه ، فهو يتغزل ويطيل فى غزله ، حتى إذا شفى نفسه من ذكر صاحبته ، شخصها أوّلا ، وخيالها بعد ذلك ، انتقل من الغزل إلى الوصف ، فوصف البيداء ، ووصف السراب ، ووصف الخيل التى يقطع بها البيداء ، ثم انتهى إلى قومه فوصفهم وفخر بهم ، مستأنياً مجوّداً ، حتى إذا بلغ حاجته من الفخر بقومه ، لم يثب إلى الفخر بنفسه وثوباً ، ولم يندفع إليه اندفاعاً ، وإنما تمهل واستأنى ، واستأنف الشعر من جديد ، كأنه يريد أن يقول قصيدة أخرى غير قصيدته الأولى ؛ فهو يصرّع كما تعود الشعراء التصريع فى المطالع ، وهو يستأنف الغزل بصاحبته مرة أخرى ، فإذا أتم حظه من الغزل ، استأنف الوصف ، فوصف ناقته ، واتخذ وصفها سبيلا إلى وصف الصيد وكلابه ، وسهام الرماة ، وما يكون بين الثور الذى يشبه به ناقته وبين الكلاب من طراد ، فيه فزع ومكر ، وفيه كيد وإقدام ، وفيه ثقة بالنفس وإشفاق من الخصم . ثم يفرغ من هذا كله لما أراد إليه من الفخر بنفسه ، وإحصاء ما يستطيع إحصاءه من مفاخره ومآثره ، ثم ينحى على عدوه ومنافسيه فيهاجمهم أشد مهاجمة ، ويأخذهم أخذاً عنيفاً ، ثم يختم قصيدته بهذا البيت ، الذى يملؤه بما شاء من التحدى والتصدى ، والمخاصمة والمقاومة ، وانتظار من يجرؤ على لقائه ومناهضته بقول أو عمل :

هَلْ سُوَيْدٌ غيرُ ليث خادرٍ   ثَئِدَتْ أَرْضٌ عليهِ فانْتَجَعْ

قال صاحبي : ما رأيت كاليوم ناقداً يأخذ الشعر من آخره ، ويبدأ القصيدة من حيث انتهت . قلت : لا تعجل إنما أردت أن أقيم بين يديك هذه الصورة التى أقامها الشاعر لنفسه ، وجعلها آخر قصيدته ، كأنما أراد أن تبقى فى نفس الذين يسمعونه ويقرءونه ، فلا يقع فى نفوسهم منه إلا هذا التأثير القوى ، تأثير الليث العزيز الأبى ، الذى يستقر إلا أن يهيجه هائج ، والذى يطمئن فى الأرض ما اطمأنت به الأرض ، فإذا ضاقت به ، أو فسدت عليه ، أوسيم فيها ما لا يحب ، تحول عنها إلى أرض أخرى ملائمة له لا يلقى فيها شرًّا ، ولا يسام فيها ضيماً. وإذا كنت متعجلا إلى قراءة القصيدة من أولها ، فانظر معى إلى هذا الغزل ، واقرأ معى هذه الأبيات ، واعجب معى بما ستجد فيها من سذاجة حلوة ، قد اتخذها الشاعر وسيلة إلى وصف أشياء قد أكثر الشعراء من وصفها ، فحببها إليك ، ونفى عن نفسك ما قد يعتريها من الملل ، إذ نظرت فى أشياء طالما عرضت عليها :

بَسطَتْ رابِعَةُ الْحَبْلَ لنا   فَوَصلْنَا الْحَبْل مِنْها مَا اتَّسَعْ

فهو لا يشكو من صاحبته شيئاً ، لا يضيق بها لأنها لم تضق به ،ولا يَزوَرّ عنها لأنها لم تزور عنه ، وإنما وصلته فوصلها ، وآثرته فآثرها ، وصفا لهما العيش ما استقامت لهما الحياة . فإذا كان هناك فراق آذاه ، ونأى أضناه ، فصاحبته لم ترغب فى فراق ، ولم تعمد إلى النأى ، وإنما هى خطوب الأيام ، وصروف الأحداث . ولكن انظر إلى هذا المطلع كيف ذهب فيه مذهب المثل ، ومذهب المثل البدوى الساذج القريب ؟ فشبه ما يكون بين الحبيبين المتواصلين فى مودة وإسماح ، بالحبل قد أخذ بطرفيه شخصان لا خصومة بينهما ولا مقاومة ولا مشادة ، وإنما هى السماحة واللين ، ثم انظر إليه كيف يصف صاحبته فيقول :

حُرَّةٌ تَجْلُو شتيتاً وَاضِحاً   كَشُعاعِ الشَّمْسِ فى الْغَيْمِ سَطَعْ

ويعجبنى من هذا البدوى تشبيه ما يكون من صفاء الثغر النقى الواضح الناصع بين الشفتين بشعاع الشمس حين يظهر أثناء الغيم . وليس أدل على بداوة هذا الشاعر وبعده عن تكلف المترفين ، من هذا البيت الذى يأتى بعد

ذلك ، والذى يصور صاحبته معنية بأسنانها ، تصقلها وتجلوها بالسواك الناعم الناضر حتى يظهر ناصعاً نقيًّا :

صَقلتهُ بِقَضِيبٍ ناضِرٍ مِنْ أَرَاكٍ طَيِّبٍ حَتَّى نَصَعْ
أَبْيَضَ اللوْنِ لَذِيذاً طعْمُهُ طَيِّبَ الريقِ إِذَا الرِّيقُ خَدَعْ

وانظر إلى قوله : « إذا الريق خدع » فهو أيضاً يصوِّر سذاجة الشاعر وبداوته ، وبعده عن تكلف المترفين ، فصاحبته معنية بالنظافة لا تهمل ثغرها ، فهى لا يفسد فها إذا فسدت الأفواه ، ولا يتغير ريقها إذا تغير الريق . وواضح أن هذا كلام لا يقوله المترفون ، وإنما يهملونه ويتجافون عنه ، ولكن صاحبنا بدوى يصور بيئة بدوية ، ثم انظر إليه كيف أراد أن يصف صورتها ؛ فلم يصفها مباشرة ، وإنما عكسها فى المرآة ، وزعم أن صاحبته تمنحها للمرآة منحاً ، فقال :

تَمْنَحُ الْمِرْآةَ وَجْهاً وَاضِحاً مِثْلَ قَرْنِ الشَّمْسِ فى الصَّحْوِ ارْتَفعْ
صَافِىَ اللوْنِ ، وَطَرْفاً سَاجِياً أَكْحلَ الْعَينيْنِ ما فِيهِ قمَعْ
وَقرُوناً سابغاً أَطْرافها غَلَلتْها رِيحَ مِسْكٍ ذِى فَنعْ

وهذا كله شعر جميل ، ولكنه مألوف تحبه النفس ، وتستطرفه لسذاجته وجمال لفظه لا لشىء آخر . فانظر بعد ذلك إلى هذه الأبيات التى يتحدث فيها عن الخيال :

هَيَّجَ الشَّوْق خيالٌ زَائرٌ مِنْ حَبِيبٍ خَفِرٍ فيهِ قَدَعْ

ولا تخفك كلمة « القدع » هذه فمعناها الحياء ، وأحسب القافية هى التى دعتها فجاءت غير مستكرهة ، ولا نابية بالبيت :

شاحِطٌ حازَ إلى أَرْحُلِنَا عُصبَ الغَابِ طَرُوقاً لَمْ يُرَعْ

فهذا الخيال الذى فيه خفر وحياء ، لم يمنعه خفره وحياؤه أن يجتاز الآماد البعيدة ، وأن يقتحم عصب الغاب فى غير خوف ولا روع ليزور الشاعر ؛ وإذن فكلمة « القدع » هنا لها معناها وقيمتها .

آنِسٌ كانَ إذا ما اعْتَادنِى حالَ دُونَ النوْمِ مِنى فامْتَنعْ

وفى الشطر الثانى لهذا البيت أصل المعنى الذى جوّد فيه بشار فى بيته المشهور :

لَمْ يَطُلْ لَيْلِي ولٰكِنْ لمْ أَنَمْ ونَفَى عنّي الكَرَى طَيْفٌ أَلَمّ

وظاهر جدًّا أن بشاراً قد زاد فى هذا المعنى ، ولكن زيادته ليست مبتكرة ابتكاراً ، وإنما هى موجودة بالقوة — كما يقول الفلاسفة — فى الأبيات التى ستقرؤها ، والتى يصف فيها الشاعر طول الليل ، وتثاقله وإبطاءه فى الحركة ، ورجوعه كلما ظن الشاعر أنه قد انقضى ! ذلك أن شاعرنا إنما يصف طول الليل ويلحّ فيه ، بعد أن ذكر الأرق الذى دفعه إليه إلمام الخيال به دفعاً ، فالطول إذن ليس محققاً فى نفسه ، وإنما هو يأتى من أرق الشاعر ، وعجزه عن النوم ، وضيقه بالليل ! فالليل فى حقيقة الأمر لم يطل ، وإنما أرق الشاعر فاستطاله واستثقله ، وهو المعنى الذى قصد إليه بشار ، بعقله الفلسفى المتحضر ، وبصيرته النافذة ، وبراعته فى الإيجاز . ولكن انظر معى إلى هذا البيت ، فستعجب بصدوره عن هذا البدوى :

وكَذَاكَ الحُبُّ ما أَشْجَعَهُ يَرْكَبُ الهوْلَ ويَعْصِي مَنْ وزَعْ

ألست ترى فى إضافة الشجاعة إلى الحب ، وفى وصف الحب بركوب الهول ، وعصيان الوازع ، تعليلا رائعاً جميلا ، لإقدام الخيال على هذه الزيارة البعيدة المخوفة ، مع ما فيه من الخفر والحياء ! وكان الحق أن يتقدم هذا البيت فيأتى قبل البيت الذى سبقه ، وأكبر الظن أن الشاعر قد وضعه هذا الموضع ولم يتأخر إلا فى أفواه الرواة .

وانظر بعد ذلك وصفه لطول الليل :

فأَبِيتُ اللَيْلَ مَا أَرْقدهُ وبِعيْنَيَّ إذا النَّجْمُ طَلَعْ
وإذَا ما قلْتُ ليْل قَدْ مَضَى عطَفَ الأَوَّلُ مِنهُ فَرَجَعْ
يَسْحَبُ اللَّيْلُ نُجُوماً ظُلَّعاً فَتواليهَا بَطِيئاتُ التَّبَعْ
ويُزَجيهَا عَلَى إبْطائهَا مَغْرَبُ اللَّوْنِ إذا اللوْنُ انقَشَعْ

وأنا معجب جدًّا بقول الشاعر « وبعينى إذا النجم طلع » وإن كان بعض

الرواة يغير هذه الرواية فيفسد البيت فيما أظن حين ينشد « ويعنّيني إذا النجم طلع » .

ولكن ما ترى فى هذه الصورة التى يعرضها الشاعر عليك ، فيزعم لك أن الليل قد طال وطال ، حتى كأن كل قطعة منه إذا مضت فى طريقها أمداً ، عادت إلى حيث كانت ، واستأنفت طريقها مرة أخرى ؟ وما ترى فى هذه الصورة الثانية التى يعرضها عليك ، فيزعم لك أن الليل يقود النجوم ، وأن هذه النجوم تمشى متثاقلة مبطئة ، كأنما أدركها الظلع الذى يدرك الإبل فيعوقها عن المشى السريع ، المستقيم وهى مبطئة ، وتواليها مبطئة أيضاً ، ومن ورائها الصبح يحدوها ، دون أن يستطيع أن يدفعها أمامه دفعاً سريعاً ، كما أن الليل يقودها دون أن يستطيع أن يحملها على أن تسرع من ورائه . فهى بليدة على قائدها ، وهى بليدة على سائقها ! أما أنا فأرى فى هذا شعراً جميلا رائعاً ، وأنا أعلم أن الشعراء قد أكثروا فى هذا المعنى ، ولكنى أحب سذاجة الشاعر فى تصويره وهدوئه ، وبعده عن التكلف فى عرضه ، وأحب هذه الحياة التى يبعثها الشاعر فى الليل والصبح ، والنجوم بين الليل والصبح ، بل أحب هذا التشخيص الذى يحمل الشاعر على أن يجعل الليل قائداً ، والصبح سائقاً ، والنجوم إبلا تقاد وتساق .

ويمضى الشاعر فى تصوير حبه لصاحبته ، وفى تصوير ما لحديثها من جمال ، وفى تصوير هذا السحر الذى اختبله وملك عليه أمره ، حتى ينتهى إلى وصف الطريق والخيل فيقول :

وَفَلاَةٍ واضِحٍ أَقْرَابُهَا بَالِيَاتٌ مِثْلُ مُرْفَتِّ القَزَعْ

ولا ترعك هذه الألفاظ التى تظهر غريبة ، فالمعنى الذى قصد إليه الشاعر واضح جميل ، فهو يريد أن هذه الفلاة على بعدها واضحة النواحى ، بالية قد تفرقت أعلامها ، كما يتفرق الشعر فى الرأس الأصلع ، أو كما يتفرق الغيم الضئيل فى السماء :

يَسْبَحُ الآلُ عَلَى أَعْلاَمِهَا وعَلَى البِيدِ إذا اليَوْمُ مَتَعْ

فَرَكِبْنَاهَا عَلَى مَجْهُولِهَا بِصِلاَبِ الْأَرْضِ فِيهِنَّ شَجَعْ

ثم يمضى فى وصف الخيل ، حتى ينتهى إلى هذا التشبيه الجميل ، الذى

يصور فيه الخيل وهي مسرعة كأنها القطا تنصبّ من الجوّ إلى الماء لتحسوه :

يدرعْنَ اللَّيْلَ يَهْوِينَ بِنَا كهُوِى الْكدْرِ صَبَّحْنَ الشرَعْ

ثم ينتهى بعد ذلك إلى قومه بنى بكر ، فانظر إليه كيف يصفهم فيجيد :

لِبَنِى بَكْرٍ بِها مَمْلَكَةٌ مَنظرٌ فِيهمْ وفِيهمْ مُسْتَمَعْ

بُسُطُ الْأَيْدِى إذا ما سُئِلُوا نُفُعُ النائلِ إنْ شَىءٌ نَفَعْ

مِنْ أناسٍ لَيْسَ مِنْ أَخْلاَقِهِمْ عاجِلُ الْفُحْشِ ولا سُوء الْجزَعْ

وهو يمضى فى هذا الفخر بقومه ، كأحسن ما تعود الشعراء أن يمضوا ، فيصفهم بالشجاعة والإباء ، وبالكرم والجود ، فى أحسن لفظ وأمتنه ، وفى أجمل أسلوب وأرصنه ، حتى إذا شفى نفسه من ذلك ، استأنف شعره وابتدأ الغزل من جديد فقال :

أَرّق العَيْنَ خَيالٌ لَمْ يدَعْ مِنْ سُلَيْمَى ففُؤادِى مُنْتَزَعْ

حل أَهْلِي حَيْثُ لا أَطْلُبُها جانِبِ الحَضْرِ وحَلَّتْ بالفَرَعْ

لا أُلاقيها وقلْبِي عِنْدَها غَيْرَ إلْمامٍ إذا الطرْفُ هَجَعْ

ثم يمضى فى هذا الغزل الجميل الهادئ ، الذى يصور شوقاً حزيناً هادئاً ، حتى ينتهى إلى الوصف ، فيشبه ناقته بثور يسبح فى الآل ، وقد أوجس خيفة لأنه أحس نبأة من صائد ، وأحسّ كلاب الصيد ، فهو يعدو غير جادّ فى العدو لأنه واثق بنفسه ، مقدر أنه سيسبق الكلاب وإن لم يسرف فى العدو . والكلاب على جشعها تعدو فى أثره ، متثاقلة بعض الشيء لأنها تخاف أن يكرّ عليها فيصيبها بقرنيه ، ويسفك من دمائها غير قليل ، فهى تسعى غير متهالكة ، وهو يعدو غير مسرف ، حتى إذا أحس قربها منه جدّ فى العدو ، ثم ينتهى من هذا الوصف إلى استئناف الفخر بقومه وبنفسه ، وانظر إلى هذه الأبيات الحسان :

كَتَب الرحمنُ والحَمْدُ لَهُ سَعَةَ الأَخْلاقِ فِينا والضلَعْ

وإبَاءً لِلدَّنِيَّاتِ إذا أُعْطِيَ المَكْثُورُ ضَيْماً فَكَنَعْ

وبناءً للمعالِي إنما يَرْفَعُ اللّٰهُ ومن شَاءَ وضَعْ .

لا يُرِيدُ الدَّهْرَ عَنْها حِولا جُرَعِ الموْتِ ولِلْمَوْتِ جُرَعْ
نِعَمٌ لله فينا ربُّها وصنيعُ اللهِ واللهُ صنَعْ
كيْفَ باسْتقْرارِ حُرٍّ شاحِطٍ بِبِلادٍ ليسَ فيها مُتَّسَعْ

نعم كيف باستقرار حرّ شاحط ببلاد ليس فيها متسع ، ولا سيا حين يكثر من حولك الأعداء ، وتنتشر الخصومات ، ويسعى بك الساعون ، ويكيد لك الكائدون ! وما أعرف شعراً أجمل ولا أروع ، ولا أبلغ فى تصوير الرجل الشجاع ذى القلب الذكى ، والنفس الأبية ، يصبر للعدو ، ويتحداه غير حافل به ، ولا آبه له ، من هذه الأبيات التى تمثل بها الحجاج ذات يوم :

ربَّ مَنْ أنْضَجْت غَيْظاً قَلْبَهُ قَدْ تَمنَّى لِيَ مَوْتاً لَم يُطَعِ
ويَرانِي كالشَّجا فِي حَلْقِهِ عَسِراً مخْرَجُه ما يُنْتَزَعْ
مُزْبِدٌ يَخْطِرُ مَا لَمْ يَرَنِي فإذا أسمَعْتُهُ صَوْتِي انْقَمعْ
بِشْسَما يَجْمَعُ أنْ يَغتابنِي مَطْعَمٌ وَخِمٌ ودَاءٌ يُدَّرَعْ
ويُحَيِّينِي إذا لاقَيْتُهُ وإذا يَخْلُوا لهُ لَحْمِي رَتَعْ

ثم يمضى فى هذا الفخر الجميل بنفسه ، وفى هذا الوصف الرائع لعدوّه ، حتى ينتهى إلى هذه الأبيات ، التى يصور فيها انهزام خصمه له ، وقد أعيته الحجة ، وعجز عن الخصام فيقول :

فَرَّ منى حَيْثُ لا يَنْفَعُهُ مُوقَرِ الظَّهْرِ ذَليل المُتضَعْ
ورأى مِنِّى مقاماً صادِقاً ثابِتَ المَوْطِنِ كَتَّامِ الوجَعْ
ولِساناً صَيْرَفيا صارِماً كحُسامِ السَّيْفِ ما مسَّ قَطَع

وعلى هذا النحو الجزل السهل الرصين الرائع يمضى الشاعر ، حتى يتم قصيدته بذلك البيت الذى تملؤه الهيبة والروعة ، والذى ابتدأت به هذا التحليل .

وأحسب أن هذه القصيدة ليست قصيدة واحدة ، وإنما هى تأتلف من قصيدتين ، قيلت أولاهما فى الجاهلية ، وقيلت أخراهما فى الإسلام ، أو هى قصيدة واحدة بدئت فى الجاهلية ، ثم أضاف إليها الشاعر فى الإسلام هذه

الأبيات التي يكثُر فيها ذكر الله والتحدث بنعمته ، وتصور فيها الغيبة على نحو ما صورت في القرآن الكريم .

قال صاحبي : مهلا ، لا تدفع نفسك إلى هذا النحو من التحقيق ، فليس يعنيني منه شيء . ولكن ألست ترى أن هذه القصيدة خليقة أن يرويها الشبان ، ويؤدبون بها تأديباً ؟ ففيها يجدون الرجولة الكاملة ، والمروءة التي تعلمهم كيف يثبتون للأيام ، ويحتملون المكروه ، ويلقون عداء العدوّ ، وكيد الكائدين .

قلت : وما يمنع أن يرويها الشبان ، وأن تفسر لهم ، وأن يؤخذوا بحفظها وفهمها ! فهي أيسر عليهم ، وأدنى إليهم ، من كثير مما يحفظون ويدرسون .

ساعة مع المثقب العبدى[1]

قال صاحبي :وهو يضحك حين ذكرت له هذا الشاعر : ومن يكون هذا المثقّب العبدى ؟ إنك لتبحث لى عن النكرات ، وتقف بى عند شعراء لم أسمع بهم ، أو لا أكاد أعرف من أمرهم شيئاً . قلت متضاحكاً : لا تقل هذا ، فإن المثقب شاعر معروف ، كان القدماء يذكرونه ويروون شعره ، ويعجبون به أشد الإعجاب ، روى له المفضل الضبي ثلاث قصائد ، وحفظ الرواة له ديواناً كاملا ، ولكنهم مع ذلك كانوا مثلك ومثلى ، لا يعرفون من أمره شيئاً ، أستغفر الله ! بل كانوا يعرفون لقبه هذا ويفسرونه ببيت من الشعر ، كما فسروا لقب النابغة،وكانوا يختلفون فى اسمه ، فيسميه بعضهم محصن ، ويسميه بعضهم عائذ بن محصن ، ويسميه بعضهم عائذ الله بن محصن ، وكانوا يحفظون له نسباً فى عبد القيس من قبائل ربيعة التى كانت تسكن البحرين ، وكانوا يتحدثون أنه اتصل بعمرو بن هند ومدحه ، وأنه مدح النعمان بن المنذر ، وأظن أنهم لم يكونوا يعرفون من أمره أكثر من هذا ، وهو كما ترى قليل ، أو هو كما ترى ليس شيئاً ؛ وكانوا يقولون إنه مات فى الجاهلية ، ولم يدرك الإسلام ، والمشغوفون بالتوقيت والتحديد يزعمون أنه مات سنة سبع وثمانين وخمسمائة للمسيح . ولعلك توافقنى على أن التحديد لا يخلو من إسراف سخيف .

ومع هذا كله فلست أكره أن نقضى ساعة مع هذا الشاعر الذى نجهله أو نكاد نجهله ، أو قل لا أكره أن نقضى ساعة مع هذا الصدى الضئيل المتصل الذى يتردد فى أثناء الزمن لشاعر قد نسيه الزمن ، أو كاد ينساه ، فى التحدث إلى الصدى ، وفى إطالة الوقوف عنده ، والاستماع له ، شعر لا أدرى أتذوقه أم لا أتذوقه ، ولكنى أراه جميلا ، شديدَ التأثير فى النفوس ، يثير كثيراً من الخواطر الشاحبة الحزينة ، التى لا تخلو من أن تثير للذات شاحبة حزينة مثلها ، وما رأيك فى صوت تحمله القرون الطوال حتى تنتهى به إليك ، وحتى

---

(١) نشرت بجريدة الجهاد فى ٢٢ مايو سنة ١٩٣٥ .

تنتهى به إلى مَن بعدك من الأجيال ؟ وأنت تسمع الصوت وتتبين جرسه ونغمه، وتتبعه متراجعاً مع هذه القرون ، حتى إذا انتهيت إلى آخرها أو إلى أولها ، لا تجد شخصاً بيناً ، وإنما وجدت شخصاً شائعاً ، أو لم تجد إلا هذا الصوت نفسه ، يتردد فى الصحراء ، أو يتردد على ساحل الخليج الفارسى ، فقد كانت قبيلة هذا الرجل تضطرب فى هذه الناحية من بلاد العرب .

ويعجبنى الشعر الذى لا تستطيع أن تنتهى به إلى شاعر معروف واضح الخصال بين الشخصية ، يعجبنى لأن فيه عظمة تأتيه من هذا القدم الذى يخفى علينا مصدره إخفاء ، ويخيل إلينا أنه صوت الصحراء ، أو صوت الساحل ، أو صوت جيل بأسره من أجيال الناس ، كان قوياً ملحاً ، فطبع نفسه على الزمن ، وفرض نفسه على ذاكرة الأجيال فرضاً .

يعجبنى أن أقف عند هذا الشعر الذى بقى وثبت ، وأكره الرواة على روايته ، والشراح على شرحه وتفسيره ، وأتاح للغويين وأصحاب النحو أن يستنبطوا منه كلمات كانوا يجهلونها ، ومذاهب فى النحو لعلهم لم يكونوا ليهتدوا إليها ، لو لم ينقل لهم الزمن هذا الصدى الضئيل النحيل المتصل الملح . ويعجبنى أن يذهب الخيال مذاهب مختلفة فى تصوير هذا الشاعر ، وما كان يحيط به من الظروف ، وما كان يعرض له من الأحداث ، وما كان يدفعه إلى قول هذه القصيدة أو تلك دون أن يستطيع الخيال أن يقف عند مذهب من المذاهب ، أو ينتهى عند غاية من الغايات . وأمثال المثقب بين قدماء الشعراء من العرب كثيرون ، لم يكن القدماء يحفلون بشخصياتهم الضائعة ، وإنما كانوا يرضون كل الرضا إذا ظفروا من آثارهم بشىء قليل أو كثير ، ولم يكن القدماء يشكون فى وجودهم ، أو ينكرون شخصياتهم ، كما يفعل العلماء المحدثون فى هذه الأيام بالقياس إلى كثير من الشعراء القدماء عند العرب أو غير العرب من الشعوب ، وإنما كانوا يطمئنون إلى ما يروى لهم وينقل إليهم ، فكانوا يريحون ويستريحون . وسترى حين تقرأ شيئاً من شعر هذا المثقب العبدى ، أن صوته ليس ثقيلا ولا بغيضاً ، وأنه مهما يكن شخصه ، سواء أكان شاعراً جاهلياً من عبد القيس أو من غير عبد القيس ، أم كان راوية إسلامياً ، من أهل الكوفة أو من أهل البصرة ، فقد كان خفيف الروح ، عذب الحديث ، قوىّ النفس شديد الحزم ، يكاد ينتهى إلى شىء من

الغلظة ، رقيق القلب مع ذلك ، يكاد يذوب رقة وليناً .

وهذه القصيدة التي سنبدأ بقراءتها كانت فيما يقول الرواة محببة إلى القدماء جداً ، حتى لقد كان أبو عمرو بن العلاء يقول : لو كان الشعر كله كهذه القصيدة لوجب على الناس أن يتعلموه . والحق إنك تقرأ هذه القصيدة فتروعك معانيها ، وتروقك ألفاظها فى كثير من المواضع ، وتعجبك ألفاظها لمتانتها وجزالتها ، فى غير غرابة ولا عنف ، حين يصف ناقته . فشاعرنا — كغيره من الشعراء القدماء — محافظ على المذهب المعروف ، يبدأ قصيدته بالغزل والحنين ، ثم يتخلص إلى وصف الناقة والبيداء ، ثم ينتهى إلى ما أراد من العتاب فى هذه القصيدة . وأكبر الظن أن القصيدة قد اقتضبت اقتضاباً ، وضاع منها جزء غير قليل ، لم يصل إلى الرواة ، أو لم يصل إلى المفضل الضبي على أقل تقدير. فشاعرنا يطيل شيئاً فى غزله وعتاب صاحبته ووصف الظعائن ، وهو يطيل كذلك فى وصف الناقة والفلاة ، فإذا انتهى إلى صاحبه الذى يريد أن يعاتبه لم يطل فى العتاب ، وإنما انقطع حديثه فجأة ، وحسب الزمان أنه روى لنا من هذه القصيدة ما روى ، ونقل إلينا من هذا الصوت الحلو الحازم ما نقل .

واقرأ معي أول هذه القصيدة فسترى أن صاحبنا قد كان رقيق النفس ، ولكنه مع ذلك حازم حتى مع صاحبته التى لا يحسن معها الحزم ، إلا أن يكون الشاعر صاحب طبع لا يخلو من غلظة وجفاء . هو فى ذلك مثل لبيد ، ومثل غير لبيد من شعراء البادية ، الذين رأيناهم غير مرة يتقاضون خليلاتهم الودّ والوصل ، دون أن يلحوا عليهن فيما يطلبون إليهن من الودّ والوصل ، بل دون أن يظهروا لهن تهالكاً على ما يبتغون عندهن من اللذة والمتاع :

أَفَاطِمُ قَبْلَ بَيْنِكِ متِّعِينِى ... ومنْعُكِ مَا سُئِلتِ كَأَنْ تَبِينِى

فَلا تَعِدِى مَوَاعِدَ كَاذِبات ... تمُرّ بِها رِياحُ الصَّيْفِ دُونِى

فَإِنِّى لَوْ تُخَالِفُنِى شِمَالِى ... خِلَافَكِ مَا وصلْتُ بِها يَمِينِى

إِذاً لَقَطَعْتُهَا وَلَقُلْتُ بِينِى ... كَذٰلِك أَجْتَوِى مَنْ يَجْتَوِينِى

فهو منذ البيت الأول قليل الرفق بصاحبته ، هو حريص على أن تمتعه قبل رحيلها بالنظر والحديث والتحية ، ولكنه لا يطلب إليها ذلك فيما ينبغى

أن يكون عليه العاشق من الرفق ، وهذا الإلحاح الذى لا غلظة فيه ولا عنف إنما هو يطلب إليها ذلك فى شىء من الجدال المنطقى العنيف . ألست تراه يزعم لها أنها إن منعته ما سألها ، فكأنها قد ارتحلت عنه ، وكأنما انقطعت بينها وبينه الأسباب ! فقربها منه وجوارها له لا يغنيان عنها شيئاً إذا لم يصحبهما الوصل ، وصاحبنا متعجل ملحّ مشفق من خيبة الأمل ، لا يطمئن إلى الوعد ، ولا يستريح إلى الأمل :

فَلَا تَعِدِى مَوَاعِدَ كَاذِبَاتٍ تَمُرُّ بِهَا رِيَاحُ الصَّيْفِ دُونِى

ثم هو ينتقل من الطلب الملح ، والتشدد المشفق ، إلى الوعيد والنذير ، فهو لا يرضى من صاحبته هذا المطل ، ولا يحب منها هذا الخلاف ، وهو قد صبر وصابر ، على قلة حبه لهذا النحو من الصبر والمصابرة ، فلو أن إحدى يديه خالفته كما تخالفه فاطمة هذه ، لما وصل بها يده الأخرى ، بل لقطعها قطعاً ، ولقال لها : اذهبى إلى غير رجعة ، فإنى أكره من يكرهنى ، وأتحوّل عمن يتحول عنى . ولابد من أن ننصف الشاعر ، فهو ينشئ قصيدته فى العتاب ، وهو يفكر من غير شك فى صاحبه الذى سيعاتبه حين ينتهى إليه أكثر مما يفكر فى صاحبته التى يطلب إليها المتاع ، فإذا تحدث إلى حبيبته بهذه اللهجة الغليظة القاسية ، ووجه إليها هذا النذير الخشن الغليظ ، فهو خليق إذا تحدث إلى صاحبه أن يكون حازماً صارماً ومتشدداً قاطعاً ، لا يحب الهوادة ولا اللين . على أنه قد رقّ بعض الشىء بعد هذه المقدمة العنيفة ، حين نظر إلى هذه الإبل وهى ترتحل ، وقد حملت من كان يحب . فانظر إليه كيف كان يقول :

لِمَنْ ظُعُنٌ تُطَالِعُ مِنْ ضُبَيْبٍ فَمَا خَرَجَتْ مِنَ الْوَادِى لِحِينِ

مَرَرْنَ عَلَى شَرَافَ فَذَاتِ رَجْلٍ وَنَكَّبْنَ الذَّرَانِحَ بِالْيَمِينِ

وهُنَّ كَذَاكَ حِينَ قَطَعْنَ فَلْجاً كَأَنَّ حُمُولَهُنَّ عَلَى سَفِينِ

أترى إليه وقد نظر إلى الإبل مرتحلة بمن كانت تحمل ! فهو متفجع متوله ، يسأل عمن تحمل الإبل ، كأنه لا يصدّق أنها ترتحل عنه بمن يحب . ثم لا ترعك هذه الأسماء التى يذكرها الشاعر ، والتى لا تدل فى نفسك على شىء ، فقد كانت تدل فى نفس الشاعر وسامعيه على شىء كثير ، كأن ذكر هذه الأماكن خير ما يستطيع الشعراء أن يعمدوا إليه ، ليصوروا ما يملأ

نفوسهم من اللهفة واللوعة والحنين لفراق المسافرين ، وفى تسمية هذه الأماكن تصوير لما يجده من اتباع نفسه للمسافرين فى رحلتهم الطويلة بعد أن عجز طرفه عن أن يتبعهم ، فهم الآن فى هذا المكان ، وهم بعد ساعات فى ذاك المكان ، وهم الآن ينحرفون إلى شمال ، وهم بعد حين ينحرفون إلى يمين ، وسل نفسك حين تودع من تحب ، وحين يمضى به القطار ، وتستقر بك الدار ، أليست تصوره لك خواطرك ، وقد انتهى به القطار إلى هذه المدينة أو تلك ؟ألست تحب أن تتبعه أو أن تسايره ؟ ألست تقول : إنه الآن هنا ، وإنه الآن هناك ؟ ألست سعيداً ما استطعت اتباعه ومسايرته على علم ، فإذا انتهى إلى غايته ، ولم تستطع أن تتبعه فيما يأتى من حركات ، وفيما يضطرب فيه من مكان ، فأنت محزون ملتاع ؟ فكذلك كان الشعراء الأولون ، يتبعون أحباءهم ما استطاعوا ، ملحين فى هذا الاتباع ، مصورين ما يسلكون من طريق .

على أن شاعرنا قد رأى الإبل أو تخيلها من بعيد ، وهى تحمل الهوادج وتمضى فى الصحراء كأنها السفين ، فلما انتهى إلى هذا التشبيه الشائع المألوف لم يرد أن يذهب فيه مذهب الشعراء بل أنكره إنكاراً ، ونفاه نفياً ، وآثر أن يحتفظ بالإبل على أنها إبل ، فقال :

يُشَبَّهنَ السَّفينَ وهُنَّ بُخْتٌ عُرَاضَاتُ الأَبَاهِرِ والشُّؤُونِ

ليس فيهن شيء من السفن ، وإنما هى إبل ضخام جسام . ثم يدع الإبل إلى من تحمل الإبل ، فانظر إليه كيف يصفهن فى هذا الشعر الجميل :

وهُنَّ عَلى الرَّجائِزِ واكِناتٌ قَوَاتِلُ كُل أَشْجَعَ مُسْتكِينِ

كَغِزْلَانٍ خَذَلْنَ بِذَاتِ ضالٍ تَنُوشُ الدَّانِياتِ مِنَ الْغُصُونِ

ظَهَرْنَ بِكِلَّةٍ وَسَدَلْنَ أُخْرَى وثَقَبْنَ الْوَصَاوِصَ لِلعُيُونِ

وهُنَّ عَلَى الظَّلامِ مُطَلَّبَاتٌ طَوِيلاتُ الذَّوَائِبِ والقُرونِ

ومنْ ذَهَبٍ يَلُوحُ على تَرِيبٍ كَلَوْنِ العاجِ لَيْسَ بِذِي غُضُونِ

فانظر إلى البيت الأول من هذه الأبيات ، وقد شبه فيه الظعائن بالطير المستقرة فى أعشاشها ، وذكر مع ذلك اختلابهن للناس بما يرمين من لحظ ،

ثم انظر إلى البيت الثانى ، وقد عرض لهن فيه هذه الصورة الحلوة ، صورة الغزلان الفاترات وقد تخلفن عن القطيع وأقمن فى الكنس حانيات على أطفالهن ، يرفعن رءوسهن من حين إلى حين ، ويمددن أعناقهن ليجتنين ما يتدلى عليهن من أثمار هذه الأغصان الدانية . ثم انظر إلى هاتين الصورتين الجميلتين يعرضهما فى البيت الثالث ، فأما الصورة الأولى ، فصورة الهوادج وقد ألقيت عليها كلة لتسترها ورفعت عنها كلة أخرى ليظهرن من ورائها لمن يحببن أن يرينه وأن يراهن . وأما الصورة الثانية ، فصورة هذه الوصاوص ، ولا تسؤك هذه الكلمة ، فقد كان الشاعر يتكلم بلغته ، والوصاص هنا البراقع ، فانظر إلى هذه البراقع المحكمة المتقنة الضيقة وقد ثقبت لتستطيع العيون أن ترى من ورائها . وبهذا البيت سمى صاحبنا المثقب فيما يقول الرواة ، وأى غرابة فى هذا ! فمن ثقّب البراقع خليق أن يعرف بهذا التثقيب .

ثم يمضى الشاعر فى غزله على هذا النحو حتى يستيئس ممن يحب ، ويزمع كما يزمع غيره من الشعراء أن يتسلى عن هذا الحب العقيم بالأسفار ، فيصف ناقته وصفاً رائعاً من أدق ما عرف الناس من وصف الإبل . ولكنى لا أشق عليك برواية هذا الوصف وتفسيره ، فهذا شرح المفضليات بين يديك تستطيع أن تنظر فيه ، إنما أقف بك عند هذه الأبيات لأنها خليقة بأعظم الإعجاب وأقواه حقّاً :

إذا ما قُمْتُ أَرْحَلُهَا بِلَيْلٍ ... تَأَوَّهُ آهَةَ الرَّجُلِ الْحَزِينِ

تَقُولُ إذا دَرَأْتُ لَها وضِينِى ... أَهٰذَا دِينُه أَبَدًا ودِينِى

أَكُلُّ الدَّهْرِ حَلٌّ وارْتِحال ... أَمَا يُبْقِى عَلَىَّ ومَا يَقِينِى

أترى إليه وقد نهض آخر الليل ليرحل ناقته ويهيئها للسفر ، فلما رأته عرفت ما يريد فضاقت به ، وشكت منه ، وتأوهت آهة الرجل الحزين المذعن الذى لا يجد مردّاً للقضاء النازل ، ولا منصرفاً عن المكروه الملمّ ! ثم أترى إليه وقد دنا من ناقته يمدّ لها الحزام ، وهى تتمثل ما ينتظرها من جهد ، لأنها ملت أمثال هذا الجهد ، وهى تصور فى حركاتها ولحظاتها وزفراتها حزنها وشكاتها ! والشاعر يعرب لنا عن هذا الحزن أحسن الإعراب . أليست الناقة تشكو وكأنها

تقول : أهذا دأبه أبداً ودأبى ! أما ينقضي يوم إلا ونحن فى حلّ ورحيل ! أما فى نفس هذا الرجل شيء من إشفاق يعطفه علىّ ، ويحمله على أن يرحمنى ، ويجنبنى بعض ما أجد من هذا العناء ! ما تقول فى رفق هذا الشاعر بناقته ، وحبه لها ، وفهمه إياها ، وإعرابه عما يضطرب فى نفسها المحزونة ؟ أما أنا فأرى أنه من أروع ما قال الناس ، لا فى اللغة العربية وحدها ، بل فى غيرها من اللغات أيضاً . ويفرغ الشاعر من وصف ناقته الطويل الجميل لصاحبه عمرو الذى يريد أن يعاتبه ، فيقول هذه الأبيات المشهورة التى لم يحفظها الناس إلا لأنها راعتهم . وأعجبتهم حقًّا :

إلى عمْرٍو ومن عمْرٍو أَتتْنِي　　أخي النجداتِ والحِلْمِ الرَّصين
فَإِمَّا أَنْ تَكُونَ أَخِي بحَقٍّ　　فَأَعْرِفَ مِنْك غثي مِنْ سَمِينِى
وإلا فَاطرَحْنِي واتَّخِذْنِي　　عدوا أتقِيكَ وتَتَّقِينى

ثم انظر إلى هذين البيتين اللذين تنتهى عندهما القصيدة فى المفضليات فسترى فيهما صورة من أجمل الصور وأروعها لجهل الناس بما تضمر لهم الأقدار :

وما أدْرِى إذا يَمَّمْتُ أَمْرًا　　أُرِيدُ الْخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي
أَأَلْخَيْرُ الذى أَنَا أَبتَغِيهُ　　أَمِ الشرُّ الذِى هوَ يَبْتَغِينى

وانظر إلى هذا البيت الأخير خاصة كيف صور الشاعر فيه أجمل تصوير مكر الأقدار بالناس ، فهم يبتغون الخير حين يقصدون إلى أمر من الأمور ، ولكن الشر كامن لهم ، يرصدهم حيناً ، ويسعى إليهم حيناً آخر ، وهم لايدرون أينتهون إلى ما يريدون من خير أم يقعون فيما يريدهم من شر .

قال صاحبي : صدق أبو عمرو بن العلاء : لو كان الشعر كله كهذه القصيدة لوجب على الناس جميعاً أن يتعلموه ، ولو كان شعر القدماء كله كهذه القصيدة لما عدلت به شيئاً آخر .

قلت لصاحبي : ولشاعرنا فى رواية المفضل غير هذه القصيدة قصيدتان أخريان ، فأما أولاهما : فيمدح بها النعمان بن المنذر ، وهى متينة رصينة ، وقد تفيد المؤرخين ، فهى تصور خصومة كانت بين قبيلة الشاعر وبين الملك ،

فأدبها الملك تأديباً عنيفاً ، وأسر جمهرتها ، والشاعر يستعطفه ويطلب إليه المنّ على هؤلاء الأسرى .

وانظر من هذه القصيدة إلى هذه الأبيات :

فإنّ أبَا قابُوس عِنْدِى بَلاؤُهُ جَزَاءٌ بِنُعْمَى لايَحِل كُنودها
رَأَيْت زِنَادَ الصَّالحينَ يَمِينَهُ قَدِيماً كما بَذَّ النُّجُوم سُعودُهَا
ولوْ عَلِمَ اللهُ الجبَالَ عَصَيْنَه لَجاءَ بِأَمْرَاسِ الحِبَالِ يقودُهَا
فإنْ تَكُ منَّا فى عمَانَ قَبِيلَةٌ تواصَتْ بِإِجْنَابٍ وطالَ عُنُودُهَا
فقَدأَدْرَكتها المُدْرِكاتُفأَصْبَحَت إلى خَيْرِ مَن تَحتَ السماءِوفودُها .
إلى مَلِك بَذَّ الملوك فلمْ يَسَعْ أفاعِيلَهُ حَزمُ الملوك وفُودُهَا
وأَىُّ أُنَاسٍ لا أَبَاحَ بِغارة يُوَازِى كبَيْداتِ السَّماءِ عَمُودُهَا

وانظر إلى هذا البيت خاصة :

ولوْ علِمَ اللهُ الجبَالَ عصَيْنَهُ لجَاءَ بِأَمْرَاسِ الحبَالِ يَقودُها

فسترى فيه أصلا من أصول المبالغة التى يألفها الشعراء ، ويكرهها بعض النقاد ، ويحبها أرسطاطاليس :

وأما القصيدة الأخرى : فيمية مشهورة ، يكثر الناس روايتها أو رواية طائفة من أبياتها ، وأولها فى رواية المفضل :

لا تَقولَنَّ إذا ما لَمْ تُرِدْ أن تُتِمَّ الوَعْدَ فى شىءٍ نَعَمْ
حَسَنٌ قَوْلُ نَعَمْ مِنْ بَعْدِ لا وقبِيحٌ قَوْلُ لا بعْدَ نَعَمْ
إن لا بعْدَ نَعَمْ فاحِشَةٌ فبِلا فابدَأ إذا خِفْتَ النَّدَمْ
فَإِذَا قلتَ نَعمْ فاصْبِرْ لهَا بنَجَاحِ القَوْلِ إنَّ الْخلفَ ذمّ

قال صاحبي : ليت هذه الأبيات تروى للوزراء والكبراء وأصحاب الجاه كلما أصبحوا وكلما أمسوا ، لعلهم أن يجتنبوا التخلص بالوعد من إلحاح الملحين ،

وهم يأبون الوفاء ، أو يعجزون عنه . قلت : وليتك أنت تمّ القصيدة فما بقى منها أجمل وأجدى من هذه الأبيات التى تميل كل الميل إلى اعتقاد أنها مولدة مصنوعة لم تصدر عن شاعر قديم . قال صاحبي : سأتمّ القصيدة ، ولكن على أن نقرأ فى الأسبوع المقبل لشاعر مجهول كهذا الشاعر المجيد .

الغزلون[1]

قيس بن الملوّح ، أو مجنون بنى عامر ، أو مجنون ليلى

أعلم أنى مدين لك بطائفة من أحاديث الأربعاء شغلتنى عنها هذه الرحلة التى انصرفت إليها عن القراءة والكتابة ، بل عن التفكير حيناً طويلا ، ولكنى أعلم أنك تبيح لمن تكلف عناء القراءة والكتابة والتفكير سنة وبعض سنة فى غير راحة ولا ترفيه على النفس ، أن يستريح شهراً وبعض شهر ؛ وأنا مع ذلك مجتهد فى أن أعوّض عليك ما فقدت من هذه الأحاديث ، وأرجو أن أبلغ من ذلك ما تريد وما أريد . وأعلم أنى أغضبت طائفة من أدبائنا الذين أجلّهم وأكبرهم وأقدر رأيهم فى الأدب العربى حين كتبت عن بشار فلم أحبه ولم أمل إليه ، ووصمته بشىء من ثقل الروح ، ولؤم الطبع ، وشدة الغرور والافتتان بالنفس . أعلم ذلك ، وأرانى مع الأسف الشديد مضطراً إلى أن أغضب هؤلاء الأدباء مرة أخرى ، وأؤكد لهم أنى لا أتعمد ذلك ، ولا أرغب فيه ، وإنما يضطرنى إليه البحث اضطراراً ، وتكرهنى عليه مناهج النقد إكراهاً ، وما زلت منذ بدأت أحاديث الأربعاء أغضب طبقات من الناس حتى أصبحت لا أدرى أى الطبقات يرضى عما أكتب ويطمئن إليه ، أولئك يغضبون لأنى أصف العصر العباسى بالمجون والشدة ، وهؤلاء يغضبون لأنى أقدم أبا نواس والحسين بن الضحاك على بشار ، وسيغضب قوم آخرون لأنى سأنكر وجود طائفة من الشعراء ، أو سأجحد شخصيتهم ، وسأزعم أن هؤلاء الشعراء بين اثنتين : إما أن يكونوا أثراً من آثار الخيال قد اخترعهم اختراعاً ، وإما ألا تكون لهم شخصية بارزة ولا خطر عظيم ، وإنما عظّم الخيال أمرهم وأضاف إليهم ما لم يقولوا وما لم يعملوا ، واخترع حولهم من القصص ألواناً وأشكالا جعلت لهم فى الأدب العربى هذا الشأن العظيم الذى لا يكاد يقوم على شىء .

---

(١) نشرت بجريدة « السياسة » فى ٣ سبتمبر سنة ١٩٢٤ .

نعم . سأنكر طائفة من الشعراء ، أو سأنكر شخصيتهم ، وأنا أعلم أن فريقاً غير قليل من الذين يعنون بالأدب لا يحبون هذا النحو من البحث الذى ينتهى إلى الإنكار أو إلى الشك ، وإنما يريدون أن يكون البحث كله إثباتاً ويقيناً، وأن ينتهى البحث كله إلى إثبات ويقين . وليس الباحث الماهر عند هؤلاء أن ينتهى البحث به إلى إنكار المجنون أو الشك فيه ، فهذا البحث هادم للمجد العربى ، معتد على الأدب العربى ، وإنما الباحث الماهر حقاً عند هؤلاء هو الذى يسلك كل سبيل ، وينتهج كل طريق ، ويتكلف كل حيلة ، ليثبت وجود المجنون ، ويزيل أسباب الشك فيه ، ليضيف إلى المجد العربى مجداً ، وليثبت أن الأدب العربى يمتاز بالألوان الفنية التى لا تحصى .

إن أردت أن ترضى هؤلاء الناس فتملق حبهم للعرب وإسرافهم فى هذا الحب ، وأضف إلى العرب ما قالوا وما لم يقولوا ، وما عملوا وما لم يعملوا ، واجعل أمتهم أشرف الأمم ، ولغتهم أشرف اللغات ، وأدبهم أرقى الآداب ، لا تحسب فى ذلك حساباً ، ولا تنتهى فيه إلى مقدار ، ولا تعترف للأمم الحديثة بشىء إلا أن تكون قد ورثته عن العرب ونقلته عنها نقلا . اسلك فى الأدب لترضى هؤلاء الناس مسلك قوم فى السياسة ، واتخذ الحقائق الأدبية موضوعاً للتضليل كما يتخذون المنافع السياسية ، تفز بما شئت من تصفيق وإعجاب ، وبما أحببت من حمد وثناء ، ولكنك تسىء إلى العلم وتعتدى عليه ، فاختر بين رضا العلم ورضا الجماهير .

أما أنا فأعترف — لسوء الحظ أو لحسنه — أنى أوثر رضا العلم والضمير على رضا الناس وإعجابهم وتصفيقهم ، ولهذا أتقدم بهذه النظرية فى غير تلطف ولا احتيال ، فأزعم أن هذه الطائفة من الشعراء الذين أسميهم « الغزلين » لم يكن لهم فى تاريخ الأدب العربى من الشأن ما يظنه الناس إلى الآن ، وإنما هم فى حقيقة الأمر ينقسمون إلى قسمين متمايزين ، لى فى كل منهما رأى : الأول الشعراء « العذريون » لا لأنهم ينتسبون إلى « عذرة » بل لأنهم يتخذون هذا الغزل العذرى مذهباً فى الشعر ، ومنهم المجنون ، وقيس بن ذريح ، وعروة بن حزام ، وجميل بن معمر . والثانى « المحققون » وأريد بهم هؤلاء الشعراء الذين انقطعوا للغزل ، أو كادوا ينقطعون له ، ولكنهم لم يلتمسوا الحب فى السحاب ، ولم

يتخذوا العفة المطلقة مثلهم الأعلى . وإنما عبثوا ولهوا واستمتعوا بالحياة . وتغنوا هذا العبث واللهو وقصروا شعرهم عليهما ، أو جاوزوهما إلى فنون أخرى من الشعر ، ولكنهم لم يبلغوا منها ما بلغوا من الغزل ، وزعيم هؤلاء الشعراء عمر بن أبي ربيعة ، ومعه نفر آخرون قد أحدثك عنهم بعد أن أفرغ من العذريين .

لست أشك فى أن عمر بن أبي ربيعة شخص تاريخى ، وفى أن أكثر الشعر المنسوب إليه صحيح صدر عنه حقًّا ، وفى أن شخصيته كانت فى عصره كما نتمثلها نحن الآن ، أو على نحو ما نتمثلها الآن ، وكذلك قل فى « كُثَيِّر » وكذلك قل فى « عبيد الله بن قيس الرقيات » ، ولكنى أشك الشك كله فى أن يكون قيس بن الملوّح شخصاً تاريخيًّا وجد وعرفه الناس واستمعوا إليه . وفى أن يكون هذا الشعر المنسوب إليه صحيحاً قد صدر عنه حقًّا ، وأزعم أن قيس ابن الملوح خاصة إنما هو شخص من هؤلاء الأشخاص الخياليين الذين تخترعهم الشعوب لتمثيل فكرة خاصة ، أو نحو خاص من أنحاء الحياة ، بل ربما لم يكن قيس بن الملوّح شخصاً شعبيًّا « كجحا » وإنما كان شخصاً اخترعه نفر من الرواة ، وأصحاب القصص ليلهو به الناس أو ليرضوا به حاجة أدبية أو خلقية سنعرض لها بعد قليل .

وهنا أعتذر إلى الكاتب الأديب الذى خصص فى الشهر الماضى صحيفة من صحف « السياسة » لدرس المجنون وتحايل شعره والبحث عن عواطفه ، فأحسن البحث وأجاد التحليل ، أعتذر إليه — بعد الثناء عليه — من أن أقول إنه أجهد نفسه فى غير طائل ، ولو أنه سلك مسلكاً آخر فى البحث لأفاد وانتفع ، ولاستطاع أن يكتب صحيفة من صحف « السياسة » يقصرها على المجنون ويثبت فيها لا أن المجنون كان أرق الناس شعراً ، وأصدقهم حبًّا ، وأرقاهم عاطفة . بل إنه كان رمزاً لطائفة من الآراء ، وألوان من العواطف ، وفن من فنون الشعر والنثر ظهر فى العصر الأموى ، وكاد ينتهى إلى غايته لولا أن العصر العباسى أقبل بلهوه وشكه ومجونه فأفسد على الناس كل شىء .

وقبل أن نتعمق فى بسط هذا الرأى ، وإثباته نريد أن نريح الكاتب الأديب وأصحابه الذين يؤمنون بالمجون من هذه الخرافة ، ونبين لهم أن النقد الصحيح لا يستطيع أن يؤمن بوجود هذا الشاعر . وماذا تقول فى رجل لا يتفق الناس

على اسمه ، ولا على نسبه ، ولا على الخطوب التي امتلأت بها حياته ؟ وإنما يختلفون فى ذلك الاختلاف كله ! بل ماذا تقول فى رجل لا يتفق الرواة على أنه وجد ولا يروون ما يضاف إليه من الأخبار إلا متحفظين ؟ بل ماذا تقول فى رجل يريد أبو الفرج الأصبهانى أن يروى أخباره لأن شروط كتابه تضطره إلى ذلك ، فيعلن ويبالغ فى الإعلان أنه يخرج من عهدة هذه الأخبار ويتبرأ منها ، ويضيف هذه العهدة إلى الرواة الذين ينقل عنهم . وأنت تعلم أن رواة العرب — لا نتحدث الآن عن رواة السنة ، وإنما نذكر رواة القصص والسير — لم يكونوا يتشدّدون فى الاحتياط ولا يبالغون فى الحذر ، وكثيراً ما كانوا يروون غير الصحيح ويثبتون غير الحق ، فإذا كانوا على هذا الإهمال والضعف ينكرون وجود قيس بن الملوّح ، أو يشكون فيه ، أو لا يتفقون على اسمه وصفته وصروف حياته ، أفلا يكون من الحق علينا أن نتحفظ كما تحفظوا ، ونشك على نحو ما شكوا ؟ إذا لم يكن من الحق علينا أن نتخذ تحفظهم وشكهم دليلا على أن أخبار قيس بن الملوّح إنما هى نوع من الأساطير .

الرواة يختلفون فى وجود قيس ، فأما الثقات منهم فقد أنكروا وجوده ، أو تحفظوا فيه ، ولست أريد أن أطيل عليك فى هذا ، وإنما أحيلك إلى كتاب الأغانى فى جزئيه الأول والثانى لترى من ذلك ما يغنيك . ولقد بالغ بعض الرواة فى إنكار وجود قيس حتى زعموا أن بنى عامر أغلظ أكباداً من أن يعبث بهم الحب إلى هذا الحد ، وإنما ذلك شأن اليمانية الضعيفة قلوبهم ، السخيفة عقولهم ، أما النزارية فلا . وتحدّث راوية آخر أنه مرّ ببنى عامر بطناً بطناً وسألهم عن المجنون ، فأنكروه ولم يعرفوه ، وتحدّث راوية آخر أنه سأل أعرابيًّا من بنى عامر عن المجنون فذكر طائفة كثيرة من المجانين ، وروى لكل واحد منهم شعراً ، إلا قيس بن الملوّح فإنه أنكره ولم يعرفه .

ثم اختلف الرواة الذين آمنوا بوجود المجنون فى تسميته . فهو قيس عند بعضهم ، ومهدى عند بعضهم الآخر ، وهو الأقرع عند فريق ، والبحترى عند فريق آخر ، ثم اختلفوا فى نسبه واسم أبيه ، ثم اختلفوا فى أنه كان مجنوناً حقًّا ، فزعم ذلك منهم فريق ، وأنكره فريق آخر ، وقال الأصمعى لم يكن مجنوناً ، وإنما كانت به لوثة كلوثة أبى حَيَّةَ النُّميرىّ ، ثم اختلفوا فى السبب

الذى من أجله دعى المجنون ، فزعم بعضهم أنه كان مجنوناً حقًّا ، وزعم بعضهم الآخر أنه دعى المجنون لشعر قاله ، وفيه لفظ المجنون ، كما دعى النابغة بهذا الاسم لشعر قاله ، وكما دعى فريق من الشعراء بأسماء وردت فى أشعارهم ، ولم تكن أسماءهم ، ثم اختلفوا فى سبب جنونه : فزعم بعضهم أنه الحب ، وزعم بعضهم الآخر أن الله انتقم منه لأنه اعترض على قضائه فى قوله :

قَضَاها لِغيْرى وابْتلانى بحُبِّهاَ فهلا بشىء غيْرِ ليْلى ابتلانيا

وزعم قوم أن هذا البيت لم يجرّ عليه الجنون وإنما جرّ عليه البرص .

ثم أخذ الرواة يجتهدون فى تعليل هذه الأخبار التى تنسب إلى المجنون ، فرووا فى ذلك أحاديث مختلفة ، منها — وهو أهمها — ما ذكره ابن الكلبي من أن فتى من فتيان بنى أمية أحب فتاة من بنات أعمامه ، وقال فيها شعراً وكره أن يشتهر ذلك ، فاخترع شخص المجنون وصنع أخباره وأضاف إليه ما كان يقول من شعر .

وهناك قوم من الرواة لم تكن لهم صناعة إلا تلهية الناس والتسلية لهم. فكانوا يصنعون لذلك الأخبار والأشعار ويذيعونها فى البصرة والكوفة وبغداد من أمصار المسلمين ، وكانوا يفيدون بذلك مالا كثيراً ، بل هناك طائفة من ثقات الرواة ، أو من الذين نعدهم ثقات ، كانوا قد برعوا براعة لاحدّ لها فى انتحال الأشعار والأخبار ، وكان الناس قد آمنوا لهم ووثقوا بهم ، فكانوا يأخذون عنهم ما يروون على أنه حق لا شك فيه ، ولم يكن يشك فى روايتهم إلا نفر قليلون قد علموا علمهم وشاركوهم فيما كانوا فيه من عبث ولهو. ولست أذكر من هؤلاء الرواة إلا اثنين : أحدهما حماد الراوية ، والآخر خلف الأحمر . كلا هذين الرجلين أنحل العرب أخباراً وأشعاراً لا تحصى ، وكلاهما كان يتكلم العربية ويجيدها خيراً مما يتكلمها ويجيدها الأعراب ، وكلاهما كان متهماً فى دينه محبًّا للهو عاكفاً على العبث ، وكان من الشعراء المعاصرين لهما من يشاركهما فى اللهو والعبث والمجون ، فيضطلع بأسرارهما ويشك فى صدقهما ، ومن هنا كان كثير من الشعراء يلحّ على هذين الراويتين وأمثالهما فى أن يستشهدوا بشعرهم كما يستشهدون بشعر القدماء ، وكانوا يعلمون أن شعر القدماء هذا لم يكن من القدماء فى شىء ، وإنما كان يصنعه الرواة صنعة وينتحلونه انتحالا . وقل مثل ذلك فى الأنساب ، وقل مثل ذلك فى السير

وأخبار الفتوح والغزوات . وانظر إلى سيرة ابن هشام وإلى هذا الشعر الكثير الذى يروى فيها وصفاً للغزوات ، والذى يرويه ابن هشام حتى إذا فرغ منه أضاف إليه هذه الجملة « قال ابن هشام : وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرون هذه القصيدة » .

وجملة القول إن بين العرب والرومان من جهة ، وبين الفرس واليونان من جهة أخرى ، تشابهاً شديداً : انتصر العرب على الفرس انتصاراً عسكريًّا ، وانتصر الفرس على العرب انتصاراً أدبيًّا ، وكذلك انتصر الرومان على اليونان انتصاراً حربيًّا ، وانتصر اليونان على الرومان انتصاراً أدبيًّا . وكان مظهر هذا الانتصار الأدبى فى روما وفى بغداد واحداً ، وهو أن اليونان والفرس أخذوا الرومان والعرب بآدابهم وحضاراتهم ، ولم يكتفوا بذلك بل عبثوا بالآداب اللاتينية والعربية فأدخلوا فيها وأضافوا إليها ما لم يكن لها به عهد . وكذلك صنعوا بالأنساب ، وكذلك صنعوا بالتاريخ والسير . إذن فمن الحق علينا أن نشك فى أخبار هؤلاء الرواة حين يروونها واثقين ، وأن نبالغ فى الشك حين يروونها متحفظين ، وأن نشتدّ فى المبالغة حين نراهم يختلفون فيما بينهم اختلافهم فى أمر المجنون .

وطريقة أخرى نثبت بها هذا الرأى ؛ ولكنها طريقة فنية ليست من التاريخ فى شىء ، وهى طريقة أدبية خالصة نرجو أن يلتفت إليها القارئ وأن يجد فيها مقنعاً . نعتمد فى هذه الطريقة على شعر المجنون ، أو على الشعر الذى ينسب إلى المجنون ، فيثبت لنا الشعر نفسه إحدى اثنتين : إما أنه مصنوع متكلف قد اخترع اختراعاً ، فهو لا يعبر عن عاطفة صادقة ، ولا عن حب صحيح ، وإما أنه قد صدر عن أشخاص مختلفين ، ثم خلطه الرواة عمداً أو سهواً وأضافوه إلى شاعر واحد هو المجنون . ولعل الجاحظ لم يخطئ حين قال : ما ترك الناس شعراً فيه ليلى إلا نسبوه إلى قيس بن الملوّح ، ولا شعراً فيه لبنى إلا نسبوه إلى قيس بن ذريح . وفى الحق أن شعراً كثيراً ينسب إلى المجنون وليس من المجنون فى شىء ، وإنما قاله شعراء آخرون لم يكونوا مجانين ولم يعبث بهم الحب عبثه بهذا المجنون .

وإذا أردت أن تدرس شاعراً من الشعراء فعلى أى قاعدة تعتمد فى هذا الدرس ؟ على شخصية الشاعر قبل كل شىء . ذلك أن هذا الشاعر يجب أن

يتمثل فى شعره إلى حدما . فإذا كان شاعراً مجيداً حقّاً فشعره مرآة نفسه وعواطفه ومظهر شخصيته كلها ، بحيث تستطيع أن تقرأ قصائده المختلفة فتشعر فيها بروح واحد ونفس واحد وقوة واحدة . وقد يختلف هذا الشعر شدة وليناً ويتباين عنفاً ولطفاً ، ولكن شخصية الشاعر ظاهرة فيه محققة للوحدة الشاعرية التى تمكنك من أن تقول : هذا الشعر لفلان ، أو هو مصنوع على طريقة فلان . نظن أن هذه القاعدة لا تقبل الشك فى فنّ من فنون الأدب ، ولا سيما الشعر الغنائى الذى هو مرآة النفس ومظهر العاطفة . فهل نستطيع أن نجد للمجنون شخصية ظاهرة بينة فى هذه الأشعار الكثيرة المختلفة التى يرويها له أبو الفرج وغيره من الرواة ؟ أما أنا فأزعم أن ليس إلى ذلك من سبيل . ولا أطيل فى إثبات هذا الرأى ؛ وإنما ألخص لك خلاصة ما انتهيت إليه بعد البحث :

كل هذا الشعر الذى يضاف إلى المجنون لا يخلو من أن يكون شعراً قد قاله شاعر معروف وأخطأ الرواة فأضافوه إلى المجنون ، أو قاله شاعر مجهول ووجد الرواة فيه ليلى فأضافوه إلى المجنون ، أو انتحله الرواة أنفسهم ، أو انتحله المغنون وأصحاب الموسيقى وأضافوه إلى المجنون ، ولقد أجهدت نفسى فى البحث عن شخصية ظاهرة مشتركة تظهر فى هذا الشعر كله أو بعضه فلم أوفق من ذلك إلى شىء .

وطريقة أخرى نثبت بها رأينا فى وجود المجنون ، وهى اختلاف الرواة اختلافاً شديداً فى هذه الصلة التى وجدت بين قيس بن الملوّح وبين ليلى ، فنشأ عنها هذا الحب الذى ذهب بعقل قيس . يزعم قوم أنهما تعارفا طفلين وكانا يرعيان البهم فنشأت بينهما مودة استحالت مع السن حبّاً ، ثم شبت الفتاة فحجبت عن الفتى ، فأصابه ما أصابه . ويزعم قوم آخرون أنهما لم يتعارفا طفلين ، وإنما مرّ قيس ذات يوم بفتيات ، فسلم فرددن السلام ودعونه إلى الحديث . فنزل وتحدث وصنع صنيع امرئ القيس فعقر ناقته وأطعمهن ، ولكن فتى آخر أقبل مع المساء فتلاهين به عن قيس ؛ فانصرف قيس مغضباً وقال فى ذلك شعراً ، ثم أصبح فتعرّض لهن فلم يجدهن ، وإنما وجد ليلى ، فدعته إلى الحديث فنزل وتحدث وصنع كما صنع بالأمس ؛ وأظهرت ليلى إعراضها عنه فاغتم لذلك ، ورأت ليلى هذا منه فرفقت به ، وأعلنت إليه حبها فى شعر لم يسمعه حتى خرّ مغشياً عليه . وزعم آخرون أن قيساً كان زير نساء ، وأن ليلى كانت

أملح النساء قدًّا ، وأجملهن منظراً ، وأحسنهن حديثاً ، وأن فتيات الحيّ كن يختلفن إليها ويجاذبنها أطراف الحديث ، فسمع بها قيس فاختلف إلى مجلسها فكان الحب . ورووا غير ذلك من الروايات . ولكنى أكتفى بهذه الروايات الثلاث لأرى منها أن شخصية ليلى ليست أقلّ اختلافاً وتفاوتاً من شخصية قيس ، فهى فى إحدى الروايات راعية ، وهى فى رواية أخرى بلوية تتعرّض للشبان وتميل إلى حديثهم ، وهى فى الرواية الثالثة أديبة ذات مكانة وصوت يختلف إليها الفتيان كما كانوا يختلفون إلى مجالس النساء الأديبات فى الحواضر العربية . ألا ترى أن هذا الاختلاف وحده يكفى لحملك على الشك فى شخصية ليلى ، كما أن الاختلافات الأخرى تكفى لحملك على الشك فى شخصية قيس !

ثم لايقف الأمر عند هذا الحد ، وإنما هناك ألوان من السخف والتكلف تنتهى إلى هذا الرأى الذى أحاول إثباته . منها هذه الرواية التى تزعم لنا أن أبا ليلى كره تزويج ابنته من عاشقها لا لشىء إلا لأنه أحبها وذكر ذلك فى شعره ، فكره الرجل أن يفتضح وأن يفضح ابنته . ونلاحظ أننا نجد هذا المذهب فى أخبار طائفة من هؤلاء العشاق تختلف قبائلهم وأخبارهم وأوطانهم ، ويقول الرواة لنا إن هذه كانت خصلة من خصال العرب . ولست أدرى : أحق هذا ! ولكنى أرجح أن هذا مذهب اخترعه الرواة ليخلقوا منه أشخاص القصص الغرامية التى كانوا يضعونها لتلهية الجمهور وتسليته ، على نحو هذه المذاهب التى نجدها أحاديث العامة وأقاصيصهم . فقلما تقرأ أحدوثة من هذه الأحاديث أو طائفة من هذه الأحاديث إلارأيت فيها مذهباً معيناً منه اخترعت القصة . ولأضرب لك مثلا أمر الغول فى أحاديث هؤلاء الشبان الذين يرتحلون الرحلات الطويلة يسعون إلى أمر عظيم فلا يكادون يجاوزون أوطان الناس حتى تعترضهم غول ، أو وحش يشبه الغول ، وهلمّ جراً . . .

ومن ذلك ما يتحدث به الرواة من أن السلطان أهدر دم قيس إذا تعرّض لليلى بعد أن حجبت عنه ، وهذا مذهب نجده أيضاً فى أخبار قيس بن ذريح وغيره من هؤلاء العشاق . ويحق لنا أن نتساءل : أكان الخلفاء قد فرغوا من أعمالهم العامة المختلفة لهؤلاء العشاق يهدرون دمهم حيناً ، ثم يعصمونه حيناً آخر ؟ وعلى أى نحو من أنحاء الشرع كانوا يعتمدون فى إهدار هذه الدماء

لا لشيء إلا لأن رجلا أحب فى عفة ، وتغنى حبه فى عفة ؟ إنما هو مذهب فى القصص الغرامى كهذا المذهب الذى تقدم ، ومن ذلك ما يذكرون من توحش قيس ، وإمعانه فى التوحش ، حتى ألف الظباء وألفته الظباء فعايشهن وعايشنه ، واضطر مخترع هذه الأحدوثة إلى أن يحتال حتى يبلغ أراكة كان قيس قد أنس فيها إلى سرب من الظباء ؛ فلما بلغ هذه الأراكة على غير حس من قيس ، ولا من سربه ، احتال حتى ارتقى واختفى بين أغصانها ، ثم أخذ يحدث قيساً فنفرت الظباء ، وكاد ينفر قيس لولا أن محدثه ذكر اسم ليلى ، فأنس له قيس ومضى فى حديثه حتى سنحت له ظبية فتبعها . كل هذا من سخف الرواة ، ما نحسب أن له ظلا من الحق وإنما هو ضرب من المبالغة فى تأثير الحب ، كان الرواة يحتاجون إليه حين تفرغ أحاديثهم المعقولة ، وهو آية على أن المخترع ضعيف الحظ من القصص الغرامى يعييه المعقول فيلجأ إلى المحال .

وعلى هذا النحو من النقد استطاع مؤرخو الآداب اليونانية أن يفرقوا بين فصول « الإلياذة » وأناشيدها المختلفة ، فما كان منها محالا مفعماً بالمبالغات أضافوه إلى شاعر ضعيف قليل الحيلة ، وما كان منها معقولا ، أو كالمعقول لا يلتمس اللذة الفنية فى الإحالة والإغراق ، أضافوه إلى شاعر بارع واسع الحيلة .

أظن أن هذا كله يكفى للشك فى شخصية المجنون ، إن لم يكف لإنكار هذه الشخصية ، ولكن الشك والإنكار عقيمان بطبعهما ، وليس من الخير أن ينتهى عندهما الباحث إلا إذا اضطر إلى ذلك اضطراراً ، وبين أيدينا أخبار وأحاديث تصف عاشقاً آلمه العشق ، وأودى بعقله وحياته ، بل تصف عشاقاً مختلفين عبث بهم الحب هذا العبث ، وهذه الأخبار والأحاديث تشترك فى أشياء ، وتختلف فى أشياء ، تشترك مثلا فى أن الأشخاص جميعاً من أهل البادية ، وفى أن حبهم كان عفيفاً بريئاً ، وفى أنهم قد لقوا فى هذا الحب جهداً عظيماً ، وفى أنهم قد تغنوه فى الشعر الجيد ، وتتفق فى وصف هذا الحب وأساليبه ، والمصاعب التى قامت دونه ، وتدخل الخلفاء أو الولاة فيه إلى حد ما ، وتختلف فى أشخاص العشاق والعشيقات وقبائلهم وأساليبهم فى الحب والشعر وألوان الغناء الذى تكلفوه ، كما تختلف فى انتهائها ؛ فمنها ما ينتهى إلى شر ومنها ما ينتهى إلى خير . فلا بد من أن يكون هناك مصدر

لهذا الاتفاق ، ومصدر لهذا الاختلاف . ولا بدّ للباحث المحقق الذى ينتهى به البحث إلى إنكار قيس بن الملوّح والغض من شخصية قيس بن ذريح من أن يقيم مكان هؤلاء الأشخاص أشخاصاً آخرين أو أشياء أخرى . وإلا كان بحثه عقيماً وكانت نتائجه أثراً من آثار التحكم الذى لا خير فيه ، وأنا أريد ان أقيم مكان قيس بن الملوح ، وقيس بن ذريح ، وجميل بن معمر ، وعروة بن حزام : أشياء لا أشخاصاً ، أو بعبارة أدق : أريد أن أقيم مكانهم شيئاً واحداً هو فن القصص الغرامى الذى أعتقد أنه ظهر ، أو على أقل تقدير . قوى وعظم أمره أيام بنى أمية ، وأخذ ينظّم شيئاً فشيئاً حتى كاد يكون فنًّا مستقلا على نحو ما نرى من فنون القصص الغرامى فى الأدب الحديث . فليس يعنينى أن يكون شخص قيس بن الملوح تاريخيًّا ، أو غير تاريخى ، وإنما الذى يعنينى أن هناك قصة غرامية هى قصة قيس بن الملوّح ، وقصة غرامية أخرى هى قصة قيس بن ذريح ، وقصة غرامية ثالثة هى قصة جميل ابن معمر وهلم جرًّا . . .

أنا إذن بإزاء قصص غرامية اخترعها الخيال ، لا بإزاء عشاق . فإذا أردت أن أبحث ، فلست أبحث عن هؤلاء العشاق فهم لا يعنوننى ، وإنما أبحث عن واضع هذه القصة ، وقيمته ومقدرته فى الشعر والنثر ، أبحث عن هذا الفن الأدبى الذى لم يكن للعرب به عهد قبل الإسلام والحضارة الإسلامية ، والذى ظهر بعد الإسلام وحين أخذت الحضارة الإسلامية تزهر وتبسط سلطانها على العقول .

نعم ! أنا أعلم حق العلم أن هناك صعوبات كثيرة تحول بينى وبين إتقان هذا البحث . أول هذه الصعوبات أن هذه القصص الغرامية لا تنسب إلى كاتب بعينه ، ولا إلى كتاب معروفين : فلسنا ندرى من واضع قصة المجنون ، أو قصة قيس بن ذريح ، وإذن ، فقد نتكلف كثيراً من العناء فى البحث عن شخصية هؤلاء القصاص دون أن ننتهى إلى نتيجة ، وقد يكون كل ما ننتهى إليه أننا أنكرنا أشخاصاً معروفين دون أن نصل إلى أشخاص آخرين ، أنكرنا أشخاص الشعراء ، دون أن نصل إلى أشخاص القصاص . ومع ذلك فلم نتكلف البحث عن أشخاص القصاص إذا لم يكن إليهم سبيل ! أليس يكفينا أن نثبت ما بين هذه القصص من التفاوت والاختلاف ، وما يمتاز به بعضها من

بعض من الجودة والإتقان والمهارة القصصية والبراعة الشعرية ! أليس يكفينا أن نصل بوجه ما إلى تحديد هذا الفن الأدبى وتبيين صفاته الخاصة التى تميزه من غيره من الفنون ! ثم أليس يكفينا ما قد نوفق إليه من إظهار الأسباب الأدبية والخلقية والسياسية التى دعت إلى ظهور هذا الفن أيام بنى أمية ؛ ومن إظهار الأسباب الأخرى التى دعت إلى ذبوله . ثم إلى فنائه أيام بنى العباس ! ألسنا إن وفقنا إلى هذا كله أو بعضه ، نكون قد استكشفنا فى الأدب العربى فناً كان الناس يجهلونه ويغفلون عنه ؟ ثم ألسنا بالكشف عن هذا الفن ووصفه وإظهار خصاله ، أنفع للأدب العربى ومجد الأمة العربية من هؤلاء الذين يقصرون بحثهم على الأشخاص . ولا يتخذون لبحثهم غاية إلا تملق أنفسهم وتملق الجمهور ! نعتقد أن فى هذا النحو من البحث نفعاً عظيما ، ولهذا نريد أن نمضى فيه حتى نتمه فى الفصول الأخرى .

البوليجين ، فى ٢٠ أغسطس سنة ١٩٢٤

الغزل والغزلون[1]

نشأته وأسبابها — فن القصص الغرامى

لذيذة جداً قراءة الأغانى فى أرض ما أحسب أنه قرئ فيها قبل اليوم ، فى أقصى الغرب الفرنسى . نعم ! فقد اصطحبت معى هذا الكتاب ، وما قرأت فيه يوماً إلا ذكرت قصة ذلك الرجل القديم الذى كان كلما ارتحل اصطحب أجمالا تحمل له ما يحتاج إليه من الكتب فى رحلته ، فلما ظهر كتاب الأغانى استغنى عن تلك الأجمال وما كانت تحمل من أسفار ، واكتفى باصطحاب هذا الكتاب . أذكر هذه القصة كلما قرأت فى كتاب الأغانى ، وليس يعنينى أن تكون القصة صحيحة أو غير صحيحة ، ولكنى أؤكد أن فى هذا الكتاب ما يغنى عن الأجمال وعما يمكن أن تحمل من أسفار ، وإن من اليسير جداً أن يستغنى به الباحث عن كثير من كتب الأدب والتاريخ . ولكن شأن الأغانى فى هذه الأيام كشأن غيره من كتب الأدب والتاريخ التى تركها لنا القدماء ، فهو — كهذه الكتب — فى حاجة شديدة جداً إلى أن يقرأ ، وإلى أن يفهم ، وإلى أن يستخلص منه العلم على النحو الذى يلائم العقول فى هذا العصر الذى نعيش فيه . ولقد يكون من الحق أن كثيراً من الشبان والشيوخ فى مصر وفى غيرها من البلاد الشرقية يستطيعون أن يقرءوا هذا الكتاب وغيره من كتب الأدب والتاريخ دون أن يستفيدوا منها فائدة قيمة، بل ربما كانت قراءة هذه الكتب بعيدة كل البعد عن أن تنفعهم أو تجدى عليهم . ذلك أن اختلاف العصور شديد الأثر فى العقول وفى حاجاتها وفى استعدادها للفهم والدرس ، فقد كان القدماء يجدون فى أخبار أبى الفرج وفى أخبار الطبرى ما يكفيهم ويسد حاجتهم إلى الحفظ والرواية ، وكان ما كتب أبو الفرج والطبرى وغيرهما من الأدباء والمؤرخين ملائماً كل الملاءمة لعقول هؤلاء الناس الذين كانوا لا يبتغون من

---

(١) نشرت بجريدة السياسة فى ١٠ سبتمبر سنة ١٢٤ م .

الأدب مثلما نبتغى نحن الآن ، والذين كانوا يستطيعون أن يتركوا عقولهم ومنطقهم إذا عرضوا لقراءة مثل هذه الكتب ، وألا يعتمدوا على هذه العقول ولا على هذا المنطق إلا إذا عرضوا للفلسفة أو الكلام أو الفقه أو نحو ذلك من العلوم التى تحتاج إلى النظر وتدعو إلى الجدال . كانوا يعتمدون فى قراءة الأدب والتاريخ على الرواية من جهة ، وعلى الذوق من جهة أخرى ، وكانوا يرضون الرضا كله إذا رويت لهم الأخبار عن هؤلاء الثقات الذين اعتمد عليهم القدماء فى نقل السير والأخبار ، كما كانوا يرضون الرضا كله إذا وقعت إليهم القصيدة الجيدة أو المقطوعة المختارة فلاءمت أذواقهم ومثلهم الأعلى فى الفن .

أما نحن فأشدّ من هؤلاء القدماء طمعاً وأكثر منهم تحفظاً ، لا تكفينا أسماء الثقات من الرواة ، ولا يكفينا جمال القصيدة وجودة المقطوعة ، وإنما نريد أن نتخذ كل شىء موضوعاً للبحث والنقد والتحقيق والتحليل ، ولا نكاد نفرق فى ذلك بين الأدب والعلم . ونحن محقون ، لأننا لا نبتغى من الأدب والتاريخ رواية الأعاجيب والعظات ، ولا إرضاء الذوق والميل الفنى ، وإنما نتخذ الأدب والتاريخ مرآة للأمم ، وسبيلا إلى فهم حياتها العقلية والشعرية ، وإلى فهم ما خضعت له من ألوان النظم المختلفة . وإذن فنحن أشد طمعاً من القدماء ، وأكثر منهم حرصاً على التحقيق وميلا إلى التحليل ، وإذن فليس يكفينا أن نقرأ الأغانى ، وتاريخ الطبرى ، وإنما نريد أن نفهم هذين الكتابين وأمثالهما على الوجه الذى يلائم طريقتنا فى الفهم ، ومنهجنا فى الدرس والتحليل ، ومن هنا لا يجد القرّاء جميعاً لذة ولا مقنعاً فى قراءة كتب القدماء ، لأنهم جميعاً لا يملكون مناهج البحث القيم عن آثار القدماء ، ومن هنا كان من الحق أن نقول : إن كتاب الأغانى وتاريخ الطبرى ، وأمثالهما ليست كتب أدب وتاريخ ، وإنما هى مصادر للأدب والتاريخ . ومن هنا نستطيع أن نقول : إن اللغة العربية تخلو إلى اليوم ، وستخلو ، من كتب الأدب والتاريخ إلى أن يتيح لها الله كتباً فى هذين الفنين تلائم عقولنا الحديثة ، وتحقق أطماعنا الحديثة ، وترضى حاجاتنا العلمية والفنية .

ولكن مالى ولهذا النحو من الكلام ، وأنا إنما ابتدأت هذا الفصل لأتحدث إليك عن الغزليين وأخبارهم ، أو لأتحدث إليك عن القصص الغرامى أيام بنى

أمية ! وكيف استبحت لنفسى أن أجاوز هذا الموضوع المحدّد إلى هذا النحو من نقد كتب القدماء والحكم عليها أو لها ! ذلك أنى أريد أن أنتقل من هذا النقد إلى تفسير هذه المواقف المختلفة التى أقفها من كتب القدماء ، وآداب القدماء ، وأحكام القدماء ، والتى يدهش لها كثير من المعاصرين ، ويسخط عليها كثير من المتعصبين ، فأنا لا أفهم الأدب العربى كما كان يفهمه القدماء وكما لا يزال يفهمه أنصار القديم من أدباء اليوم ، وأنا لا أحكم على الظواهر الأدبية كما كان يحكم عليها القدماء ، وكما لا يزال يحكم عليها شيوخ الأدب فى أيامنا ، وإنما أفهم الأدب العربى وأحكم على ظواهره كما ينبغى أن يفهمه ويحكم على ظواهره رجل يعيش فى القرن العشرين ، ويفهم كما يفهم أهل هذا القرن ، ويطمع فى مثل ما يطمع فيه أهل هذا القرن ، ويرى كيف يفهم الأوربيون أدب اليونان والرومان وغيرهم من الأمم القديمة ، وهو لا يقلدهم تقليداً ، ولا يتكلف محاكاتهم ؛ وإنما كذلك فطر ، وعلى هذا النحو وحده يستطيع أن يفهم ، فليس عليه لوم ولا جناح ، إذا لم يستطع أن يأخذ روايات القدماء كلها على أنها نقد رائج كما يقول الفرنسيون ، ولا أن يصدّق هذه الروايات ، لا لشىء إلا لأن الثقات قد رووها ، فهو يعتقد أن هؤلاء الثقات قد يخطئون فى الرواية ، وقد يخطئون فى الفهم ، وقد يكون من الحق أنهم عاشوا فى عصرهم دون أن يفهموه ، كما يعيش كثير منا فى عصرنا دون أن يفهموه . وإذن فمن حقى عليك ألا تسرف فى لومى إذا رأيتنى أنكر ما يروى من أخبار المجنون ، وقيس بن ذريح وجميل وغيرهم من الغزلين ، بل الحق عليك أن تمضى معى فى هذا السبيل التى أنتهجها ، والتى ينبغى أن تكون سبيلك إذا أردت أن تعيش فى عصرك حتى ننتهى معاً إلى أقصاها ، فإما أن نتفق ، وإذن فهو الخير ، وإما أن نفترق وإذن فلا بأس عليك ولا علىّ .

فأنا إذن أرى فى العصر الأموى رأياً يخالف آراء الناس ، كما رأيت فى العصر العباسى رأياً خالف آراء الناس ، أرى أن الرواة والأدباء لم يفهموا عصر بنى أمية على وجهه ، وإنما تورّطوا بالقياس إليه فى ألوان من الخطأ مصدرها فى أكثر الأحيان أنهم لم يحكموا العقل والنقد ، وإنما اكتفوا بالذوق وعدالة الرواة ، ولست أريد أن أجاوز موضوع البحث إلى أكثر من هذا الحدّ . فلنعد إذن

إلى حيث ابتدأنا من أمر الغزلين .

أذكر أنى عرضت فى السنة الماضية للغزل أيام بنى أمية فقسمته ثلاثة آقسام مختلفة : الأول غزل العذريين الذين كانوا يتغنون فى شعرهم هذا الحب الأفلاطونى العنيف ، كجميل وعروة وقيس بن ذريح والمجنون . والثانى غزل الإباحيين الذين أسميهم « المحققين » وهم الذين كانوا يتغنون الحب ولذاته العملية كما يفهمها الناس جميعاً ، وزعيم هؤلاء عمر بن أبى ربيعة . والثالث الغزل العادى الذى ليس هو فى حقيقة الأمر إلا استمراراً للغزل القديم المألوف أيام الجاهليين ، أريد به الغزل الذى لا يقصد لذاته كما يقول أصحاب المنطق ، وإنما يتخذ وسيلة إلى غيره من فنون الشعر ؛ إلى المدح والهجاء والوصف ونحوها ، أريد به هذا الغزل الذى كان الجاهليون يبتدئون به قصائدهم والذى ظـل الإسلاميون يبتدئون به قصائدهم إلى اليوم ، وهو الغزل الذى تجده فى شعر جرير والفرزدق والراعى وغيلان وغيرهم من شعراء هذا العصر : وما أزال أحتفظ بهذا التقسيم دون أن أغير منه شيئاً ، ولكنى لست فى حاجة اليوم لأعرض لهذا الغزل العادىّ الموروث ، فقد يكون خضع للتطوّر فى العصر الإسلامى كما خضع للتطوّر غيره من فنون الشعر ، وقد نعرض لهذا فى يوم من الأيام . وإنما أعنى عناية خاصة بالقسمين الأولين : غزل « العذريين » من جهة ، وغزل « المحققين » من جهة أخرى ، وأحاول أن ألتمس الأسباب المختلفة التى أنشأت هذين الفنين فى أيام بنى أمية ، فألاحظ شيئاً أحب أن يلتفت إليه القرّاء ، وهو أنا لا نجد هذين النوعين من الغزل فى الشام ، ولا فى العراق ، ولا فى مصر ، وإنما نجدهما فى الحجاز ، وما يليه من البلاد العربية الخالصة . أما الشام والعراق ، وهما الإقليمان اللذان كانا مجتمع الحياة السياسية الأموية ؛ إذ كانت الشام مستقر الخلافة ، وكان العراق مستقر المعارضة . أقول : أما الشام والعراق فلا نجد فيهما إلا نوعين من الشعر : أحدهما الشعر العادى من مدح وهجاء ووصف . والثانى الشعر السياسى الذى كانت تتناضل فيه الأحزاب . وإذن فما تفسير هذه الظاهرة ؟ وما بالنا لا نجد الغزل بقسميه إلا فى الحجاز ، وما يليه من البادية ؟

ثم هناك ملاحظة أخرى أحب أن يلتفت إليها القرّاء أيضاً . وهى أن

هذين القسمين من الغزل كانا متقاربين لا متجاورين ، أريد أن العذريين والإباحيين كانوا جميعاً فى الحجاز وما يليه ، ولكنهم لم يكونوا يعيشون فى بيئة واحدة ، وإنما كان فريق منهم يتحضر ، وفريق منهم يبدو . فأما المحققون أو الإباحيون ، فكانوا يتحضرون ، يعيشون فى مكة والمدينة ، وأما العذريون فكانوا يبدون فى بادية الحجاز أو نجد . وفى الحق أن عمر بن أبى ربيعة كان مكياً قضى حياته كلها فى مكة ، وأن الأحوص بن محمد كان مدنياً قضى حياته فى المدينة ، وفى الحق أيضاً أن جميلا كان بدوياً فى وادى القرى ، وأن قيس ابن ذريح كان بدوياً يعيش فى بادية المدينة ، وأن المجنون — إن صحت أخباره — كان نجدياً يعيش فى بادية نجد ، وإذن فالغزل بقسميه عربى خالص ، ولست أريد بهذا اللفظ معناه العام ، وإنما أريد معناه الجغرافى ، أى أن هذا الغزل بقسميه قد نشأ فى جزيرة العرب خاصة . فأما عفيفه فكان فى البادية ، وأما القسم الآخر ، فكان فى الحاضرة .

وملاحظة أخرى أحب أن يلتفت إليها القرّاء أيضاً ، وهى أنا إذا درسنا أخبار الغزلين المحققين أو الإباحيين ، رأيناهم كلهم أو أكثرهم من أبناء المهاجرين والأنصار ، أو من المتصلين اتصالا قوياً بأبناء المهاجرين والأنصار ، وإذا درسنا أخبار العذريين رأيناهم من قبائل أعرابية ليس لها شأن عظيم فى الإسلام ، وإنما هى محتفظة احتفاظاً شديداً ببداوتها القديمة ، وعاداتها الجاهلية الموروثة . أفلا نستطيع أن نستخلص من هذه الملاحظات كلها شيئاً ؟ بلى . ولكنى أريد أن أضيف إليها قبل الاستنتاج ملاحظة أخرى ، وهى أنا نجد فى الحجاز ، وفى مكة والمدينة خاصة فناً آخر نشأ مع هذا الغزل الإباحى ، وهو فن الغناء . ولست فى حاجة إلى أن أثبت لك أن الغناء نشأ فى الحجاز ، وأنه أزهر فى مكة والمدينة ، وأنه لم يكن فى دمشق إلا غريباً ، كان يرتحل إليها من الحجاز حين كان يطلبه الخلفاء . فماذا نستطيع أن نستنتج من هذا كله ؟ نستطيع أن نستنبط أن بلاد العرب — بعد أن تم الفتح للمسلمين ، وبعد أن جاهدت فى الاحتفاظ بالسلطان السياسى ، وأخفقت فى الجهاد إخفاقاً شنيعاً ، وانتقل مركز الحكم منها إلى الشام ، كما انتقل مركز المعارضة منها إلى العراق — انصرفت أو كادت تنصرف عن الاشتراك فى الحياة العامة ، وفرغت للحياة

الخاصة ، فانكبت على نفسها وأحست شيئاً من اليأس والحزن غير قليل ، فهى كانت مهد الإسلام ومصدر قوته ، ومنها انبعثت الجيوش الفاتحة التى أخضعت الأرض ، وأزالت الدول ، وفيها نشأت الخلافة ، ومنها امتد سلطان الخلافة على الأرض ، ثم هى ترى نفسها جردت من كل شىء ، فانتقلت عاصمة الخلافة إلى الشام ، وانتقل جهاد الأحزاب السياسية إلى العراق ، وأساء خلفاء الشام ظنهم ببلاد العرب ، فعاملوها معاملة شديدة قاسية ، وأخذوها بألوان من الحكم لا تخلو من العنف .

ثم لم تكن هذه البلاد العربية خاضعة لليأس وحده ؛ وإنما كانت خاضعة أيضاً لشىء آخر يناقض اليأس أشد المناقضة ، أو قل يلائم اليأس أشدّ الملاءمة ، أريد به الثراء ووفرة المال ؛ فقد كان أبناء المهاجرين والأنصار فى مكة والمدينة مثرين ، وكانت أيديهم ممتلئة بما ورثوا من هذا الفىء الذى أفاءه الله على آبائهم أيام الفتح ، ثم كانوا يحتفظون بمكانتهم ، ويمثلون الأرستقراطية العربية ، ثم كان الخلفاء يصانعونهم وإن كانوا يعاملونهم معاملة قاسية ، كانوا يكرمونهم إكراماً ماديًّا : كانوا يدرّون عليهم الأموال ، ويوسعون عليهم فى العطاء مراعاة لمكانتهم واصطناعاً لهم ، وكانوا فى الوقت نفسه يمسكونهم بمعزل عن الحياة السياسية العملية . وإذا اجتمع اليأس من الحياة العملية إلى الثروة والغنى ، فماذا عسى أن ينتجا ؟ اللهو والإسراف فيه والعكوف عليه ، وكذلك أنتج اليأس والثروة فى مكة والمدينة ؛ فلها هؤلاء الشبان الأشراف الأغنياء اليائسون ، وأسرفوا فى اللهو ، وتعزّوا به عن هذه الخيبة التى أصابتهم فى الحياة العامة . ومن هنا نشأ عمر ابن أبى ربيعة وأمثاله فى مكة ، ونشأ الأحوص بن محمد وأمثاله فى المدينة، ونشأت حولهم هذه الطوائف من المغنين وأهل المزاح .

وإلى جانب اليأس والثروة وآثارهما فى مكة والمدينة ، نستطيع أن نضيف مؤثراً آخر عمل فى بادية الحجاز وما يليها من البلاد العربية . ونحن قبل أن نذكر هذا المؤثر نعلن أنه فى حاجة شديدة إلى الدرس، وأنه قد أظهر آثاره فى مظاهر مختلفة ، وأنه قد يجد صعوبة شديدة من شيوخ الأدب فى هذه الأيام . وما نحسب أنهم يقرون رأينا فيه ؛ ولكنه مع ذلك حق لا سبيل إلى الشك فيه ، وهو نتيجة اليأس مع الفقر ، نريد به الزهد وشيئاً يشبه التصوف .

كان أهل مكة والمدينة يائسين ، ولكنهم كانوا أغنياء فلهوا كما يلهو كل يائس . وكان أهل البادية الحجازية يائسين ، ولكنهم كانوا فقراء فلم يتح لهم اللهو ، وقد حيل بينهم وبين حياتهم الجاهلية ، وقد تأثروا بالإسلام ، وبالقرآن خاصة ، فنشأ فى نفوسهم شىء من التقوى ليس بالحضرىّ الخالص ، وليس بالبدوى الخالص ، ولكن فيه سذاجة بدوية ، وفيه رقة إسلامية ، وانصرف هؤلاء الناس عن حروبهم وأسباب لهوهم الجاهلى ، كما انصرفوا عن الحياة العملية فى الإسلام إلى أنفسهم ، فانكبوا عليها واستخلصوا منها نغمة لا تخلو من حزن ولكنها نغمة زهد وتصوّف . وأنا أعلم أن لفظ التصوّف هنا لا يؤدى معناه الذى أريده ، فقل إنهم انصرفوا إلى شىء من المثل الأعلى فى الحياة الخلقية . وظهر هذا الزهد أو هذا الميل إلى المثل الأعلى فى مظهرين مختلفين اختلافاً شديداً : أحدهما الزهد الدينى الخالص الذى قد تجد له صدى فى أشعار هؤلاء الخوارج الذين كانوا يتركون هذه البوادى لينضموا إلى جيوش الخوارج فى بلاد الفرس ، والذين يظهر فى شعرهم شىء من الزهد والتقوى وشدّة الإيمان وسذاجته لا نجده فى شعر غيرهم من الشعراء . والآخر هذا الغزل العفيف الذى هو فى حقيقة الأمر مرآة صادقة لطموح هذه البادية إلى المثل الأعلى فى الحب من جهة ، ولبراءتها من ألوان الفساد التى كانت تغمر أهل مكة والمدينة من جهة أخرى . وإذن فهذان القسمان من الغزل أثر من آثار الحياة السياسية فى أيام بنى أمية . اضطرت هذه الحياة السياسية أهل الحجاز إلى الابتعاد عن العمل وأوقعت فى قلوبهم اليأس ، ولكنها أغنت قوماً فلهوا وفسقوا ، وأفقرت قوماً آخرين فزهدوا وعفُّوا وطمحوا إلى المثل الأعلى . كذلك أفسر ظهور هذين الفنين من الغزل .

ثم لا ينبغى أن أنسى مؤثراً آخر أثر فى هذين الفنين تأثيراً عظيماً ، وهو الغناء . فليس من شك فى أن المغنين كانوا يتخذون أشعار الإباحيين من أهل مكة والمدينة ، والعذريين من أهل البادية ، موضوعاً للحن والغناء . ولكن هذه الأشعار التى كانت تصدر صدوراً طبيعيًّا عن الفريقين كانت بطبيعتها أقلّ من أن تكفى حاجة المغنين وهذه الألوان المختلفة التى كانوا يتخذونها من اللحن والغناء . وإذن فقد كان هؤلاء المغنون أنفسهم يصطنعون ضروباً من الشعر الإباحى والعذرى يغنون فيها . وربما كان هناك شعراء يصنعون لهم هذه الضروب من الشعر ويضيفونها

إلى أهل البادية حيناً وإلى أهل الحاضرة حيناً آخر . ومن هنا تجد فى هذه الأشعار التى تضاف إلى الفريقين من الغزلين ألواناً مختلفة من الشعر ، منها ما لا تشك فى أنه فطرى قد صدر عن الطبيعة دون تكلف ولا تصنع ؛ لأنه يصف عاطفة قوية أو يمثل شعوراً حاداً أو يحتفظ ببداوة لا تحتمل الشك . ومنها ما تظهر فيه الصنعة ويلمس فيه التكلف لمساً ، وتشعر حين تقرؤه أو تسمعه أنه قد عمل ليغنى فيه لا ليصف عاطفة ولا ليمثل شعوراً .

نحسب أنا قد وصفنا مع ما تحتمله صحيفة سيارة من الوضوح نشأة النسيب أيام بنى أمية والأسباب التى دعت إليها . وقد أطلنا فى هذا وتعمدنا الإطالة ؛ لأنه سيعيننا على فهم الموضوع الذى ندرسه ، وهو القصص الغرامى أيام بنى أمية .

نعتقد — ونرجو ألا يغضب المحافظون من الأدباء — أن القصص الغرامى أثر من آثار الغزل بقسميه ، لا أن الغزل أثر من آثار هذا القصص . نعتقد أن الشعراء من أهل البادية والحاضرة فى البلاد العربية تأثروا بكل هذه المؤثرات التى ذكرناها ، فقالوا ما قالوا من الشعر العفيف وغير العفيف وغنى فيه المغنون ، ثم كثر هذا الشعر واحتاج الناس إلى تفسيره ووصل بعضه ببعض ؛ فنشأت لإرضاء هذه الحاجة هذه الأقاصيص الغرامية التى يمتلئ بها كتاب الأغانى وغيره من كتب الأدب . وقد يميل الباحث إلى أن يفترض عكس ما قدمنا فيقدر أن هذه الأقاصيص أنشئت بادئ بدء لتلهية الناس وتسليتهم ، وأن القصاص نحلوا هذا الشعر الغرامى على اختلاف ألوانه تحلية لقصصهم ومبالغة فى تعظيم شأنها . ولكن هذا الافتراض بعيد عن أن يلائم الحق ؛ فهو يستلزم أن يكون كل شىء فى هذه القصص وفى هذا الشعر متكلفاً مصنوعاً . وقد قدمنا أن هذا الشعر ظاهرة طبيعية فى البلاد العربية . والأشبه هو ما ذهبنا إليه من نشأة الغزل بقسميه أولا ، ثم نشأة القصص حول هذا الغزل ثانياً .

على أننا لا ننكر أن كثيراً من هذا الشعر قد نحله القصاص وتكلفوه تحلية لقصصهم وتزييناً لها ، وتعليلا لما ورد فيها من الأخبار . ويكفى أن تقرأ أخبار هؤلاء الشعراء فى الأغانى وغيره لتتبين من هذا الشعر شيئاً كثيراً .

وخلاصة القول فى هذا الموضوع أنا لا نشك فى أن شعراء من أهل البادية والحاضرة فى الحجاز قد انقطعوا لهذين النوعين من الغزل فأجادوهما وأكثروا

منهما ، ثم نشأت حول أشعارهم قصص ليس لها غرض إلا تفسير هذه الأشعار ووصلها واتخاذها وسيلة إلى تسلية الناس . وإذن فلسنا ننكر وجود جميل ، بل لسنا ننكر أنه أحب بثينة . ولسنا ننكر وجود قيس بن ذريح ، بل لسنا ننكر أنه تغزل فى لبنى . ولكنا نزعم أن هذه الأخبار التى تروى عن حب جميل وقيس لبثينة ولبنى مصنوعة متكلفة فى أكثر الأحيان ، وأن تكلفها أحدث إلى جانب هذين الفنين الشعريين اللذين ذكرناهما فنًّا نثريًّا جديداً هو فن القصص الغرامى .

والآن يحسن أن نتخذ هذه القصص أنفسها موضوعاً للبحث فى فصل نقارن فيه بينها ، ونبين ما لها من مزايا ، وما لها من عيوب ؛ حتى إذا فرغنا من ذلك عمدنا إلى الشعر الغزلى نفسه فاتخذناه موضوعاً للبحث . وسيكون هذا كله موضوع الأحاديث المقبلة .

البوليجين ، فى ٢٦ أغسطس سنة ١٩٢٤

الغزلون وأخبارهم (١)

تحدّث الأصمعىّ قال : «سألت أعرابيًّا من بنى عامر بن صعصعة عن المجنون العامرى فقال : عن أيهم تسألنى ؟ فقد كان فينا جماعة رموا بالجنون . فعن أيهم تسأل ؟ فقلت : عن الذى يشبب بليلى ؛ فقال : كلهم كان يشبب بليلىَ . قلت : فأنشدنى لبعضهم ؛ فأنشدنى لمزاحم بن الحارث المجنون :

أَلا أَيُّها الْقَلْبُ ٱلَّذِى لَجّ هَائِماً ولِيداً بِلَيْلَى لَمْ تُقَطَّعْ تَمائمه
أَفِقْ قَدْ أَفاق الْعَاشِقُونَ وَقدْ أَنَى لَكَ الْيَوْمَ أَنْ تَلْقَى طَبيباً تلائمهُ
أَجِدَّكَ لا تنسيكَ لَيْلى مُلِمَّةٌ تلِمُّ ولا عهْدٌ يَطول تَقَادُمهُ

قلت : فأنشدنى لغيره منهم ؛ فأنشدنى لمعاذ بن كليب المجنون :

أَلا طالما لاعَبْت لَيْلى وقادَنى إلى اللَّهْو قَلْبٌ لِلحِسان تَبُوعُ
وطالَ ٱمْتِرَاءُ الشَّوْقِ عَنِّىَ كُلَّمَا نَزَفْتُ دموعاً تَسْتَجِدُّ دُمُوعُ
فَقَدْ طالَ إِمْساكِى عَلَى الْكَبِدِ التى بِها مِنْ هَوَى لَيْلَى الْغداةَ صُدوعُ

قلت : فأنشدنى لغير هذين ممن ذكرت ؛ فأنشدنى لمهدىّ بن الملوح :

لوْ أن لَكَ ٱلدنْيَا وما عُدِلَتْ بهِ سوَاها ولَيْلى حائِلٌ عَنْكَ بيْنُهَا
لَكُنْتَ إِلى لَيْلَى فقِيراً وإِنما يَقُودُ إليها وُدُّ نَفْسِكَ حَيْنُها

قلت له : فأنشدنى لمن بقى من هؤلاء . فقال ؛ حسبك ! فو الله إن فى واحد من هؤلاء لمن يوزن بعقلائكم اليوم .

ولو سأل الأصمعى أعرابيًّا آخر غير هذا الأعرابىّ من قبيلة أخرى غير قبيلة بنى عامر عن شاعر من شعراء قومه نسب بليلى أو بثينة أو بلبنى أو بعزّة

(١) نشرت بجريدة « السياسة » فى ١٧ سبتمبر سنة ١٩٢٤ م .

أو بريًّا ، لأجابه الأعرابيّ هذا الجواب أو شيئاً يشبهه ، ولأنشده شعراً كثيراً لشعراء كثيرين كلهم ينسب بفتاة من فتيات قومه وجدت حقًّا أو اخترعها خياله اختراعاً .

ذلك أن الأمر كما قلت لك فى الفصلين الماضيين ، من أن عصراً قد مرّ على الحجازية : بدوهم وحضرهم ، تأثروا فيه بتلك المؤثرات التى فصلتها ، فظهر فيهم الغزل بقسميه : العفيف وغير العفيف . ومهما يقل القائلون فلن يستطيعوا أن يغيروا رأيى فى هذا الأمر ، وهو أن الكثرة من هؤلاء الشعراء ، ومن الفتيات اللاتى كانوا يتغزلون بهنّ ، إنما هم جميعاً رموز لا حقائق ، فقيس بن الملوّح أو المجنون مثل من أمثلة هؤلاء الشعراء الذين كانوا يتغزلون : لأن المؤثرات مختلفة عبثت بنفوسهم وعواطفهم فأحدثت فيها شيئاً من الرقة واللين لم يكن مألوفاً ، وأحست هذه النفوس حاجتها إلى الحب ، وإلى تغنى الحب فنطقت بهذا الشعر العذب الذى نسميه النسيب .

ولست أدرى أوُجدت ليلى العامرية حقًّا أم لم توجد ؟ ولكنى أعلم أن ليلى عند العرب فى ذلك العصر كانت شيئاً يشبه « هيلانة » عند اليونان فى عصر الأبطال ، وكذلك قل فى لبنى وبثينة وعزة ورياًّ وغيرهنّ من النساء اللاتى ألهمن هؤلاء الشعراء المجهولين غزلهم ونسيبهم ، على أنى مضطر أن ألاحظ حقيقتين متناقضتين ولكن فهمهما يسير :

(الأولى) أن هذا الشعر العذرى الذى وصفت لك أسباب ظهوره فى العصر الأمويّ جيد فى جملته حقًّا يمتاز بخصلتين : إحداهما البداوة التى تكسب لفظه رصانة فى غير عنف ولا جفوة ، وتكسب معناه سذاجة فى غير سخف ولا إسفاف . والثانية الصدق فى وصف العاطفة وتمثيلها ، بحيث لا تكاد تقرأ هذا الشعر حتى تتأثر به ، وتقطع بأن قائله لم يكن متكلفاً ولا منتحلا ، وإنما كان رجلا يألم حقًّا ويصف ألمه وصفاً صادقاً . أو قل : كان رجلا يألم وكان ألمه يصف نفسه . وانظر إلى هذه الأبيات :

ولَمْ أَرَ لَيْلَى بَعْدَ موْقِفِ ساعَةٍ	ببَطْنِ مِنًى ترْمى جِمارَ الْمُحَصبِ
ويُبْدِى الْحَصَى مِنْها إذا قَذَفَتْ بِهِ	مِنَ الْبُرْدِ أَطْرَافَ الْبَنَانِ الْمُخَضَّبِ
فَأَصْبحْتُ من لَيلَى الْغَدَاةَ كَناظِرٍ	معَ الصبحِ فى أَعْقَابِ نجمٍ مُغَرِّبِ

ألا إنما غادَرْتِ يا أُمَّ مالك صدًى أيْنما تذهَبْ بِهِ الرِّيحُ يَذْهَبِ

وحدّثني ، أتجد في هذا الشعر لفظاً حوشياً أو مبتذلا ؟ أتجد فيه معنى جافًا أو سخيفاً ؟ ألست تحسّ في لفظه جلالا ، وفي معناه رقة وليناً ، وفي روحه ألماً ولوعة ؟ انظر إلى هذا الشاعر كان يحج ، وما أحسب أنه كان يعرف ليلى هذه أو يتعشقها من قبل ، ولكنه ذهب يؤدى الفريضة الدينية وفي نفسه ما تعلم مما وصفت لك من هذا الشوق إلى الجمال ، والطموح إلى المثل الأعلى ، والميل الذى أسميه تصوفاً ، لأنى لا أجد لفظاً آخر أطلقه عليه .

ذهب هذا الشاعر إلى الحج ، وكان المجتمع بمنى ، فرأى فيمن رأى هذه المرأة الجميلة التى خلبته ، وصادفت هوى نفسه إلى الجمال وطموحها إلى الأنس ، ولكنه لم يستطع أن يدنو منها ، ولا أن يتحدّث إليها ، ولا أن يتبين من أمرها شيئاً . ثم انصرف الناس فلم يبق فى نفسه من هذه المرأة ، أو قل من هذا الأمل القويّ الذى هزّ نفسه ، إلا ذكرى أعقبته يأساً ولوعة ، وردّته إلى ما كان فيه قبل أن يراها من غلة يتحرّق لها دون أن يستطيع لها شفاء . أليس هذا هو الذى تحسه فى هذا الشعر ؟ ألست تعجب معى بهذا القصد فى اللفظ والمعنى ؟ لم ير ليلى بعد موقف ساعة بمنى حين كانت ترمى الجمار ، أو حين كانت حركاتها الحلوة الرقيقة المحتشمة تعبث بنفسه ، حين كان رميها الجمار يظهر أطراف أصابعها الحسان ، وقد طمع فى هذه المرأة وطمحت نفسه إليها ، ولكنها فاتته فليس له فيها أمل ، فهو ينظر إليها كما ينظر إلى النجم يهوى آخر الليل وليس من سبيل إلى إدراكه ، وقد وقع من نفسه اليأس موقعاً شديداً فسلبها قوتها وثباتها وقدرتها على المقاومة ، فهى أداة تعبث بها الأهواء ، وتتنازعها العواطف والميول :

ألا إنما غادَرْتِ يا أُمَّ مالكٍ صَدًى أيْنَما تَذْهبْ بِهِ الرِّيحُ يذْهَبِ

وانظر معى إلى هذه الأبيات :

وخَبَّرَكِ الْوَاشُونَ أنْ لَنْ أُحِبكُم بَلَى وسُتورِ الله ذاتِ المَحَارِمِ

أَصدُّ ومَا الصَّدُّ الذى تَعْلمِينه شِفَاءٌ لنا إلّا اجْتِراعِ الْعلاقِمِ

حيَاءً وبُقيًا أن تَشِيع نَمِيمةٌ بِنَا وبِكُمْ ، أُفٍّ لأَهلِ النَّمائِمِ

فما تقول فى هذا اللفظ الجيد ، وفى هذه العاطفة الصادقة ، وفى هذا المعنى الذى برئ من كل إسراف ، وفى هذه الصراحة التى برئت من كل نفاق ؟

زعموا لك أننى لا أحبك لأنى لا أزورك ولا أصلك . كذبوا ، وإنك لتعلمين أنهم كاذبون . وإنك لتعلمين أنى أتكلف هذا الصدّ وأتجشم فيه الأهوال إبقاء عليك وعلىّ ، وحرصاً على شرفك ، فأفّ لأهل النمائم . مثل هذا الشعر لا يمكن أن يوصف بالكذب ، ولا أن يعاب بالغموض أو الابتذال . ثم انظر إلى هذا الشاعر نفسه يمضى فى قصيدته ، تجد تصديق ما قدمت لك من أن سلطان المرأة على نفوس هؤلاء الأعراب كان قد انتهى إلى منزلة لا تعدلها منزلة :

وَإِنَّ دماً لَوْ تَعْلَمِينَ جنيْتِهِ ... عَلَى الْحَىِّ جانِى مِثْلِهِ غيْرُ سالِمِ
أَمَا إِنَّهُ لَوْ كَانَ غَيْرُكِ أَرْقَلَتْ ... إِلَيْهِ القنا بِالرَّاعِفا تِ اللَّهاذِمِ
ولكِنْ لَعمْرُ اللهِ ما كُلُّ مُسْلِمٍ ... كَغُرُّ الثَّنَايا واضِحَاتِ الْمَعاصِمِ
إذا هُنَّ سَاقطْنَ الحديثَ لِذِى الهَوَى ... سِقاطَ حَصَى المَرجانِ مِن كفِّ ناظِمِ
رمَيْنَ فَأَقْصَدْنَ الْقلوبَ فَلَمْ نجِدْ ... دَماً مائراً إِلا جَوًى فى الحيازِمِ

انظر إلى هذه الأبيات الثلاثة الأخيرة التى يقسم فيها الشاعر ما أهدر دماء المسلمين شىء كما يهدرها الحب . وانظر إلى هذين البيتين الأخيرين اللذين يمثلان تأثير حديث النساء فى نفوس الفتيان . إذا تحدثن إلينا قتلننا بهذا الحديث الذى ينثرنه كما ينثر اللؤلؤ من العقد ، قتلننا ولكن لم يسفكن دماءنا ، فأنت لا ترى هذه الدماء تسيل ، وإنما أيقظن جوى يضطرم بين الضلوع .

ولو أنى أردت أن أضرب لك الأمثال التى تثبت جمال هذا الشعر وبهجته وروعته وصدقه لأطلت وأسرفت فى الإطالة . على أنى سأعود فأخصص له فصلا أو فصولا . وإنما ضربت ما ضربت من هذين المثلين لأثبت إحدى هاتين الحقيقتين اللتين ذكرتهما ووصفتهما بالتناقض منذ حين . قلت إن هذا الشعر العذرىّ جميل جيد ؛ ولكن هناك حقيقة أخرى ، وهى أن أخبار العذريين

أو القصص التي نسجت حول أشعارهم ليست شيئاً يذكر بالقياس إلى هذه الأشعار : فبينا تجد فى هذه الأشعار من صدق اللهجة وحرارة العاطفة وحدّة الشعور ما يملك عليك نفسك ، لا تجد فى هذه الأخبار التى تروى حول هذا الشعر إلا تكلفاً وتصنعاً وإسرافاً فى المبالغة وانتهاء إلى السخف . فكيف تستطيع أن تفسر هذا ؟ كيف تستطيع أن تلائم بين سخف هذه الأخبار وجودة هذا الشعر ؟ وهل يمكن أن تلهم الحوادث السخيفة الفاترة شعراً جيداً حارًّا ؟ كلا ! . . . إنما أنت مضطر إلى أن تذهب مذهبي ، وهو أن هذا الشعر قد صدر صدوراً طبيعياً عن قوم كانوا يشعرون ويألمون ، ويصفون آلامهم ويمثلون شعورهم ؛ وأن هذه القصص قد أنشئت فيما بعد ، أنشأها رواة هادئون لم يكونوا يجدون فى أنفسهم ما كان يجد هؤلاء الشعراء من لوعة وأسى ، ومن ألم وحسرة على آمال يطمعون فيها ويطمحون إليها دون أن يظفروا منها بشيء . وبعبارة واضحة : كان شعر هؤلاء الغزلين يصف نفوسهم ، وكانت أقاصيص هؤلاء الرواة لا تصف شيئاً إلا طمع أصحابها فى إرضاء الجماهير . ومع ذلك فإنا نجد بين هذه القصص ضروباً من الاختلاف وضروباً من التشابه ، لا بأس بالوقوف عندها حيناً ، فقد نستفيد منها أشياء كثيرة .

وأحب أن ألاحظ قبل كل شيء أن هذه القصص جميعاً تشترك فى خصلة واحدة لا تمتاز بها عن غيرها من الأخبار ، وهو هذا الجمال الفنىّ اللفظى الذى تجده فى القصص وفى سياق الرواية . ولست أغلو إن قلت إن قطعاً من هذه الأخبار تصلح نماذج يحسن أن يتأثرها الكتاب الذين يحرصون على الإجادة . وسأروى لك من هذا أمثالا . ولكنى أعود فأقول : إن هذه ليست ميزة لهذا النوع من القصص ، وإنما هى لغة الرواة فى ذلك العصر ، كان لها حظ من الصفاء والجودة والسذاجة البدوية والخلوّ من التكلف اللفظى قلما تجده عند الكتاب المتأخرين . وأحسب أن من خير ما ينبغى أن يقرأ الكتاب ، الذين يحرصون على الإجادة ، نثر هؤلاء الرواة فى الأغانى وفى تاريخ الطبرى وما يشبههما من كتب الأدب والتاريخ .

لا أعرض فى هذا السبيل إلا لثلاث من هذه القصص : قصة المجنون ، وقصة قيس بن ذريح ، وقصة جميل . وإذا أردت أن أحكم على هذه القصص

فأنا مضطر إلى أن أسجل أن أشدّها سخفاً وأكثرها غلوًّا وإحالة ، وأخلاها من المغزى النافع أو المعنى المفيد ، قصة المجنون . فلست تجد فى هذه القصة شيئاً يبين لك شخصية هذا الرجل الذى اتخذ لها بطلا ، بل كل ما تجده ألوان من المبالغات وضروب من الإسراف .

* * *

قيس بن الملوّح رجل أحب ليلى حين كانا طفلين ، أو أحبها حين كانا على حظ من الشباب ، ولكن هذا الحب يظهر دائماً مظاهر غريبة غير مألوفة ولا ملائمة للطبيعة الإنسانية حتى طبيعة العشاق المدلهين . فلست أعرف عاشقاً أغمى عليه كما أغمى على قيس بن الملوّح . ولست أعرف عاشقاً شهق وزفر كما شهق قيس بن الملوّح وكما زفر . كان يكفى أن تتحدث إليه ليلى بحديث يشعره أنها تحبه ليسقط على وجهه مغشيًّا عليه . وكان يكفى أن يذكر له شىء عن ليلى يدل على أنها تحبه ، أو يدل على أنها تعرّضت لمكروه ، ليسقط على وجهه مغشيًّا عليه . بل كان يكفى أن تتحدث إليه عن ليلى ليسقط على وجهه مغشيًّا عليه . كان يقضى حياته كلها أو أكثرها ساقطاً على وجهه مغشيًّا عليه ، أو قل إنه كان يقضى حياته كلها إما ساقطاً على وجهه وإما هائماً على وجهه ، فهو لم يعرف أو لم يكد يعرف الحياة الهادئة العاقلة ، وإنما كانت حياته كلها اضطراباً ، كانت حياته مقسمة بين إغماء وجنون .

هذه هى الصورة التى تستطيع أن تستخلصها من قصة المجنون ، وإذا كان المجنون قد أنفق حياته بين الجنون والإغماء . فليس يسيراً أن تتبين شخصيته ولون نفسه ، ولا أن تتميز عواطفه وخصاله . فليست له عاطفة ولا خصلة ، وإنما هو مريض ، إما مغشىٌّ عليه وإما مجنون ؛ أو قل : إن الجنون والمرض هما اللونان اللذان يميزان نفسه ويحدّدان شخصيته . مثل هذا الشخص لا يمكن أن يكون حقيقة ؛ وإن كان حقيقة فلا يمكن أن يصدر عنه شعر متقن كبعض هذا الشعر الذى نقرؤه ، ولا يمكن أن يكون بطلا لقصة صادقة ، وإنما هو رجل خليق بالبيمارستان ، بل هو لا يصلح بطلا لقصة خيالية منحولة ، فمن الخير أن يخترع الكاتب وأن يتخيل ، ولكن من الحق عليه أن يجتهد فى ألا يكون خياله سخفاً واختراعه محالا ، ذلك أنه يتعرّض بهذا إلى أن يكذبه الناس

ويسخروا منه ومن خياله ، وقد سخر الناس من واضع قصة المجنون وكذبوه ، فقد ذكرت لك فى غير هذا الفصل أن الثقات من الرواة ينكرون وجود المجنون أو يشكون فيه أو يختلفون فى أمره اختلافاً عظيماً. والغريب — أو المعقول — أنهم لا ينكرون قيس بن ذريح ولا جميلا ولا يشكون فيهما ولا يكادون يختلفون فى أمرهما . فلم هذا ؟ لأن قصة المجنون سخيفة ضعيفة مملوءة بالإحالة والمبالغة ، لا يستطيع الناس أن يؤمنوا لها أو يطمئنوا إليها مهما يكن حظهم من السذاجة . وكيف تريدنى على أن أومن لهذا الخبر الذى يزعم أن المجنون وقف يتحدّث إلى ليلى وفى يده نار فأخذت النار تحرق برده حتّى أتت عليه ونالت من جسمه وهو لا يشعر ! ثم كيف تريدنى على أن أصدق أن هذا الرجل جنّ وانتهى به الجنون لا إلى أن يهيم على وجهه ، بل إلى أن يستأنس الوحش ويعيش معها كما كان يعيش مع الإنسان . . . . أما أن يؤثر هذا الوحش فقد نفهمه ، ولكن من فيلسوف لا من مجنون ! وأما أن تؤثره الوحش وتأنس إليه فشىء يحسن أن نسأل عنه علماء الحيوان . ومع هذا فأحب أن تقرأ من أخبار هذا المجنون القصة التى يرويها رجل من بنى مرة ويصف فيها موت المجنون وأثر موته فى قومه . فستجد فى هذه القصة لفظاً عذباً وأسلوباً متيناً ؛ وتجدها فى الجزء الثانى من الأغانى (صحيفة ١٤ جزء ثان طبعة بولاق) .

* * *

أما قصة جميل فلست أدرى بم أصفها ! فيها سخف كثير ، وفيها إحالة كثيرة ، وما أحسبها أصدق من قصة المجنون . ولكن جميلا رجل تاريخى وجد حقّاً وشعره واضح للدلالة على شخصيته ، ولم يكن مجنوناً ولا مذهوباً به ، بل لم يكن ذاهلا . ومن هنا خلت قصته من هذه الألوان التى ننكرها فى قصة المجنون ؛ خلت من هذه الألوان وامتلأت بألوان أخرى أقل ما توصف به أنها تناقض الحب العذرى ، ولا تلائم هذا الهوى الذى يحزن النفس ويملأ القلوب حسرة . ولست أذكر لك من هذه الألوان إلا لونين اثنين : أحدهما يدل على أن واضع القصة كان رجلا متكلفاً ميالا إلى المحاجاة ، فإنك تجد فى غير موضع من أخبار جميل ضروباً من الرمز والإلغاز بين هذين العاشقين حين كانت تتصل بينهما الرسائل . وأرى أن أروى لك أحد هذه الألغاز لتشعر

معى أنه متكلف من غير شك ، ولتغنيني عن الاستدلال . تحدث كثير قال :
« لقيني مرة جميل فقال لى : من أين أقبلت ؟ قلت : من عند أبى الحبيبة ، أعنى بثينة ؛ فقال : وإلى أين تمضى ؟ قلت إلى الحبيبة ، أعنى عزة ؛ فقال : لا بدّ من أن ترجع عودك على بدئك فتستجدى لى موعداً من بثينة . فقلت : عهدى بها الساعة ، وأنا أستحيي أن أرجع ! فقال : لا بد من ذلك . فقلت له : فتى عهدك ببثينة ؟ فقال : فى أول الصيف وقد وقعت سحابة بأسفل وادى الدوم فخرجت ومعها جارية لها تغسل ثيابها ، فلما أبصرتنى أنكرتنى ، فضربت بيديها إلى ثوب فى الماء فالتحفت به ، وعرفتنى الجارية ، فأعادت الثوب فى الماء ، وتحدثنا حتى غابت الشمس ؛ وسألتها الموعد فقالت : أهلى سائرون ؛ وما وجدت أحداً آمنه فأرسلــه إليها . فقال له كثير : فهل لك فى أن آتى الحىّ فأنزع بأبيات من شعر أذكر فيها هذه العلامة إن لم أقدر على الخلوة بها ؟ فقال : ذلك الصواب ؛ فأرسله إليها ، فقال له : انتظرنى . ثم خرج كثير حتى أناخ بهم ؛ فقال له أبوها : ما ردّك ؟ قال : ثلاثة أبيات عرضت لى فأحببت أن أعرضها عليك ؛ قال : هاتها ؛ قال كثير : فأنشدته وبثينة تسمع :

فَقُلْتُ لها يا عَزُّ أُرْسِلُ صاحِبِي ... إليْكِ رَسُولًا والمُوَكَّلُ مُرْسَلُ
بأَنْ تجْعَلِي بَيْنِي وبَيْنَكِ مَوْعِداً ... وأَنْ تَأْمُرِينى ما الذى فيهِ أَفْعَلُ
وآخِرُ عَهْدِى مِنْكِ يومَ لَقِيتِنِى ... بأَسْفَلِ وادى ٱلدَّوْمِ والثَّوْبُ يُغْسَلُ

قال : « فضربت بثينة جانب خدرها ، وقالت : اخسأ ! اخسأ ! فقال أبوها : مَهْيَمْ يا بثينة ؟ قالت : كلب يأتينا إذا نوّم الناس من وراء الرابية ! ثم قالت للجارية : ابغينا من الدومات حطباً لنذبح لكثير شاة ونشويها له ؛ فقال كثير : أنا أعجل من ذلك . فراح إلى جميل فأخبره ؛ فقال له جميل : الموعد الدومات . . . . . . » (الأغانى ص ٨٦ جزء ٧ طبعة بولاق) .

فما رأيك فى هذه القصة ، وفى هذه المصادفة البديعة التى أتاحت لكثير أن ينصرف من عند أبى حبيبة جميل إلى حبيبته هو ، وأن يلقى جميلا فى هذه الساعة ؟ ثم فى هذه الأبيات السخيفة المتكلفة ؟ ثم فى جواب بثينة « كلب يأتينا

إذا نوّم الناس من وراء الرابية » . . . ؟ جعلت صاحبها كلباً ، ثم فى صمت أبى بثينة وانخداعه إلى هذا الحد ؟ أظن أنى لست فى حاجة إلى أن أقول : إن هذه القصة نوع من هذه النوادر التى كان يتندّر بها الناس على الأعراب .

اللون الثانى : شىء من الغدر لا يمكن أن يصدر عن حبيب عذرىّ كما نفهمه ، ولا كما كان يفهمه القدماء . زعموا أن أهل بثينة أذاعوا فى الناس أن جميلا لا ينسب بابنتهم ، وإنما ينسب بأمة لهم ، فغضب جميل لهذه القالة وأراد أن يكذبها ، فواعد بثينة والتقيا ذات ليلة فتحدثا ، ثم عرض عليها جميل أن تضجع ، فمانعت ثم قبلت ، فاضجعت وأخذها النوم ، فلما استوثق جميل من ذلك نهض إلى راحلته فمضى ، وأصبح الناس فرأوا بثينة نائمة فى غير بيتها ، فلم يشكوا فى أنها كانت مع جميل . وقال جميل فى ذلك شعراً . أتظن أن مثل هذا الخبر يمكن أن يكون حقًّا ، وأن رجلا كجميل كان يحب بثينة حبًّا كالذى نجده فى شعره يستطيع أن يعرّضها لمثل هذه الفضيحة !

وهناك لون آخر يحسن أن أشير إليه ، وهو أن صانع هذه القصة كان فيما يظهر متأثراً بشعر امرئ القيس من جهة ، وعمر بن أبى ربيعة من جهة أخرى ، فأنت تذكر قصيدة امرئ القيس التى أولها :

أَلا عِمْ صَباحاً أَيُّهَا الطَّلَلُ البَالِي ؟

وأنت تذكر أن امرأ القيس يحدثنا فى هذه القصيدة بقصته مع صاحبته حين زارها فقضى معها الليل ، وذكر زوجها فسخر منه واعتز بسيفه وسهامه فقال :

يغطُّ غَطِيط البَكرِ شُدَّ خِنَاقُهُ   لِيَقْتُلَنِى والمَرْءُ لَيْسَ بِقَتَّالِ

أَيَقْتُلُنِى والمَشْرَفِىُّ مُضاجعى   ومسْنُونَةٌ زُرْقٌ كأَنْيابِ أَغوَالِ

وأنت تذكر قصيدة عمر بن أبى ربيعة التى أولها :

أَمِنْ آلِ نعْمٍ أَنْتَ غادٍ فَمُبْكِرُ   غَداةَ غَدٍ أَم رائحٌ فمهجِّرُ

والتى ذكر لنا فيها قصته حين زار صاحبته فقضى معها الليل ، ثم أسفر الصبح وأراد أن ينصرف ، فأشفقت عليه صاحبته من الحىّ فقال :

فَقُلْتُ أباديهم فإما أَفُوتُهم   وإما يَنال السَّيْفُ ثـأْرا فيثـأَرُ

ولكنها أشفقت عليه وكرهت هذه المخاطرة ودعت أختيها وتشاور القوم وانتهوا إلى أن اقتنع عمر وخرج بينهن كأنه إحداهن ، وقال :

فكان مِجَنِّى دون ما كنتُ أتَّقِي ثلاثُ شُخُوص : كاعِبانِ وَمُعْصِرُ

كان واضع هذه القصة متأثراً بشعر هذين الرجلين ، فهو يمثل لنا جميلا فى أكثر الأحيان عند بثينة ليلا ، ثم يسفر الصبح ، أو يكاد ، فتشفق بثينة وتأمر صاحبها أن ينصرف خوفاً عليه ، فيأبى معتزًّا بسيفه وسهامه ، ولكن بثينة تلح عليه وتذكر أنها تخشى الفضيحة ، وحينئذ ينصرف جميل .

والغريب أن جميلا مثل فى هذه القصة ما ذكره عمر بن أبى ربيعة ، ولكن فى صورة أشدّ إخجالا وخزياً مما ذكره عمر . زعموا أنه لقى حى بثينة فى بعض سفرهم ، وكان الليل قد تقدّم فرمى حصاة لينبه بثينة ، فأصابت الحصاة صاحبة لها فاضطربت وجزعت وما شكت فى أنه جنى ، وأقرتها بثينة على ذلك ، وهى تعلم أن هذا الجنى هو جميل . فلما انصرفت هذه المرأة خلت بثينة إلى جميل فتحدثا ليلهما . ثم اضطجعا فأخذهما النوم، وأسفر الصبح وأقبل غلام زوجها يحمل إليها صبوحها من اللبن فرآها مضطجعة إلى جانب جميل ، فانصرف مذعوراً يريد أن ينبئ سيده ، ولقيته صاحبة لبثينة فاستوقفته وعلمت علمه — وكانت صديقة لبثينة شفيقة على حبها — فاحتجزت الغلام وتلطفت فى إرسال جارية لها لبثينة تحذرها ، وفعلت الجارية ، وأتمرت بثينة وجميل ماذا يصنعان . فأما جميل فأراد أن يلقى القوم واعتز بسيفه وسهامه ، وأما بثينة فأشفقت عليه من سيوف قومها وخافت على نفسها الفضيحة ؛ وما زالت به حتى أقنعته فنام ووضعت عليه من الوسائد والأحمال ما أخفاه ، ثم جاءت صاحبتها فاضطجعت إلى جانبها وأظهرتا النوم، وأقبل زوجها وأبوها وأخوها فلم يروا جميلا وإنما رأوا امرأتين مضطجعتين ، فانصرفوا خجلين ؛ وقضى جميل يومه مع بثينة .

وأخبار جميل من هذا النحو كثيرة ، وهى لا تدل إلا على أن واضع هذه القصة كان مقلداً قليل البضاعة يلتمس أخباره حيث وجدها دون أن تكون له شخصية قوية .

وفى الحق أن قصة جميل تخلو خلوًّا تامًّا من النفع والفائدة . أحب جميل

بثينة وخطبها فأبوْها عليه وزوجوها غيره . واشتد هيامه بها وهيامها به ، فكانا يتواعدان ويلتقيان ، وأمضى هو حياة يقول فيها الشعر . وبطبيعة الحال تدخلت الحكومة فى أمر جميل كما تدخلت فى أمر هؤلاء العشاق جميعاً ، فأهدرت دمه ، فاضطر إلى أن يضرب فى الأرض ، فذهب إلى اليمن وذهب إلى الشام ، وذهب إلى مصر وفيها مات .

والغريب من أمر جميل أن الرواة يذكرون اتصاله بالخلفاء من بنى أمية ، فيزعم بعضهم أنه اتصل بمروان بن الحكم ، ويزعم آخرون أنه اتصل بالوليد ابن عبد الملك ، ويقول : إن بثينة نفسها دخلت على عبد الملك ، وكان بينها وبينه مزاح . فكيف مع هذه الصلات أهدر السلطان دم جميل حتّى اضطر إلى أن يهرب فى أقطار الأرض ويموت غريباً ! . . .

كل هذه الأخبار متكلفة منحولة قد وُصل بعضها ببعض تفسيراً لشعر جميل وتلهية للناس ، ولكن هذه القصة كما قلت لا تدل كقصة المجنون على براعة صاحبها أو أصحابها ؛ وإنما هناك قصة أخرى هى خير هذه القصص . لها قيمتها ، وليست هذه القيمة قليلة ولا ضئيلة . وأحسب أن هذه القصة هى خير ما حفظ لنا من القصص الغرامية أيام بنى أمية : أريد بها قصة ابن ذريح . ولكنى لا أحدثك عنها اليوم فربما احتاجت لفصل خاص .

الغزلون[1]

قصة قيس بن ذُرَيْح

أما هذه فقصة جيدة حقاً ، لا ينبغى أن تقرن إلى هذا السخف الذى تحدّث الرواة به عن المجنون ، ولا إلى هذا الفتور الذى ذكروا به حب جميل .

وما أظن إلا أن واضع هذه القصة قد امتاز من الذين وضعوا أنواع القصص الغرامية بشىء من الإجادة والبراعة لم يسبق إليه ولم يلحق فيه ؛ فيها ما فى غيرها من القصص من هذه الصفات المشتركة التى لا يكاد يخلو منها حب عذرى : فيها مثلا تدخل الحكومة بين العاشقين ، أو بين العاشق وبين حبيبته ، وفيها هذه المبالغات التى لا بدّ منها والتى تشرف بالعاشق على الموت وتكلفه ألواناً من الخطوب وتعرّضه لضروب من المرض . ثم فيها هذه الأحاديث الكثيرة التى لا رأس لها ولا ذيل — كما يقول الفرنسيون — والتى إنما اخترعت اختراعاً لتفسير شعر جميل وقع إلى الرواية فأراد أن يجد له تأويلا . فيها كل هذا ، فهى من هذه الناحية تشبه قصة المجنون وتشبه قصة جميل وتشبه غيرهما من القصص .

ولكنّ فيها شيئاً تمتاز به ، وتستمد منه قيمتها ونفعها وانفرادها بالجودة والإتقان ، وهو أنها قصة إنسانية ؛ أريد أن الخيال لم يخترعها اختراعاً وإنما ألفها تأليفاً . والفرق بين الاختراع المطلق والتأليف واضح ، فقد يستطيع الكاتب أن يخترع أشياء يضيف بعضها إلى بعض دون أن يكون لهذه الأشياء أصل فى الحياة الواقعة ، وهو إذن سخيف حقاً . وقد يستطيع أن يؤلف بين أشياء مختلفة يأخذها من الحياة الواقعة ولكنه لا يوفق إلى موضع الصلة بين هذه الأشياء فتخطئه الإجادة ويتورّط فى الخطأ أو سوء الذوق أو رداءة التأليف . وأنت تجد هذين النوعين فى قصة المجنون وفى قصة جميل .

أما هذه القصة التى نحن بإزائها فقد وفق صاحبها إلى حسن التأليف وحسن

---

(١) نشرت بجريدة السياسة فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٢٤ م .

الذوق ، ووصف فيها أشياء تجدها فى الحياة اليومية الواقعة وأتقن وصفها ، حتى إن قصته لتجد فى نفسك صدى قوياً وتحملك على أن تقول : إن هذا لحق ، وإن هذا لجيد . ذلك أنه لم يلتمس أخباره وحوادثه فى السماء ولا فى الهواء ؛ وإنما التمسها بين الناس فى حياتهم اليومية ، وفى صلاتهم المألوفة ، وفى عواطفهم التى تمثل ما يجدون من حس وشعور .

وأى شىء غريب أو محال فى أن تنشأ العداوة بين امرأة وزوج ابنها ! وأى شىء غريب أو محال فى أن تغضب الأم أشد الغضب لأن ابنها قد شُغل عنها بامرأته ! ثم أى شىء غريب أو محال فى أن تفتن هذه الأم المحزونة المحنقة وتلتمس الوسائل المختلفة لتفسد الصلة بين ابنها وزوجه ، وتنغص الحياة على هذه المرأة الغريبة التى أقبلت فاحتكرت الابن احتكاراً وصرفته عن أمه وأبيه واختصت نفسها بوقته وصفوه وعنايته ؛ ثم أى شىء غريب أو محال فى أن يشتد حقد الأم وحنقها كلما أحست ضعفها وقصورها عن الإفساد بين الزوجين ! فيبعثها ذلك على أن تحتال فى قطع الصلة بينهما ، تسلك إلى ذلك ما استطاعت من سبيل ، رفيقة حيناً وعنيفة حيناً آخر ، ناصحة مرة وغاشة مرة أخرى ؛ ليس فى ذلك شىء من الغرابة ولا الإحالة ، وإنما هو أمر مألوف يسير الفهم والتفسير .

ونحن نعلم أن الخصومة قديمة عنيفة بين الأمهات وزوجات أبنائهن . فالأم بطبيعتها شديدة الميل إلى أن تستأثر بحب ابنها ووده ، وحريصة كل الحرص على ألا ينازعها فى ذلك منازع . وهى تردد بين عاطفتين متناقضتين لا تكاد ترى ابنها شاباً قوياً يستقبل الأيام فى روعة شبابه وعنفوان قوته حتى تشعر بالميل الشديد إلى أن تراه زوجاً وزعيم أسرة ، فتسعى فى تزويجه وتجد فيه ؛ وهى بذلك سعيدة حقاً مغتبطة أشد الاغتباط ؛ حتى إذا تم لها ما تريد ورأت ابنها زوجا ، وأحست أنه بهذه الحياة الجديدة سعيد ، انتقلت من هذه العاطفة الأولى إلى عاطفة أخرى تناقضها أشد مناقضة ؛ فندمت على ما كان من تزويج ابنها ، وأسفت على ما فاتها من عطف هذا الابن ووده ، وكرهت هذه المرأة الجديدة التى أقبلت فشاركتها فى حب ابنها وعطفه ومودته ، ثم لا تلبث أن تحس الميل إلى الخصومة وأن تجد فى سيرة هذه المرأة الجديدة ما تنكره

عليها وتنقمه منها . ويجب أن ننصف الأم ، فهذه العاطفة عندها ليست قائمة على الأثرة وحدها ، وإنما هي قائمة على الإيثار أيضاً . فالأم تريد أن تنفرد بحب ابنها والعطف عليه ، تريد أن تكون هي الوحيدة التي ترأم ابنها وتحسن إليه . هي أثرة في إيثارها . ثم يجب أن ننصفها من جهة أخرى ؛ فليست الزوج أقل أثرة من الأم ، بل هي أشدّ منها أثرة وأقل منها إيثاراً ، ولا تكاد الزوجة تستقر في حياتها الجديدة حتى تنزع بطبيعتها إلى الاستئثار بزوجها والانفراد بحبه وعطفه ، وحتى تجتهد — عالمة أو جاهلة — في صرفه عن كل إنسان غيرها وعن كل شيء سواها . وإذن فليست الأم وحدها هي الراغبة في الخصومة الميالة إليها ، وإنما الزوج أيضاً تعين على هذه الخصومة وتزيد نارها اضطراماً .

كل هذا شيء مألوف لا ينكره الناس ولا يعجبون له ، وإنما يعجبون أن تحسن الصلة بين الأم وزوج ابنها ، كما يعجبون أن تحسن الصلة بين الزوج وأم امرأته . فعداوة الأحماء والأصهار شيء يوشك أن يكون طبيعياً . وهذا الشيء الذي يوشك أن يكون طبيعياً هو الذي اتخذه واضع هذه القصة أساساً لقصته ، فأحسن وأجاد وبلغ من الإتقان حظاً عظيماً .

ثم يجب أن نلاحظ شيئاً آخر وهو أن الرجال يختلفون في مثل هذا الموقف اختلافاً شديداً ، فمنهم الرجل القويّ الأسر الذي لا يفكر إلا في نفسه وسعادته ، والذي يستطيع أن يقاوم هذا التنازع بين امرأتين مخلصتين في حبه ، ولكنهما مختلفتان لإخلاصهما نفسه . يستطيع أن يقاوم فيعدل بين أمه وزوجه ، وينصف تلك ، دون أن ينحاز إلى إحداهما ، ودون أن تستطيع إحداهما أن تأخذه من قِبَل الحب الزوجي فتصرفه عن أمه وتضطرّه إلى العقوق ، ودون أن تستطيع الأخرى أن تأخذه من قبل الأمومة فتستغل ضعفه من هذه الناحية وتفسد عليه حياته المنزلية ، وتضطره إما إلى أن يسيء العشرة في بيته وإما إلى الطلاق . ولكن هذا الرجل ليس مثلا شائعاً وإنما هو مثل نادر . والكثرة مع الأسف ضعيفة من إحدى الجهتين ، فإما أن ينحاز الرجل إلى زوجه فيتورّط في العقوق ويسيء إلى أبويه مؤثراً المستقبل على الماضي ، مؤثراً نفسه على من منحه هذه النفس . وإما أن يضعف فينحاز إلى أبويه ويشقى بأسرته وتشقى به الأسرة .

وقد كان بطل هذه القصة من هؤلاء ؛ فقد استطاع أبواه أن يغلباه على

أمره ويضطرّاه إلى الطلاق .

من هذا كله تتبين أن قصة قيس بن ذريح أبعد القصص عن الإحالة والمبالغة ، وأنها قصة إنسانية كما قلت آنفاً . ولكن هذه القصة تمتاز بما اختص به بطلها من عاطفة قوية ، وحب لا يعدله حب ، وحرص على الوفاء شديد . وحول هذه العاطفة وهذا الحب وهذا الوفاء تدور القصة من أولها إلى آخرها . فإذا أردنا أن نختصرها أو أن نتلمس لها صيغة تقوم عليها استطعنا أن نقول : إنها جهاد بين البرّ والحب . . . رجل يريد أن يكون برًّا بأبويه ووفيًّا لزوجه . فيستحيل عليه التوفيق بين هاتين الخصلتين ، فيضحى بإحداهما فى سبيل الأخرى . ولكن هذه التضحية تنغص عليه حياته كلها ، وتضطره إلى ألوان من الهول ؛ وضروب من الألم لا تكاد تحصى . فقصتنا إذن قصة نفسية خلقية بالمعنى الحديث لهاتين الكلمتين .

تمتاز هذه القصة أيضاً بأن أشخاصاً ممتازين قد لعبوا فيها دوراً كما يقولون ، فاكتسبت من هؤلاء الأشخاص شيئاً من الجلال غير قليل ، ثم اكتسبت من هؤلاء الأشخاص أيضاً شيئاً يحملك على أن تنزلها منزلتها الحقيقية ، وتعتقد أنها قصة خيالية مخترعة أكثر من أن تكون قصة حقيقية واقعة ، فليس من اليسير أن نتصوّر تدخل الحسين والحسن ابنى على رضى الله عنهم فى عشق فتى من فتيان البادية لفتاة من فتيات البادية ، وليس من اليسير أن نتصور تدخلهما مع نفر من أشراف قريش فى التفريق بين الزوجين ليرضوا عاشقاً ملتاعاً .

* * *

أحب قيس بن ذريح لبنى لأنه رآها وتحدث إليها فى بعض أسفاره ، وأراد أن يتخذها زوجاً له فوجد من أبيه ممانعة شديدة ، لأن أباه هذا كان مثرياً ، وكان يكره أن تنتقل الثروة من قومه إلى قوم آخرين ، وكان يريد أن يصهر ابنه إلى شريف من أشراف قومه ، فلما أيس منه قيس لجأ إلى الحسين بن على — وكان أخاه فى الرضاعة — فتوسل إليه أن يتوسط بينه وبين أبى لبنى فى هذا الزواج ، وقبل الحسين ذلك وأسرع إليه ، فركب مع قيس إلى البادية حيث كان حىّ لبنى ، فلما رأى الشيخ ابن رسول الله قد أقبل يزوره ، أكرمه واحتفى به .

وتحدّث الحسين إليه بهذه الخطبة ؛ فقبل الشيخ ولكنه ذكر للحسين أنه عربى وأن للعرب عادات وأخلاقاً ليس من اليسير تجاوزها ، وأن الوجه فى هذا الأمر أن يأتى أبو قيس فيخطب إليه ابنته ، وأنه يكره أن يزوج ابنته من هذا الفتى الغنى الشريف على غير رضا من أبيه فتتحدّث العرب بما لا يحب ؛ وقبل الحسين من الشيخ هذا العذر فرجع أدراجه مع قيس ، ثم ارتحل مرة أخرى إلى البادية حيث كان يقيم حىّ قيس . فلما رأى أبو قيس ابن رسول الله مقبلا إليه نهض فأكرمه وأجلّ مكانه . وتحدّث الحسين إليه بأمر هذه الخطبة ! فأذعن الشيخ وكره أن يردّ لابن رسول الله أمراً ، وما هى إلا أن ارتحل إلى حيث أبو لبنى ، فخطب إليه ابنته لابنه وكان الزواج .

وكان قيس بهذا الزواج سعيداً مغتبطاً أحسن حظًّا من المجنون وجميل وغيرهما من أبطال هذه القصص الغرامية . ذلك أن الدهر قد أتاح له ما لم يتح لهؤلاء الأبطال فلم يحل بينه وبين حبه ، ولم يستطع أهل لبنى أن يقولوا مقالة أهل ليلى وبثينة ، ولا أن ينكروا هذا الزواج مخافة العار ، فأى الفريقين نصدق ؟ أنصدق الذين كانوا يزعمون أن العرب كانوا من القسوة والغلظة فى عاداتهم ونظمهم البدوية بحيث يحولون بين المحبين إذا ظهر حبهما مخافة الفضيحة وسوء القالة ، أم نصدق الذين تحدثوا إلينا أن حىّ لبنى لم يكره تزويج هذه الفتاة من حبيبها برغم هذا الحب الذى ظهر وتحدّث به الناس ؟ نعم ! إن هناك سبيلا للتوفيق بين هذين الوجهين المتناقضين ، وهو أن تدخل الحسين بن على فى هذه الخطبة وفى هذا الزواج هو الذى أتاح لقيس سعادته ، وأكره أهل لبنى على أن يقبلوا هذا الزواج ويخالفوا ما توارث العرب من عادة ونظام .

ومهما يكن من شىء فإن واضع هذه القصة قد وفق إلى اختراع بديع حين اخترع تدخل شخص عظيم المكانة كالحسين بن على فى هذا الزواج ليجتنب هذه العقبة الكئود التى أقامها القصاص حتى أصبحت سنّة لا تبيح للعاشقين أن يلتقيا .

كان قيس بن ذريح سعيداً بهذا الزواج حقًّا ، ولم تكن لبنى أقل منه سعادة واغتباطاً ، فقد كان العشق بينهما مشتركاً ، كما كان مشتركاً بين جميل وبثينة ، وكما كان مشتركاً بين قيس بن الملوّح وليلى العامرية .

ولست فى حاجة إلى أن أحدثك بأن هذين العاشقين لم يكادا يلتقيان حتى انصرفا إلى عشقهما عن كل إنسان وعن كل شيء . وقد ذكرت لك أن هذا الزواج قد وقع على كره من أهل قيس ، لأنهم كانوا يأبون أن تنتقل الثروة إلى حيّ أجنبي . فليس غريباً ألا يتلقوا لبنى لقاء حسناً . وليس غريباً أن تنزل منهم منزلة البغيض . وأنت تعلم الخصومة بين الأمهات وزوجات أبنائهن . فإذا أضفت إلى ذلك أن الزوجين كانا مسرفين فى حبهما منصرفين به عن كل شيء وعن كل إنسان ، فهمت فى سهولة ويسر ما تحدّث به الرواة من أن أم قيس نكرت ابنها ونقمت منه أنه أهملها وقصر فى ذاتها ولم يمض فى ملاطفتها ومودتها على ما كان عليه قبل الزواج ، فوجدت على لبنى وأضمرت لها الشر . ولكنها امرأة ، وكيد النساء عظيم ، وهى أمهر وأحذق وأشدّ فطنة من أن تجاهر ابنها بالأمر فتعاتبه وتلومه وتنكر عليه تقصيره فى ذاتها . فهى إن فعلت ذلك لم تصل إلا إلى إحدى اثنتين : فإما أن ينصفها فيعود إلى برّها وملاطفتها ويمسك لُبنى ، وهى لا تريد ذلك ، وإنما تريد الطلاق . وإما أن يكون ابنها جافياً ، عاقًّا ، فلا يزيده عتاب أمه وتعللها إلا حبًّا للبناء وحرصاً عليها ، وهى لا تريد ذلك وإنما تريد الطلاق. لهذا انصرفت الأم عن ابنها فلم تلمه ولم تتعلل عليه ولم تظهر له شيئاً ، وإنما أقبلت إلى الشيخ والتزمت أذنه ، فما زالت به تحرضه وتغريه حتى وصلت إلى ما كانت تريد . ولم يكن هذا عسيراً ، فأنت تعلم أن الشيخ قد خطب هذه الفتاة كارهاً . وأنت تعلم أنه كان يضنّ بثروته الضخمة على حيّ لُبنى ، فأخذته زوجه من هذه الناحية الضعيفة ، وزينت له أن هذه المرأة عقيم ، وأن قيساً إذا أمسكها وحدها فلن يعقب ؛ وإذن فستنتقل الثروة بعد قيس إلى لبنى وحيها ، وسينقطع نسل الشيخ ويصبح وجوده عقيماً لغواً لا خير فيه ، فإما أن يطلق لبنى ويتخذ له زوجاً أخرى تعقب له ، وإما أن يمسك قيس لبناه إذا كان يهواها إلى غير حدّ ، ولكن على أن يتزوج أخرى تعقب له حتى لا ينقطع النسل ولا تنتقل الثروة .

وقبل الشيخ من الشيخة هذا الكلام واطمأن إليه . وكيف لا يقبله ولا يطمئن إليه ؛ أليس طبيعياً أن يحرص الإنسان على الخلود واتصال النسل ! أليس طبيعياً أن يحرص الإنسان على أن يحتفظ بثروته فى قومه ويكره انتقالها إلى

قوم آخرين ؛ وقبل الشيخ كلام امرأته ودعــا ابنه وجمع له مشيخة قومه وتحدّث إليه بما أوحت به إليه امرأته . وكان قد انتهز لذلك فرصة صالحة ، فقد كان قيس اعتل وأشرف على الموت ، فلما برئ تحدّث إليه أبوه هذا الحديث بمحضر قومه ، ذكر له علته وإشرافه على الموت وأنه لا عقب له ، وأن هذه المرأة غير ولود ، وطلب إليه أن يتزوّج امرأة أخرى لعلّ الله يرزقه منها ولداً يرثه ويرث ثروته ، فأبى قيس عليه ذلك وكره أن يسوء امرأته أو يتخذ لها ضرة . قال أبوه : فتسرّ بالإماء . فأبى قيس وكره أن يسوء امرأته بهذا النوع الآخر من الزواج . هنالك غضب أبوه وانتهى من الأمر إلى أقصاه ، فأقسم على ابنه ليطلقن امرأته . وأبى قيس ذلك . واشتدّ الخصام بينهما حتى أعلن الشاب إلى أبيه أنه يؤثر الموت على الطلاق . ثم أخذ يخيّر أباه بين خصال ثلاث : عرض عليه أن يتزوّج هو لعل الله أن يرزقه ولداً آخر يخلد اسمه ويرث ثروته . قال الشيخ : فما فيّ فضلة ؛ فعرض عليه قيس أن يرتحل عنه ومعه لبنى ، وأن يفترض أن ابنه قد مات فى علته التى برئ منها . قال الشيخ : لا أرضى . قال قيس : فأترك عندك لبنى وأرتحل وحدى لعلى أسلوها . فأبى الشيخ وأقسم لا يكنه سقف بيت أبداً حتى يطلقها .

وهذا أول مظهر من مظاهر الجهاد العنيف بين البر والحب . انظر إلى قيس تتنازعه هاتان العاطفتان القويتان : حب زوجه ، والبر بأبيه .

وقد مثل الرواة لنا هذا الجهاد قويا عنيفاً حقًّا ، فزعموا أن الشيخ كان إذا أضحى تعرّض للشمس لا يظلله منها شىء ، وأقبل ابنه فأظله بردائه ، وتلقى هو حر الشمس ، ولم يزل كذلك حتى يفىء الفىء ؛ حينئذ ينصرف إلى لبنى فيعتنقان ويبكيان ويتبادلان ألفاظ التشجيع ، وتقول له لبنى : احذر يا قيس أن تطيع أباك فتهلك نفسك وتهلكنى ؛ فيؤكد لها وفاءه وولاءه وصبره ومضيه فى المقاومة .

كم أنفق قيس من الدهر فى هذا الجهاد وهذه المقاومة ؟ يختلف الرواة . والغريب أن أبا الفرج ينكر أقرب الروايات إلى الحق وأدناها من المألوف . ذكر بعض الرواة أن قيساً قاوم أربعين يوماً ثم ألقى السلاح . ولكن أبا الفرج لا يرضى ؛ لأن أربعين يوماً ليست شيئاً يذكر ، وهو أميل إلى إحدى الروايتين الأخريين

اللتين تزعمان أن قيساً قاوم سنة أو سبع سنين .

مهما يكن من شيء فإن البرّ انتصر على الحب ، ولم يستطع هذا الشاب أن يمضي فى عقوق أبيه . ولا تنس أن قيساً كان أخاً للحسين فى الرضاعة ، أى أنه كان يعيش فى أوّل عهد الناس بالإسلام ، فكان شديد التأثر بالدين ووصاياه . وأمر الدين فى البر بالوالدين صريح قاطع لا يحتمل تردداً ولا التواء ، فضحى قيس بامرأته ابتغاء مرضاة أبيه . انتصر البر . ولكن انتصاره لم يكن كاملا بل قل إنه لم يكن إلا هزيمة منكرة . فلم يكد قيس يطلق لبنى حتّى طلّق معها عقله وأمنه وسعادته . وكاد يطلق الحياة . أصابه أول الأمر ذهول أو شيء يشبه الذهول ، فلم يصدّق أنه طلق لبنى ، وخيل إليه أنه لم ينطق بهذه الكلمة التى أراد الله أن تقطع أوثق الأسباب وأمتن العرى . فلما قضت لبنى عدتّها وأقبل أهلها فاحتملوها أنكر قيس ذلك ، وكأنه حاول ممانعة أهلها فرُدّ إلى الصواب ، ثم أخذ يتبع ركبها حتّى أنذر ، فوقف وأخذ يتبعها ببصره حتّى غابت عنه ، ثم عاد إلى بيتها وأخذ يتلمس آثارها فيقبلها ويمرغ خدّه فى ترابها ويسكب دموعه عليها وينشئ فى ذلك أجمل الشعر وأعذبه وأرقه .

من ذلك الوقت أخذت قصة قيس تشبه قصة المجنون ، ولكن دون أن تبلغ السخف أو المحال ، وتشبه قصة جميل ، ولكن دون أن تبلغ الكلف أو الغلو أو الإلغاز الذى أشرت إليه فى الفصل الماضى ، وإنما هى قصة إنسانية مؤلمة ينفطر لها القلب حزناً ولوعة : لأنها لا تبعث على عجب ولا تحمل على دهش ، وإنما بين أيدينا إنسان أكره على طلاق من يحب ، ثم تبعت نفسه هواه ، وقد حيل بينه وبينه ، فهو يبكيه ويتحسر عليه ويلتاع له ، وهو يجتهد كما يجتهد كل عاقل أريب فى أن يسلو ويتعزّى دون أن يجد إلى السلو أو العزاء سبيلا ؛ بل كلما حاول سلوّاً أو عزاء ناله من الحب لون لم يكن يعرفه من قبل .

وانظر إلى هذه الأبيات ولا تقل إنها مصنوعة متكلفة ، فأنا أيضاً أرى أنها مصنوعة متكلفة . ولكن ألم أقل لك إن القصة كلها موضوعة مصنوعة ؛ وإذن فهذه الأبيات التى أرويها لك تمثل ما أشرت إليه من عجز قيس عن السلوّ ، وافتتانه فى ألوان من الحب كلما قضي منها لوناً أقبل عليه منها لون آخر ، وهذه هى الأبيات :

أُحبُّكِ أَصْنافاً مِنَ الحبِّ لَمْ أَجِدْ . لها مثلًا فى سائرِ الناسِ يُوصَفُ
فمِنْهُن حبٌّ للْحَبيبِ وَرحمةٌ بمعْرِفَتِى مِنه بمَا يَتكلَّفُ
ومنْهُنَّ أَلَّا يَعْرِضَ الدَّهْرَ ذِكْرُها عَلَى الْقَلْبِ إلا كادَتِ النَّفسُ تَتلَفُ
وحُبٌّ بَدا بِالجسمِ واللَّونِ ظاهِرٌ وحُبٌّ لَدَى نَفسى مِنَ الرُّوحِ أَلْطَفُ

وقد عرض عليه أهله ، كما عرض أهل المجنون على المجنون وأهل جميل على جميل ، أن يتزوج فأبى ، كما أبى المجنون وكما أبى جميل . وقد أصابه ما أصاب المجنون من مرض لم يبلغ به الجنون ، ولكن أشرف به على الموت . واجتهد أهله كما اجتهد أهل المجنون فى تسليته وشفائه ، فأغروا به النساء والفتيات ، ودعوا إليه الأطباء ، فعجز النساء والفتيات عن استصبائه ، وعجز الأطباء عن شفائه . ولم يبلغ منه وعظ أبيه إياه . وقد اجتهد فى الرحلة والتسلى عنها بالأسفار فلم يظفر من ذلك بشىء ، وإنما كان كما قال المجنون أو جميل أو كثير أو هو :

أُرِيد لِأَنسى ذِكرَها فَكأنَّما تَمثَّلُ لى لَيْلَى بِكُلِّ سبيلِ

ثم أخذ فيما كان قد أخذ فيه المجنون وجميل وغيرهما من العشاق من طلب لبنى والتعرض لحيها واختلاس الأوقات والفرص يخلص فيها إليها ؛ فكره أهلها ذلك ، كما كره ذلك أهل ليلى وأهل بثينة ، وشكوا ذلك إلى السلطان كما شكاه أهل ليلى وبثينة ، وتدخل السلطان كما تدخل فى أمر ليلى وبثينة ، فأهدر دم قيس بن ذريح ، كما أهدر دم قيس بن الملوّح ، وكما أهدر دم جميل .

ولكن القصة هنا تثب وثبة لم نألفها فى قصة جميل ولا فى قصة قيس بن الملوّح ، فقد نجد فى هاتين القصتين وغيرهما أمراً عجيباً ، نجد هؤلاء العشاق يكلفون بنساء يكلفن بهم أيضاً ، ولكن هؤلاء النساء قد خضعن لأهلهن فتزوجن ، وهنّ وفيات لأزواجهن يصلنهم وينلنهم ما يتحرّق عليه العاشقون حسرة ولوعة ؛ حتى كان أهل هؤلاء العاشقين يتخذونهم موضوعاً للهزء والسخرية ، ويعيرونهم الحب والألم لنساء يخدعنهم ويمنحن حبهن وودّهن لرجال آخرين ، وحتى استطاع المجنون أن يقول هذا البيت الذى يختصر هذه الحال العجيبة :

قضَاها لِغَيرى وابتلانِى بحبِّها فهلا بشىءٍ غيرِ لَيْلى ابْتلانيا

أما قصة قيس فلم يكن بدّ من أن تنتهى إلى هذا الموقف الذى توارثته القصص الغرامية ، أى لم يكن بدّ من أن تتزوج لبنى رجلا غير قيس ، حتى يصبح قيس كجميل والمجنون هائماً بامرأة يتسلط عليها رجل آخر . ولكن واضع هذه القصة امتاز من سعة الحيلة ولطف المدخل بما لم يمتز به أصحاب المجنون وجميل . ذلك أنه تخيل هذه الحيلة ، وهى أن معاوية أهدر دم قيس ؛ فأخذ قيس يضرب فى الأرض يلتمس العزاء والسلوان ، فمرّ بحىّ من بنى فزارة ورأى فتاة صبيحة وضيئة تشبه لبنى فتحدث إليها وسألها فإذا اسمها لبنى ، فاضطرب لذلك والتاع له . وكان لهذه الفتاة أخ لم يلبث أن عرف قيساً فألح عليه فى أن يتزوج أخته ، وما أزال به حتى ظفر بالرضا وتزوج قيس هذه الفتاة متورطاً من جهة ، ومحاولا أن يجد فيها لبناه من جهة أخرى ، ولكنه لم يكد يتم الزواج ويخلو إلى امرأته الجديدة حتى قامت لبناه القديمة بينه وبين زوجه ، فلم يستطع أن ينظر إليها ولا أن يدنو منها ، ثم ارتحل وتركها على أن يعود إليها ولكنه لم يعد .

أريد قبل أن أنتقل من هذه الحيلة البديعة أن ألفتك إلى أن هذا الاختراع كثيراً ما تجده فى القصص الغرامى الحديث ، وكثيراً ما تجد فى الفن الحديث عشاقاً حيل بينهم وبين عشيقاتهم ، فأخذوا يلتمسونهن فى نساء أخر يشبهنهن شبهاً قليلا أو كثيراً . ومهما يكن من شىء فقد وصل خبر هذا الزواج إلى لبنى ، وكانت لبنى من الألم والوجد والحرمان على مثل ما كان عليه قيس ، وكانت قد رفضت الزواج كما رفضه قيس ، فامتازت بهذا من ليلى وبثينة .

قال الرواة : إن معاوية لما أهدر دم قيس أشار على أبى لبنى أن يزوج ابنته من رجل سماه له ، وكانت لبنى تأبى الزواج ، فلما بلغها ما كان من أمر قيس مع الفزارية أخذتها الغيرة والحنق فأرادت أن تجزيه بمثل خيانته فقبلت وتزوجت هذا الرجل ، وارتحلت معه إلى المدينة فأقامت فيها ، وبلغ الخبر قيساً فاضطرب له واعتل وأخذه من أجله حزن شديد .

فأنت ترى كيف تلطف واضع القصة فى الانتهاء بقيس إلى هذا الموقف

الموروث ، موقف من يعشق امرأة متزوجة . ومن ذلك الوقت تغير وجه قيس فأخذ لا يطلب لبنى فى البادية ، وإنما يطلبها فى المدينة .

وللرواة فى ذلك أحاديث لذيذة ، منها قصة الناقة . فقد زعموا أن قيساً أراد أن يدنو من لبنى فاقتطع قطعة من إبل أبيه ، وزعم لأهله أنه مرتحل إلى المدينة فبائع هذه الإبل فممتار لهم . وعرف أبوه دخيلة أمره فلامه ؛ ولكن قيساً لم يسمع له ، وذهب إلى المدينة . فبينا هو يعرض إبله أقبل عليه رجل فساومه ناقة فاشتراها منه ، وواعده بيته ليقبض ثمنها ، وقبل قيس وكان هذا المشترى زوج لبنى ، وكان قيس لا يعرفه ولم يكن هو يعرف قيساً . فلما كان من الغد ذهب إلى دار صاحبه يلتمس ثمن الناقة فصوّت بالخادم لتنبئ سيدها بمكانه .

قال الرواة : وعرفت لبنى نغمته . فلما دخل أمرت الخادم أن تسأله ما باله أشعث أغبر ؟ فأجاب قيس : هذه حال من فارق الأحبة واختار الموت على الحياة . قالت لبنى للخادم : سليه يحدّثنا حديثه ؛ فأخذ قيس يقص قصصه ؛ وما هى إلا أن رفعت لبنى سترها وقالت : حسبك قد عرفنا حديثك . قالوا : فبهت قيس ، ثم انفجر باكياً ونهض مسرعاً فاغترز رحله ومضى لا يلوى على شىء ، وصاحب البيت يدعوه فلا يجيب . قالوا : فقالت لبنى لزوجها : ويحك ! هذا قيس ! قال : ما عرفته .

ومنها قصة هذه المرأة التى تسمى بريكة ، والتى كانت زوجاً لرجل من قريش شريف فى المدينة ، فقصد إليها قيس وتوسل إليها أن تصل بينه وبين لبنى ؛ فتلطفت فى ذلك حتى جمعت بينهما ؛ فتحدّثا وتعاتبا وأقسم قيس لصاحبته أنه لم يملأ عينه من الفزارية ولا كانت بينه وبينها صلة ؛ ثم تركته على أن تعود إليه ، ولكنها لم تفعل فانصرف عن المدينة .

وأخبار أخرى كثيرة تصف لنا حال قيس وحال لبنى لا أذكر منها إلا خبراً واحداً يمثل لنا وفاء لبنى لصاحبها بعد الزواج ، كما كانت وفية له قبل الزواج . زعموا أن شعر قيس شاع وتناقله الناس وتغنى فيه المغنون فى المدينة فأكثروا ، وتأذى لذلك زوج لبنى فتنكر لامرأته ولامها . قال الرواة : فأجابته جواباً عنيفاً ولفتته إلى أنها لم تتزوجه رغبة فيه ولا فيما عنده ، وإنما تزوجته حين أهدر السلطان دم قيس مخافة على قيس أن يعرض فيقتل . ثم ذكرت له أنها لم تخف

عليه من أمرها شيئاً وأنه يستطيع فراقها متى أحب . قالوا : فأخذ منذ ذلك الوقت يتلطف لها ويترضاها ، وبالغ فى ذلك حتى لقد كان يُحضر الجوارى يغنينها شعر قيس فيها .

كل ذلك يمثل لك ما تمتاز به قصة قيس بن ذريح من الجودة والإتقان والفائدة . فأولها قيم ، لأنه يعتمد على أساس متين . وسياقها كله قيم ، لأنه بعيد من المبالغة يكاد يخلو مما لا يقبله العقل . أما آخرها ففيه قولان ، كما يقول الأزهريون ، ذلك أن من الناس من أراد أن تكون آخرة قيس بن ذريح كآخرة جميل والمجنون ، وأنت تذكر أن المجنون وجد ميتاً فى بعض الأودية ، وأن جميلا مات غريباً فى مصر ، كلاهما قتله الحب ، فيجب أن يقتل الحب قيس بن ذريح ، كما قتل صاحبيه ، وكما قتل عروة بن حزام من قبله ، ومنهم من أراد أن تنتهى هذه القصة انتهاء آخر ، فيه انتصار الحب وظفر العدل ، وفيه اطمئنان الإنسان إلى أن العشق الطاهر البرىء ليس كمداً كله .

وقد اتفق أولئك وهؤلاء على أن قيساً بعد أن لقى لبنى وتحدث إليها انصرف عن المدينة فارتحل إلى الشام يريد أن يطلب إلى السلطان إلغاء الأمر الذى أهدر به دمه . قالوا : فتلطف إلى يزيد بن معاوية حتى لقيه وطلب إليه ما كان يريد ؛ فظفر له يزيد من أبيه بإلغاء هذا الأمر .

ومن الرواة من زعم أن يزيد بالغ فى الرفق بقيس حتى عرض عليه أن يكتب إلى والى المدينة ليحمل زوج لبنى على تطليقها ؛ ولكن قيساً أبى ذلك وقد ألغى السلطان إهدار دمه ، وأباح له أن يذهب وأن يقيم حيث شاء .

وهنا يختلف الرواة ، فأما أكثرهم فيزعم أن قيساً قضى بقية حياته يتتبع لبنى فيدنو من المدينة حيناً ، وينأى عنها حيناً ، حتى ماتت لبنى وتبعها حزناً عليها أو مات قبلها . وأما غير هؤلاء فيزعمون أن ابن أبى عتيق — ولا بد من أن نخصص فى يوم من الأيام فصلا لابن أبى عتيق — سعى بعد تأمين قيس إلى الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر وجماعة من أشراف قريش فقال لهم : إن لى حاجة عند رجل أخشى أن يأباها على وأريد أن أتوسل إليه فيها بجاهكم وأموالكم ؛ قالوا : ذلك لك منا مبتذل ؛ فواعدهم يوماً اجتمعوا إليه فيه . ثم ذهب معهم إلى زوج لبنى وهم لا يعرفون ما يريد ، فتلقاهم الرجل لقاء حسناً . فقالوا :

إن هذا يتوسل بنا إليك فى حاجة له عندك . قال : هى مقضية كائنة ما كانت . فاستعاده ابن أبى عتيق ، فأعاد قوله . قال ابن أبى عتيق : فحاجتى أن تطلق لبنى . فطلق الرجل امرأته ، واستخزى هؤلاء الأشراف من قريش ، لأنهم ما كانوا يقدرون أن ابن أبى عتيق يتوسل بهم للتفرّق بين الزوجين .

وتزوج قيس لبناه ، وقال يمدح ابن أبى عتيق :

جَزَى الرحمٰنُ أفْضَلَ ما يُجَازِى ... على الإحْسانِ خَيراً مِنْ صَديقِ
فقدْ جربْتُ إخْوَانى جميعاً ... فمَا ألْفَيْتُ كابن أبى عتِيقِ
سعى فى جمْعِ شَملِى بعدَ صَدْعٍ ... وَرَأيٍ حِدْتُ فيهِ عنِ الطرِيقِ
وأطفأَ لوعَةً كانت بِقَلْبى ... أغصتْنى حَرارتُها بريقى

فقال له ابن أبى عتيق : يا حبيبى ، أمسك عن هذا المديح ، فما يسمعه أحد إلا ظننى قوّاداً .

شعر الغزلين[1]

وإنما أقصر حديث اليوم على هؤلاء الغزلين من أهل البادية لا أجاوزهم إلى أولئك الغزلين من أهل الحاضرة كعمر بن أبي ربيعة والأحوص وغيرهما ، بل لست أتناول فى هذا الحديث طائفة من شعراء البادية قالوا الغزل وتأنقوا فيه ، وظفروا بإجادته وإتقانه ، ولكنهم لم يكونوا عشاقاً ، أو لم يريدوا أن يكونوا عشاقاً ، كما كان جميل وقيس بن ذريح والمجنون ، أو كما أرادوا أن يكونوا ؛ وإنما كانوا أصحاب لذة وعبث ، وأهل دعابة ومجون ، فلم يقصر الله اللذة والعبث والدعابة والمجون على أهل الحاضرة ، وإنما وفر منها حظوظاً مختلفة لأهل البادية ، فإذا كان عمر بن أبي ربيعة ممثلا للهو شبان الحضر فى الحجاز ، فقد نرى فى يوم من الأيام أن يزيد بن الطثرية كان يمثل لهو شبان البدو .

وخلاصة القول أنا نستطيع أن نقسم الغزل فى ذلك العصر إلى ثلاثة أقسام : (الأول) : هذا الغزل العفيف الذى يمثله شعر جميل وقيس بن ذريح والمجنون ، والذى هو بدوىّ خالص ، والذى نتخذه موضوعاً لحديثنا اليوم . (الثانى) : هذا الغزل الذى يمثل لهو الحضر وعبث أهله ، والذى يمثله عمر والأحوص والعرجى وغيرهم من شعراء مكة والمدينة . (والثالث) : هذا الغزل الذى ليس بالعفيف إلا فى لفظه والذى يمثل لهو أهل البادية وعبث شبابهم ، على نحو من البداوة والسذاجة يذكر بالعصر الجاهلى ويخالف أشدّ المخالفة ما نجد فى مكة والمدينة بعد الإسلام ، ومن زعماء هذا الغزل يزيد بن الطثْرية وغيره ممن سأحدثك عنهم فى غير هذا الفصل .

أما هذا الفصل فقد قلت إنى أريد أن أقصره على شعراء القسم الأول من الغزل ، على العذريين وأصحاب النسيب العفيف ، وفى الحق إنه ليس من اليسير أن نتبين لهؤلاء الشعراء شخصيات متمايزة متباينة . فكلهم قد نسى نفسه أو فنى فى موضوعه فناء محا شخصيته وأخفاها على مؤرخى الآداب إخفاء تامًّا .

---

(1) نشرت بجريدة « السياسة » فى أول أكتوبر سنة ١٩٢٤ .

ومن هنا اختلط أمرهم على الرواة اختلاطاً شديداً ، فهم يضيفون إلى المجنون شعر جميل وقيس بن ذريح ، وهم يضيفون إلى قيس بن ذريح شعر جميل وشعر المجنون ، وهم يضيفون إلى جميل شعر ابن ذريح وابن الملوّح . ماذا أقول ! بل هم يضيفون إلى كلّ واحد من هؤلاء الشعراء شعر كثير من أولئك الشعراء الذين لم يُتحْ لأسمائهم الخلود ولم يعرف عنهم إلا بعض ما قالوا من الشعر . ولعلك تذكر ما رويت لك فى حديث مضى عن الجاحظ من أنه كان يقول : ما ترك الناس شعراً مجهول القائل ذكرت فيه ليلى أو لُبنى إلا نسبوه إلى المجنون أو إلى قيس بن ذريح . وتستطيع أن تقول أنت : ما ترك الناس شعراً مجهول القائل فيه ذكر بثينة أو عزة إلا نسبوه إلى جميل أو إلى كثير . بل تستطيع أن تقول : ما ترك الناس شعراً مجهول القائل فيه ذكر عفراء إلا نسبوه إلى عروة ابن حزام . وعلى هذا النحو تستطيع أن تمضى .

والحقيقة التى ما أحسب أنها تتعرّض للشك هى أن ليلى ولبنى وعزة وبثينة وعفراء وهنداً ودعداً وسعاد ، كل هذه أسماء ما أظن أنها تعين مسميات ممتازات ، وإنما هى أسماء نساء اتخذها الشعراء لهذا المثل الأعلى الذى كانوا يلتمسونه ويطمحون إليه حين كانوا يتغنون الحب ، سواء منهم فى ذلك الشعراء المعروفون والشعراء المجهولون . ليلى ولُبنى وبثينة بالقياس إلى هذا النوع من الغزل أسماء تشبه « هيلانه » بالقياس إلى القصاص من شعراء اليونان المتقدمين ، لسنا ندرى أوُجدت حقاً ! بل أكبر الظن أنها لم توجد وإنما هى المثل الأعلى فى الجمال والحب واللين والرقة والدعة وغير ذلك من هذه الخصال التى يتغناها الغزلون .

هنالك حقيقة أخرى ما أحسب أنها تتعرّض للشك أيضاً وهى أنّ المجهولين من هؤلاء الشعراء الذين اصطنعوا الغزل العفيف وأكثروا القول فيه وظفروا بإجادته وإتقانه أكثر من المعروفين . بل أكاد أعتقد أنهم لا يكادون يحصون . بل أكاد أعتقد أن الكثرة من شباب الأعراب فى ذلك العصر كانوا يصطنعون هذا النوع من الغزل فيتغنون الحب وحسان العذارى . ولكن دواوين الرواة وذاكرتهم ضاقت بهذه الأسماء الكثيرة التى لا يبلغها الإحصاء ، فلم تثبت منها إلا قليلا . وليس من شك أيضاً فى أن هذا الفن الذى ظهر ظهوراً

طبيعياً فى هذا العصر ؛ لأنه كان يترجم عن ميل عام وعواطف مشتركة لهؤلاء البدو . أقول : ليس من شك فى أن هذا الفن لم يكد يظهر ويفتنُ به الناس حتى تخصص له شعراء قصروا حياتهم عليه واتخذوه لأنفسهم صناعة وحرفة، فهؤلاء الشعراء هم الذين أخفوا غيرهم من الأعراب المجهولين ، وهم الذين بقيت، أسماؤهم فحفظها الرواة واجتهدوا فى أن يخلقوا حولها من القصص والأحاديث ما كان موضوعاً لبحثنا فى الفصول الماضية . إذن لم يكن جميل وقيس بن ذريح والمجنون وغيرهم من هؤلاء الشعراء عشاقاً بالمعنى الذى يريد الرواة أن يخيلوه إلينا ، وإنما كانوا شعراء ، أو كان الذين وجدوا منهم شعراء قد اختصوا بهذا النوع من الشعر ووقفوا عليه حياتهم ؛ لأنه كان فناً رائجاً فى البادية حينئذ، اختصوا به كما اختص غيرهم بالهجاء ؛ لأن الحياة الاجتماعية كانت تدعو إلى أن يختص به الشعراء ، وكما اختص غيرهم بالمدح ؛ لأن الحاجة كانت تدعو إلى أن يختص به شعراء ، وكما اختص غيرهم بالشعر السياسى ، وكما اختص غيرهم بوصف الخمر وهلم جراً .

ومن هنا كان من الحق أن نلاحظ أن الحياة الأدبية ليست من السهولة واليسر والسذاجة بحيث نظن أو بحيث كان يعتقد الرواة ، وإنما هى معقدة أشد التعقيد . غامضة أشد الغموض ، محتاجة إلى ألوان من البحث والعناء فيه لنستخلص شيئاً من حقائقها المجهولة ، فمن الخطأ الفاحش أن نظن أن أكثر هذا الشعر الذى يروى لنا عن شعراء العصر الأموى الإسلامى قد صدر عن الفطرة والسليقة صدوراً طبيعياً من غير تكلف ولا صنعة ، كما يتفجر الينبوع عن الماء دون أن يكون للإنسان فى تفجيره عمل . ليس هذا حقاً ، وإنما الكثرة المطلقة من هؤلاء الشعراء كانوا عمالا صناعاً يجدون فى فنونهم ويكدحون ويخضعون لما يخضع له غيرهم من العمال والصناع وأهل الفن من هذه القوانين الطبيعية والاجتماعية المختلفة .

ومهما يكن من شىء ، فنحن مضطرون إلى أن نقسم هذا الغزل العفيف نفسه إلى قسمين : أحدهما هذا الغزل الذى قاله شعراء مجهولون ذهبت أسماؤهم ، إما لأنهم لم يكثروا من الشعر ولم يتخذوه صناعة ، وإما لأن حظهم من الإجادة لم يكن كحظ غيرهم من هؤلاء الذين بقيت أسماؤهم . والآخر شعر هؤلاء الشعراء

المعروفين الذين اتخذوا الغزل صناعة وفنّاً .

ولا بدّ من أن نجتهد فى بيان الأسباب التى نشأ عنها هذا الفن فى البادية العربية . ولعلك لم تنس ما قدّمناه فى غير هذا الفصل من حال هؤلاء الأعراب بعد أن استقر الأمرللمسلمين . فقد قلنا إنهم كانوا فى شىء من اليأس والفقر غير قليل ، وإن هذا اليأس والفقر قد أحدثا فى البادية مثل ما أحدث اليأس والغنى فى الحاضرة من نشأة هذا الفن الشعرى . ولكن يأس البادية وفقرها أحدثا هذا الغزل العفيف على حين قد أحدث يأس الحاضرة وغناها هذا الغزل العابث الماجن .

يكفى أن توازن بين حياة البدو بعد الإسلام وقبله ، لترى أن هناك فروقاً عظيمة بين هذين النوعين من الحياة . ولكن هذه الفروق تكاد تقتصر على الحياة المعنوية وحدها . فلم تكد الحياة المادية تتغير عند هؤلاء الناس بعد الإسلام ، وإنما كانوا فى ظل الخلفاء كما كانوا فى عصر الجاهلية : يخضعون لقوانين البداوة ويقاسون من شظفها وخشونتها مثل ما كانوا يقاسون فى العصر الجاهلى . وربما أتيح لهم شىء من سعة الحياة ، ولكنه لم يكن كثيراً ولا موفوراً . ذلك لأنهم لم يكونوا يشتركون فى الحياة السياسية . فإن فعلوا فلم يكونوا يحتفظون بالحياة البدوية . أريد أن البدويين الذين كانوا ينتظمون فى الجيش أو يتصلون بالخلفاء والأمراء والعمال لم يكونوا يحتفظون بحياة البداوة ، وإنما كانوا يتحضرون فيستقرون فى العراق أو الشام أو مصر أو غيرها من بلاد المسلمين . أما الذين كانوا يبقون فى الجزيرة العربية فقد كانوا لا يكادون يستمتعون بشىء من هذه الثروة الضخمة التى أفاءها الإسلام على المسلمين .

وربما كان من الحق أن نلاحظ أنّ هؤلاء الناس من أهل البادية كانوا قد احتملوا أعباء فى الإسلام لم يكونوا يحتملونها فى الجاهلية ، أريد أعباء الصدقة والزكاة . فقد كانوا قبل الإسلام أحراراً لا يؤدون إتاوة ولا يخضعون لنظام إلا ما اصطنعوا لأنفسهم من نظمهم الخاصة فيما بينهم . أما بعد الإسلام فقد ضربت عليهم الضرائب وأخذوا بالصدقات فى سائمتهم . ولعل ما كانوا يظفرون به بعد الكدّ من ثمرات الأرض لم يكن بمأمن من العشر . وإذن فقد ضيقت الحياة الجديدة عليهم بعض التضييق . أضف إلى هذا شيئاً آخر ، وهو أن الإسلام قد أخذ على هؤلاء الناس شيئاً من طرق الكسب التى كانت مألوفة

فى الجاهلية ، لأن الإسلام أقرّ السلام بين القبائل البدوية وحال بينها وبين ما كانت تتخذه مجداً وشرفاً ومكسباً من الغزو وضروب الإغارة . فلم يكن يتاح للقبائل بعد الإسلام أن تتغازى ويغير بعضها على بعض ، كما كانت الحال فى الجاهلية . وإذن فهذا نوع آخر من التضييق أحدثه الإسلام لهؤلاء الناس ، ثم لا تنس أن الإسلام قد أدخل النظام فى الحياة العربية ، فقيد حرية الفرد والجماعة بهذه القيود المعروفة . وإذن فقد كانت الحياة المادية عند أهل البادية بعد الإسلام شرًّا مما كانت عليه قبل الإسلام ، ولهذا لم تدم الحياة الإسلامية المنظمة فى البادية عصراً طويلا ، ولم يكد يضعف سلطان الخلفاء أو لم يكد الخلفاء ينصرفون إلى تدبير البلاد المفتوحة حتّى انتهز أهل البادية هذه الفرصة ، فاستأنفوا ما كانوا فيه أيام الجاهلية من غزو وإغارة وحرب وخصومة ، بل لم يدع أهل البادية فرصة تمكنهم من الفرار من أداء الصدقات والضرائب إلا انتهزوها واستفادوا منها ، وربما كان من اللذيذ أن ندرس فى يوم من الأيام أثر هذا فى شعر أهل البادية .

لم تتغير إذن حياتهم المادّية فى جملتها ، بل ظلوا يلقون من الضيق ويقاسون من الشظف مثلما كانوا يلقون ويقاسون فى العصر الجاهلى . أما حياتهم العقلية والمعنوية بنوع خاص فقد تغيرت تغيراً شديداً . وحسبك أن تقارن حياة بدوية متأثرة بهذه الطائفة من الآراء التى كان يتأثر بها الجاهليون ، بحياة بدوية أخرى متأثرة بالقرآن الكريم وما فيه من دين وخلق وأدب وحكمة ونظام ، لتشعر بالفرق بين نفسية البدوىّ المسلم فى أول عهد الناس بالإسلام ونفسية البدوى الجاهلى . كان هذا الفرق عظيماً وكان التوازن مختلا بين الحياة العقلية والحياة المادّية؛ تغيرت الأولى تغيراً تامًّا ، ولم تتغير الأخرى أو لم ينلها من التغير إلا شىء قليل .

ومن هنا نشأ فى نفوس هؤلاء الناس شىء من اليأس الذى أشرت إليه آنفاً ووصفته وصفاً مفصلا فى غير هذا الفصل ، شىء من اليأس فى الحياة المادّية تبعه شىء من الأمل فى حياة أخرى ليس واضحاً فى هذه النفوس الساذجة وضوحه فى نفوس أهل الحضر . ومن هذا اليأس والأمل تكوّن لهؤلاء البدو مزاج خاص لا هو بالبدوىّ الغليظ ولا هو بالحضرى الرقيق ، وإنما هو شىء بين بين .

ولعل أوضح ما يمتاز به هذا المزاج ميله إلى أن ينكبّ على نفسه انكباباً خاصًّا ، فيتعرّف أسرارها ودخائلها ، ويحاول أن يستكشف فيها هذه الحاجات الغريبة التى تشعر بها دون أن تستطيع لها إرضاء أو شفاء . لعلّ أوضح ما يمتاز به هذا المزاج شيء من الحزن الساذج المؤلم غير المحدود ولا البين ، هذا الحزن العام الغامض الذى نستطيع نحن بوجه من الوجوه أن نتبين أسبابه فى هذا اليأس وفى هذا الفقر وفى هذه العزلة التى كانت تحول بين هؤلاء الناس وبين العمل السياسى وغير السياسى . نستطيع نحن أن نتبين أسباب هذا الحزن فنفهمه ونفسره . أما أولئك الناس فلم يكونوا يتبينون هذه الأسباب ولا يشعرون بها . بل لعلهم لم يكونوا يشعرون بهذا الحزن نفسه ، مثلهم فى ذلك مثل غيرهم من الشعوب المختلفة التى أحدثت أعظم الأحداث وخضعت لضروب من الثورات المادّية والعقلية العنيفة ، حتى إذا هدأت العاصفة وأخذت الأمور تستقر فى نصابها ، نظرت هذه الشعوب فإذا هى لم تجن من هذه الثورات والاضطرابات العنيفة شيئاً أو لم تكد تجنى منها شيئاً ، فما أسرع ما يأخذها اليأس ويملكها الحزن ، وتنشأ فيها فنون أدبية جديدة ما كانت لتنشأ فيها لولا هذه الثورات وما أحيت من أمل قوىّ تبعه يأس قوى ، وما لنا نذهب بعيداً والمثل قائم بين أيدينا لا تزال له حياته وقوّته ! أريد الشعب الفرنسى بعد الثورة ، والأدب الفرنسى بعد أن أخفقت الثورة والإمبراطورية الأولى ، والعقل الفرنسى فى هذا العصر الذى يقع بين الإمبراطورية الأولى والإمبراطورية الثانية والذى أنتج هذا النوع من الأدب الحزين البائس بل اليائس الذى نقرؤه فى (شاتوبريان) و (لامارتين) و (موسيه) و (فينى) . أتظن أنا كنا نقرأ هذه الآثار المحزونة المؤلمة التى تركها هؤلاء الكتاب والشعراء لو لم يحدث الشعب الفرنسى هذه الثورة العنيفة التى كانت على روعها وفظاعتها مفعمة بالآمال ثم انجلت عن « واترلو » ؟ كلا ! وما كنا لنقرأ شعر جميل والمجنون وابن ذريح لو لم تحدث الأمة العربية هذه الثورة العنيفة التى اضطربت لها العالم القديم وتغير لها فيه كل شيء ، والتى كانت مملوءة أملا والتى استتبعت ألواناً من الفظائع والآثام فيما أحدثت من فتن وما شئت من حروب ، والتى انتهت بالقياس إلى هؤلاء البدو إلى ما وصفت لك من هذه الحياة الخاملة الضيقة الخشنة الغليظة التى كان يحياها .

الأعراب فى صحارى جزيرة العرب ؛ حينما كان الخلفاء والأمراء ومن إليهم يستمتعون بالملك والمجد والثروة وألوان الترف .

إن الشبه لشديد جداً بين أثر الثورة الفرنسية فى نفوس هؤلاء الشعراء والكتاب الذين ذكرتهم ، وأثر الثورة العربية فى نفوس جميل وقيس بن ذريح ومن إليهما من الشعراء الغزلين فى البادية . الشبه شديد ، ولكن على أن تلاحظ الفرق بين الأمة الفرنسية التى كانت متحضرة مترفة عالمة بارعة فى الفن حينما أحدثت ثورتها ، والأمة العربية التى كانت بادية ساذجة جاهلة خشنة العيش حينما أحدثت ثورتها أيضاً .

مهما يكن من شىء ، فإن حركة عقلية وشعورية أنشأت فى أهل البادية من العرب — بعد أن انتهت الفتوحات والفتن — فنا أدبيًّا يشبه من بعض الوجوه هذا الفن الذى أحدثته فى فرنسا هذه الحركة العقلية الشعورية التى نشأت بعد فشل الثورة والإمبراطورية الأولى . والغريب أنك تجد فى هذين الفنين العربى والفرنسى وجهين مختلفين فى مظهرهما متفقين فى أسبابهما ، تجد عند العرب وعند الفرنسيين شعراء يئسوا فذكروا الحب وتغنوه فى غير فجور ولا مجون ، وآخرين يئسوا فلهوا وأسرفوا فى اللهو وتغنوا لهوهم وإسرافهم . ولو أن أولئك وهؤلاء وجدوا من الحياة العملية ما يحول بينهم وبين اليأس ، ويصرفهم عن أنفسهم إلى الحياة وعقباتها ومصاعبها لما تركوا لنا من الآثار ما تركوا . أتظن أن جميلا وعمر ابن أبى ربيعة — وهما يمثلان هذين اللونين من اليأس — كانا يقضيان حياتهما فى حزن عميق يمثله هذا الغزل العفيف أو هذا اللهو المبتسم ، لو أنهما وجدا من الحياة العملية ما يصرفهما عن أنفسهما إلى هذا الجهاد الخصب المنتج الذى كان يمعن فيه أهل العراق والشام !

أظن أن الأسباب التى أثرت فى نشأة هذا الغزل واضحة جلية الآن . وأظن أننا نستطيع أن ننتقل منها إلى شىء آخر ، إلى هذا الغزل نفسه وإلى خصائصه ومميزاته .

ولنلاحظ قبل كل شىء أن هذا الغزل كان يستطيع أن يكون أخصب وأغنى منه فى حقيقة الأمر لو لم تحط به هذه الظروف الخاصة التى أنشأته وأشرفت على حياته . أريد . هذه البداوة وما استتبعته من سذاجة وجهل حاد

بين هذا الغزل وبين أن يكون خصباً غنيّاً حقّاً ، وجعلت من اليسير أن نستغنى ببعضه عن بعض وأن نحكم ببعضه على بعض ، وحالت بين هؤلاء الشعراء وبين أن تكون لهم شخصيات قوية بارزة كهذه الشخصيات الّتى نجدها لشعراء الفرنسيين وكتابهم بين الإمبراطوريتين . فإنك تستطيع أن تستغنى بجميل عن قيس بن ذريح أو بقيس بن ذريح عن جميل ، بل تستطيع أن تستغنى بواحد من هؤلاء الشعراء عن الشعراء الآخرين جميعاً ، لأنهم طرقوا موضوعاً بعينه هو الحب ، وتناولوه بأسلوب واحد وعلى نحو واحد من اللفظ . فما أسرع ما انتهوا إلى أقصى ما كان يمكن أن يصلوا إليه ! وما أيسر ما تشابهت ألفاظهم ومعانيهم وأساليبهم ! حتى إنك لتضيف إلى أحدهم ما قاله غيره دون أن يحول بينك وبين ذلك حائل فنى ما . كلهم أحب امرأة أو زعم أنه أحب امرأة . وكلهم اتخذ هذه المرأة مثالا أعلى للجمال المادىّ والمعنوى . وكلهم وصفها بما يتصف به هذا المثل الأعلى من صفات الحسن والكمال . وكلهم اعتمد فى تكوين هذا المثل الأعلى وفى وصفه على السنن الموروثة وألوان التشبيه التى سبقهم إليها الشعراء الأوّلون أو التى تواضع عليها الناس فيما بينهم ، كلهم شبه صاحبته بالشمس والقمر . وكلهم وصف أجزاء صاحبته بما كان يصفها به غيرهم من الشعراء . وكلهم استعمل أو كاد يستعمل نفس الألفاظ ونفس المعانى التى كان يستعملها الشعراء من قبل .

فيم امتازوا عن هؤلاء الشعراء ؟ بشيئين اثنين فيما أعتقد : أحدهما أنهم قصروا حياتهم الفنية على الغزل . وكان الشعراء فى العصر الجاهلى يعنون بالغزل كما يعنون بغيره من الفنون ، وربما اتخذوه وسيلة فى أكثر الأحيان لا غاية . أما أصحابنا هؤلاء فقد اتخذوا الغزل غاية لا وسيلة . ولم نعرف أنهم مدحوا أو عُنوا بفن آخر من فنون الشعر إلا ما كان يضطرهم إليه الغزل . فنحن نعلم مثلا أنّ جميلا هجا وفاخر ، ولكنا نعلم أنه لم يهج رغبة فى الهجاء ، ولم يفاخر رغبة فى الفخر ، كما كان يفعل الأخطل والفرزدق وجرير ؛ وإنما هجا لأن غزله اضطره إلى الهجاء ، وفاخر لأن غزله اضطره إلى الفخر . هجا قوماً كانوا يعيبونه ويهجونه لغزله ونسيبه ، وفاخر هؤلاء القوم أنفسهم ، ولو لم يعرضوا له لما فاخر ولا هجا ، ونحن نعلم أن قيس بن ذريح لم يجاوز الغزل إلى غيره من فنون الشعر ، وقد

أضيفت إليه أبيات مدح بها ابن أبى عتيق ؛ ولكنا نعلم أنّ هذه الأبيات مصنوعة من جهة ، وأنها – إن صحت – فلم يقلها قيس إلا لأن ابن أبى عتيق جدّ فى وصل الحبل بينه وبين لبنى .

والآخر أن غزل هؤلاء الشعراء الإسلاميين أرق بكثير من غزل الجاهليين من حيث إن غزل الجاهليين كان ماديًّا خالصاً فى حين كان فى غزل الإسلاميين شيء غير المادة . وأظن أنّ هذا يحتاج إلى شيء من الإيضاح .

ما الذى كان يعنى به امرؤ القيس أو النابغة أو الأعشى إذا تغزلوا وذكروا النساء ؟ لم يكونوا يعنون بذكر الحب وتأثيره فى النفس ولا بهذه الآلام المختلفة التى تنشأ عنه ، أى لم يكونوا يعنون بدخائل نفوسهم ، وإنما كان الغزل عندهم ضرباً من الوصف ، كانوا يصفون النساء كما كانوا يصفون الإبل . وقلما تجد عندهم عناية بالعاطفة أو حرصاً على تمثيلها ، فإن وجدت عندهم هذه العناية بالعاطفة لم تلبث أن تزدرى هذه العاطفة ازدراء ؛ لأنها كانت عاطفة مادّية غليظة إن صح هذا التعبير . كانت عواطفهم تصدر عن الشهوات وإيثار اللذة قبل كل شيء . ومن هنا تجد عند امرئ القيس والنابغة مثلا هذا الوصف المادىّ الذى يتناول أجزاء المرأة فيصفها وصفاً تفصيليًّا يختلف حظه من العفة قوّة وضعفاً ؛ ولكنه مادىّ قبل كل شيء . فإذا تركوا هذا الوصف وانصرفوا إلى أنفسهم يصفون ما تعانى من الحب وما تلقى من آلامه ، فهم يعرضون لذلك كما يعرضون لوصف اللذات وحاجتهم إليها ورغبتهم فيها ، يصفون لذة الحب كما يصفون لذة الصيد ولذة الحرب . ومن قبل ذلك قلنا : إنهم كانوا يصفون النساء كما كانوا يصفون الإبل ، كذلك كان الغزل فى الجاهلية ، كان وسيلة وكان ماديًّا . أما غزل الإسلاميين فلم يكن وسيلة وإنما كان غاية ، ولسنا نستطيع أن نقول إنه برىء من المادة وخلاؤها خلوًّا تامًّا ، فذلك غير صحيح ، ولم يستطع الأدب العربى فى وقت من الأوقات أن يبرأ من المادة ، وإنا نستطيع أن نقول : إن الغزل الإسلامى العذرى أضاف إلى المادة شيئاً آخر جعله قوام الشعر ، نريد به الحب نفسه وما يترك فى القلب من أثر ، وما يبعث فى النفس من عاطفة ، وما يسبغ على المحب من كآبة وحزن ، وما يحيى فيه من أمل ورجاء ، لسنا نشك فى أن جميلا وقيس بن ذريح والمجنون قد وصفوا أجسام

بثينة ولبنى وليلى ، بل وصفوا هذه الأجسام وصفاً مفصلا لا يخلو من دقة وتحقيق ، ولكنا لا نستطيع أن نشك فى أن هذا الوصف المادىّ لم يكن الغرض الذى كان يرمى إليه هؤلاء الشعراء، إنما كان وسيلة إلى الغرض الذى كانوا يرمون إليه ، وهو وصف النفس وما تلقى بالحب من شقاء أو سعادة ومن بؤس أو نعيم.

انتقل إذن موضوع الغزل فى الإسلام ، كان فى الجاهلية جسم المرأة فأصبح فى الإسلام نفس العاشق ، ومن هنا لم يكن العذريون المسلمون يصفون المرأة كما كانوا يصفون الإبل ، ولم يكونوا يذكرون لذة الحب كما كانوا يذكرون لذة الصيد ، وإنما كانوا يصفون المرأة كما ينبغى أن يصفها إنسان يشعر ويحس ويمتاز بشىء من الشعور والحس لا يخلو من رقة ورقّ معاً . لم تكن المرأة عند هؤلاء الشعراء حاجة تطلب أو شيئاً يطمع فيه ، وإنما كانت شطراً من النفس لا تطيب للنفس حياة إلا به . ولعلك تقرّنا على أن هذا رقّ عظيم ، وعلى أن العقل العربى والشعور العربى عند ما بلغا هذا الطور من تصوّر المرأة والحكم عليها والميل إليها ؛ كانا قد جاوزا كل المجاوزة طور الوحشية التى كان يعيش فيها الجاهليون . وليس غريباً أن يعظم الفرق بين هذين الطورين فقد كان بينهما القرآن ، وأثر القرآن فى نفوس المسلمين عظيم .

وأريد أن أضرب لك أمثالا تشخص هذا التطور تشخيصاً ظاهراً قويًّا ، فأبدأ بهذه الأبيات من شعر جميل وألفتك إلى أنها مادية فى أوّلها ولكنها لا تلبث أن تترك المادة إلى المعنى ، وأن تتناول الصلة بين العاشقين فى رقة ولطف وحنان ما كان ليجدها قلب كقلب امرئ القيس ، وأحبّ أن تلتفت إلى أن هذا الشعر كغيره من شعر جميل وأصحابه لا يخلو من أبيات مصنوعة دسها المغنون ، ولكن شيئاً من الفقه الأدبى يمكنك فى يسر من أن تفرق بين المطبوع والمصنوع :

وكأنَّ طارقَها عَلَى عَلَلِ الْكَرَى ... وَالنَّجمُ وهْناً قَدْ دنا لِتَغَوُّرِ
يسْتَاقُ ريحَ مُدامَةٍ معْجُونة ... بذَكِىِّ مِسْكٍ أو سَحِيقِ الْعنْبَرِ
إنى لَأَحْفَظُ غَيْبَكُمْ ويَسرُّنِى ... إذْ تَذْكُرِينَ بِصالحٍ أن تذكَرِى
ويَكُونُ يَوْمٌ لا أرَى لَكِ مُرْسَلًا ... أَوْ نَلْتَقِى فِيهِ عَلَىَّ كَأَشْهُرِ
لَيْتَنِى أَلْقَى المَنِيَّةَ بَغْتَةً ... إنْ كانَ يَوْمُ لِقَائِكُمْ لَمْ يُقْدَرِ

أَوْ أَسْتَطِيعُ تَجلُّدًا عَنْ ذِكْرِكُمْ فيُفِيقَ بعْضُ صَبابَتى وتَفكُّرِى
لَوْ قَدْ تَجِنُّ كما أُجِنُّ مِنَ الهوَى لَعَذَرْتَ أَوْ لَظَلَمْتَ إنْ لمْ تَعْذرِ
واللهِ مَا لِلقَلْبِ مِنْ عِلْمٍ بِهَا غيْرَ الظُّنُونِ وغيْرَ قَوْلِ المُخْبرِ
لا تَحْسَبِى أَنِّى هجَرْتُكِ طَائِعاً حدَثٌ لَعَمْرُكِ رَائعٌ أَن تُهْجَرِى
فَلَتَبْكِيَنِى البَاكِيَاتُ وإنْ أبحْ يَوْماً بِسرك مُعْلِناً لَمْ أَعْذَرِ
يهْواكِ ماعشْت الفؤَادُ فإنْأَمُتْ يَتبَعِ صَدَاىَ صَدَاكِ بيْنَ الأَقْبُرِ

فهل ترى ألذّ من هذه النجوى وأعذب من هذا الحديث ؟ وهل تقدّر هذا الجمال الفنى الذى يمثله هذا الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ثم من الخطاب إلى الغيبة ، كلما دعا إلى ذلك موضوع الحديث ؟ ثم هل تعلم أرق من هذا الكلام عاطفة وأرقى منه شعوراً ؟

وانظر إلى هذه الأبيات التى قالها بعد أن حاول لقاء بثينة فلم يوفق إليه ، فرجع كئيباً ، وأخذ نساء الحىّ يلمنه ويعرضن له بحبهن ووصلهن :

أبثيْنُ إنكِ قدْ ملكْتِ فأسْجحِى وخُذِى بحظِّكِ مِنْ كرِيمٍ واصِلِ
فَلَرُبَّ عَارِضةٍ علَيْنَا وصلها بِالْجِدِّ تَخلِطُهُ بِقَوْلِ الهَازلِ
فأَجبْتُهَا فى القَوْلِ بَعْدَ تَسَتُّرٍ حُبِّى بُثَيْنَةَ عَنْ وِصَالِك شاغِلِى
لَوْ كان فى صدْرِى كقدرِ قُلامَةٍ فضلا وصَلْتُكِ أَوْأَتَتكِ رَسَائِلِى
ويَقُلْنَ إنَّكَ قَدْ رَضِيتَ بِبَاطِلٍ مِنهَا فهَلْ لَكَ فى اجْتِنابِ البَاطل
ولَبَاطِلٌ مِمَّن أُحِبُّ حدِيثهُ أَشْهَى إِلَىَّ مِنَ البَغيضِ الْباذِلِ
لِيَزِلْنَ عَنْكِ هَوایَ ثُمَّ يَصِلْنَنِى وإِذا هوِيتُ فما هوَایَ بِزَائِلِ
صادَتْ فُؤَادِى يَا بُثَيْنُ حِبَالكُمْ يَوْمَ الحَجُونِ وأَخْطَأَتكِ حبائِلِى
منَّيْتِنِى فلَوِيْتِ ما مَنَّيْتِنِى وجَعَلْتِ عَاجِلَ ما وعَدْتِ كآجلِ
وتَثَاقَلَتْ لَمَّا رَأَتْ كَلَفِى بِهَا أَحْبِبْ إلَىَّ بذاكَ مِن مُتَثَاقِلِ

وأطَعْت فىَّ عوَاذِلاً فَهجَرْتِنى ... وعصيْتُ فيكِ وقَدْ جَهَدْنَ عَواذِلِى
حاوَلْنَى لأَبُتَّ حَبْلَ وصَالِكُمْ ... مِنِّى ، ولسْتُ وإنْ جهِدْن بِفَاعِلِ
فَردَدْتهُنَّ وقد سَعَيْنَ بهَجْرِكمْ ... لَما سَعَيْنَ لهُ بِأَفْوَقَ نَاصلِ
يعْضَضْنَ مِنْ غَيظٍ عَلَى أنَامِلا ... ووددْتُ لَوْيعْضَضْنَ صُمَّ جَنَادِلِ
ويَقُلْنَ إنَّكِ يا بُثَيْنُ بَخيلَة ... نَفسِى فِدَاؤُكِ مِنْ ضِنِين باخِلِ

رويت لك هذه الأبيات على علاتها فى رواية أبى الفرج مع تغيير قليل جداً فى ترتيب الأبيات الأولى لم يكن منه بدّ لاستقامة المعنى . ولست أشك فى أن هذه الأبيات رغيرها من شعر الغزلين تروى فى كتاب الأغانى وقد فقدت ترتيبها الطبيعى ؛ لأنّ أبا الفرج لا يلتفت إلا إلى الغناء وأصوات المغنين ، فأما النظام الطبيعى للقصيدة فلا يحفل به ، وعندى أنّ هذه الأبيات التى نحن بإزائها قد رويت معكوسة وأن آخرها يجب أن يقع فى أوّلها . وشىء من التأمل يقنعك بهذا . ولكن لهذا البحث موضعاً آخر . أما الآن فأنا ألفتك إلى الأبيات الأولى من هذا الشعر وإلى لطف هذا التخلص من تلك التى كانت تتبع جميلا وتطمعه ، تريد أن تصرفه عن صاحبته إلى نفسها . ثم ألفتك أيضاً إلى هذا الجمال الفنى الذى يمثله الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة ، وإلى هذه الجمل المعترضة التى يأتى بها الشاعر إما للتأكيد وإما للتلطف فى حديث صاحبته . ثم ألفتك إلى هذه السهولة فى اللفظ والمعنى .فكل هذه الخلال التى تجدها فى أكثر شعر جميل تبعدك كل البعد عن شعر الجاهليين وغزلهم .

* * *

ولأنتقل بك من جميل هذا البدوى المتحضر فى شعره إلى رجل آخر احتفظ فى شعره بالبداوة دون أن يخطئه الجمال الفنى أو يقلّ حظه من الرقة وشرف العاطفة ، وهو قيس بن ذريح . وأروى لك من شعره الجميل هذه الأبيات :

أَقَضِّي نَهَارِي بِالْحَدِيثِ وبِالْمُنَى ... ويَجْمَعُنِي والْهَمَّ بِاللَّيْلِ جَامِعُ

نهارِي نَهارُ النَّاسِ حتى إِذَا بَدَا ... لِيَ اللَّيْلُ هَزَّتْنِي إِلَيْكِ المَضَاجِعُ

لَقَدْ رَسَختْ فِي القَلْبِ مِنْكِ مَوَدَّةٌ ... كما رَسَخَتْ فِي الرَّاحَتَيْنِ الأَصَابِعُ

أَحَالَ عَلَيَّ الْهَمُّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ... ودامتْ فَلَمْ تَبْرَحْ عَلَيَّ الْفَوَاجِعُ

أَلا إِنَّمَا أَبْكِي لِمَا هُوَ وَاقِعٌ ... فهلْ جَزَعِي مِنْ وشْكِ ذٰلِكَ نَافِعُ

وقد كُنْتُ أَبْكِي والنَّوَى مطْمَئِنَّةٌ ... بِنَاوِبِكُمْ مِنْ عِلْمِ مَا الْبَيْنُ صَانِعُ

وأَهْجُرُكُمْ هجْرَ البَغِيضِ وحُبُّكُمْ ... عَلَى كَبِدِي مِنْهُ شُؤُونٌ صَوَادِعُ

وأَعمِدُ لِلأَرْضِ الَّتِي لَا أُرِيدُهَا ... لِتَرْجِعَنِي يَوْماً إِلَيْكِ الرَّوَاجِعُ

وأُشْفِقُ مِنْ هِجْرَانِكُمْ وتَرُوعُنِي ... مخافَةُ وشْكِ البَيْنِ والشَّمْلُ جامِعُ

فمَا كُلُّ ما منَّتْكَ نفْسُكَ خالياً ... تُلاقِي، ولا كُلُّ الْهَوَى أَنْتَ تَابِعُ

لَعَمْرِي لَمَنْ أَمْسَى ولُبْنَى ضجِيعُهُ ... مِنَ النَّاسِ ما اخْتِيرَتْ عَلَيْهِ المَضَاجِعُ

فَتِلْكَ لُبَيْنَى قدْ تَرَاخَى مزارُهَا ... وتِلْكَ نَوَاهَا غَرْبَةٌ مَا تُطَاوِعُ

ولَيْسَ لِأَمْرٍ حَاوَلَ اللهُ جَمْعَهُ ... مُشِتٌّ ولا مَا فَرَّقَ اللهُ جَامِعُ

فلا تَبْكِيَنَّ فِي إِثْرِ لُبْنَى نَدَامَةً ... وقَدْ نَزَعَتْهَا مِنْ يَدَيْكَ النَّوَازِعُ .

أما أنا فأرى أن هذه القصيدة آية من آيات الغزل العربي : فيها جمال اللفظ ورصانته ؛ وفيها جلال المعنى ومتانته ، وفيها جمال هذه النفس التي تألم هذا الألم الشريف ، وتذعن لقضاء الله وقدره هذا الإذعان الشريف .

وأحب أن تقدّر معي جمال هذا البيت وما فيه من صدق وسذاجة طبيعية وجودة للتشبيه :

لَقَدْ رَسَخَت فِي القَلْبِ مِنْكِ مودَّةٌ ... كما رسختْ في الراحتينِ الأَصابعُ

انظر إليه ! أراد أن يشبه ثبوت حبه ومتانته ، فلم يلتمس التشبيه بعيداً من نفسه ، وإنما وجده فمدّ إليه يده أو لم يمدها ، وجده في يده « كما رسخت

فى الراحتين الأصابع » . ثم أحب أن تلتفت إلى هذا اليأس والإذعان اللذين ذكرتهما فى أوّل هذا الفصل . أحب أن تلتفت إلى هذا البيت وتحدثنى أيمثل اليأس والإذعان تمثيلا صحيحاً :

وَلَيْسَ لِأَمْرٍ حاوَلَ اللهُ جَمْعَهُ مُشِتٌّ ولاَ مَا فرَّقَ الله جامِعُ

أحب أن تقرأ هذه القصيدة وتقرأها ؛ فإنك لا تجد فيها نفس الشاعر وحده إنما تجد فيها نفس هؤلاء الغزلين جميعاً . بل تجد فيها نفس البادية العربية فى هذا العصر . أحب أن تقرأ هذه القصيدة وتقرأها وأن تقرأ أمثالها من شعر قيس وجميل وغير قيس وجميل ؛ فإنك ستجد فى هذا الشعر ما تسكت به الذين يزرون الأدب العربى ويجحدون مكانة الشعر العربى ويخدعون بجمال الشعر الإفرنجى ، والله يعلم أنهم ما فهموه ولا ذاقوه ، فيزعمون أن العرب لم يحدثوا شيئاً ولم يفهموا الجمال ولم يقدروه : إنهم ليزعمون ذلك ، وإنهم ليتحدثون به إلى الشباب ، وإنهم ليكتبونه فى الصحف والكتب ، والله يعلم ما زعموه ولا كتبوه ولا تحدثوا به إلا عن جهل فاحش للأدب العربى والإفرنجى جميعاً .

ولكنى أشعر بأنى أشطّ عن موضوع هذا البحث ، فلأعدْ إليه ولأختمه بهذه الأبيات القليلة التى قالها مجهول ونسبت إلى المجنون ، والتى تمثل بداوة الغزل العربى ناصعة خلابة فى جمالها الساذج الطبيعى وهى :

تمرُّ الصَّبَا صَفْحاً بِسَاكنِ ذى الغَضَا ويَصْدَعُ قَلْبِي أَنْ يَهُبَّ هُبوبُها
إذا هَبَّتِ الرِّيحُ الشَّمالُ فَإِنَّمَا جوَاى بِمَا تُهْدِى إِلَىَّ جَنُوبُها
قَرِيبَةُ عَهْدٍ بِالْحبيبِ ، وإنمَا هَوَى كل نَفسٍ حيثُ كانَ حبِيبُها
وحسْبُ اللَّيالى أن طَرحْنكَ مَطْرَحاً بدَارِ قِلًى تُمْسِى وأَنْتَ غَرِيبُهَا
حَلالٌ لِلَيْلَى شَتْمها وَانْتِقاصُها هنيئاً ، ومغْفُور لِلَيْلى ذُنُوبهَا

ألفتك إلى هذه البداوة فى قوله : « وَيصدَعُ قلبي أن يَهب هبُوبُها » فى قوله : « بدار قلى تُمسى وأنتَ غريبها » يريد وأنت غريب فيها . ثم ألفتك إلى هذه المعانى الساذجة الحلوة الخلابة لا لشىء إلا لأنها ساذجة . ألفتك إلى

هذا كله . وأودّ لو تقرأ وتقرأ ما لم أستطع أن أرويه لك من شعر هؤلاء الغزلين : وهو كثير ، كثير بحيث يمكننا من أن نتصور هذه النفس اليائسة البائسة الهائمة فى طلب المثل الأعلى وإن كان قليلا جداً بالقياس إلى ما ذهبت به الأحداث .

والآن وقد ألممنا بالغزلين وأشعارهم وأخبارهم إلمامة قصيرة ولكنها نافعة ، فقد نستطيع أن ننتقل منهم إلى طائفة أخرى من الشعراء فى الفصول المقبلة .

عود إلى الغزلين(١)

وضّاح اليمن

كنت أريد أن أنصرف عن الغزلين إلى طائفة أخرى من شعراء العصر الأموى ، ثم بدا لى ، فآثرت العودة إليهم ، لأتم البحث ، ولأن هؤلاء الغزلين من الحضر ليسوا أقل حظًا فى الإجادة من أولئك الغزلين من أهل البادية ، بل ربما كان درس الغزلين الحاضرين أعظم نفعاً وأشد غناء من درس الغزلين البادين . ذلك لأن الغزلين من أهل الحضر يمثلون نحواً من أنحاء الحضارة التى عاشوا فيها . ومن الخير أن نلم بهذه الحضارة الإسلامية فى أول عهدها بالظهور والإزهار . وقد يعنينا درس هذا الغزل الحضرى وما يتصل به من ألوان الحياة فى أيام بنى أمية على أن نفهم هذا العبث الذى نجده مستأثراً بالحياة الأدبية أيام بنى العباس ؛ فإن السنة الشعرية لم تنقطع بين هذين العصرين : عصر دمشق وعصر بغداد .

ثم قد نجد من درس الغزلين الحاضرين أيام بنى أمية ما يمكننا من تحديد الفروق الفنية والنفسية بين هؤلاء الشعراء الأمويين الذين كانوا أشد تأثراً بالحياة العربية القديمة ، وهؤلاء الشعراء العباسيين الذين كانوا أشد تأثراً بالحياة الفارسية الجديدة . ولكل هذا نفعه وقيمته ، ثم إن هؤلاء الشعراء الحاضرين لهم شخصياتهم البارزة وآثارهم القوية فى تكوين الأدب الإسلامى والنفس العربية الإسلامية ، فلابد من درسهم والإلمام بأطرافهم من حياتهم وآثارهم . وكيف نستطيع بعد أن درسنا جميلا وقيس بن ذريح والمجنون أن نهمل الأحوص والعرجى وعمر بن أبى ربيعة وعبيد الله بن قيس الرقيات ! على أنى لا أحدثك اليوم عن واحد من هؤلاء ، وإنما أحدثك عن رجل آخر لست أدرى فى الحق أوجد بالفعل أم لم يكن إلا خيالا اخترعه القصاصون اختراعاً وانتحلوا شعره انتحالا ،

(١) نشرت بجريدة « السياسة » فى ١٧ أكتوبر سنة ١٩٢٤ .

ونسجوا ما حوله من الأحاديث والأخبار ما فيه لذة ومتعة وما يدعو درسه إلى تأمل وتفكير ؟

أريد أن أحدّثك عن هذا الشاعر الذى يلقبونه وضّاح اليمن ، والذى فتن به بعض أساتذة الأدب المحدّثين حتى خيلّ إليهم أنه اخترع الشعر التمثيلى وأضافه إلى تراثنا الأدبى القديم . اخترع الشعر التمثيلىّ لا لأنه وضع قصة تمثيلية شعرية ، ولا لأنه تصوّر شيئاً يشبه القصص التمثيلية أو يقاربها ، بل لأن قصيدة من شعره فيها شىء من الحوار ؛ فخيل إلى هؤلاء الأدباء أنه قد اخترع التمثيل منذ أدخل الحوار فى الشعر ، ونسوا أن الحوار ليس هو التمثيل ، وإنما هو أصل من أصول التمثيل ، ونسوا أيضاً أن هذا الحوار الذى يجدونه فى شعر وضاح والذى سأظهرك عليه بعد حين قد سبق إليه الشعراء جميعاً فى جاهليتّهم وإسلامهم فحاور امرؤ القيس عشيقاته ، وحاور ابن أبى ربيعة أخدانه ، وحاور جميل بثينة ، وحاور كثير عزّة ، وحاور ابن ذريح لبنى ، ومهما يكن من شىء فليس عسير أن ننكر ما زعم هؤلاء الأساتذة المحدثون لوضاح اليمن من استكشاف التمثيل الشعرى ، وأن نبين أنّ مصدر هذا الزعم إنما هو أن هؤلاء الأساتذة يجهلون التمثيل من جهة ، ويريدون أن يضيفوا إلى الأدب العربى ما فيه وما ليس فيه ، حتى لا يظهر فضل للأدب اليونانى أو الأدب الأوربى على أدبنا العربى .

الجهل من ناحية ، والغرور من ناحية أخرى ، هما اللذان أحدثا هذه الفكرة السخيفة فى نفس طائفة من أدبائنا .

إنما العسير حقًّا هو أن نقطع بشىء فى أمر هذا الشاعر : أوجد أم لم يوجد ؟ أقال هذا الشعر أم لم يقله ؟ أوقعت له هذه الأخبار أم لم تقع ؟ مسائل عسيرة ولكن حلها ليس مستحيلا .

أنا أشك فى وجود هذا الشاعر شكًّا قويًّا ، وحسبك أن رواته يختلفون فيه اختلافاً كثيراً ، فنهم من يزعم أنه عربىّ حميرىّ ، ومنهم من يزعم أنه من سلالة الفرس الذين جاءوا اليمن مع سيف بن ذى يزن ليردوا عنها غارة الحبشة ، ومنهم من يحاول التوفيق بين هاتين الروايتين ، فيزعم أنه عربى ولكن أباه مات عنه طفلا ، فتزوجت أمه رجلا من سلالة هؤلاء الفرس الذين

كانوا يسمون « الأبناء » وشب الطفل فى حجر هذا الفارسى ، ثم جاءت عمومته تطلبه فادعاه الفارسى ، وكانت حول الغلام خصومة رفعت إلى الحاكم فقضى للعرب على الفارسى ، قالوا : وكان الغلام بارع الجمال فأعجب به الحاكم فسح على رأسه وقال له : أنت وضّاح اليمن ؛ فغلب عليه هذا اللقب .

غير أن هذه القصة المتكلفة ، وهذا التوفيق الغريب بين الروايتين لا يثبتان أمام شيء نجده فى أخبار وضّاح ، وهو أنه بينما كان فى دمشق متصلا بقصر الوليد بن عبد الملك — كما سترى بعد حين — تلقّى كتاباً من اليمن فيه نعى أبيه وأخيه ، فرثاهما بقصيدة قافية طويلة يرويها أبو الفرج . وإذن فلم يمت عنه أبوه وهو طفل ، وإنما مات عنه وهو رجل فى عنفوان قوّته قد سما به المجد حتى اتصل بقصور الخلفاء .

ثم لا يختلف الرواة فى أمر وضّاح وحده ، بل يختلفون فى أمر عشيقته الأولى — فله عشيقتان — : أفارسية هى أم عربية .

فكل هذا الاضطراب لا يحمل على الاطمئنان إلى وجود وضاح . ولكنّ هناك شيئاً آخر يحمل على الشك فى وجود وضاح ، وهو أن الغزلين الذين بعد صوتهم فى القرن الأول والثانى للهجرة مضريون كلهم أو أكثرهم ، سواء فى ذلك منهم البادون والحاضرون . فمن كان من بينهم يمانيًّا كالأحوص الأنصارى ، فإنما هو يمانى النسبة ليس غير ، قد اشتدّ اتصاله بالمضرية عامة وقريش خاصة ، حتى لم يأخذ بحظه من العصبية اليمانية التى كانت قاعدة الحياة السياسية وآفتها فى ذلك العصر . وقد حاولت اليمانية أن تدّعى جميلا ولكنها لم توفق ، لأن النسابين اشتدّ اختلافهم فى نسب قُضاعة قبيلة جميل ، حتى إن جميلا نفسه كان يزعم ويعلن أنه من مَعَدّ .

كان الغزلون كلهم أو أكثرهم مضريين . وكانت العصبية بين المضرية واليمانية قد عظم أمرها وأخذت تحدث فى الحياة السياسية العربية آثارها المنكرة المعروفة . فكانت المضرية لا تفتخر بشيء إلا حاولت اليمانية أن تفتخر بما يعدله أو يفضله ، وقد افتخرت المضرية بالغزلين من شعرائها فى الإسلام ، وكانت السنة المتصلة أن الغزل يمان ، لأن امرأ القيس هو الذى مهد طريقه فى الجاهلية ، فلم يكن من اليسير على اليمانية أن تحتمل هذا

الخذلان ، وأن تسلم للمضرية بهذا التفوق الشعرى الذى اغتصبته اغتصاباً وظفرت به فى غير حق ولا وراثة . وإذن فلا بدّ من أن يكون لليمانية شعراء غزلون تقفهم أمام الشعراء الغزلين من المضرية . وليس وضاح هذا — فيما أرجح — إلا تجربة من هؤلاء الشعراء الذين كانوا اليمانيون يخترعونهم اختراعاً فى القرن الثانى للهجرة ليفاخروا بهم المضريين .

اخترعت اليمانية وضاحاً وشعره — فيما أعتقد — حتى لا يقال إنها خلت من شاعر غزل فى الإسلام . وهبه قد وجد حقًّا ، وقال الشعر واتصل بالخلفاء ووقعت له هذه الأخبار المعروفة كلها أو بعضها ، فليس من سبيل إلى الشك فى أن الكثرة المطلقة من هذا الشعر الذى يضيف إليه منحولة مصنوعة لم يقلها ولم يعلم بها .

ولماذا ؟ لأن هذا الشعر الذى يضاف إلى وضاح لا يمكن أن يكون قد صدر عن شاعر مات قبل أن ينتهى القرن الأول للهجرة .

أنت قد قرأت شعر الغزلين من أهل البادية وعرفت أنه يمتاز بمتانة اللفظ ورصانة الأسلوب . وهذه المسحة البدوية التى إن لم تكن شديدة الخشونة فليست شديدة النعومة . وأنت قد قرأت وستقرأ شعر الغزلين من أهل الحاضرة ، وسترى أن هذا الشعر إذا برئ من خشونة البادية قليلا أو كثيراً فهو عربى ، عربى برىء من الابتذال والسقوط وهذا اللين الذى يحملك على أن تقسم ما قال هذا الشعر عربى ، وإنما هو صنعة مولد ضعيف .

شعر وضاح لين مسرف فى اللين ، سهل مفرط فى السهولة ، هو شعر مخنث إن أذنت لى باستعمال هذا اللفظ . ثم هو على لينه وخنوثته لا يخلو من تكلف منكر قد يخرجه أحياناً عن أصول النحو . ثم هو على هذا كله لا يخلو من تكلف آخر فى القافية لم يكن يذهب إليه الشعراء الأولون . تراه يتكلف قافية شينية مثلا ويريد أن يطيل ، والقافية الشينية عزيزة تعسر عليه ، فيضطر إلى أن يصطنع جيد اللفظ وسخيفه ؛ لأنه مفلس ، ولأنه يريد أن يظهر مظهر الموسر . وانظر إلى هذه القصيدة فقد تغنيك عن إطالة القول :

طَرِب الْفُؤَادُ لطَيْفِ روْضةَ غاشي والْقَوْمُ بَيْنَ أَبَاطِحٍ وعِشَاشِ

أنى اهْتَدَيتِ ودُون أرضِكِ سَبْسَبٌ ... قَفرٌ وحَزْنٌ فى دُجًى ورَشاشِ
قالتْ تَكاليفُ المُحِبِّ كَلِفتُها ... إن المُحِبَّ إذا أُخِيفَ لَمَاشى
أدْعُوكِ رَوْضَةُ رحْبَ وأسْمُكِ غيْرُهُ ... شَفقاً وأخشَى أن يَشِى بِكِ واشِى
قالَتْ فَزُرْنا قُلت كَيْفَ أَزُورُكُمْ ... وأنا امْرُؤٌ لخُروجِ سِرِّكِ خاشِى
قالت فَكن لِعُمُومَتى سَلْماً معاً ... والْطفْ لإخْوتِى الذِينَ تُمَاشِى
فتزورُنا مَعَهُمْ زِيارةَ آمِنٍ ... والسِّرُّ يا وضاحُ لَيس بِفَاشِى
ولَقِيتهَا تَمْشِى بِأَبْطَحَ مرَّةً ... بِخَلاخِلٍ وبِحُلَّةٍ أَكْبَاشِ
فظَلِلْتُ معْمُودًا وبِتُّ مُسهَّدًا ... ودُمُوعُ عَيْنِى فى الرِّداءِ غوَاشِى
يا روْضُ حُبُّك سَلَّ جِسْمِى وأنْتَحَى ... فى العَظْمِ حَتى قَد بَلَغتِ مُشَاشِى

أترى إلى هذه القصيدة فى ألفاظها ومعانيها وقوافيها ؟ ولنبدأ فلنلاحظ أن معنى هذه القصيدة أقرب إلى ما نجده فى حياة المدن أثناء العصور المتأخرة منه إلى ما نعلم من أخلاق العرب فى العصور الأولى . فهذه المرأة التى تريد وضاحاً أن يزورها ، فإذا ذكر لها عسر ذلك أغرته بأن يتلطف لأعمامها وإخوتها حتى تكون الصداقة بينه وبينهم ، فتسهل عليه زيارتها معهم دون أن يتعرض لخطر أو أن يذاع سرهما . أقول : إن هذه المرأة أقرب إلى أن تكون بغدادية من الطبقات المنحطة فى أهل بغداد منها إلى أن تكون عربية يمانية أو مضرية قريبة عهد بأخلاق البادية وما فيها ، لا أقول من عفة وطهارة ، ففى البادية فحشها وفجورها ، بل أقول من كرامة وسذاجة وترفع عن مثل هذه الدنيات .

وأما القافية فقد لاحظت من غير شك مطلع القصيدة الذى يقول فيه : « طرب الفؤادُ لطيف رَوْضةَ غاشى » وما أحسبك فى حاجة إلى أن أنبهك إلى موضع « غاشى » من العسر والحرج ، وفطنت إلى قوله : « إن المُحبَّ إذا أخيفَ لَماشى » وفطنت إلى قوله : « وأخشى أنْ يَشى بك وَاشى » دون نصب الفعل ؛ وفطنت إلى غير ذلك مما تشتمل عليه القصيدة من مهلهل اللفظ وردىء القافية .

ولست أريد أن أطيل برواية الكثير من شعر وضاح ؛ فقد تجد ذلك

فى كتاب الأغانى . وأنا أوصيك بالقافية التى يرثى بها أباه وأخاه . وأروى لك هذه الأبيات التى يجزع فيها على أم البنين وقد أخذتها علة :

حَتَّامَ نَكْتُمُ حُزْنَنا حتّامَا	وعلَامَ نَسْتَبْقِى الدُّموعَ عَلاما ؟
إنَّ الذى بِىَ قدْ تَفاقَمَ واعْتَلى	وَنَمَا وزَادَ وأَوْرَثَ الأَسْقاما
قدْ أَصْبَحتْ أمُّ الْبنينَ مَريضَةً	نَخْشَى ونُشْفِق أنْ يكون حِماما
يا ربِّ أَمْتِعْنى بِطُولِ بَقائِها	وَاجْبُرْ بِها الأَرْمَالَ والأَيْتاما
واجْبُرْ بها الرَّجُلَ الْغريبَ بِأَرْضِها	قدْ فارَقَ الأَخوالَ والأَعْمَامَا
كَمْ راغِبين وراهِبينَ وبُؤسٍ	عُصِموا بِقُرْبِ جَنابها إعصاما
بجِنَابِ ظاهِرةِ الثَّنا مَحْمُودة	لا يُسْتَطاعُ كلامُها إعْظامَا

فمن زعم أن هذا الشعر عربىّ قد صدر عن قائله فى القرن الأول للهجرة ، فإنى أزعم أنه لم ينشأ فى القرن الأول ولا فى الثانى ، وإنما أنشأه ناظم جاهل لاحظّ له من قوة ، ولا نصيب له من فن القرن الثالث أو الرابع للهجرة . ويحدّثنا أبو الفرج أن كتاباً غثا مصنوعاً كان فى أيدى الناس عن الوضّاح ، وأنه كره أن ينقل منه شيئاً . وإذن فوضّاح اليمن هذا بطل غرامى من أبطال العامة، لا من أبطال الخاصة كأولئك الذين درسنا أخبارهم فى الفصول الماضية .

على أن اللذيذ من أمر الوضاح ليس شعره ولا نسبه ، وإنما هو هذه القصة الغرامية التى أنشئت حوله ، والتى اشتركت فى تكوينها عناصر مختلفة : منها السياسى ومنها العصبى ومنها المبالغات العامية ، والتى ما زالت تصلح موضوعاً لقصة غرامية موسيقية حديثة على نحو ما يسميه الفرنج بالأوبرا .

زعموا أن وضّاحاً أحب فى أوّل أمره امرأة يقال لها روضة ، يمانية أو فارسية، وزعموا أنها أحبته ، وزعموا أن حبهما ذاع بين الناس ، فلما خطبها أبى عليه أهلها ما أراد على نحو ما هو معروف فى القصص الغرامية لذلك العهد ، ولكن هذه القصة اختزلت اختزالا ، فلم يستطع الشاعر أن يحتفظ بغرامه ويتعرّض لأخطار الحب ، ولم يتح للسلطان إهدار دمه كما هى العادة فى القصص الغرامية . ذلك لأن « روضة » أصابها الجذام فلم تصبح أهلا للعشق ، وإنما أصبحت أهلا للرحمة ، وقد رحمها الشاعر وعطف عليها ، ومع أن أكثر شعر

وضاح إنما هو فى روضة هذه ، فإن قصته الحقيقية التى عبثت بحياته بل عصفت بها ، والتى أشرت إليها آنفاً إنما هى سيرته مع أم البنين .

أم البنين هذه بنت عبد العزيز بن مروان ، وزوج الوليد بن عبد الملك . كانت جميلة فاتنة ، يشهد بذلك شعر عبيد الله بن قيس الرقيات فيها . وقد استأذنت زوجها فى الحج فأذن لها ، فبلغت مكة فى جوار حسان لم ير أهل مكة مثلهن ، وكن سافرات يتعرّضن للغزلين من أهل الحجاز . وكان الوليد قد توعد الشعراء إن تغزلوا بالملكة أو إحدى وصائفها . ولكن الملكة كانت تريد أن يتغزل بها الشعراء كما تغزلوا بأخت زوجها فاطمة بنت عبد الملك امرأة عمر ابن عبد العزيز ، وكما تغزلوا بسكينة بنت الحسين ، وكما تغزلوا ببنت معاوية من قبل ، وكما كانوا يتغزلون بكل شريفة وردت مكة ، لا يريدون بذلك إثماً ولا نكراً ، وإنما يذهبون فى ذلك مذهب المدح والدعابة . فطلبت إلى كثير وإلى وضّاح أن يذكراها ، فأما كثير فخاف الخليفة وأراد أن يرضى الملكة ، فذكر جارية لها يقال لها غاضرة ، وأما وضّاح فتغزل بالملكة نفسها ، ولم ينقل الرواة إلينا ما قال فيها ، ولكنه نمى إلى الوليد فحنق عليه واغتاله .

هذا ما يمكن أن يكون صحيحاً من القصة ، وهو الموضوع الذى نسجت حوله هذه القصة المتقنة التى سأوجزها فى أسطر ، والتى قلت إنها تصلح موضوعاً لمأساة موسيقية حديثة .

زعموا أن أم البنين أحبت وضّاحاً وأحبها وضاح ، وكانت بينهما دعابة ثم جاوز الأمر الدعابة إلى ما هو شرّ منها . قال : وأهدى إلى الوليد جوهر أعجبه فأراد أن يهديه إلى أم البنين ؛ فأرسله إليها مع خادم له ودخل الخادم على الملكة فرأى عندها وضاحاً . قال : فأسرعت الملكة إلى صندوق فأخفت فيه صاحبها ، ثم أخذت الجوهر من الخادم وقد رأى ما صنعت فطمع فيها ، وأراد أن يستغل ما يعلم ، فطلب إليها أن تمنحه حجراً من هذا الجوهر ؛ قالوا : فأبت عليه ذلك وسبته ، فانصرف محنقاً حتى بلغ الخليفة فأنبأه بما رأى ؛ فأظهر الخليفة تكذيبه وأمر به فقتل ، ثم نهض من فوره فدخل على الملكة ، فإذا هى تتمشط ، فجلس على الصندوق الذى وصفه له الخادم ، وأخذ يتحدث إلى الملكة فى ملاطفة حتى سألها أن تهدى إليه هذا الصندوق . فلم تستطع ردّه ، فأمر بالصندوق

فاحتمل إلى مجلسه . ثم أمر فاحتفرت بئر فى هذا المجلس : ثم ألقى الصندوق فى البئر ، وهيل عليه التراب وسوّيت الأرض ، ورد البساط إلى مكانه ولم يعرف أحد لوضّاح خبراً ، ولم تنكر الملكة من زوجها شيئاً .

قال أبو الفرج : إن هذه القصة مصنوعة ، وضعها أحد الشعوبية . وقد كانت بينه وبين « أحوى » ملاحاة أيام بنى العباس ، وأكبر الظن أن هذه القصة موضوعة كلها ، ولكنها فى نفسها جيدة مؤثرة صالحة كما قلت لأن تكون موضوع مأساة موسيقية .

فأنت ترى أمر وضاح هذا كله نكر فى نكر : فشخصه موضوع شك وشعره منحول ، وأخباره متكلفة ، ومع ذلك فنحن نجد فى شعره شيئاً لا يخلو من جودة ، وأنا أوصيك باللاميتين اللتين مدح بهما الوليد .

وأختتم هذا الحديث بهذه الأبيات التى أشرت إليها فى أول الفصل والتى خيلت إلى بعض الأدباء المحدثين أن وضّاحاً قد استكشف الشعر التمثيلى . وإنما أروى هذه الأبيات لأن فيها سذاجة حلوة إن لم تمثل النفس العربية فهى تمثل النفس العامية البغدادية :

قالَتْ أَلا لا تَلِجَنْ دارَنا ... إنَّ أبانا رَجُلٌ غائِرُ

قُلْتُ فإنى طالبٌ غِرَّةً ... مِنه وَسَيْفِى صارِمٌ باتِرُ

قالتْ فإنَّ القَصْرَ مِنْ دونِنا ... قلت فَإِنى فَوْقَه ظاهِرُ

قالتْ فإنَّ البَحْرَ من دونِنا ... قُلت فَإِنى سَابِحٌ ماهِرُ

قالتْ فَحَوْلى إخْوَةٌ سَبْعة ... قُلتُ فَإِنى غالبٌ قاهِرُ

قالتْ فَلَيثٌ رابِضٌ بَيْنَنا ... قُلتُ فَإِنى أَسَدٌ عاقِرُ

قالتْ فَإنَّ اللهَ مِنْ فَوقِنا ... قُلتُ فَربى رَاحِمٌ غافِرُ

قالَتْ لقدْ أَعْيَيْتَنا حُجة ... فَأْتِ إذا ماهجَعَ السَّامِرُ

فاسقُطْ علَيْنا كَسقوطِ النَّدَى ... لَيْلَةَ لا نَاهٍ ولا زاجِرُ

الغزلون[1]

العرْجىّ

أريد اليوم أن أحدّثك عن شاعر ظريف خفيف الروح محبب إلى النفس ، فيه خصال الرجل العربى حقّاً ، لا أريد عربىّ البادية ، ولا أريد الحضرى الفقير ، وإنما أريد العربى الذى قضى الله له مولداً كريماً وثروة ضخمة ومكانة ممتازة ، فاستمتع بهذا كله كما ينبغى أن يستمتع به ، وظفر من هذا كله بما يستتبع من الخلال الحسنة والسيئة . فأنت تجد عنده مزايا الثروة ونقائصها ، وأنت تجده مصدراً لكل ما يصدر عن الأرستقراطية من خير وشر . وأنت تجده مثلا صادقاً لهذه الطائفة من الشباب الحجازى الذى حدّثتك عنه غير مرة ، وزعمت لك أنه كان حسن المولد ضخم الثروة قوىّ المروءة ، عظيم الحظ من الذكاء ، ولكنه كان مع ذلك ، أو قل كان لذلك نفسه ، مبعداً عن الحياة السياسية العامة ، مضطراً إلى أن ينفق أيامه فى اللهو واللعب ، ويبلى حياته فى العبث والمجون .

حدثتك عن هذا الشباب غير مرة ، وسأحدّثك عنه غير مرة أيضاً ؛ فإن حياة هؤلاء الشبان الذين كانوا زهرة الأرستقراطية الإسلامية ، سواء أكانت هذه الأرستقراطية معتمدة على الدين أم على المولد أم على الثروة أم على هذه الأشياء جميعاً . أقول إن حياة هؤلاء الشبان خليقة بالدرس والعناية ؛ لأنه كان قد قُدر أن أبناء الذين أسسوا الدولة الإسلامية الأولى يجب أن يكون لهم أثر عظيم فى حياة المسلمين . فلو أن الخلفاء من بنى أمية أشركوهم فى حديث الأمر كما اشترك آباؤهم فى قديمه لتغيرت من غير شك وجهة الحياة السياسية الإسلامية ، ولقامت دولة بنى أمية على الشورى لا على الاستبداد ، ولحيل بين المسلمين وبين الثورات التى مزّقت دولهم تمزيقاً . ذلك أن هذا الشباب القوى

(١) نشرت بجريدة « السياسة » فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٩٢٤ .

الذكى الخصب كان يستطيع أن يقيم شيئاً من التوازن المتين بين سلطة الخلفاء وسلطة الزعماء ، يمنع هؤلاء الخلفاء من الظلم والإسراف فى الانقياد للعصبيات . ولكن الخلفاء فهموا هذا حق الفهم واستيقنوا أن اشتراك الشباب الحجازى فى أمور الدولة يقبض سلطانهم ويضطرهم إلى شيء من الحكم الدستورى . مناف كل المنافاة لما كانوا يسمُون إليه من الحكم المطلق ، فلم يروا بدّاً من إبعاد هذا الشباب من أمور الدولة واضطراره إلى أرض الحجاز لا يجاوزها إلا بإذن ، ولا يخرج منها إلا فى حاجة ماسة .

ولقد جاهد هذا الشباب الحجازى جهاداً عنيفاً فى سبيل الاحتفاظ بمنزلته التى تركها له أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، فما كانت ثورة ابن الزبير ، وما كانت ثورة الحرّة ، وما كان خروج الحسين بن على ، إلا مظاهر لهذا الجهاد . ولكن هذا الشباب الحجازى لم يوفق ، وتمت الكلمة للاستبداد الأموى . واضطرّ أبناء الصحابة والخلفاء الراشدين إلى هذه الحياة الفارغة يحيونها فى الحجاز . ولم يحل بينهم وبين الاشتراك فى أمور الدولة فحسب ، بل حيل بينهم وبين الحياة فى غير الحجاز من أقطار البلاد الإسلامية ، وتخير بنو أمية عمالهم أو كثرة هؤلاء العمال من غير هذه الأرستقراطية الحجازية . ورأينا أبناء أبى بكر وعمر وعثمان وزهرة الشباب الهاشمى مضطرين إلى أن يحيوا فى ضياعهم . فأما أكثرهم فانصرف إلى اللهو والمجون ، وأما أقلهم فانصرف إلى الدين والتقى ، ووقف فريق بين بين ، يحتفظ بمكانته الدينية ، ويأخذ مع ذلك بحظه من متاع الحياة .

ولعلك تعلم أن هذا الماجن الذى ازدان به الحجاز حيناً ، وهو ابن أبى عتيق ، كان من سلالة أبى بكر ، وأن العرجى الذى أريد أن أحدّثك عنه اليوم كان من سلالة عثمان . ولعلك تعلم مكانة عبد الله بن جعفر وهذا الجلال الدينى الذى كان يحيط به ، وأنه لم يجن يكره أن يسمع الغناء ولا أن يختلف إلى مجالس المغنيات . ليس لهذا كله مصدر ، فيما أعتقد ، إلا أن الخلفاء من بنى أمية حالوا بين هذه القوّة العاملة وبين العمل ، ففسدت لذلك أمور الدولة من جهة ، وأمور هذا الشباب الحجازى من جهة أخرى .

لم يكن بد من أن يكون لأبناء الذين أسسوا الدولة الإسلامية أثر فى الحياة الإسلامية ، وقد أبى الخلفاء عليهم أن يؤثروا فى السياسة فأثروا فى الأدب والحضارة . نعم ، أثروا فيهما آثاراً باقية ؛ فنحن مدينون لهم بالغزل ، ونحن

مدينون لهم بالغناء ، ونحن مدينون لهم بكل هذه الناحية الحلوة الظريفة من الحضارة الإسلامية أيام بنى أمية .

وأحب أن تلاحظ معى أن هذه الناحية الحلوة الظريفة من الأدب الأموى والحضارة الأموية ظلت نقية طاهرة بريئة من الإثم والفحش إلى حدّ ما ، احتفظ بها الحجاز وزهد فيها خلفاء الشام . فلما جاوزت الحجاز إلى قصور دمشق ، ولما أراد الخلفاء أن يلهوا كما كان يلهو شباب الحجاز ، ولما انتقل الغزل والغناء والعبث من الأرض المقدّسة إلى قصور بنى أمية ، ظهر فيها هذا الفساد الذى ننكره حين نراه .

أليس مما يلفتك أنك لا تكاد تظفر بشىء من الفحش فى عبث هؤلاء الحجازيين ولهوهم ؟ بل إنك ترى الفقهاء والمحدّثين وأصحاب الزهد والنسك يستعذبون هذا الظّرْف الحجازى ويستحبونه ولا يتحرجون من الاستماع له ، بل من الاشتراك فيه ما ظلّ حجازيًّا ، حتّى إذا انتقل إلى الشام ظهر النفور منه والسخط عليه .

رضى الفقهاء قليلا أو كثيراً عن ظرف ابن أبى ربيعة ، وعبث العرجى ، ومجون ابن أبى عتيق ، ولكنهم أنكروا لهو يزيد بن معاوية ، وسخطوا على عبث يزيد بن عبد الملك ، وكفّروا الوليد بن يزيد . ومصدر ذلك فيما أظن أن شباب الحجاز كان يلهو بمقدار ، وكانت مكانته الدينية والاجتماعية وخوفه من رقابة الخلفاء يعصمانه من مجاوزة الحدود . أما شباب بنى أمية فلم يكد يعرف اللهو حتّى اندفع فيه إلى غير حد ، لا يخشى مراقبة ولا يحفل بسلطان .

نحن مدينون لهذا الشباب الحجازى ، بدوه وحضره ، بالغزل والغناء . وقد حدثتك عن غزل أهل البادية ، وأحدثك الآن عن غزل أهل الحاضرة ، وأبدأ بهذا العرجى الذى كان من سلالة أحد الخلفاء الراشدين .

كان عثمان جده الثانى ، وكان كغيره من أبناء الخلفاء والصحابة غنيًّا ضخم الثروة ، يتردد بين مكة وإقطاع له قريب من الطائف يسمى العَرْج فنسب إليه . وقد حاول أن يكسب لنفسه منزلة تلائم مولده وثروته ، فأبلى فى الغزو بلاء حسناً مع مَسْلَمَةَ بن عبد الملك ، وأنفق فى سبيل الله أموالا ضخمة . تحدثوا أن ضائقة أصابت الجيش فوقف ثروته على إطعام المسلمين ووكل

غلامين له بقِدْره يقومان عليه طوالَ الليل . وتحدّثوا أيضاً أن ضائقة أصابت الجيش فى بعض غزواته فتقدم العرجى إلى تجار أن يقضوا حاجات المسلمين وأن يرجعوا بذلك عليه ، فرجعوا عليه بعشرين ألف دينار ، وانتهى الأمر إلى عمر بن عبد العزيز فقال : بيت المال أحق بهذا ؛ وأدّى عن العرجى دينه للتجار . ومع ذلك لم ينفعه عند بنى أمية بلاؤه فى الحرب ولا سخاؤه بالمال .، كما لم ينفعه عندهم اتصاله بعثمان ، مع أن دولتهم قامت على الثأر لعثمان ، فلم يولوه عملا ولم يكلوا إليه أمراً ، واضطر إلى أن يعود إلى الحجاز فيحيا فيه يائساً محزوناً ، حياةَ غيره من أبناء الصحابة والخلفاء .

كان كريماً إذن ، وكان شجاعاً ، وكان — فيما ذكر الرواة — أرمى الناس بالسهم وأبراهم له ، كما كان فارساً شديد الحذق بالفروسية . وكان ذكى القلب عزيز النفس قوى الفطنة ، وكان مع ذلك مبعداً عن الحياة العاملة . فلم يكن بُدٌّ لهذه الملكات من أن تظهر وتؤتى ثمرها فى اللهو والعبث ، إذ حيل بينها وبين هذه وتلك دون أن ينحاز إلى إحداهما ، ودون أن تستطيع إحداهما أن تأخذه الجد . وقد أخذ العرجى بحظه من اللهو والعبث فنهج منهج ابن أبى ربيعة . ولكنه خالفه من وجهين : أحدهما أن ابن أبى ربيعة كان هادئاً وادعاً مطمئناً إلى لين الحياة وخفض العيش وحديث النساء ، كان حمامة من حمام الحرم ، كل حظه من الحياة أن يحب وأن يتغنى فى الحب . ولهذا استطاع أن يهوّن على أخيه ، فقد حضرت الوفاة عمر بن أبى ربيعة فجزع عليه أخوه الحارث إشفاقاً عليه من عذاب الله ، فاستطاع عمر أن يهون على أخيه وأن يقسم له ما أتى فاحشة قط .

أما العرجى فقد كان فيه فضل من قوة وعنف ، ولم يكن له بدّ من أن يصرف هذا الفضل . وقد حاول أن يصرفه فى سبيل الدولة ،فأبى عليه الخلفاء ذلك ، فصرفه فى سبيل نفسه . وكان أقرب إلى الفاتكين منه إلى أهل الدعة والهدوء . كان ينفق حياته فى الصيد والشرب . ولم يكن يكتفى من النساء بالحديث والغزل ، وإنما كان يطلب إليهن أكثر من هذا ، فكان اسمه خطراً أيضاً .

والآخر أن عمر بن أبى ربيعة كان قانعاً فى حياته العامة كما كان قانعاً فى حياته الخاصة ، فلم تكن له أطماع سياسية ولم يكن له أعداء سياسيون ، وكأنه كان يحتقر السياسة وأهلها ، فقصر شعره على النساء ، وصرفه عن الخلفاء ومن

يتصل بهم فلم يمدح أحداً ولم يهج أحداً .

أما العرجى فقد حاول الحياة السياسية وأراد أن يكون له شأن فى أمور الدولة فلم يفلح . وأحسب أنه لم يتعزّ عن هذا الإخفاق ، فأضمر للخلفاء ومن اتصل بهم حقداً وبغضاً . وكأن هذا الإخفاق قد أثر فى نفسه تأثيراً قوياً فأصبح سيئ الخلق فاحش اللسان قليل الرضا عن الناس ، ينصرف عنهم ما صرفه عنهم اللهو والعبث ، فإذا اضطر إلى مواجهتهم لم يجدوا منه خيراً ، ومن هنا هجا ناساً وعادى ناساً آخرين . وانتهى به عنفه فى حياته الخاصة وسوء خلقه فى حياته العامة إلى أن ضُرب وشهر وسجن حتى مات فى السجن .

ولابد من ملاحظة هذين الأمرين لفهم شعر العرجى وما روى لنا من أخباره ، فإلى عنفه وفتكه وتهالكه على اللذة يرجع قسم من شعره وأخباره ، وإلى سخطه السياسى وحقده على رجال الدولة يرجع القسم الآخر من هذا الشعر وهذه الأخبار .

ولعلك تريد الآن أن تعرف رأينا فى شعر العرجى ، وقد قدمنا هذا الرأى فى أول هذا الحديث حين قلنا إن العرجى كان ظريفاً خفيف الروح محبباً إلى النفس ، فإنا نجد هذه الخلال كلها فى شعر العرجى ، وستجدها أنت فيه أيضاً ، وقد اتفق رأينا فى هذه المرة مع رأى القدماء ، فقد كان أهل الظرف والأدب منهم ، بل كان الفقهاء والنساك أيضاً ، يحبون شعر العرجى ويكلفون به كلفاً شديداً ، ولهم فى ذلك أحاديث لا تكاد تظفر بمثلها لشاعر آخر ، ومن هذه الأحاديث ما يضحك ، ومنها ما يرضى ويحمل على الإعجاب .

تحدّث مصعب بن عبد الله عن أبيه قال : أتانى أبو السائب المخزومى ليلة بعد ما رقد السامر فأشرفت عليه ، فقال : سهرت وذكرت أخاً لى أستمتع به فلم أجد سواك ، فلو مضينا إلى العقيق فتناشدنا وتحدثنا ! فمضينا فأنشدته فى بعض ذلك بيتين للعرجى :

باتا بِأَنْعَمِ لَيْلَةٍ حتى بدَا صُبْحٌ تَلَوَّحَ كالأَغَرِّ الأَشْقَرِ
فَتَلَازَمَا عِندَ الْفِراقِ صبابة أَخْذَ الْغَرِيمِ بِفَضْلِ ثَوْبِ الْمُعْسِرِ

فقال : أعِده علىّ ، فأعدته ، فقال : أحسن والله ! امرأته طالق إن نطق بحرف غيره حتّىٰ يرجع إلى بيته . قال : فلقينا عبد الله بن حسن بن حسن ، فلما صرنا إليه ، وقف بنا وهو منصرف من ماله يريد المدينة ، فسلم ثم قال :

كيف أنت يا أبا السائب ؟ فقال له :

فَتَلازَمَا عندَ الْفراق صَبابةً ... أَخْذَ الْغَرِيم بفَضْلِ ثَوْبِ الْمُعْسِرِ

فالتفت إلىّ فقال : متى أنكرت صاحبك ؟ فقلت : منذ الليلة ! فقال : إنا لله ! وأى كهل أصيبت منه قريش ! ثم مضينا فلقينا محمد بن عمران التيمى قاضى المدينة يريد مالا له ، على بغلة له ، ومعه غلام على عنقه مخلاة فيها قيد البغلة ، فسلم ثم قال : كيف أنت يا أبا السائب ؟ فقال :

فَتلازَما عِندَ الْفراقِ صبابةً ... أَخْذ الْغَرِيم بفَضْل ثَوْب الْمُعْسِرِ

فالتفت إلىّ فقال : متى أنكرت صاحبك ؟ قلت : آنفاً . فلما أراد المضىّ قلت : أفتدعه هكذا ! والله ما آمن أن يتهور فى بعض آبار العقيق . قال : صدقت ، يا غلام، قَيِّدَ البغلة ، فخذ القيد فوضعه فى رجله . وهو ينشد البيت ويشير بيده إليه يريد أن يفهم عنه قصته . ثم نزل الشيخ فقال لغلامه : يا غلام ، احمله على بغلتى وألحقه بأهله . فلما كان بحيث علمت أنه قد فاته أخبرته بخبره ، فقال : قبحك الله ماجناً ! فضحت شيخاً من قريش وغررتنى .

وتحدّث داود الثقفى قال : كنا فى حلقة ابن جُريج وهو يحدثنا ، وعنده جماعة فيهم عبد الله بن المبارك وعدّة من العراقيين ، إذ مر به ابن نيزن المغنى وقد اتزر بمئزر على صدره ، وهى إزرة الشطار عندنا ، فدعاه ابن جريج فقال له : أحب أن تسمعنى . قال : أنا مستعجل . فألح عليه . فقال : امرأته طالق إن غناك أكثر من ثلاثة أصوات . فقال له : ويحك ! ما أعجلك إلى اليمين ! غنّى الصوت الذى غناه ابنُ سريج فى اليوم الثانى من أيام منى على جمرة العقبة ، فقطع طريق الذاهب والجائى حتى تكسرت المحامل . فغناه :

* عوجى علىّ فسلمى جبرُ *

فقال له ابن جريج : أحسنت والله ! ثلاث مرات ويحك ! أعده . قال : من الثلاثة ، فإنى قد حلفت ! قال : أعده . فأعاده فقال : أحسنت ! فأعده من الثلاثة . فأعاده ، وقام ومضى ، وقال : لولا مكان هؤلاء الثقلاء عندك لأطلت معك حتى تقضى وطرك . فالتفت ابن جريج إلى أصحابه فقال : لعلكم أنكرتم ما فعلت ! فقالوا : إنا لننكره عندنا بالعراق ونكرهه . قال :

فما تقولون فى الرجز ؟ — يعنى الحداء — قالوا : لا بأس به عندنا ! قال : فما الفرق بينه وبين الغناء ؟

ولهذه الأبيات نفسها قصة أخرى مع عطاء وابن سريج ليست أقل من هذه القصة ظرفاً . ولعلك تعلم قصة أبي حنيفة مع جاره الذى كان يسكر ويتغنى فى كل ليلة بقول العرجى :

أَضَاعُونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهَةٍ وسِدَاد ثَغرِ

ثم انقطع الغناء عن أبي حنيفة ليلة ، فسأل عن جاره فعلم أن العسس قد أخذوه ، فجدّ أبو حنيفة حتى أطلقه من سجنه ، ثم قال له : هل أضعناك يا فتى ؟ قال : لا والله ! قال أبو حنيفة : فعد إلى ما كنت فيه من غناء فليس فيه بأس .

وأخبار أخرى تروى عن شعر العرجى ورواجه بين الظرفاء والفقهاء من أهل الحجاز ، وتجدها فى كتاب الأغانى .

ولم يكن العرجى ظريفاً فى شعره وحده ، بل كان ظريفاً فى سيرته أيضاً ، ولا سيما مع النساء . ولست أروى لك من ظرفه هذا إلا قصة واحدة .

قالوا : مر العرجى فى بعض نزهته بأم الأوقص ، وهو محمد بن عبد الرحمن المخزومى القاضى ، وكان يتعرض لها ، فإذا رآها رمت بنفسها وتستّرت منه ، وهى امرأة من بنى تميم ، بصر بها فى نسوة جالسة وهن يتحدّثن ، فعرفها وأحب أن يتأملها من قرب ، فعدل عنها ولقى أعرابيًّا من بنى نصر على بكر له ومعه وَطبا لبن ، فدفع إليه دابته وثيابه ، وأخذ قَعوده ولبنه ولبس ثيابه ، ثم أقبل على النسوة ، فصحن به : يا أعرابى ، أمعك لبن ؟ قال : نعم ، ومال إليهن وجلس يتأمل أم الأوقص ، وتواثب من معها إلى الوطبين ، وجعل العرجى يلحظها وينظر أحياناً إلى الأرض كأنه يطلب شيئاً ، وهن يشربن من اللبن ؛ فقالت له امرأة منهن : أى شيء تطلب يا أعرابى فى الأرض ؟ أضاع منك شيء ؟ قال : نعم ، قلبى ! فلما سمعت التميمية كلامه نظرت إليه ، وكان أزرق ، فعرفته فقالت : العرجى بن عمر ورب الكعبة ! ووثبت وستّرها نساؤها وقلن : انصرف عنا لا حاجة بنا إلى لبنك . فمضى منصرفاً وقال فى ذلك :

أَقولُ لِصاحِبيَّ ومثْلُ ما بِي شَكاهُ المَرْءُ ذُو الوَجْدِ الأَلِيمِ

إلى الأَخَوَيْنِ مِثْلِهما إذا ما تـأَوَّبَه مُؤَرِّقَةُ الْهُمُومِ

لِحَيْنِي والْبَلاءِ لقِيتُ ظُهْراً بِأَعْلَى النَّقعِ أُخْتَ بَنِى تَمِيمِ

فَلمَّا أن رَأَتْ عَيْنَاىَ منها أَسِيلَ الْخَدِّ فى خَلْقٍ عميمِ

وعَيْنَىْ جُؤْذَرٍ خَرِقٍ وثَغْراً كَلَوْنِ الأُقْحُوَانِ وَجِيدَ رِيمِ

حَنَا أَتْرابُهَا دونِى عَلَيْها حُنُوَّ الْعَائِداتِ عَلَى السَّقِيمِ

لقد كنت أريد أن أروى لك قصة أخرى ظريفة قاسية للعرجى مع أمة يقال لها كلابة ، ولكنى قد أطلت ، ولست أريد أن أسرف فى الإطالة ، ولست أكتب هذه الأحاديث لأقول كل ما أريد ، وإنما قصاراى أن أحبب إليك قراءة الأدب العربى وأرسم لك نهج هذه القراءة .

كان العرجى كما قلنا عفيفاً شديد البغض لرجال الحكم ، وقد قتله عنفه وبغضه هذان . زعموا أن هشام بن عبد الملك ، لما استخلف ولّى على مكة خاله محمد بن هشام المخزومى . فأخذ العرجى يسرف فى هجاء محمد بن هشام . ثم لم يكتف بالإسراف فى الهجاء فأخذ يتغزل بأم الوالى وزوجه ، ويدفع غزله إلى المغنين ، فما أسرع ما تنطلق به الألسنة ! قال فى أم الوالى هذه الأبيات المشهورة :

عُوجِى علَينا رَبَّةَ الهَوْدَجِ إنك إلَّا تَفعَلِى تَحْرَجِى

إنى أُتِيحَتْ لِى يَمَانِيَةٌ إحْدَى بَنِى الحارثِ منْ مَذْحِجِ

نَلْبَثُ حوْلا كامِلاً كُلَّهُ لا نَلْتَقِى إلَّا عَلَى مَنْهجِ

فى الحجِّ إن حَجَّتْ وماذا مِنًى وأَهْلُهُ إن هِىَ لَمْ تحْجُجِ

وقال فى زوجه جبرة :

عُوجِى عَلَىَّ فَسَلِّمى جبْرُ فِيمَ الصُّدُودُ وَأَنْتُمْ سَفْرُ

ما نَلْتقِى إلَّا ثَلَاثَ مِنى حتى يُفَرِّقَ بَيننَا النَّفْرُ

الحوْلُ بَعْدَ الحوْلِ يَتْبَعُهُ ما الدَّهْرُ إلَّا الْحَوْلُ والشَّهْرُ

فوجد عليه محمد بن هشام وجداً شديداً ، وأخذ يلتمس العلل للإيقاع به . فما أسرع ما وجد عليه سبيلا !

كان العرجى عنيفاً فزعموا أنه خاصمه أحد الموالى ، فسبه وبالغ فى سبه ، فرد المولى عليه ؛ فأمهله العرجى حتى إذا كان الليل هجم فى نفر من رجاله على دار المولى ، فأمر أصحابه فأوثقوه وفضحوا امرأته أمامه ثم قتلوه وحرقوه ، فاستعدت المرأة عليه محمد بن هشام ؛ فقبض عليه وضربه وحلق رأسه وصبّ عليه الزيت وعرضه للناس ، ثم سجنه فظل فى السجن تسع سنين ولم يخرج منه إلا ميتاً . ثم جاء الوليد بن يزيد فاتخذ قصة العرجى علة للانتقام من خالىْ هشام ، فضربهما ثم أرسلهما إلى يوسف بن عمر ، فعذبهما واستصفى أموالهما وأتلفهما ضرباً .

ونختم هذا الحديث بهذه الأبيات التى قالها العرجى فى سجنه ، والتى تمثل نفسيته السياسية قبل السجن وبعده :

أَضاعونى وأَىَّ فتى أَضاعوا ... لِيَوْمِ كريهةٍ وسِدادِ ثَغْرِ
وَصبرٍ عندَ مُعتَرَكِ المنايا ... وَقد شُرِعَتْ أَسِنَّتُها بنَحْرِى
أُجَرَّرُ فى الجوَامع كُلَّ يَوْمٍ ... فَيا للهِ مظْلَمَتى وصبْرِى
كأَنِّى لَمْ أَكنْ فيهم وسيطاً ... وَلَمْ تَكُ نِسْبَتى فى آلِ عَمْرو

الغزلون[1]

عبيد الله بن قيس الرقيات

صاحبنا اليوم شاعر معروف بالغزل ، يذكر مع أصحاب النسيب من قريش وأهل الحجاز عامة . ولكنه ليس كهؤلاء الغزلين الذين اتخذناهم موضعاً لبحثنا إلى اليوم ، فهو لم يقصر جهوده الفنية على الغزل ، وهو لم يقصر حياته على اللهو والعبث ، وإنما تنوّعت حياته وتنوّع حظه من الفن الشعرى . فكان فى حياته العاملة صاحب لهو وجدّ ، وكان فى حياته الشاعرة صاحب غزل ومدح ووصف وفخر ونضال سياسى . ويظهر أن النضال السياسى وحده هو الذى ينبغى أن نتخذه وسيلة إلى فهم هذا الشاعر فى حياته العملية والشعرية . فنحن إذن بعيدون كل البعد عن هؤلاء الشعراء الذين لم تخطر لهم السياسة على بال ، أو الذين لم يحاولوا أن يأخذوا منها بحظ ؛ لأنهم علموا مقدماً أن ليس لهم فيها نصيب ، فوقفوا حياتهم على اللهو واللعب وذكر النساء .

نحن بعيدون عن عمر بن أبى ربيعة وعن جميل وأصحابه ، بل نحن بعيدون عن هؤلاء الشعراء الذين حاولوا أن تكون لهم منزلة سياسية ، فلما أخفقوا فى ذلك اضطرهم اليأس من الحياة العاملة إلى نوع من الحياة ملؤها اللهو والدعابة والمجون ، كالعرجى الذى حدّثتك عنه فى الأسبوع الماضى ، وإنما نحن بإزاء شاعر آخر يخالف أولئك مخالفة شديدة . خطرت له السياسة وخلبت عقله فغرق فيها إلى رأسه ، واحتمل من آلامها وأثقالها شيئاً كثيراً جدًّا . وأثر ذلك فى شعره وفى حياته تأثيراً ظاهراً غلب على كل شىء من الأشياء التى يمكن أن تعمل فى حياة الشعراء . فهو إلى الشعراء السياسيين أقرب منه إلى الشعراء الغزلين . ولكنه مع ذلك كان غزلا ، ماهراً فى الغزل ، أو قل متفوقاً فيه . وربما صح أن يقدّم على العرجى والأحوص ، بل قد استباح بعض المتقدمين لنفسه أن يقرنه إلى ابن أبى ربيعة . وليس يعنينا الآن أن نثبت أنه أشعر من ابن أبى ربيعة ،

---

(١) نشرت بجريدة « السياسة » فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٢٤ م .

أو دون ابن أبي ربيعة فى الشعر ، وإنما الذى يعنينا قبل كل شيء هو أن نتبين شخصيته وما بينها وبين شعره من صلة : أى أن نتبين الخصائص التى يمتاز بها شعره . حتى إذا فرغنا من ذلك كان من اليسير علينا أن نقدر هذا الشعر وننزله منزلته من أدب الأمويين .

وقد أراد الله أن يجعل هذا يسيراً ، فحفظ لنا مقداراً صالحاً من شعر عبيد الله بن قيس الرقيات يجمعه ديوان مخطوط فى دار الكتب المصرية طبعت منه نسخة فى « فيينا » . ونستطيع إذن أن نقرأ هذا الديوان ونحكم عليه .

وأنا أحب أن تقرأ أخبار هذا الشاعر فى كتاب أبي الفرج ، فستشعر بشيء شعرت به ، وهو أنه حلو النفس ، خفيف الروح ، عذب الشعر ، خصب الخيال قويه . وستشعر بأن أبا الفرج قد قصر فى ذات هذا الشاعر ، فلم يرو من شعره إلا أطرافاً موجزة مقتضبة ، كل أثرها فى نفسك هو أن تستثير الإعجابَ والأسف على أن ما حفظ من شعره قليل . ولكن هذا الأسف يزول حين تعلم أن له ديواناً محفوظاً ، وأنك تستطيع أن ترجع إلى هذا الديوان ، فإذا رجعت إلى هذا الديوان فستشعر بشيء آخر شعرت به أيضاً ، وهو أن الجيد من شعر هذا الشاعر كثير أكثر مما ينبغى ، إن جاز مثل هذا القول ، وأن الردىء من شعره قليل أقل مما ينبغى ، إن أبيح مثل هذا التعبير .

وأنا أستبيح لنفسى مثل هذا التعبير ؛ لأنى أريد فى هذه الأحاديث أن أقدّم إليك صورة صادقة ولكنها موجزة من الشعراء الذين أدرسهم . وقد أستطيع أن أقدم إليك صورة صادقة من صاحبنا هذا ، ولكنى أجد مشقة شديدة فى الإيجاز . فليس من اليسير أن تختار من شعره ، فكل شعره أو أكثره حرى أن يختار . ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أنت مضطر إلى أن تروى له شعراً كثيراً أكثر مما يحتمل هذا الحديث .

وهنا ألاحظ شيئاً يكاد يختص به عبيد الله بن قيس الرقيات : وهو أنه كان صاحب لهو وسياسة ، وأنه اتخذ الغزل وسيلة إلى اللهو والسياسة . فكان يتغزل حيناً ليلهو أو ليصف عواطف نفسه حقًّا ، وكان يتغزل حيناً آخر لا للهو ولا لوصف حب صادق ، بل ليعبث بخصومه السياسيين ، إذ يذكر نساءهم بما يحسن وبما لا يحسن . وقد رأينا العرجى يتغزل بجيداء أم محمد بن

هشام ، وبجبرة زوج محمد بن هشام ، ليغيظ محمد بن هشام هذا . وكذلك فعل عبيد الله بن قيس الرقيات قبل العرجى ، فسنّ له ولغيره هذه السنة . وبلغ من هذا الغزل الهجائى ما لم يبلغه أحد من شعراء العصر الأموى . فلم يكن يكتفى بالنسيب المألوف يذكر فيه المرأة التى يريد أن يهجو أهلها كما كان يفعل العرجى ، وإنما كان يتخيل القصص والأخبار فيقصها فى شعره مسرفاً فى تفصيلها إسرافاً شديداً .

لم يكن عبيد الله بن قيس الرقيات شريراً ولا سيئ الدخيلة ، وإنما كان — مع الخصومات السياسية التى اندفع فيها اندفاعاً شديداً — محباً لقومه ، يؤثرهم على الناس جميعاً ويحرص على كرامتهم أشدّ الحرص . ومن هنا تظهر فى غزله الهجائى خصلة جميلة ، رقيقة مؤثرة ، لا نجدها عند غيره من الهجائين السياسيين : وهى أنه كان يخاصم الرجال دون النساء ، وكان يتخذ النساء وسيلة إلى حرب الرجال ، فكان يحرص الحرص كله على ألا يؤذيهن أو يذيع بينهن الفاحشة كذباً وزوراً . بل كان يمضى إلى أبعد من هذا ، كان يريد أن يتملق هؤلاء النساء ، وأن يرضيهن عن نفسه ، وأن يحبب إليهن هذا الغزل الهجائى الذى كان يسوء أزواجهن وأبناءهن وعصبتهن بوجه عام.

كان يخاصم بنى أمية ، فتغزل بأم البنين امرأة الوليد بن عبد الملك ، وبنت عبد العزيز بن مروان ، يريد من غير شك أن يغيظ عبد الملك وابنه الوليد وأخاه عبد العزيز وغيرهم من رجالات بنى أمية ؛ ولكنه لم يكن يريد أن يسوء أم البنين ولا أن يؤذيها ولا أن يعرّضها لمكروه تسمعه أو تلقاه ، بل كان يريد أن يتلطف لها ويتحبب إليها ، وأن ينزل شعره من نفسها منزلة الرضا والإعجاب . وأنت تعلم أن النساء فى ذلك العصر — ولا سيما نساء الأشراف والأسرة المالكة — كن يحببن الغزل ويكلفن به ويطلبنه إلى الشعراء . فليس غريباً أن يطمع ابن قيس الرقيات فى إرضاء أم البنين ، وهو يخاصم أباها وعمها وزوجها . وسأروى لك بعد حين قصيدة ذكر فيها أم البنين ذكراً مفصلا تفصيلا ، من شأنه أن يؤذى ويسىء ، ولكنه احتاط لنفسه ولأم البنين ، فزعم أن هذه القصة الطويلة المفصلة إنما وقعت له فى المنام . فكرامة أم البنين موفورة ، وهى خليقة أن تتيه بهذا الجمال الذى أحدث فى نفس الشاعر ما أحدث حتى ملك عليه

يومه ونومه . وإذن فليس على الشاعر نفسه لوم إذا غرق فى الرقاد .

وقد وصل ابن قيس الرقيات من هذا الغزل الهجائى إلى كل ما كان يريد . فأحفظ بنى أمية عليه أشدّ إحفاظ حتى هدروا دمه ، وأبرءوا ذمتهم ممن آواه كما سترى . ولكنه أرضى أم البنين عن نفسه ، وبلغ منها مبلغاً حسناً ، حتى شفعت له وكسبت له أمان عبد الملك .

هذا الغزل الهجائى ، الذى يكاد ابن قيس الرقيات يكون مبتدعه ، خليق بالعناية . فهو لون من الألوان الفنية الجديدة التى استحدثها الشعراء المسلمون ، ولكنه شديد الخطر من جهة أخرى ، لأنه يلبس عليك أمر الشاعر ويجعل حكمك على عاطفته عسيراً جدّاً . فأنت لا تكاد تتبين أجادّ هو فى غزله أم لاعب ؟ أمادح هو صاحبته لأنه يحبها أم لأنه يكره أهلها ؟ وأنت مضطر إلى أن تنظر إلى هذا الغزل من حيث هو فن مجرد من النفسية الصادقة للشاعر ومن عواطفه الحقيقية . وفى الحق أنك لا تكاد تجد فرقاً بين غزل ابن قيس الرقيات : فهما تختلف موصوفاته فهو قوى ، رقيق ، خلاب شديد الحرارة ، سهل التناول ، سواء أكان الشاعر يتغزل بأم البنين يهجو قومها ، أم بإحدى هؤلاء الرقيات اللائى كان يذكرهنّ حتى غلب عليهن اسمه ، أم بأى امرأة أخرى كان يحبها أو يرى فيها جمالا وروعة .

ولقد يكون من الحق أن نقول : إن عبد الله بن قيس الرقيات لم يعرف هذا الحبّ العذرى ، بل لم يعرف الحب العادى ، الذى يقصر حياة الرجل أو شطراً من حياته ، على امرأة واحدة تلائم هواه ، وإنما كان يحب النساء جميعاً ، يحبهن حبّاً قويّاً يوشك أن يكون طاهراً ؛ يحبهن لا ليلهو بهن بل ليتخذ منهن مثله الأعلى فى الجمال . ومن هنا نستطيع أن نقول : إنه كان صادق اللهجة فى كل ما كان يقول من غزل ؛ لأنه كان يحمل فى نفسه صورة من جمال النساء يخلعها على من أراد أن يذكرها فى شعره لأى سبب . وكانت هذه الصورة تسمى أم البنين حيناً ، ورُقية بنت عبد الواحد حيناً آخر ، وكثيرة مرة ثالثة ، وثُرَيّا مرة رابعة ، وسعدة ، وسلامة ، إلى غير ذلك من أسماء النساء اللاتى لم يكنّ خيالا متكلفاً وإنما كنّ أشخاصاً يستمتعن بالحياة حقّاً .

وقد أراد حظ ابنَ قيس الرقيات أن يحبه النساء كما أنه يحب النساء ،

وأن يحبينه لا للهو واللذة ، بل لميل بعيد من اللهو واللذة . وأراد حظه أن يكون مديناً بحياته لامرأتين . آوته إحداهما بالكوفة حين أهدر الأمويّون دمه ، فلبث عندها سنة كاملة وتركها وهو لا يعرف إلا اسمها ؛ وشفعت له الأخرى عند عبد الملك فظفرت له بالأمان . وكذلك أراد حظ قيس ألا يستطيع لهاتين المرأتين مكافأة إلا بالغزل والنسيب ، فقد تغزل بهما جميعاً . ولسنا نشك فى أنه تغزل بكثيرة ليشكرها على ما قدمت إليه من معروف .

وأكاد لا أعرف شاعراً ، أرق لهجة وأعذب لفظاً وأحسن أدباً فى مخاطبة النساء وذكرهن ، من ابن قيس الرقيات حين يذكر كثيرة هذه . وانظر إلى قوله فيها :

عادَ له مِنْ كَثِيرَةَ الطرَبُ   فَعيْنُهُ بالدُّموعِ تنْسَكِبُ
كُوفيَّةٌ نازِحٌ مَحَلَّتُها   لا أَمَمٌ دارُها ولا صَقَبُ
وَاللهِ ما إن صَبَتْ إلىَّ ولا   إن كانَ بَيْنِى وَبينها سَبَبُ
إلّا الّذِى أَوْرَثَتْ كَثِيرَةُ فى الْـ   ـقَلْبِ ولِلْحُبِّ سَوْرَةٌ عجَبُ
لا بارَكَ اللهُ فى الْغَوانِى فما   يُصْبِحْن إلّا لَهُنَّ مطَّلَبُ
أَبْصَرْنَ شَيْباً عَلا الذؤابةَ فى الـ   ـرَّأسِ حديثاً كأنَّهُ الْعَطَب
فَهُنَّ يُنْكِرْنَ ما رَأَيْنَ ولا   يُعْرَف لِى فى لِداتِىَ اللعِبُ

على أنى أريد أن أتم ابن قيس الرقيات قبل أن ألمّ بشعره . فلأوجز لك مذهبه السياسى ، أو قل حياته السياسية .

كان صاحبنا من أنصار عبد الله بن الزبير ، وكان مغالياً فى نصر الزبيريين ، يحبهم أشدّ الحب ، ويبغض خصومهم من بنى أمية بغضاً شديداً ، جاهد معهم بسيفه ولسانه أشد جهاد ، ومدحهم أحسن مدح ، حتى إنّ عبد الملك بعد أن عفا عنه لم يستطع أن يغفر له قوله فى مُصعب بن الزبير ، وقد خرج مع مصعب هذا فى العراق على عبد الملك ، ولزمه حتى أحسّ مصعب أنه مقتول ، فأذن له فى أن ينصرف وحباه مالا كثيراً . ولكن الشاعر أقسم لا يَريم حتى

يعرف سبيل مصعب ، فما زال معه حتّى قتل . ثم فرّ فبلغ الكوفة فلجأ إلى أوّل دار لقيته ، وفى هذه الدار صادف امرأة أنصارية آوته سنة كاملة ، وكانت تغدو عليه كل يوم فتحييه وتسأله حاجته ولا تسأله عن اسمه ، وهو لا يسألها عن اسمها ؛ حتّى سمع ذات يوم الصائح العام ينادى ببراءة الذمة ممن يؤوى ابن قيس الرقيات ، فنزل إلى صاحبته فأنبأها باعتزام الرحلة . قالت : لا يرعك هذا الصياح ، فنحن نسمعه منذ سنة . ، ولكنه أصرّ على الرحلة . فلما كان المساء قدّمت إليه راحلتين وزاداً ووهبته عبداً ؛ وانصرف عنها وقد أبت أن تنبئه من هى ، وإنما علم أن اسمها كثيرة وأنها خزرجية . فمضى حتّى بلغ المدينة فاستجار بعبد الله بن جعفر ، فأجاره وأحسن مثواه ، وكتب فيه إلى أم البنين وإلى عبد العزيز بن مروان أبيها ، فشفعت فيه عند عبد الملك وضمنت له الأمان . ثم دخل هو على عبد الملك فمدحه بهذه القصيدة الّتى قدّمت لك شيئاً من غزلها ، وفيها يقول مادحاً :

ما نَقَمُوا مِنْ بَنِى أُمَيَّةَ إِلّا ... أَنَّهُمْ يَحْلُمونَ إن غَضِبُوا

وأَنَّهُمْ مَعْدِنُ المُلوكِ فَلا ... تَصْلُحُ إلّا عليهمُ الْعَرَبُ

إنَّ الْفَنيقَ الذى أبوهُ أبو الْعَا ... صِى علَيْهِ الوَقارُ والْحُجُبُ

خَليفَةُ ٱللهِ فَوْقَ مِنبَرِهِ ... جَفَّتْ بِذاكَ الأَقْلامُ والْكُتُبُ

يَعْتَدِلُ التَّاجُ فَوْقَ مَفْرِقِهِ ... عَلَى جَبِينٍ كَأَنَّهُ الذهَبُ

ولكن عبد الملك أبى عليه أن يأخذ عطاءه من بيت المال ، فشكا ذلك إلى عبد الله بن جعفر ، فعوّضه أضعاف ما حرمه عبد الملك . ثم اتصل بعبد العزيز ابن مروان ، وهو حينئذ أمير مصر من قبل أخيه ، فمدحه مدحاً كثيراً جيداً ، فيه ذكر لبابليون وحُلوان وللنيل وسفائنه . وكنت أريد أن أروى لك منه شيئاً ، ولكنى أريد أن أجتنب الإطالة وأنصح لك بقراءته فى الديوان . ومدح عبيدُ الله ابن قيس الرقيات عبد الله بن جعفر مدحاً جيداً آية فى الإتقان .

فأنت ترى أنه اتصل بأحزاب ثلاثة مختلفة ، اتصل بحزب الزبيريين ، وفيهم قال أجود مدحه ، واتصل بالأمويين وفيهم قال الكثير الجيد ، واتصل

بالهاشميين وفيهم أحسن المدح وأجاده ؛ ولم يكن مع ذلك متلوناً ولا فاسد الضمير .

وأحسب أنى أصيب الحق إن قلت : إنه كان قرشياً قبل كل شىء ، وإن له مذهباً سياسياً لم يتغير قط ، وهو أنّ السلطان الأعلى يجب أن يكون لقريش قولا وفعلا . فإذا كان قد كره بنى أمية فهو لم يكرههم لأنهم بنو أمية ، وإنما كرههم لأنهم اعتزوا على القرشية خاصة والمضرية عامة بالقبائل اليمانية .

شيئان اثنان يختصران الرأى السياسى لابن قيس الرقيات : (الأول) أن السلطان يجب أن يكون لقريش وأن تعتز قريش فيه بمضر . (والثانى) أن من الإثم والخيانة أن تنقسم قريش على نفسها ، وأن تتفرق كلمتّها هذا التفرق المنكر الذى كان بعد موت معاوية . وسأروى لك فى آخر هذا الفصل قصيدة طويلة تختصر رأيه السياسى هذا ، وتمثل عواطفه الوطنية القرشية تمثيلا قوياً صادقاً . ولكنى شديد الحيرة ، فبين يدىّ ست عشرة قصيدة مختارة من شعر ابن قيس الرقيات ، وأنا أرى أن ليس بدّ من إظهارها وإذاعتها لتظهر شخصية الشاعر واضحة ، ولتظهر الحياة السياسية فى قريش واضحة أيضاً . ولكن من لى بالصحف التى أنشر فيها هذا الشعر الكثير ! ومن لى بألا تغضب « السياسة » ولا يحتج أصحابها وكتابها على هذا الاحتلال الأدبى الذى يسرف فى العدوان ! أنا إذن مضطر إلى أن أشير إشارة إلى هذه القصائد ، وألا أروى لك منها إلا أربعاً .

أما إحداها فى اللهو ، وهى تمثل لك نفسية الشاعر وفهمه للحياة ، كما أنها تمثل لك خفته الشعرية وميله إلى العبث اللفظى . ولمَ أرويها كلها ؟ يحسن أن أكتفى منها بهذه الأبيات :

بكَرَتْ عَلَىَّ عواذلى يَلْحَيْنَنى وألومُهنهْ
ويقُلْنَ شَيبٌ قد علا ك وقد كَبِرْتَ فقلت إنَّهْ
إنَّ العواذلَ لَسْنَنى ولنْ أُطيعَ أمورَهُنَّهْ
فيما أُفيدُ من الغنى والله سَوفَ يُهينهُنَّهْ

ولقد عَصَيتُ النَّاهيا تِ النَّاشرات جيُوبَهنَّهْ
حتى ارْعَوَيْتُ إلى الرَّشا د وما ارعويتُ لنَهْيِهنَّهْ

والأخرى قصيدة يتوجع فيها ، وقد جاءته أنباء الحرة ومقتل نفر من إخوانه ، فيها هذا العبث اللفظى ، وفيها سهولة تفطر القلب ؛ وما أظن إلا أنها صنعت للنائحات :

ذهبَ الصِّبا وتركتُ غِيَّتِيهْ ورَأى الغوانى شَيْبَ لِمَّتِيَهْ
وهَجرْنَنى وهَجرْتُهُنَّ وقد عَنَّتْ كرائمُها يطُفنَ بِيهْ
إذ لِمَّتى سَوْداءُ ليس بها وَضَحٌ ولم أُفْجَعْ بإخوَتِيَهْ
الحاملينَ لواء قوْمِهمُ والذائِدين وراءَ عَوْرَتِيَهْ
إنَّ الحوادثَ بالمدينةِ قد أوْجَعْنَنى وقَرَعنَ مرْوَتِيَهْ
وجبَبْنَنى جَبَّ السَّنامِ فلمْ يَترُكْنَ رِيشًا فى مناكِبِيَهْ
وأتى كِتابٌ من يزيدَ وقد شُدَّ الحِزامُ بسَرْجِ بغلتِيَهْ
ينْعَى بنى عبدٍ وإخوتَهُمْ حَلَّ الهلاكُ عَلَى أقارِبِيَهْ
وَنَعَى أسَامة لى وإخوتَه فظلْلتُ مُسْتكًّا مسَامِعِيَهْ
كالْهَارِب النَّشْوانِ قَطرَهُ سمَلُ الزِّقَاق تَفيضُ عَبْرَتِيَهْ
سَدِماً يُعَزِّينى الصحيحُ وقد مرَّ المَنون عَلَى كريمتِيَهْ
كيفَ الرُّقادُ وكلما هَجَعتْ عَينى ألَمَّ خَيالُ إخْوَتِيَهْ
تَبكى لهمْ أسماءُ مُعْوِلَةً وتقولُ لَيلَى وَا رَزِيَّتِيَهْ
واللهِ أبرَحُ فى مُقَدِّمة أهْدِى الجيوشَ عَلَيَّ شِكَّتِيَهْ
حتى أفَجِّعَهمْ بإخوتِهمْ وَأسُوقُ نِسْوَتَهُمْ بنِسْوتِيَهْ

ولندعْ الآن رثاءه ، وإن كان فيه أجود مما رويت لك ، لننتقل إلى هذه القصيدة التي ذكر فيها أم البنين والتي أشرت إليها آنفاً . وأنا أترك للقصيدة وصف نفسها ، وهي مدح مصعب بن الزبير :

أَلا هَزَأَتْ بنا قُرَشِــــيَّةٌ يهْتَزُّ موْكِبُها
رَأَتْ بي شيبَةً في الرأ سِ مني ما أغيبُها
فقالتْ أبْنُ قَيْس ذا ؟ وغيرُ الشَّيبِ يُعْجِبُها
رأتْني قد مَضى مِنّي وغَضَّاتٌ صواحِبُها
ومثلك قدْ لَهوْتُ بها تمامُ الحُسنِ أعْيَبُها
لَهَا بَعْلٌ غَيُورٌ قا عدٌ بالْباب يَحْجُبُهَا
يَرانى هٰكَذا أَمْشِي فيُوعِدُها وَيَضْرِبُها
ظَلِلْتُ عَلَى نَمارِقِها أُقَلِّبُهــا وأَخْلُبُها
أُحدِّثُها فتُؤْمنُ لى فأُصْدُقُها وأَكْذِبُها
فدَعْ هٰذا ولٰكِنْ حا جَةً قد كنتُ أَطْلُبُها
إلى أُمِّ البنينَ مَتى يُقرِّبُها مُقرِبُها
أَتَتْني في الْمَنامِ فقُلْــــتُ هذا حينَ أعقِبُها
فلمَّا أنْ فَرِحْتُ بها وَمالَ عَلَيَّ أعْذَبُهَا
شربْتُ بِريقِها حتى نَهِلْتُ وَبِتُّ أشرِبها
وبِتُّ ضَجيعَها جَذْلا نَ تعجِبُنى وأعْجِبُها
وأُضحِكُها وأبكيها وأُلبِسُها وأسْلُبُها
أعالِجُها فتَصْرَعُني فأُرْضيها وأُغْضِبُها
فكانتْ لَيْلَة في النَّوْ مِ نَسْمُرُها ونلعبُها

فأيقظنا مُنادٍ في صلاةِ الصبحِ يرقُبُها
فكان الطَّيفُ من جِنِّيَّةٍ لَمْ يُدْرَ مَذْهَبُها
يُؤرِّقُنا إذا نِمْنا ويبْعُدُ عنكَ مَسْرَبُها

ثم يمضى بعد ذلك فى مدح مصعب . وماذا تريد أن أقول لك فى هذا الشعر ؟ وهل تعرف أعذب منه لفظاً وأجود منه معنى وأخف منه روحاً !

وبين يدىّ قصيدة كافية يتغزل فيها شاعرنا بإحدى زوجات عبد الملك . ولكنى أعدل عنها إلى هذه القصيدة التى وعدتك بروايتها ، والتى قلت إنها تختصر مذهب ابن قيس فى السياسة ، وهى فى مدح مصعب ، وهى التى أحنقت عبد الملك على الشاعر ، ولكنها أطول من أن تروى كلها ، فلأجتزئ منها بأبيات أختارها ، وإن كانت كلها مختارة :

حَبَّذَا العيْشُ حينَ قومِى جميعٌ لَمْ تُفرِّق أُمورَها الأهواءُ
قبْلَ أنْ تطمعَ القبائلُ فى مُلْـ ـكِ قُريشٍ وتَشْمَتَ الأعْداءُ
أيُّها المُشتهى فَنَاءَ قريشٍ بيدِ اللهِ عُمرُها والفناءُ
إن تُودِّعْ منَ البِلادِ قريش لا يكن بَعْدَهُمْ لِحَىٍّ بقاءُ

ثم يمضى فى الفخر البديع بقريش لا يفرّق بين أحزابها السياسية ، حتى يصل إلى مصعب ، فيقول فيه هذه الأبيات التى غاظت عبد الملك :

إنَّما مُصْعَبٌ شِهابٌ مِنَ اللّـ ـهِ تَجَلَّتْ عنْ وجهِهِ الظلماء
مُلكهُ مُلْكُ قُوةٍ ليس فيه جَبروتٌ ولا به كِبْرِياء
يتقى اللهَ فى الأُمورِ وقد أفـ ـلحَ منْ كان همه الاتِّقاء

ولأدع هذه الآية الشعرية كارهاً ، فقد أسرفنا فى الإطالة ، ولأختم هذا الحديث بهذه الأبيات الحلوة :

حبذَا الإدْلالُ والغُنْجُ والتى فى طرْفِها دَعَجُ
التى إن حَدَّثَت كَذَبتْ والتى فى وَصلِها خَلَجُ

تلكَ إنْ جادَتْ بِنَائِلِها فابْنُ قيسٍ قلبُهُ ثلِجُ
وترى فى البيْتِ صُورَتَها مِثْلَ ما فى البِيعَةِ السُّرُجُ
حدِّثُونى هل عَلَى رجلٍ عاشِق فى قبْلَةٍ حَرَجُ

أعيد ما قلته غير مرة من أن فى الشعر العربى لهذا العصر كنوزاً خليقة أن تستكشف وأن تدرس على وجهها ، ولكنّ كثيراً من الناس لا يعلمون .

الغزلون(1)

الأحوص بن محمد الأنصارى

حدّثتك فى بعض الفصول الماضية عن أصحاب الغزل من أهل الحاضرة الحجازية ، بعد أن حدّثتك عن أصحاب الغزل من أهل البادية . ولكننى لم أتجاوز ، فيما كتبت إلى الآن ، الغزلين من قريش وأهل مكة ، وسأعود إليهم حين أختم هذه الفصول بزعيم الغزل الحضرى فى عصر بنى أمية ، وهو عمر ابن أبى ربيعة .

أما اليوم فأريد أن أحدّثك عن رجل ليس قرشيًّا ولا مكيًّا ، وإنما هو أنصارى مدنى . وسترى من هذا الحديث أن هذا الرجل ليس أقل خطراً من شعراء قريش ، وأن جنسيته اليمنية لم تؤثر فى شعره قليلا ولا كثيراً ، كما أن الجنسية القرشية المضرية لم تؤثر فى شعر القرشيين قليلا ولا كثيراً ؛ لأن هذا الشعر تأثر فى حقيقة الأمر بأسباب ومؤثرات أخرى مخالفة كل المخالفة للجنسية وما إليها : تأثر بتلك المؤثرات التى أكثرت ذكرها والإشارة إليها ؛ والتى سأكثر من ذكرها والإشارة إليها ، لأن الذين يدرسون الأدب العربى لم يقدروها قدرها بعد ، وهى خليقة أن تقدر ، إذ عليها وحدها تستطيع أن تعتمد فى فهم الشعر الإسلامى عامة ، وشعر هؤلاء الغزلين من أهل مكة والمدينة خاصة .

لعلك تذكر العرجى وما ذكرت من يأسه السياسى ، وما اضطره إليه هذا اليأس من حياة اللهو والعنف والسخط . ولعلك إذا درست الأحوص تشعر بشىء من الميل إلى المقارنة بينه وبين العرجى . وقد كانا فى الحق صديقين ، وكان بينهما تشابه قوىّ من بعض الوجوه ، وكان بينهما اختلاف أيضاً ، أصابتهما محن سياسية متشابهة ، فكلاهما ضُرب ، وكلاهما شُهر ، وكلاهما أهين علناً ، وكلاهما حبس .

أما العرجى فقد حبس فى مكة . وأما الأحوص فقد نفى إلى دَهْلَك .

(1) نشرت بجريدة « السياسة » فى ٥ نوفبر سنة ١٩٢٤ .

وكلاهما كان صاحب لهو وعبث ، وكلاهما كان صاحب غزل وذكر للنساء . ولكن لهو الأحوص كان أفحش من لهو العرجي . ولهو العرجي كان أعنف من لهو الأحوص ، وكما أن التشابه بين هذين الرجلين يرجع إلى مصدر واحد هو السياسة ، فكذلك الاختلاف بينهما يرجع إلى مصدر واحد هو السياسة أيضاً .

كان الشباب من أشراف مكة والمدينة مضطراً إلى هذا اليأس السياسي الذي ذكرته . ولكن هذا اليأس قد كان متفاوتاً أشد التفاوت ، بالقياس إلى شباب قريش وإلى شباب الأنصار . كان الملك في قريش . وكان الشباب القرشي يستطيع أن يعتز بهذا الملك وإن أقصى عن مناصبه وحيل بينه وبين تصريف أموره . وكانت لهذا الشباب دالة على الخلفاء من أبناء أعمامهم ، وكان الخلفاء مضطرين إلى أن يصانعوهم ويرفقوا بهم تكريماً لصلة القرابة والعصبية القرشية ، ومداراة لهذه الأطماع الخفية الظاهرة التي كانت توشك في كل وقت أن تنفجر فتديل من دولة لأخرى .

أما شباب الأنصار فقد كان مضطراً إلى يأس مظلم شديد الظلام ليس له إلى الأمل من سبيل قريبة أو بعيدة . لم يكن قرشياً ، ولم يكن الخلفاء في حاجة إلى إكرامه والرفق به ولا مداراته ومصانعته ، وإنما كانوا يخشونه ويكرهونه ويفتنون في ظلمه والقسوة عليه ، لا يخشون في ذلك حسيباً ولا رقيباً .

« منا أمير ومنكم أمير » كذلك قال الأنصار حين احتاج المسلمون إلى خليفة ، وكانوا مقتنعين بحقهم في الخلافة ، وكان كل شيء يبيح لهم هذا الاقتناع ، فلم يكونوا أقل بلاء في تأييد الإسلام من المهاجرين ، وربما كانوا أحسن بلاء من المهاجرين ، فهم آووا الإسلام ونزلوا للنبي وأصحابه من قريش عن ديارهم وأموالهم ، وبذلوا في نصر النبي وأصحابه من قريش نفوسهم ودماءهم . وعرف لهم النبي هذا كله ، فآخى بينهم وبين المهاجرين وآخى بين رجالهم ، حتى وجد بين الفريقين حلف أو شيء يشبه الحلف كان من الحق أن يكون أساساً للحياة الإسلامية المقبلة . ومن يدري لعل المسلمين لو قبلوا رأي الأنصار فأقاموا أميراً قرشياً وآخر أنصارياً لعصموا الإسلام من الفتن ، ولأقاموا خلافة دينية حقاً معتمدة على أساس من العدل ، معتزة بشيء من التوازن يحول دون ظهور

العصبيات التى أحدثت ما أحدثت من الشرّ فى تاريخ المسلمين .

الأنصار يمانية ، وقريش مضرية . فلو استقام الأمر للأنصار والمهاجرين ، على أن يكون لكل من الفريقين أمير ، لأمكن إيجاد التوازن بين المضرية واليمانية من جهة ، ولقامت الخلافة المزدوجة على أساس صحيح من الدين يصرف عنها أطماع الطامعين ، ويؤخر استحالتها إلى ملك قيصرىّ أو كسروىّ .

أكان المسلمون بعد موت النبي يجهلون النظام الرومانى حقاً ؟ أم كانوا يعلمونه بعض العلم ؟ أما أنا فأرجح أنهم كانوا يلمون به إلماماً ما . ولا أستطيع أن أفهم هذين المذهبين اللذين ظهرا فى أول عهد المسلمين بالحياة السياسية إلا على أنهما محاولة لتقليد الرومان فى حياتهم السياسية . فقد كان مذهب الأنصار أكثر ميلا إلى النظام الجمهورى القنصلى الذى كان فى عصر رقىّ الجمهورية الرومانية ، يقوم على انتخاب قنصلين ، أحدهما يمثل الأرستوقراطية القديمة : أرستوقراطية المولد ، والآخر يمثل الأرستوقراطية الجديدة : أرستوقراطية الثروة والجد والعمل . وقد كان مذهب المهاجرين أكثر ميلا للنظام الإمبراطورى ، ولا سيما فى العصر الأخير الذى كان يجمع السلطة كلها إلى الإمبراطور دون أن يجعله ملكاً يورثه الملك أبناءه من بعده .

كان مذهب الأنصار أقرب إلى الديمقراطية من جهة ؛ لأنه كان يقوم على المساواة والعدل ، وكان أقرب إلى الثيوقراطية من جهة أخرى ؛ لأنه كان يكل أمور الدين إلى الذين اشتركوا فى إقامة الدين وتأييده .

أما مذهب المهاجرين فقد كان أقرب إلى الأرستوقراطية وإلى الحكومة المدنية معاً .

ومهما يكن من شىء فقد فشلت دعوة الأنصار وحيل بينهم وبين الخلافة ، وانتصرت العصبية على الفكرة الديموقراطية الدينية ، وأجمع المسلمون أو كادوا يجمعون على هذا المذهب الغريب المتناقض الذى يجعل الخلافة وراثية أو غير وراثية : وراثية لأنها فى قريش ، وغير وراثية لأنهم أبعدوا عنها بنى هاشم .

فشلت دعوة الأنصار ، وظهر الأنصار فى ذلك مظهراً خليقاً بالعطف والإعجاب ، فأذعنوا فى غير ملل ولا ضيق صدر ، وطابت نفوسهم عن هذا الأمر الذى كان لهم فيه حق ظاهر . ولم يمض منهم فى الإباء والمشادّة إلا رجل واحد

هو : سعد بن عُبَادة ، الذى قتلته الجن فيما تزعم الأساطير ، والذى قتلته السياسة غيلة فى حقيقة الأمر ؛ لأن حياته كانت خطراً على النظام السياسى الجديد . وكان هذا الفشل الذى أصاب الأنصار أول عهدهم باليأس السياسى .

ولكن الدهر كان يدخر لهم ألواناً أخرى من اليأس . فقد ظهر أنهم لم يحرموا الخلافة وحدها ، بل حرموا أن يكون لهم فيها رأى . وليس أدل على ذلك من عهد عمر بن الخطاب إلى أهل الشورى . فأنت ترى أن هؤلاء النفر الذين عهد إليهم عمر فى اختيار الخليفة كانوا جميعاً من المهاجرين : عبد الرحمن ابن عوف ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة ، والزبير ، وعثمان ، وعلى بن أبى طالب ، كلهم قرشى .

ومهما تكن الأسباب الدينية التى أذيعت يومئذ لتعليل هذا الاختيار ، فإن الحقيقة الواقعة تشهد بأن الأنصار أبعدوا عن الخلافة وعن المشورة فى أمرها ، وأن الخلافة أصبحت شيئاً قرشيًّا خالصاً . ومع هذا فقد طابت نفس الأنصار عن المشورة فى أمر الخلافة ، كما طابت أنفسهم عن الخلافة وأذعنوا لرأى السنة ؛ وكانوا ناصحين للخلفاء الراشدين جميعاً . ولكنهم كانوا منطقيين مع أنفسهم ، كانوا يحسون أنهم مبعدون عن الأمر إبعاداً ، فكان هواهم مع بنى هاشم ، أليست قريش قد استأثرت بالأمر لأن النبى منها ؟ فلم لا يستأثر بنو هاشم بالأمر ، وهم أهل النبى ورهطه الأدنون !

على أن غيظ الأنصار لم يظهر حادًّا إلا حين استحالت الخلافة الإسلامية إلى ملك قيصرى أو كسروى ؛ وحين ظهر الميل من بنى أمية إلى أن يستأثروا بالأمر وحدهم دون قريش ، وحين ظهر ميل معاوية إلى أن ينقل الأمر من بعده إلى ابنه يزيد .

فى ذلك الوقت ظهر سخط الأنصار واضحاً جليًّا ، وأحسه بنو أمية وأرادوا أن يتقوه باللين والعنف ، واستأجروا الشعراء لهجاء الأنصار . ولعلك تذكر هذه الحملة التى حملها عليهم الأخطل فى قصيدته المشهورة التى يقول فيها :

ذَهَبَتْ قُرَيْشٌ بِالمكارِمِ كلها والُّلؤْمُ تحْتَ عَمائِمِ الأَنْصَارِ

ولعلك تذكر احتجاج النعمان بن بشير على هذا البيت عند معاوية واضطراب معاوية لهذا الاحتجاج .

ظهرت معارضة الأنصار ، ولكن معاوية استطاع أن ينتصر عليها كما انتصر على غيرها من ألوان المعارضة أثناء حياته . فلما صار الأمر إلى ابنه يزيد ظهرت كل هذه المعارضات عنيفة قوية . فأما الأنصار فأنكروا هذه القيصرية ، وأما قريش فنازعت بنى أمية الأمر .

انتقض الأنصار فى المدينة ، وانتقضت قريش فى مكة بزعامة عبد الله ابن الزبير . وانتقض بنو هاشم فى العراق بزعامة الحسين بن على . واعتزم بنو أمية أن يقمعوا هذه المعارضات قمعاً عنيفاً . ولكنهم أسرفوا فى العنف بالأنصار وإرهاقهم إسرافاً اضطر كثيراً منهم إلى المهاجرة ، فتركوا بلاد العرب ومضوا إلى أفريقيا ، وأخذوا يتبعون فيها الفتح حتّى انتهوا إلى الأندلس. واشتدّ الخلفاء وعمالهم على من بقى منهم بالمدينة ؛ فقد كان العمال يأبون أن يتخذوا حرس المدينة وشرطتها من أهل المدينة أنفسهم ، وكانوا يتخذون الشرطة من الأعراب الذين لا تصلهم بالمدينة صلة ما . ويكفى أن تقرأ أخبار الشعراء والظرفاء من أهل المدينة ، وأخبار الولاة والعمال الذين كانوا يرسلون إلى المدينة ، لتستيقن أن الخلفاء من بنى أمية كانوا يكرهون الأنصار كرهاً شديداً ، ويسرفون فى إساءة الظن بهم ، ويأخذونهم من ضروب العنف والإذلال بما لم يكن يلائم قديمهم فى تأييد الإسلام ، بل بما لم يكن يلائم مكانتهم من حيث هم مسلمون .

كانوا يحرمون شباب قريش مناصب الدولة ويمسكونهم فى الحجاز ، كما كان قياصرة الرومان فى أول الأمر يضيقون على شباب الأرستقراطية الرومانية ويمسكونهم فى إيطاليا . ولكنهم كانوا يذلون شباب الأنصار إذلالا ، فانصرف هذا الشباب عن السياسة وعن المجد المألوف إلى اللهو أو إلى الفقه . وكان أهل المدينة ظرفاء وفقهاء ، فنفعوا الأدب العربىّ ونفعوا الإسلام نفسه فى محنتهم ، كما نفعوه حين كانوا أعزاء .

الآن تستطيع أن تفهم شيئين يوصف بهما الأحوص : أحدهما أنه كان شديد الكبرياء مزهوًّا على الناس ، مزدرياً لهم جميعاً ، يهجوهم ويسرف فى هجائهم ، لا يفرق فى ذلك بين قومه الأنصار وقريش وغير قريش . أما الأنصار فقد كان يزدريهم ويكره منهم الإذعان والخشوع . وأما قريش فقد كان يحقد عليهم وينقم منها ما هى فيه من سلطان وجبروت . وما أسرع

ما اشتدّ تأثير ذلك فى نفسه فأصبح سفيهاً سباباً يهجو حبًّا فى الهجاء ! وقد انتهى به ذلك إلى أن كانت له حادثة ، أعتقد أن الناس لم يفهموها بعد على وجهها . زعموا أنه كان عند سكينة بنت الحسين فأذن المؤذن ، فلما انتهى إلى قوله : « أشهد أن محمداً رسول الله » قالت سكينة : هذا جدى ، وفخرت بالنبي . ففاخرها الأحوص وذكر جده الذى حمته النحل من المشركين واحتمله السيل حتى لا يصلوا إليه ، وذكر خاله الذى غسلته الملائكة . قالوا : وغضبت سكينة وغضبت غيرها وكفّروا الأحوص . واتخذ بنو أمية هذا وغيره وسيلة إلى إهانته ونفيه. وقد أراد سوء الحظ ألا تبقّى من هذه القصيدة إلا هذه الأبيات القليلة :

فخرَت وانتَمتْ فقُلْتُ ذَرِينى ... لَيْسَ جَهْلُ أَتَيْتِهِ ببَدِيعِ

فأَنَا ابنُ الذِى حَمَتْ لَحْمَهُ الدبْـ ... ـرُ قَتِيلُ اللّحْيانِ يوم الرجيعِ

غَسَلَتْ خالِىَ المَلائِكَةُ الأَبْـ ... ـرارُ مَيْتاً طُوبى لهُ مِن صَرِيعِ

لم يكن الأحوص مجنوناً ولا سخيفاً ، ولم يكن يريد أن يفاخر سكينة ولا أن يضع جدّه وخاله بإزاء النبيّ ، وإنما كان رجلا بائساً محزوناً يريد أن يقول لسكينة : فيم هذا الفخر والأمر فى هذه الأيام لقوم آخرين لم يبلوا فى الدين بلاء حسناً ؟ فيم هذا الفخر ؟ وهل عصمكم اتصالكم بالنبي من هذه المنكرات التى جناها عليكم بنو أمية ؟ وهل حقن دماءكم وردّ إليكم أمركم ؟ ولَمَ نذكر قديماً ونحن نرى أبناء النبي وأبناء أصحابه وأنصاره يزْدَرون ويسامون ألوان الخسف ؟ ! لم يرد أن يفاخر سكينة ، وإنما رثى لها ولنفسه وأمثالهما ، وهجا بنى أمية . إذن فلم يكفر ولم يتجاوز حدود الأدب والدين ، وإنما كان شاعراً سياسيًّا ، لا أكثر ولا أقل .

هذه الأبيات التى أفهمها على هذا الوجه تمثل نفسية الأحوص ، كما تمثل نفسية الشباب الأنصارى والقرشى ذلك الوقت . وهى تفسر لنا هذا الشيء الثانى الذى كان يوصف به الأحوص ، وهو الإسراف فى اللهو والاندفاع فى المجون إلى غير حدّ .

لا ينبغى أن تطلب إلى الناس جميعاً أن يكونوا أصحاب زهد ونسك ودين .

ولا ينبغى أن تطلب إليهم جميعاً أن يكونوا من قوّة الإرادة بحيث يقاومون اليأس ويجتنبون آثاره المؤلمة .

كان الأحوص رجلا كغيره من الناس يطمع فيما يطمع فيه أمثاله . فلما رأى أن أبناء المهاجرين والأنصار قد حرموا ثمرة جهاد آبائهم ، وعوملوا معاملة الأسرى والمجرمين ، وانتفع غيرهم بهذا الدين الذى أقاموه ، وبهذا الملك الذى شيدوه ، حقد فأنكر الناس ، ثم انتهى إلى إنكار الدين نفسه ، ثم لها عن الناس ودينهم وشؤونهم المختلفة بهذه اللذات المنكرة التى كان يتهالك عليها تهالكاً شديداً . وأنا أصدّق أنه قال تلك الحملة المنكرة ، التى أخجل أن أرويها فى هذا الحديث ، والتى تمثل نفساً فاجرة حقًّا لا تحفل بأدب ولا مروءة ولا دين .

كان الأحوص فاجراً بأوسع ما تدل عليه هذه الكلمة ، كان يشرب ويسرف فى الشرب ، وكان يحب النساء والغلمان ، وكان يحب شيئاً آخر غير هذا ، وكان بنو أمية معذورين فى القسوة عليه وأخذه بما أخذوه به من شدة ، فينبغى أن نلاحظ أنه ضرب وأهين ونفى أيام سليمان بن عبد الملك . فلما جاء عمر بن عبد العزيز ، وهو رجل عدل منصف صالح ، أبى أن يسمع للأنصار وأمسكه فى نفيه حتى أطلقه يزيد بن عبد الملك ، لأسباب سياسية سنراها بعد حين . ولكنى أروى لك قصتين : إحداهما تمثل حلم الوليد بن عبد الملك وتغاضيه عن زلات الأحوص ، والأخرى تمثل رأى عمر بن عبد العزيز فيه .

تحدثوا أن الأحوص وفد على الوليد بن عبد الملك فأكرمه وأعزّ مكانه وأنزله عنده ، ولكن الأحوص كان يراود غلمان الوليد الخبازين عن أنفسهم ، ثم أشفق أن يظهر ذلك ، فدسّ وكاد لضيف آخر من ضيوف الوليد — هو شعيب ابن عبد الله بن عمرو بن العاص — ثم ظهرت جلية الأمر للوليد فغضب على الأحوص وأقصاه ، ولكنه لم يضربه ولم يهنه كما فعل أخوه سليمان .

أما رأى عمر بن عبد العزيز فيه فأنقله لك حرفياً من الأغانى : « أتى رجال من الأنصار إلى عمر بن عبد العزيز فكلموه فيه وسألوه أن يُقْدِمَه وقالوا له : قد عرفت نسبه وموضعه وقديمه ، وقد أخرج إلى أرض الشرك ، فنطلب

منك أن تردّه إلى حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودار قومه ؛ فقال لهم عمر : فمن الذى يقول :

فما هُوَ إلّا أنْ أرَاها فُجاءةً ... فَأُبْهَتَ حتى ما أكادُ أُجيبُ

قالوا : الأحوص . فقال : من الذى يقول :

أدُورُ وَلَوْلَا أنْ أرَى أمَّ جَعْفَرٍ ... بِأَبْيَاتِكُمْ مادُرْتُ حَيْثُ أدُورُ

وَما كُنْتُ زَوّاراً وَلكِنَّ ذا الْهَوَى ... إذَا لَمْ يُزَرْ لابُدَّ أنْ سَيَزُورُ

قالوا : الأحوص . فقال : فمن الذى يقول :

كَأَنَّ لُبْنَى صَبِيرُ عَادِيَةٍ ... أوْ دُمْيَةٌ زُيِّنَتْ بِهَا الْبِيَعُ

اللهُ بَيْنِي وَبَيْنَ قَيِّمِهَا ... يَفِرُّ مِنِّى بهَا وأَتَّبِعُ

قالوا : الأحوص . قال : بل الله بين قيمها وبينه . فمن الذى يقول :

ستَبْقَى لهافِي مُضمَرِالقَلْبِ والْحشَا ... سَرِيرَةُ حُبٍّ يوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ

قالوا : الأحوص . قال : إن الفاسق عنها يومئذ لمشغول ، والله لا أرده ما كان لى سلطان » .

ولعلك تريد أن تعلم فيم عُذّب وفيم نفى ؟ وليس علم ذلك بالعسير . فقد كان أمره كأمر العرجى سواء بسواء ، كان العرجى عنيفاً فاجراً كارهاً للحكومة هجّاء لعامل الخليفة على مكة ، وكان الأحوص فاسقاً ماجناً مخنثاً ، كما سماه عبد الملك بن مروان ، وكان يهجو أشراف الأنصار وقريش ويتغزل بنسائهم ، وكان هذا هو السبب الحقيقى فى أنه كان يكره ابن حزم عامل سليمان بن عبد الملك على المدينة ويهجوه هجاء صريحاً قبيحاً . فلست أشك فى أن هذا الوالى حرّض الناس على الأحوص ، فشكوه إليه وطلبوا منه أن يكتب فيه إلى سليمان ففعل . وكان سليمان شديد الغيرة يكره الغزلين والمغنين ، وأمره مع ظرفاء المدينة مشهور ، فكتب إلى عامله أن يضرب الأحوص ويشهره ، ويقيمه للناس فى السوق ، ويصبّ على رأسه الزيت ، وينفيه إلى دهلك . وكان موقف الأحوص فى هذه المحنة كموقف العرجى جلَداً وصبراً وعزة نفس . وانظر إلى هذه الأبيات التى كان يصيح بها وهو يشهر فى السوق :

ما مِن مُصِيبَةِ نَكْبَةٍ أُمْنَى بهَا … إلَّا تُعَظِّمُنِى وتَرْفعُ شانِى
وتَزُولُ حِينَ تَزُولُ عَنْ مُتَخمِّطٍ … تُخْشى بوادِرُهُ عَلَى الْأَقْرَانِ
إنى إذَا خَفِى اللئامُ رأَيْتَنِى … كالشَّمْسِ لَا تَخفَى بِكُل مكان

وانظر إلى هذا الشعر يهجو به الوالى :

أقُولُ وأَبْصَرْتُ ٱبْنَ حَزْمٍ بْنِ فَرْتَنَى … وُقوفاً لهُ بِالْمأْزِمَيْنِ الْقَبائلُ
تُرَى فَرْتنى كانتْ بِمَا بَلَغ ٱبْنُها … مُصَدِقَةً لَوْ قَالَ ذلكَ قائِلُ

وانظر إلى هذا الشعر يقول لسليمان بن عبد الملك فى غير تردد ولا وجل :

سُليْمانُ إِذْ ولاَّكَ رَبُّكَ حكْمَنا … وسُلْطَاننا فاحْكُمْ إذَا قُلْتَ وَٱعْدِلِ
يومُ حجِيجَ الْمُسْلِمِينَ ابْن فَرْتَنَى … فهَبْ ذَاكَ حَجًّا لَيْس بِالْمُتَقَبَّلِ

وهجاؤه لابن حزم ونعيه على سليمان كثير . ولا تنس أنه كان ثقيلا على قومه ، يتخذ هجاءهم وسيلة إلى اللهو والعبث ، ويتخذ نساءهم موضوعاً للغزل ، يعفّ فيه حيناً ، ويفحش فيه حيناً آخر . فلما ولى الأمر يزيد بن عبد الملك عفا عنه وأكرمه وأحسن صلته . ويقول الرواة : إنه فعل ذلك لأبيات قالها الأحوص فيه ودسها إلى جاريته حبابة ، فغنته إياها ذات ليلة فطرب وأطلق الأحوص .

وليس من شك فى أن الأحوص استعطف عمر بن عبد العزيز ، واستعطف يزيد بن عبد الملك . ولكن سيرة يزيد فى أمر الأحوص كانت كسيرة الوليد ابن يزيد فى أمر العرجى . انتقم الوليد للعرجى ، لا حبًّا فيه بل نكاية بآل هشام بن عبد الملك ، وانتقم يزيد للأحوص ، لا حبًّا فيه بل نكاية بابن حزم وانتقاماً لنفسه .

حج يزيد بن عبد الملك فى خلافة أخيه الوليد ، فتزوج فى حجه هذا فتاة هاشمية هى بنت عون بن محمد بن على بن أبى طالب ، وأمهرها مالا كثيراً . وبلغ الأمر الوليد ، فغضب وكتب إلى ابن حزم أن ينقض هذا الزواج ويستردّ المال من عون ، فإن ردّه فذاك ، وإلا فليضربه بالسياط حتى يؤدّى إليه هذا المال . وأنفذ الوالى أمر الخليفة بمحضر يزيد ، فلما آلت الخلافة إلى يزيد

انتقم لنفسه من ابن حزم هذا ، ونقض جميع أعماله ، ومنها نفى الأحوص . وإذا صحت أخبار الرواة فإن الأحوص لم ينتفع بهذه الفرصة ، لأن الظرف أخطأه ، وملكه حب الانتقام فأهان الخليفة من حيث لا يريد .

قالوا : أمر يزيد أن يحمل إليه الأحوص وابن حزم ؛ فلما بلغا دمشق أذن يزيد للأحوص وظل ابن حزم بالباب ، فلما دخل الأحوص على الخليفة قال : يا أمير المؤمنين هذا ابن حزم الذى سفه رأيك وفسخ نكاحك ؛ فغضب يزيد وقال : كذبت عليك لعنة الله ! اكسروا أنفه ؛ فأخرج ذليلا .

ويظهر أن الأحوص أدركه الطمع فى آخر أيامه وأراد أن يكون مقرّباً من يزيد ، فوقف موقفاً آخر لم يشرفه ولم يجن له إلا شراً .

لما قتل يزيد بن المهلب أراد يزيد بن عبد الملك أن يقول الشعراء شعراً فى هجاء آل المهلب ، فاعتذر أكثر الشعراء لأنهم كانوا مدحوا آل المهلب ، فكرهوا أن يكذّبوا أنفسهم بهجائهم أثناء المحنة ، ولشد ما أحب أن يقرأ هذا قوم ! أما الأحوص فأجاب وهجا آل المهلب ، ثم كانت منه رحلة إلى فارس حيث العصبية لآل المهلب قوية ، فاحتاط الوالى حتى دس إليه نفراً دخلوا عليه ومعهم زق من الخمر ، فصبوه على رأسه ثم قادوه إلى الوالى فأنفذ فيه الحد ؛ وجعل يقول الأحوص : ما هكذا تقام الحدود ؟ فيجيبه الوالى : نعم ولكن لمَا تعلم . ثم كتب الوالى إلى يزيد معتذراً ، فاضطر يزيد إلى أن يقبل العذر لقوّته العصبية اليمانية فى فارس .

أظنك استطعت الآن أن تتمثل شخصية الأحوص ، وأظننا نستطيع أن نلخص هذه الشخصية فى أنه كان رجلا ساخطاً ، واضطره السخط إلى الإسراف فى اللهو والفجور والسفه ، جعل للسلطان على نفسه سبيلا . كان معذوراً فى إسرافه ، وكان السلطان معذوراً فى معاقبته .

ولكنى لم أحدثك إلى الآن عن شخصيته الشعرية ، وهى عظيمة جدا لم ينكرها عليه أحد ، حتى من أشد الناس بغضاً له وسخطاً عليه . لقد اضطر أبو الفرج إلى أن يشيد بمكانته الشعرية مرتين ، ولقد أبى الفرزدق وجرير أن يهجواه مخافة لسانه ، ولقد كان أشراف الناس يتقونه بالملاطفة حيناً ، وبالنذير

العنيف حيناً آخر ، ولقد أقسم بعض آل الزبير بمحرجات الأيمان ليقتلنه إن هجا زبيرياً بشعر قليل أو كثير .

كان الأحوص غزلا ولكنه كان مفتناً فى ضروب الشعر كلها ، له الفخر الرائع ، والمدح البديع ، والهجاء المقذع ؛ وذلك لأنه لم يكن متكلفاً ولا محتشما ، وإنما كان يرسل نفسه على سجيتها ، وكانت نفسه خصبة غنية بضروب الخير والشر ، فكان يكفى أن يعكف على هذه النفس لحظة فيجد فيها كل ما يريد.

كان حلو اللفظ متينه ، قوىّ الأسلوب رصينه ؛ يبلغ الإجادة اللفظية فى غير تكلف ولا مشقة ، ولم يكن كغيره من الغزلين المكيين يعنى بالمعنى ويستخف بالألفاظ ، وإنما كان حريصاً على التجويد فى لفظه ومعناه جميعاً .

كان إذا أراد وفياً حسن الحديث إلى من يحب ، ولكنه كان عابثاً أيضاً ، وكان يلهو بالغزل كما يلهو بالهجاء ، فكان يكذب على نساء الأنصار فيحرجهن ، ويحرج أزواجهن .

زعموا أنه أسرف فى ذكر أم جعفر ، وهى أنصارية عفيفة ، فلما ضاق بها الأمر أقبلت ذات يوم متنكرة حتى وقفت عليه وهو فى جماعة من قومه ، فقالت له : اقضنى ثمن الغنم التى اشتريتها منى . فأنكر ذلك ، وألحت وصدّقها الناس ، وأخذ هو يحلف ما رآها ولا يعرفها ؛ فكشفت عن وجهها وأصرّ هو على إنكاره ، وقد اجتمع حولهما الناس ؛ فلما بالغ فى الإنكار قالت أم جعفر : صدقت : يا عدوّ الله ! والله ما أعرفك وما تعرفنى ، ولكنك تذكرنى فى شعرك فتقول : قالت لى أم جعفر ، وقلت لها ، ويشيع ذلك فى الناس ؛ فخجل الأحوص .

ولست أريد أن أسرف فى الإطالة أكثر مما أسرفت ، فلأروِ لك هذه القصيدة فى شعر الأحوص ، فهى تعطيك صورة من سهولة لفظه ومعناه فى جودة ومتانة :

ثِنْتَانِ لَا أَدْنُو لِوَصْلِهِما عِرْسُ الْخَلِيلِ وَجارةُ الْجُنُبِ
أَما الْخَلِيلُ فَلَسْتُ فاجِعَهُ وَالْجَارُ أَوْصانى بِهِ رَبِّى

عُوجُوا كَذَا نَذْكرْ لِغانِيَةٍ بَعْضَ الْحَدِيث ، مَطِيّكُمْ صَحْبِي
ونَقُلْ لهَا فِيمَ الصدُودُ وَلَمْ نُذْنِبْ بَلَ انْتِ بَدَأْتِ بِالذّنْبِ
إنْ تقْبِلِي نُقْبِلْ ونُنزِلكُمْ مِنَّا بِدَارِ السَّهْلِ والرّحْبِ
أوْ تُدْبِرِى تَكْدُرْ معيشَتنَا وَتُصَدّعِى مُتلائِمَ الشّعْبِ

فانظر إلى هذا الماجن الفاجر كيف عفّ فى هذه الأبيات عن الجارة وعرس الخليل ! وكيف أحسن الحديث إلى صاحبته فى ظرف ورفق وصفاء طبع ! وانظر إلى قوله « عوجوا كذا » وإلى موضع « كذا » من هذا البيت ، فهو يختصر الظرف الحجازى كله .

وأنا أوصيك بكل ما قال الأحوص فى أم جعفر ، فهو على قلته كثير الغناء .

الغزلون[1]

يزيد بن الطثرية

وكذلك لا أحدثك اليوم عن زعيم الغزلين من أهل الحجاز عمر بن أبي ربيعة، لأني أريد أن أستقصي الغزلين ما استطعت إلى هذا الاستقصاء سبيلا ، ليكون البحث عنهم تاماً مستوفى ، وإذن فلا بد من أن أحدثك عن رجلين ممتازين ، يمتاز أحدهما بأنه يشخص البيئة التي كان يعيش فيها تشخيصاً صحيحاً لذيذاً ممتعاً ، وهو يزيد بن الطثرية . ويمتاز الآخر بأنه كان غزلا متكلفاً لا يعشق أحداً ولا يعشقه أحد ، وهو مع ذلك متقن للغزل بارع فيه ، وهو : كُثَيِّر .

وليكن يزيد بن الطثرية موضوع حديثنا اليوم . وإن لديّ لشيئاً كثيراً أريد أن أذكره عن يزيد بن الطثرية ، ولكني سأكون في هذا الحديث ناقلا أكثر مني كاتباً ؛ فنحن بإزاء قصة غرامية ، وإن شئت فقل بإزاء سيرة غرامية بارعة رائعة في لفظها وفي معناها وفي نتائجها ، والخير كل الخير ألا تشوه هذه القصة بالتخليص والتحليل ، وأن نعرض منها عليك ما نستطيع عرضه ، فستجد فيها لذة ونفعاً .

ولنلاحظ قبل كل شيء أننا لسنا بإزاء شاعر من أشراف مكة أو المدينة من أولئك الذين لجأوا إلى الغزل واللهو ، حين حالت السياسة بينهم وبين الجدّ والعمل . وإذاً فلن نلتمس تفسير شعره وغزله في الحياة السياسية والاجتماعية للمسلمين أيام بني أمية . ولسنا بإزاء شاعر من أهل البادية الحجازية التي وصفنا حالها في فصولنا الماضية وعرفنا أن غزلها لم يكن لهواً ولا عبثاً ، وإنما كان طموحاً إلى المثل الأعلى المعنوي ؛ مصدري اليأس من الحياة العاملة والزهد فيها .

---

[1] نشرت بجريدة « السياسة » في ٢٦ نوفبر سنة ١٩٢٤ .

لسنا بإزاء شاعر من حاضرة الحجاز ولا من باديته ، وإنما نحن بإزاء رجل آخر بعيد كل البعد عن السياسة وتأثيرها . بل نستطيع أن نقول إنه شديد الاتصال بالحياة البدوية الخالصة التى لم تكد تعرف من الإسلام إلا أنه دين يأخذ الناس بالصلاة والزكاة ، وبواجبات أخرى مادية ثقيلة على هؤلاء الناس الذين عاشوا أحراراً وكانوا يودون لو يعيشون أحراراً .

لم يتصل صاحبنا هذا بالحجاز ولا الحجازيين ، ولم يعرف ما كان فيه الحجاز وأهله من لهو ويأس ، كما أنه لم يتصل بالشام ولا بما كان فيه من ضخامة السلطان الأموى ، ولا بما كان يحيط بهذا السلطان من كيد ودس ، ولا بما كان يصدر عن هـذا السلطان من بأس وانتقـام ، كما أنه لم يتصل بالعـراق وما كان فيه من هذه المذاهب السيـاسية والدينية المختلفـة التى كانت تنشأ وتصطدم فى الكوفة والبصرة .

لم يتصل بشىء من هذا كله . ونستطيع آن نقول : إنه لم يعلم بشىء من هذا كله ، ولم يفترض له وجوداً . وإذاً فهو لم يتأثر به فى شعره ولا فى حياته ، ولم يصدر فى هذه الحياة ولا فى ذلك الشعر إلا عن بداوته الخالصة وطبيعته الصريحة .

على أن هذه البداوة نفسها تأثرت بشيئين مختلفين : تأثرت بالإسلام فسهلت بعد شدّة ، ولا نت بعد عنف ، وصفت بعد غلظة ، ثم تأثرت فى العصر الذى كان يعيش فيه صاحبنا بانتقاض الأمر على بنى أمية واضطراب سلطانهم ، وضعف الحكومة المركزية عن أخذ أهل البادية بالطاعة والإذعان للنظام ، فعادوا إلى ما كانوا فيه أو إلى شىء يشبه ما كانوا فيه قبل الإسلام ، وظهرت بينهم الخصومات وألوان العداء ، فأخذوا فيما كانوا فيه فى أثناء العصر الجاهلى من غزو وغارة ، ومن حرب وجهاد متصل . ولا ينبغى أن ننسى أن صاحبنا قد قتل فى غزوة من هذه الغزوات أول عهد بنى العباس .

هو إذاً يمثل نوعاً آخر من أنواع الغزلين ، يمثل هؤلاء الفتيان من أهل البادية المتعمقة فى بداوتها الذين كانوا يحيون حياة حرة طلقة لا تكاد تتأثر بشىء خارجى ، وإنما تصدر عن الطبيعة المطلقة المرسلة . وليس من شك فى أن هؤلاء الفتيان قد كانوا كثيرين جداً ، وفى أن حياتهم كانت خليقة بالبحث

والدرس والعناية ، لأنها تمثل لنا حياة البادية العربية الحرة فى العصر الإسلامى من جهة ، وتعيننا على تصور العصر الجاهلى بوجه ما من جهة أخرى . ولكن الرواة شغلوا عن هؤلاء الفتيان بفحول الشعراء وزعمائهم فى العراق والشام والحجاز ، ولم يكادوا يعنون بأهل البادية من هذه الناحية . وكل عنايتهم بالبادية انحصرت أو كادت تنحصر فى أخذ اللغة عن أهلها ، ورواية شىء عنها من غريب الشعر والرجز . فأما حياة فتيانها وكهولها وفتياتها ونسائها فقد انصرف الرواة عنها انصرافاً تاماً .

وماذا كان يعنى الرواة من أمر هذه البادية وأهلها ، وهى بعيدة كل البعد عن أن تؤثر فى الحياة العامة بوجه من الوجوه ، وهى منقطعة إلى حياتها البدوية منغمسة فيها ، لا تكاد تشعر بأن فى الوجود شيئاً آخر غيرها ! أضف إلى هذا أن الرواة كانوا يؤثرون من غير شك أن يحيوا فى هذه البلاد السهلة الغنية التى يجدون فيها من اليسر واللين ما يسهل عليهم الحياة ويتيح لهم ما يطلبون من رواية الشعر وتدوين التاريخ .

فقليل جداً من هؤلاء الرواة من كان يجتنب الحجاز والعراق والشام ليقذف بنفسه فى صحارى البلاد العربية ويخالط أحياء هذه الصحارى . ومن هنا ضاعت علينا حياة البادية العربية الإسلامية ، وضاع علينا قسم عظيم جداً من الأدب العربى ، لعله لم يكن أقل ثروة ولا خصباً ولا روعة مما حفظنا .

على أن حياة هذا الفتى العربى البدوىّ ، الذى نتحدث عنه اليوم ، تعطينا صورة من هذا الأدب ، إن لم تكن قوية مفصلة ، فهى واضحة بعض الوضوح صادقة أشدّ الصدق .

لم يكن يزيد بن الطثرية غزلا ليس غير ، وإنما كان فتى من فتيان العرب بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، أى إنه كان يحيا حياة لهو وعبث وفخر وغزو وكرم وهجاء . كان يستمتع بقوته وشبابه وطبيعته الحرة الطلقة ، فيأنس إلى الحياة ولذاتها فى غير تكلف ولا تصنع ولا استتار . وكان يستمتع بهذه الحياة استمتاعاً طبيعياً ساذجاً لم تفسده الحضارة ولم تكدر صفوه .

ومن هنا لم يكن فاحش اللفظ ولا منكر السيرة . ولست تجد فيما حفظ لنا من شعره وسيرته شيئاً تكرهه ، إلا حواراً واحداً وقع بينه وبين امرأة من أهل

البادية لم يخل من تصريح تمقته أذواقنا الخلقية ، ولكنه يضحكنا ويلذنا من الوجهة الأدبية الخالصة .

كان يزيد بن الطثرية من بنى قشير من قيس عيلان ، وكان حيه يقيمون فى بادية اليمامة . ويقال إن الطثرية هى وإن كانت يمانية من بنى جرم ، فإنها تنتهى إلى طيئ . وإذاً فقد اجتمعت فى صاحبنا شدّة المضرية وسهولة اليمانية . وكان يزيد من أجمل الناس وجهاً ، وأحسنهم صورة ، وأرقهم لفظاً وأعذبهم حديثاً ، وكان فتاناً للنساء مفتوناً بهن ، والغريب من أمره أنه كان يفتّن النساء ويفتتن بهن ، وأن الطبيعة أرادت أن تكون الصلة بينه وبينهن أفلاطونية خالصة . ولم يمنعه ذلك من أن يعشق ، ومن أن يؤلمه العشق ويبرح به ويجشمه خطوباً وأهوالا .

على أن الذى يعنينا من أمر يزيد بن الطثرية ليس هو يزيد وإنما هى الصلة بين رجال البادية ونسائها ، هذه الصلة التى يظهر أنها كانت تختلف اختلافاً شديداً باختلاف القبائل والأحياء . وقد قلت فى أول هذا الفصل : إنى سأكون ناقلا أكثر منى كاتباً فى هذا الحديث ، فلأترك للرواة أن يحدثوك بشىء من خبر يزيد ، وأنا أحب أن تنظر إلى هذا الحديث نظر عناية وتدبر فى اللفظ والمعنى جميعاً .

« . . . وأن الناس أمحلوا حتى ذهبت الدقيقة من المال ، وتهتكت الحيلة ، فأقبل صِرْم من جَرْم ساقته السنة والجدب من بلاده إلى بلاد بنى قشير ، وكانت بينهم وبين بنى قشير حرب عظيمة ، فلم يجدوا بداً من رمى قشير بأنفسهم لما قد ساقهم من الجدب والمجاعة ودقة الأموال وما أشرفوا عليه من الهلكة ، ووقع الربيع فى بلاد بنى قشير ، فانتجعها الناس وطلبوها ، فلم يعدُ أن لقيت جَرْم قشيراً ، فنصبت قشير لهم الحرب ، فقالت جرم : إنما جئنا مستجيرين غير محاربين ؛ قالوا : مماذا ؟ قالوا من السنة والجدب والهلكة التى لا باقية لها . فأجارتهم قشير وسالمتهم وأرعتهم طرفاً من بلادها . وكان فى جرم فتى يقال له ميّاد ، وكان غزلا حسن الوجه تامّ القامة آخذاً بقلوب النساء . والغزل فى جرم جائز حسن ، وهو فى قشير نائرة . فلما نازلت جرم قشيراً وجاورتها أصبح ميّاد الجرمىّ فغدا إلى القشيريات يطلب منهن الغزل والصبا والحديث ،

واستبراز الفتيات عند غيبة الرجال واشتغالهم بالسقى والرعى وما أشبه ذلك ، فدفعنه عنهن وأسمعنه ما يكره ؛ وراحت رجالهن عليهن وهن مغضبات ، فقالت عجائز منهن : والله ما ندرى أرْعيتم ـجرْماً المرعى أم أرعيتموهم نساءكم ! فاشتدّ ذلك عليهم فقالوا : وما أدرا كُنّه ؟ قلن : رجل منذ اليوم ظل مُحْجراً لنا ما يطلع منا رأس واحدة ، يدور بين بيوتنا ! فقال بعضهم : بيّتوا جرما فاصطلموها ، وقال بعضهم : قبيح ، قوم قد سقيتموهم مياهكم ، وأرعيتموهم مراعيكم وخلطتموهم بأنفسكم . وأجرتموهم من القحط والسنة ، تفتاتون عليهم هذا الافتيات ! لا تفعلوا، ولكن تصبحوا وتقدّموا إلى هؤلاء القوم فى هذا الرجل فإنه سفيه من سفهائهم، فليأخذوا على يديه ؛ فإن يفعلوا فأتموا لهم إحسانكم ، وإن يمتنعوا ويقرّوا ما كان منه يحلّ لكم البسط عليهم وتخرجوا من ذمتهم . فأجمعوا على ذلك ، فلما أصبحوا غدا نفر منهم إلى جرم فقالوا : ماهذه البدعة التى قد جاورتمونا بها ؟ إن كانت هذه البدعة سجية لكم فليس لكم عندنا إرعاء ولا إسقاء ، فبرّزوا عنا أنفسكم وأذنوا بحرب ، وإن كان افتياتاً فغيروا على من فعله ، وإنهم لم يعدوا أن قالوا لجرم ذلك ، فقام رجال من جرم وقالوا : ما هذا الذى نالكم ؟ قالوا : رجل منكم أمس ظل يجر أذياله بين أبياتنا ما ندرى علام كان أمره ! فقهقهت جرم من جفاء القشيريين وعجرفيتها ، وقالوا : إنكم لتحسون من نساءكم ببلاء ، ألا فابعثوا إلى بيوتنا رجلا ورجلا . قالوا : والله ما نحس من نسائنا ببلاء ، وما نعرف منهن إلا العفة والكرم ولكن فيكم الذى قلتم . قالوا : فإنا نبعث رجلا إلى بيوتكم يا بنى قشير إذا غدت الرجال وأخلف النساء ، وتبعثون رجلا إلى البيوت ، ونتحالف أنه لا يتقدم رجل منا إلى زوجة ولا أخت ولا بنت ولا يعلمها بشيء مما دار بين القوم ، فيظل كلاهما فى بيوت أصحابه حتى يردا علينا عشياً الماء ، وتخلى لهما البيوت ولا تبرز عليهما امرأة ولا تصادق منهما واحداً فلا يقبل منهما صرفاً ولا عدلا إلا بموثق يأخذه عليها وعلامة تكون معه منها، قالوا : اللهم نعم . فظلوا يومهم ذلك وباتوا ليلتهم ، حتى إذا كان من الغد غدوا إلى الماء وتحالفوا أنه لا يعود إلى البيوت منهم أحد دون الليل . وغدا مياد الجرمى إلى القشيريات ، وغدا يزيد بن الطثرية القشيرى إلى الجرميات ، فظل عندهن بأكرم مظلّ لا يصير

إلى واحدة منهن إلا افتتنت به وتابعته إلى المودّة والإخاء ، وقبض منها رهناً وسألته ألا يدخل من بيوت جرم إلا بيتها ، فيقول لها : وأى شىء تخافين وقد أخذت منى المواثيق والعهود وليس لأحد من قلبي نصيب غيرك ! حتى صليت العصر . فانصرف يزيد بفتَخ كثير وبراقع ، وانصرف مدهوناً مكحولا شبعان ريان مُرَجّل اللِّمّة . وظل مياد الجرمى يدور بين بيوت القشيريات مرجوماً مقصياً لا يتقرب إلى بيت إلا استقبلته الولائد بالعمد والجندل . فتهالك لهن وظن أنه ارتياد منهن له ، حتى أخذه ضرب كثير بالجندل ، ورأى اليأس منهن وجهده العطش ، فانصرف حتى جاء إلى سمرة قريباً إلى نصف النهار ، فتوسد يده ونام تحتها نويمة حتى أفرجت عنه الظهيرة وفاءت الأظلال ، وسكن بعض ما به من ألم الضرب وبرد عطشه قليلا . ثم قرب إلى الماء حتى ورد على القوم قبل يزيد . فوجد أمة تذود غنماً فى بعض الظّعْن : فأخذ برقعها وقال : هذا برقع واحدة من نسائكم ، فطرحه بين يدى القوم ، وجاءت الأمة تعدو فتعلقت ببرقعها فَرَدّ عليها . وخجل مياد خجلا شديداً . وجاء يزيد ممسياً وقد كاد القوم أن يتفرقوا فنثر كمه بين أيديهم ملآن براقع وفتخاً . وقد حلف القوم ألا يعرف رجل شيئاً إلا رفعه ، فلما نثر ما معه اسودّت وجوه جرم وأمسكوا بأيديهم إمساكة . فقالت قشير : أنتم تعرفون ما كان بيننا أمس من العهود والمواثيق وتحرّج الأموال والأهل ، فمن شاء أن ينصرف إلى حرام فليمسك يده : فبسط كل رجل يده إلى ما عرف فأخذه وتفرّقوا عن حرب ، وقالوا : هذه مكيدة يا قشير . فقال فى ذلك يزيد بن الطثرية :

فَإِنْ شِئْتَ يَامَيَادُ زُرْنا وَزرْتُمُ ... ولَمْ تَنْفَسِ الدُّنيَا عَلَى مَنْ يُصيبُهَا
أَيَذْهَبُ مَيادٌ بِأَلْبَابِ نِسْوَتِي ... وَنِسوَةُ مَيادٍ صَحِيحٌ قُلُوبُهَا

فقال مياد الجرمى :

لَعَمْرُكَ إِنَّ جمْعَ بنى قُشَيْرٍ ... لِجَرْمٍ فِى يَزِيدَ لَظَالِمُونَا
أَلَيْسَ الظلمُ أَنْ أَبَاكَ مِنا ... وأَنكَ فى كَتِيبَةِ آخرِينا
أَحَالِفَةٌ عَلَيْكَ بَنُو قُشَيْرٍ ... يَمِينَ الصَّبْرِ أَمْ مُتَحَرِّجُونَا »

ليس لدىّ من الوقت ولا من المكان ما يمكننى من شرح هذه القصة والتعليق على ألفاظها وأسلوبها ومعانيها ، فكل ذلك محتاج إلى شرح ، وكل ذلك محتاج إلى تفسير . ولكنى أسرع فأقول : إنى لا أقبل هذه القصة على علاتها ، ولا أصدق ما فيها من تفسير . وأكاد أرجح أن فيها كذباً ونحلا مصدره العصبية المضرية .

ولكن هذه القصة فى جملتها تمثل شيئاً خليقاً بالعناية ، وهو أن الصلة بين الرجال والنساء كانت سهلة ميسورة مستحبة فى اليمانية ، وكانت عسيرة ممقوتة فى المضرّية ، كما أنها تثبت شيئاً آخر وهو أن يزيد بن الطثْرية قد كانت بينه وبين النساء الجرميات صلة ما .

على أننا لسنا فى حاجة إلى هذه القصة لنثبت أن يزيد كان على اتصال بالجرميات ، فإن حياة يزيد وشعره يثبتان ذلك إثباتاً لا شك فيه .

ليس من شك فى أن الجدب قد اضطر بنى جرم إلى جوار بنى قشير ، وفى أن الصلة اشتدت بين يزيد وبين الجرميات أو بينه وبين امرأة بعينها من الجرميات يقال لها وحشية ، فكان بينهما حبّ ومودّة . ونشأت عن هذا الحب قصة كالقصص التى نشأت عن حب جميل وبثينة ، وعن حب قيس بن ذريح ولُبنى ، تمتاز بكل ما تمتاز به هذه القصص ، ففيها مرض العاشق وإشرافه على الموت ويأس الأطباء منه ، وفيها احتيال هذا العاشق فى زيارات صاحبته واختلاسه هذه الزيارات وتكلفه الأعاجيب ، بل فيها أن يزيد احتال فى زيارة صاحبته مرّة فراح عليها بين الغنم يمشى على أربع ، وقد اتخذ من اللباس ما يقرب الشبه بينه وبين الكباش . وفيها هذه الخصلة الأخرى التى تمتاز بها هذه القصص ، وهى استعداء الحكومة على العاشق وتدخل السلطان فى هذه الأمور الغرامية الخالصة . ولكن الذى نستطيع أن نصدّقه من كل هذه القصة هو أن يزيد قد عشق وحشية وعشقته وحشية أيضاً ، وكان بينهما تزاور ، فغضب لذلك « فُديْك » الجرمى وهو زعيم أسرة وحشية هذه ، وأنذر نساء أسرته إنذاراً شديداً وخوّفهن الموت ، فاستلّ سيفه وضرب به بين أيديهن غلاماً له ترويعاً لهن وتخويفاً . ولكن وحشية لم تخف ولم يأخذها الروع ، فاتصلت المواعيد بينها وبين يزيد ، وعرف ذلك فديك فاتخذ زبية وأضرم فيها

ناراً خفيفة وانتظر حتى خرجت وحشية للقاء صاحبها ، فسقطت فى الذبية واحترقت رجلها ، وأخذها غلمان فديك فردوها إلى بيتها . ونشأ الهجاء بين فديك ويزيد؛ فقال فديك :

شَفَى النَّفْسَ مِنْ وَحْشِيَّةَ اليَوْمَ أنها ... تهَادَى وقَدْ كانَتْ سريعاً عَنِيقها

فإلا تدَعْ خَبْطَ الْموَارِدِ فى الدُّجى ... تَكُنْ قَمِناً مِن غشيَة لَا تُفِيقهَا

دَوَاءُ طبِيبٍ كان يَعْلَم أنَّهُ ... يدَاوِى المَجَانِين الْمُخَلَّى طَرِيقُهَا

فأجاب يزيد :

سَتَبْرأُ مِنْ بعدِ الضَّمانَةِ رِجْلُهَا ... وَتـأْتِى الذِى تهْوَى مُخَلًّى طَرِيقُهَا

عَلَىَّ هَدَايا الْبُدْنِ إن لَمْ ألاقِهَا ... وَإنْ لَمْ يكُنْ إلا فُدَيْكٌ يسُوقُهَا

يُحَصِّنهَا مِنِّى فُدَيْكٌ سفاهَةً ... وَقَدْ ذَهَبَتْ فِيهَا الْكُبَاسُ وحُوقُهَا

تذِيقونهَا شَيْئاً مِنَ النار كُلَّمَا ... رَأَتْ مِن بَنِى كَعب غُلاماً يَسُوقُهَا

وقال يزيد أيضاً :

يَا سُخْنَةَ العيْنِ لِلْجَرْمِىِّ إذْ جَمَعَتْ ... بَينِى وَبَيْنَ مَزَارٍ وحْشَةُ الدَّارِ

خَبَّرْتَهُمْ عذَّبوا بِالنَّارِ جارتَهُمْ ... وَمَنْ يُعَذِّبُ غَيْرَ ٱللهِ بِالنَّارِ

ويظهر أن الأمر اشتدّ بين يزيد وفديك فاستعدى عليه صاحب اليمامة . ولكن تدخل السلطان فى هذا الحب لم يكن كتدخله فى حب جميل وقيس ابن ذريح ، فلم يهدر دمه ولم ينفه من الأرض، وإنما تقدّم إلى أخيه فى تأديبه ، وكان له أخ يسمى ثوراً — سنعرض له بعد حين — وكان ثور هذا رفيقاً بيزيد محبًّا له ، فلم يتجاوز فى تأديبه أن حلق لمته تشويهاً له وصرفاً للنساء عنه ؛ فقال يزيد فى ذلك :

أقولُ لِثَوْرٍ وَهُوَ يحلِقُ لِمَّتِى ... بِحَجْناء مَرْدُودٍ عَلَيْهَا نِصَابُهَا

ترَفَّقْ بِهَا يَا ثورُ لَيسَ ثَوابُهَا ... بِهٰذَا وَلٰكِن غَيْرُ هٰذَا ثَوَابُهَا

ألاَ رُبَّمَا يَا ثَوْرُ قَد عَلَّ وَسْطَهَا ... أنَامِلُ رَخْصَاتٌ حَدِيثٌ خِضَابُهَا

وَتسلُكُ مِدْرَى الْعَاجِ فِي مُدلهِمَّةٍ ... إذَا لَمْ تفرجْ مات غَمًّا صُوَابُهَا

فَرَاحَ بِها ثُوْرٌ تَرِفُّ كأَنَّهَا ... سَلاسلُ دِرْعٍ لِينها وَانْسِكَابهَا

منعمَةٍ كالشَّرْبَةِ الْفرْدِ جَادَها ... نِجاءُ الثريَّا هطلهَا وذِهَابُهَا

فاصْبَحَ رأسِي كالصخَيْرَةِ أشرَفَت ... عَلَيْهَا عِقَابٌ ثم طارَت عقابها

على أن الخصومة بين يزيد وغيره من الناس لم تقف عند الحب، بل تجاوزته إلى شيء آخر . فقد قلت : إن يزيد كان من فتيانِ العرب ينفق حياته فى اللهو والحب، وكان متلافاً يسرف فى الاستدانة ، وكان أخوه يبيع له ماله ، ويحمل عنه دينه . وكأنه أسرف فى الدين ، فتقاضاه دائنه ، وهو رجل يعرف بالبربرى ، وحبسه الحاكم عقبة بن شريك فى هذا الدين ، فقال فى سجنه :

فَلَوْ قَلَ دَيْنُ الْبَرْبَرى قَضَيْتُهُ ... ولٰكِنَّ دَيْنَ الْبَرْبَرِى كَثِيرُ

وَكُنْت إذا حلت عَلَيَّ دُيُونهمْ ... أَضُمُّ جَنَاحِي مِنهُمُ فأَطِيرُ

عَلَى لهُمْ فِي كلِّ شَهْرٍ أدِيةٌ ... ثمانونَ وَافٍ نَقدُهَا وَجَزُورُ

نَحِنُّ إلى ثورٍ فنِيمَ رَحِيلُنَا ... وثَوْرٌ عَلَيْنَا فِي الحَيَاةِ صَبُور

أشدُّ على ثَوْرٍ وثَوْرٌ إذَا رَأَى ... بِنَا خَلَّةً جَزْلُ الْعطَاءِ غَفُورُ

فَذٰلِك دَأْبِي مَا بقِيت ومَامَشَى ... لِثَوْرٍ عَلَى ظَهْرِ الْبِلَادِ بَعِيرُ

وقد طال عليهِ السجن وضاقت به الحال فاجتهد حتى خلص من سجنه وعمد إلى نجيب لقيه يقال له ابن الكميت ، فركبه ومضى به إلى اليمامة حتى وصل إلى عقبة ، فلما عرفه عقبة أنكر ما فعل من الأمر ، ولكن يزيد مدحه بقصيدة من أجود ما قال أهل البادية ، فعفا عنه عقبة ، وأبرأه من دينه ، ووهب له النجيب وحكمه فى ماله ، وإليك بعض هذه القصيدة :

وَمُدَلَّة عِنْد التَبَذُّلِ يفتَرِي ... مِنْهَا الْوِشَاحُ مخصراً أُمْلودَا

نازعْتُهَا غُنْمَ الصِّبا إن الصِّبا ... قدْ كان مِني لِلْكَوَاعِبِ عِيدَا

يا لَلرجَالِ وَإنَّمَا يَشْكو الْفتَى ... مَرَّ الْحَوَادِث أَوْيَكُونَ جَليدا

بَكَرَتْ نَوَارُ تَجُدُّ باقِيَةَ الْقُوَى   يوْمَ الْفِراقِ وتُخْلِفُ الموعُودَا
وَلَرُبَّ أَمْرِ هوًى يَكُونُ نَدَامَةً   وسَبيلِ مَكْرُهَةٍ يَكُون رَشِيدَا

ثم يقول :

لا أتَّقِى حَسَكَ الضَّغَائِنِ بِالرُّقى   فِعْلَ الذَّلِيلِ وإنْ بَقِيتُ وَحِيدا
لكِنْ أُجَرِّدُ لِلضغائِنِ مِثْلَهَا   حتى تمُوتَ وَلِلحُقُودِ حقودَا

وبمايتّم تمثيل هذه الشخصية البدوية اللاهية العابثة فى مزح ورضاء ، هذه القصة الّتى كانت له مع أخيه ثور :

فقد زعموا أنه راح فى إبل أخيه فمرّ بنسوة حسان ، فطلبن إليه أن يطعمهن لحماً ، فسألهن سكيناً وعقر لهن ناقة وأقبل عليه أخوه يلومه ويضربه ، فقال :

ياثَوْرُ لاتَشْتمَنْ عِرْضِي فِدَاكَ أَبِي   فإنّما الشّتم لِلْقَومِ الْعوَاوِيرِ
مَا عَقْرُ نابٍ لأَمْثَالِ الدُّمى خرُدٍ   عِينٍ كِرَامٍ وَأَبْكارٍ معَاصِيرِ
عطفن حَوْلِي يُسَائِلْن القِرى أُصُلاً   وَلَيس يَرْضَيْن مِنى بِالْمَعاذِيرِ
هَبْهُن ضيْفاً عرَا كم بَعْدهَجْعَتِكمْ   فِى قِطْقِطٍ مِن سَقِيطِ اللّيْلِ مَنْثُورِ
وَلَيْس قُرْبَكُمْ شَاءٌ وَلا لَبَنٌ   أيَرْحَلُ الضَّيْفُ عَنكُمْ غَيْرَ مَحْبُورِ
مَا خَيْرُ وارِدةٍ لِلْمَاءِ صَادِرَةٍ   لَا تَنْجلِي عَنْ عَقِيلِ الرَّجْلِ مَنْحُورِ

ولقد أريد أن أفصل القول فى شعر يزيد ، وأبين مكانة هذا الشعر من الجودة والمتانة والرقة التى يمتاز بها شعر أهل البادية فى هذا العصر الأموى خاصة ، ولكنى قد أطلت . فانظر إلى هذه الأبيات ؛ فستجد فيها أحسن مثالا ، لا أقول يزيد وحده ، بل أقول لنفسية هؤلاء الفتيان الذين كانوا يحيون حياته ويلهون لهوه :

أَلَا حَبَّذَا عيْنَاكِ يَا أُم شُنْبُلٍ   إذَا الْكُحْلُ فى جَفْنَيْهِمَا جالَ جَائلُهْ
فِدَاكِ مِنَ الْخُلَّانِ كل مُمزَّجٍ   تَكُونُ لِأَدْنَى مَن يُلَاقِي وَسَائلُهْ
فَرَحْباً تَلَقَانَا بِه أُمُّ شُنْبُلٍ   ضُحيًّا وأَبْكَتْنَا عَشِيًّا أَصائلُهْ

وكُنْت كأَنّي حِين كانَ كلامُهَا   وَداعاً وَخِلّي مُوثَقُ الْعَهْدِ حامِلُهْ

رَهِينٌ بِنفسٍ لَمْ تُفكَّ كُبُوله   عَنِ الساقِ حتى جَرّدَ السَّيْفَ قَاتلهْ

فَقَال:دعُونِي سَجْدَتَيْنِ وأُرْعِدتْ   حِذار الرَّدَى أَحْشَاؤُهُ وَمَفَاصلُهُ

بِنَفسِيَ مَنْ لَوْ مَرَّ بِرْدُ بَنانِهِ   عَلَى كبِدِي كانتْ شفَاءً أَنَاملُهُ

وَمَنْ هَابنِي فى كلِّ شَيْءٍ وَهبتُهُ   فلَا هُوَ يُعْطِينِي ولا أَنَا سَائله

الغزلون[1]

كثيّر

وإنما أعده فى الغزلين لأخرجه منهم ، فالناس يُجمعون أو يكادون يجمعون على أنه أحد الغزلين الذين أتيحت لهم الإجادة ، وقسم لهم التفوّق فى الغزل . وهم يقرنون اسمه باسم جميل فيقولون : كثير عزة ، كما يقولون : جميل بثينة ، وكما يقولون : مجنون ليلى . وهم بهذا نفسه يقدمونه على ابن ذريح ، ويقدمونه على الأحوص والعرجى وغيرهما من أصحاب الغزل فى بادية الحجاز وحاضرته . والرواة لا يكتفون بهذا بل يقدمونه على الشعراء عامة ويضعونه بين الفحول . فهو مقدّم على ابن أبى ربيعة ، وهو فى مرتبة الفرزدق والأخطل وجرير والراعى . ولست أدرى أكان الرواة منصفين فى وضعه بين هؤلاء الفحول ، وتقديمه على عامة شعراء العصر الأموى ؟ وليس سبيل إلى الفصل فى ذلك ، فقد ضاع شعر كُثَيّر كله ولم يبق منه إلا الشىء القليل جداً ، لم يبق منه إلا أبيات ومقطوعات لا تبيح الحكم له ولا عليه . وإذاً فقد يكن شاعراً فحلا ، وقد يصح أن يقرن إلى الفرزدق وإلى جرير . ولكنّ شيئاً لا يقبل الشك ، هو أنه ليس من الغزلين المتقدمين ، ولا يصح أن يقرن إلى جميل ، ولا أن يقاس بابن أبى ربيعة ، ولا أن يقدم على ابن ذريح .

ليس هو من هؤلاء كلهم فى شىء . وإذا كان له أن يتقدّم أو أن يظفر بمكانة عالية بين الشعراء فلا ينبغى أن يكون ذلك لغزله ، وإنما ينبغى أن يكون ذلك لشىء آخر قد يتاح لنا أن نعرفه بعد حين .

ستقول : وإذا لم يكن من الغزلين فلم أضفته إليهم وحشرته فيهم ؟ وقد أجبتك على هذا السؤال فى أول هذا الحديث ، فقلت : إنى أعده فى الغزلين لأخرجه منهم . وهل تظنّ أن الناس يقبلون بحثاً تناول الغزلين جميعاً وسكت

---

(١) نشرت بجريدة « السياسة » فى ٣ ديسمبر سنة ١٩٢٤ .

عن كثيّر ، وهم كما قلت لك مجمعون على أنه غـَزِلٌ مقدم بارع فى الغزل ! أليس من الحق على من يبحث عن الغزلين ويستقصيهم أن يزيل هذا الوهم ويمحو آثاره من نفوس الناس !

كل شيء فى حياة كثيّر يدلنا على أنه لم يكن غزلا بطبعه ، ولم يكن ماهراً ولا موفقاً فى تكلف الغزل ؛ فهو لم يكن صافى الطبع ولا رقيق الحس ولا دقيق الشعور ولا قوىّ العاطفة ولا ذكى الفؤاد ، وإنما كان بريئاً من هذا كله ؛ وهو لم يكن على براءته من هذه الخصال حسن الخلق ولا مقبول الصورة ؛ وإنما كان دميماً قبيحاً بشع المنظر مضحكاً لمن يراه ، مضحكاً لمن يسمعه ويتحدث إليه أيضاً : كان قصيراً مسرفاً فى القصر ، حتّى قال بعض الرواة : « لقد رأيته يطوف بالكعبة فمن حدثك أنه يزيد على ثلاثة أشبار فقد كذب » . وكان أحمق مسرفاً فى الحمق ضعيف العقل إلى حدّ غريب ، كان الناس يتخذونه هزؤا وسخرية . والغريب من أمره أنه لم يكن يحس هذا الاستهزاء ولا يشعر بهذه السخرية ، وإنما كان يصدق كل ما يلقى إليه ، ويسمع المزاح فيجيب إليه جادًّا مقتنعاً .

زعموا أن نفراً من قريش دخلوا عليه يعودونه وكان مريضاً فسألهم : بم يتحدّث الناس ؟ قالوا : يتحدّثون بأنك الدجال ، قال : أما إذ قلتم هذا فإنى لأجد فى عينى هذه ألماً منذ أيام . والدجال فى الأساطير أعور .

وأشد من هذا غرابة أن أمر كُثير لم يكن مقصوراً على الغفلة والحمق ، وإنما كان يتجاوزهما إلى التيه والخيلاء ، فالرواة يحدّثوننا أنه كان من أشدّ الناس إعجاباً بنفسه ومن أغلاهم فى الكبرياء ، حتّى لقد اتخذه معاصروه ولا سيما أهل المدينة سخرية فى هذا أيضاً ، فكانوا يتبعونه فى شوارع المدينة يشتمونه وينالون منه ، لعله يلتفت إليهم فلا يفعل ، وربما غلوا فى ذلك فيمدّ الرجل منهم يده إلى رداء كثيّر فينتزعه ، فلا يلتفت إليه كثيّر بل يمضى فى قميص . وكان إلى هذا كله يرى فى نفسه الذكاء والفطنة ، وربما رأى فيها القوة والبأس أيضاً . وقد حفظ الرواة لنا من هذا أخباراً مضحكة :

زعموا أنه لقى الشاعر المعروف بالحزين فكان بينهما مزاح بدأه كثيّر حين قال للحزين : لست شاعراً وإنما أنت نظام ! فاستأذنه الحزين فى أن يهجوه ،

فأذن له ساخراً منه مزدرياً له ، فهجاه الحزين ببيت لانستطيع أن نرويه . فلم يكد يسمع هذا البيت حتى أخذته حفيظة منكرة ، فنهض إلى الحزين فلكزه . ولكن الحزين قال له : لست من هذا فى شيء ، ثم مال إليه فرفعه فى يده فإذا هو فيها كالكرة حتى خلّص بينهما من حضر .

ومع هذا كله فليس من شك فى أن كثيّراً قد كان شاعراً مجيداً ، بل عظيم الحظ جدًّا من الإجادة . وما أظن أن محمد بن سلام الجمحى قرنه إلى الفرزدق وجرير تحكماً أو عبثاً .

وقد حدثنا الرواة أنهم كانوا يحفظون له شعراً كثيراً، ويذكرون بنوع خاص ثلاثين لامية لم يبق لنا منها إلا أبيات تكاد أو لا تكاد تؤلف قصيدته المشهورة التى مطلعها :

خليلَى هٰذا ربع عَزَّةَ فاعْقِلا قَلوصَيْكُمَا ثُمَّ ابْكِيَا حَيْثُ حلت

وكان أبو عبيدة فيما ذكروا يملى شعر كثيّر بثلاثين ديناراً . ولكننا سنرى أن إجادته ومنزلته بين الشعراء لم تأتياه من الغزل ، وإنما وفق إليهما من سبيل السياسة والتقرب إلى الملوك والخلفاء .

كان كثيّر أصغر نفساً وأردأ طبعاً وأشدّ حمقاً وغفلة من أن يتأثر بتلك المؤثرات المختلفة التى فصلناها فى الأحاديث الماضية والتى كونت الغزلين من أهل الحاضرة والبادية فى الحجاز . لم يكن كبير النفس ، ولم يكن له أمل فى الحياة السياسية العامة ، ولا طمع فيما كان يطمع فيه شباب الحجاز من رفعة وسلطان . بل ربما كان من الحق أن نسأل أنفسنا قبل كل شيء : من كثيّر ؟ وإلى أىّ قبيله من قبائل العرب ينتمى ؟ فقد يظهر أن كثيّراً نفسه لم يكن يعرف من هذا شيئاً ، أو لم يكن يريد أن يعرف من هذا شيئاً ، أو كان يريد أن يعرف منه أكثر مما ينبغى أن يعرفه صاحب النسب الصحيح .

كان ينتسب فى اليمن خزاعيًّا ، وكان ينسب فى مضر كنانيًّا ، وكان اليمانون والمضريون ينفونه ويزدرونه ويسخرون منه ، وإذن فكيف يطمع فى رفعة المنزلة وعلوّ المكانة ! وكيف يقرن بهذا الشباب الأرستقراطى الحجازى الذى عبث به الطمع واليأس فاضطراه إلى اللهو والعبث واصطناع الغزل والغناء . ثم لم

يكن كثيّر من هؤلاء البدو الذين وصفنا حياتهم غير مرة ، والذين قلنا : إن إهمال الدولة إياهم قد اضطرهم إلى أن يعكفوا على أنفسهم ويفرغوا لحياتهم البدوية ، فنشأ عن ذلك ما كانوا فيه من حزن خالط نفوسهم وصرف شبابهم إلى هذا الحب البرىء وهذا الغزل العفيف ، اللذين ليسا فى حقيقة الأمر إلا مرآة لما كانوا يطمعون فيه ، ويطمحون إليه من المثل الأعلى .

ليس كُثير من أولئك ولا من هؤلاء ، ليس بدويًّا خالصاً ، وليس حضريًّا ذا مكانة فى الحضر ، وإنما كان يتردّد بين البادية والحاضرة ، كان شديد الاتصال بقصر دمشق يمدح بنى أمية ويتملقهم ويأخذ جوائزهم ؛ وكان كاذباً أحسن الكذب فى هذا المدح والتملق ، وكان بنو أمية يعلمون منه ذلك كان يتردّد بين مكة والمدينة ، يعاشر أشرافهما ، ويأخذ منهم ما أتيح له من جائزة أو عطاء .

كان ذا مذهب سياسى ، أو قل كان له مذهبان متناقضان أشدّ التناقض ، رجعان آخر الأمر إلى مذهب واحد معروف فى ذلك الوقت هو النفاق السياسى . كان فيما بينه وبين نفسه وفيما بينه وبين الله متشيعاً غالياً فى التشيع يرى مذهب الكيسانية ، ويقدّم محمد بن الحنفية ويؤمن بالرجعة . وله فى ذلك أعاجيب وشعر جيد . وكان فيما بينه وبين الناس نصيراً لبنى أمية يمدحهم ويغلو فى مدحهم ويعاشرهم ويفاخر بعشرتهم .

ولم يكن التوفيق بين هذين المذهبين المتناقضين عليه شاقًّا ولا عسيراً ؛ فهو حين كان يمدح بنى هاشم وبنى أمية كان يخاصم الزبيريين الذين كانوا أعداء للأمويين والهاشميين معاً . ولعلك تذكر أنى حدّثتك فى الصيف الماضى عن شاعر عباسى مسرف فى التشيع ، كان يذهب مذهب كثير نفسه ، كان كيسانيًّا يقدّم ابن الحنيفة ويؤمن بالرجعة ، وكان مع ذلك يمدح بنى العباس ويأخذ جوائزهم ، وكان بنو العباس يغضون له عن تشيعه للعلويين ، كما كان بنو أمية يغضون لكُثير عن تشيعه للعلويين أيضاً . هذا الشاعر هو السيد الحميرى الذى كان ككثير يتقرّب ببنى هاشم إلى الله ، ويرضى بمدحهم عاطفته الدينية ، ويتقرب ببنى العباس إلى الدنيا ويرضى بهم حاجته إلى اللذة والثروة .

وكما أن كثيراً كان يتخذ ابن الزبير وسيلة إلى إرضاء الهاشميين والأمويين ؛ لأنه كان خصماً مشتركاً للحزبين ، فقد كان السيد الحميرى يتخذ بنى أمية وسيلة لإرضاء بنى على وبنى العباس ، وكما أن كثيراً كان أحمق مغفلا مسرفاً فى الإيمان بالسخف والاطمئنان إليه ، فلم يكن حظ السيد الحميرى من الحمق والغفلة وضعف العقل قليلا ، حتى إن الرواة ليضيفون إلى كثير شعر السيد ، كما يضيفون إلى السيد شعر كثير . بل هما يشتركان فى شىء آخر : كلاهما كان سيئ الصلة بأبويه ؛ فقد يحدثنا الرواة أن السيد ولد لأبوين من الخوارج الغلاة فى مذهب الخوارج ، فكان كارهاً لهما مسيئاً إليهما . وهم يحدثوننا أيضاً أن كثيراً كان يعق أباه ويسىء إليه .

وهما يكاد يشتركان فى خصلة أخرى ! لكنها أقوى عند كثير منها عند السيد : كلاهما كان منفراً صارفاً للنساء ، أما كثير فلقبحه ودمامته وقصره ؛ وأما السيد فلنتن إبطيه .

ولعلك تذكر ما رويت لك من شعر الحميرى فى الرجعة ، وأنا أروى لك الآن شيئاً من شعر كثير فيها . فانظر إلى هذه الأبيات الجيدة التى يتعجل بها عودة ابن الحنفية إلى الأرض ليرفع فيها لواء بنى هاشم :

أَلَا قُلْ لِلْوَصِىِّ فَدَتْكَ نَفْسِى ... أَطَلْتَ بِذَلِكَ الْجَبَلِ الْمُقَامَا

أَضَرَّ بِمَعْشَرٍ والَوْكَ مِنَّا ... وَسَمَّوْكَ الْخَلِيفَةَ والإِمَامَا

وعَادَوْا فِيكَ أَهْلَ الْأَرْضِ طُرًّا ... مُقَامُكَ عَنْهُمُ ستينَ عامَا

وَمَا ذَاقَ ابْنُ خَوْلَةَ طَعْمَ موْتٍ ... وَلَا وَارَتْ لَهُ أَرْضٌ عِظاما

لَقَدْ أَوْفَى بِمُورِقِ شعْبِ رضْوَى ... تَرَاجِعُهُ الْمَلَائِكَةُ الْكَلَامَا

وَإِنَّ لَهُ بِهِ لَمَقيلَ صِدْقٍ ... وأَنْدِيَةً تُحَدِّثُهُ كِرَاما

هَدَانَا اللهُ إِذْ جُزْتُمْ لِأَمْرٍ ... بِه وَلَدَيْهِ نَلْتَمِسُ التَّماما

تَمامَ مَوَدَّةِ الْمَهْدِى حَتَّى ... تَرَوْا رَايَاتِنا تَتْرَى نِظامَا

ولعلك تلاحظ معى أن غياب محمد بن الحنفية إن كان قد أضر بقوم فليس « كثير » من هؤلاء القوم ، فهو لم يعاد فيه أهل الأرض طرًّا كما يقول ، وإنما

عادى فيه عبد الله بن الزبير وحزبه ليس غير .

وانظر إلى هذه الأبيات التى يدافع فيها عن محمد بن الحنفية حين حبسه ابن الزبير ، وأراد تحريق بنى هاشم ، وهى من جيد الشعر السياسى :

مَنْ يرَ هٰذا الشَّيْخَ بِالْخَيْفِ مِنْ مِنى ... مِنَ الناس يَعْلم أَنَّهُ غَيرُ ظالِمِ

سَمِىُّ النبِى المُصْطفى وَابْنُ عَمهِ ... وَفكاكُ أَغْلالٍ وَنفَّاعُ غَارمِ

أَبَى فهْو لاَ يَشْرِى هُدًى بِضلالَةٍ ... وَلَا يَتَّقِى فى ٱللهِ لَومةَ لائِمِ

ونَحْن بِحمْدِ ٱللهِ نَتْلُو كِتَابَهُ ... حُلُولا بِهٰذَا الْخَيْفِ خَيْفِ المَحارمِ

بِحَيْث الْحَمَام آمِنُ الروْعِ سَاكِنٌ ... وحَيْث الْعَدُوُّ كالصَّدِيقِ المُسالِمِ

فمَا فرَح الدُّنْيا بِبَاقٍ لأَهْلِهِ ... وَلَا شدَّةُ الْبَلْوَى بِضرْبَةِ لَازِمِ

تُخبِّرُ مَنْ لاقِيت أَنَّكَ عَائِذٌ ... بلِ الْعَائِذُ المظْلومُ فِى سِجنِ عَارِمِ

وكان ابن الزبير يسمى العائذ ، ويزعم أنه يعوذ بالبيت وحرمه .

وانظر إلى هذه الأبيات التى اختلف الرواة فيها فأضافها بعضهم إلى السيد، وأضافها بعضهم الآخر إلى كثيِّر ، وهى أبيات مشهورة تخص مذهب الكيسانية فى الإمامة :

أَلاَ إِنَّ الأَئمة مِنْ قُرَيْشٍ ... وُلَاةُ الْحَقِّ أَرْبَعَةٌ سَواءُ

عَلِىٌّ وَالثلاثَة مِنْ بنِيهِ ... هُمُ الأَسْبَاط لَيْسَ لَهُمْ خَفَاءُ

فَسِبْطٌ سِبْطُ إِيمَانٍ وبِرٍّ ... وسِبْط غيبَتْهُ كَرْبَلَاءُ

وَسبط لَا تَرَاهُ الْعَيْنُ حتى ... يَقُودَ الْخيْل يتْبعُهَا اللِّوَاءُ

تَغَيَّبَ لا يُرَى عنهمْ زمَاناً ... بِرَضْوَى عِندَه عَسلٌ وَمَاءُ

وانظر إلى هذه الأبيات يفخر بها بتلطف ابن الحنفية به وعطفه عليه وسؤاله عنه :

أَقَرَّ ٱللهُ عَيْنِى إِذْ دَعَانِى ... أَمِينُ ٱللهِ يَلْطفُ فِى السُّؤَالِ

وَأَثْنى فِى هوَاىَ عَلَىَّ خيْراً ... وَسَاءَلَ عَنْ بَنِىَّ وكيْفَ حَالِى

وكيف ذكَرْتُ حال أبي خبيبٍ وزَلّة فعلِهِ عِند السؤّالِ
هُوَ المَهْدِىُّ خبرناهُ كَعْبٌ أَخُو الأَخْبارِ فِى الْحِقبِ الْخَوالى

وأبو خبيب هذا هو عبد الله بن الزبير ؛ وليس من شك فى أن محمد ابن الحنفية كان يحمد لكثير نضاله عنه وهجاءه لابن الزبير ؛ ولكن البيت الأخير من هذه المقطوعة يلفتنا بنوع خاص ، لأنه يمثل عقلية كثيّر وأمثاله من غلاة الشيعة الذين كانوا صادقين فى غلوهم يستبيحون فيه الكذب ويعتقدون مع ذلك أنهم لا يكذبون ، ذلك أن كثيّراً لم يلق كعب الأحبار ؛ ولا يمكن أن يكون كعب قد خبره بما ذكر من أن ابن الحنفية هو المهدى . وقد سأله بعض معاصريه : أأخبرك كعب حقًّا ؟ قال : لا . قال محدثه : وإذن فكيف قلت ما قلت ؟ أجاب : بالتوهم . وكذلك كان السيد الحميرى يتلمس القرص وينتحلها إذا لم يجدها ، ليذيع فضل بنى هاشم ويثبت حقهم فى الإمامة .

على أن شيئاً واحداً يعنينا من أمر كثير مع بنى هاشم ، وهو أنه كان صادقاً فى حبهم ، وكان ساذجاً فى هذا الحب أيضاً ؛ وكان هذا الحب الصادق الساذج ينتهى به أحياناً إلى شىء من الحنان مؤثر شديد التأثير ، وينتهى به أحياناً إلى شىء من الغفلة مضحك شديد الإضحاك . كان شديد العطف على أطفال بنى هاشم يسميهم : الأنبياء الصغار ، ويقول كلما رآهم : بنفسى الأنبياء الصغار ! وكان يأخذ عطاءه فيمر بالكتاب حيث كان أطفال بنى هاشم فيهب لهم الدراهم .

قال الرواة : وكان مع هؤلاء الأطفال صبىّ من ولد عثمان ، وكان أخا هؤلاء الأطفال الهاشميين لأمهم ، وكان يختلف معهم إلى الكتاب ؛ وكان إذا رأى كثيّر يفرق الدراهم على إخوته تعلق به وقال يا عمّ : هب لى ، فيجيبه : لا ، لست من الشجرة .

قلت إن هذا الحب الصادق الساذج لبنى هاشم كان ينتهى بكثيّر إلى الغفلة أحياناً . وكان بنو هاشم يعلمون من كثيّر وغيره من شيعتهم صدق هذا الحب ، وسذاجته فلا يحجمون عن استغلاله والانتفاع به .

ويحدثنا الرواة أن أبا هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية كان يعلم من كثير هذه السذاجة ويريد أن يمسكه فيها ويحتفظ بسلطانه عليه ، فكان يكلف أرصاداً من أصحابه أن يرقبوا كثيّراً وينقلوا إليه مختلف أمره ، فإذا حضر كثيّر مجلسهم قال له : قلت كذا وكذا . وفعلت كيت وكيت ، فيَتَبَهَّرُ كثير ، حتى قال له ذات يوم : أشهد أنك رسول الله .

كان بنو هاشم يستغلون حب كثيّر ، ويقبلون منه نفاقه ومدحه لبنى أمية . ولم لا ! ألم يك بنو هاشم أنفسهم يدارون بنى أمية ويسالمونهم ما عجزوا عن مناوأتهم وإشهار الحرب عليهم ! ثم أى الأحزاب السياسية يستطيع أن يستغنى فى أى عصر من العصور عن هؤلاء المنافقين السياسيين الذين أتيحت لهم ألسنة طوال وأخلاق مرنة ، فهم ينتفعون وينفعون .

ولهذا كان بنو أمية يصنعون مع كثيّر صنيع بنى هاشم ، فيقبلون منه نفاقه السياسى ويقرونه عليه ، وكانوا يعلمون حق العلم أنه ليس صادقاً فى مدحهم ولا مخلصاً فى الدفاع عنهم ، وكانوا مع ذلك يجيزونه ويقربونه ويستزيدونه مدحه ؛ ويذيعون هذا المدح فى القصر وفى دمشق وفى العراق حيث كان خصومهم السياسيون بنوع خاص .

وهذه الحادثة تعطيك صورة من المداراة السياسية وحرص الزعماء السياسيين المهرة على استغلال النفاق السياسى .

قالوا : لما خرج عبد الله لحرب مصعب بن الزبير ، لحظ فى عسكره « كثيّراً » يمشى مطرقاً وكأنه حزين ، فدعاه فسأله : أتصدقنى إن أنبأتك بما فى نفسك ؟ قال : نعم ! قال : فاحلف بأبى تراب : فحلف كثير بالله ليصدقنه ! قال عبد الملك : لا بد من أن تحلف بأبى تراب ؛ فحلف له بأبى تراب . قال عبد الملك : تقول فى نفسك : رجلان من قريش يلتى أحدهما الآخر لحربه فيقتله والقاتل والمقتول فى النار ؛ وما آمن أن يصيبنى سهم فيقتلنى فأكون معهما . قال كثير : ما أخطأت يا أمير المؤمنين . قال عبد الملك : فعد من قريب ، وأمر له بجائزة . وكان عبد الملك إذا أراد الصدق من كثيّر فى أمر من الأمور لا يرضى منه إلا أن يحلف بأبى تراب .

إذا فقد كان كثير لا يخفى على بنى أمية تشيعه للهاشميين ، وكان مع ذلك

يمدحهم ويأخذ جوائزهم ، أى أنه كان يأجر نفسه من خصومه السياسيين ، وكان خصومه السياسيون يقبلون منه هذا فرحين به مبتهجين له . ومن ذا الذى لا يبتهج بأن يرى خصمه السياسى يهين نفسه ويذلها فيمدحه ويقدمه رغبة فى المال ! وكذلك كانت صلة السيد الحميرى بالعباسيين .

أظنك الآن قد استطعت أن تتمثل شخصية كثير : وما هى بالشخصية الجذابة ولا التى تستهوى النفوس وتستثير العطف .

وإذا كان كثير بغيضاً إلى هذا الحد ، فليس من السهل ولا من اليسير أن يستهوى النساء ويستصبيهن . وقد برأه الله من جمال الصورة كما برأه من جمال الأخلاق . ومن هنا لا أميل إلى تصديق ما يرويه الرواة من أن نساء المدينة احتفلن بكثير يوم مات . فإن كنّ قد فعلن شيئاً من هذا ، فما أظن مصدر ذلك إلا أن كثيّراً كان شاعراً ممتازاً وكان يذكر النساء فيحسن ذكرهن . وأظن أن قد آن لنا أن نذكر شيئاً عن حب كثيّر .

فأول شىء نذكره أن كثيّراً كان كاذباً فى حبه ، كما أنه كان كاذباً فى نسبه ، وكما أنه كان كاذباً فى موقفه السياسى . وأنا أعتقد أن كثيّراً رأى شعر الغزلين وكلف الناس به فتعاطى هذا الفن كما تعاطاه الغزلون ، تمريناً لقوته الشعرية . وقلنا : كان كثيّر مغروراً تياهاً ؛ كان — كما يقول الجاحظ — قصيراً ويزعم أنه طويل ، دميا ويرى أنه جميل ، وقد رأى البدع فى أيامه عند أهل الحجاز أن تكون لكل شاعر خليلة يذكرها ويهيم بحبها ، فأراد أن تكون له كغيره من الشعراء خليلة ، فذكر عزة ، وأكثر من الهيام بها . والرواة أنفسهم يقولون : إن كثيّراً كان مدعياً للعشق لا عاشقاً ، ويروون فى ذلك أحاديث تجدها فى الأغانى . ولست أستطيع أن أقول : إن هذه الأحاديث صحيحة أو غير صحيحة ، ولكنى أتخذها دليلا على أن حب كثير لم يخدع الناس قديماً فلا ينبغى أن يخدعنا الآن .

ليس من الحق إذاً أن نقرنه إلى جميل ولا إلى ابن ذريح ، ولا أن نقدمه على أحد من هؤلاء الغزلين . بل ليس من الحق أن نعده غزلا ، وإنما هو شاعر أراد أن يكون غزلا فعالج الغزل معالجة فنية خالصة ؛ ولعله إن لم يوفق فى تكلف الحب وفق فى تكلف الغزل ، ولكننا لا نستطيع أن نقبل ذلك ولا أن

نرفضه ، لأن ما لدينا من غزل « كثيـر » أقل من أن يبيح لنا ذلك . ومع هذا فإني أختم هذا الحديث بهذه الأبيات التي تكاد تكون وحدها كل ما بقي من غزل كثير ، وأنا أرى أن فيها من جودة اللفظ ورصانة الأسلوب شيئاً كثيراً ، ولكنها خالية خلواً تاماً من صدق اللهجة وحرارة العاطفة :

خلِيلى هٰذا رَسْمُ عزةَ فاعقِلَا ... قَلُوصَيْكمَا ثم ٱبْكِيَا حيث حَلَّتِ

وَمَا كنْت أدرِى قبْلَ عَزَّةَ ما الْبُكا ... وَلَا موجِعات الْقَلبِ حَتى تَوَلت

فَلَيْت قلوصِى عِنْدَ عزةَ قُيدت ... بِحَبْلٍ ضَعِيفٍ بَانَ مِنْهَا فَضلت

وأصبحَ فِي الْقَومِ المقِيمِينَ رَحْلُهَا ... وَكانَ لهَا باغٍ سِوَاىَ فَبَلَّتِ

فقلْت لهَا يَا عَزُّ كلُّ مُصِيبَة ... إذَا وُطِّنَتْ يَوْمًا لَهَا النفسُ ذلت

أسيئى بِنا أوْ أحْسِنِي لاَ مَلومَةٌ ... لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيةٌ إنْ تَقَلَّت

يكَلفهَا الْغَيْرَانُ شَتمِى وَمَا بِهَا ... هوَانِى وَلكِن لِلْمَلِيكِ ٱسْتَذَلَّت

هنِيئاً مرِيئاً غيْرَ دَاءٍ مخامِرٍ ... لِعزةَ مِنْ أعْرَاضِنا ما ٱسْتَحَلَّت

تمنَّيْتُهَا حَتى إذا مَا رَأيْتهَا ... رأيْتُ الْمَنَايَا شرَّعاً قدْ أظلَّت

كأنى أنادِى صخْرة حِينَ أعْرَضت ... مِن الصمّ لوْ تمْشِي بِهَا الْعُصمُ زَلَّت

صَفوحاً فَمَا تلقَاك إلَّا بَخِيلَةً ... فَمَن مل مِنهَا ذٰلك الْوَصْلَ مَلَّت

وَإنى وَتَهْيَامِى بِعَزَّةَ بَعْدَ مَا ... تَخَلَّيْتُ مِما بَيْنَنَا وَتخلَّت

لَكالْمرْتَجى ظِلَّ الغَمَامَةِ كُلَّمَا ... تَبَوَّأَ مِنْهَا لِلْمَقِيلِ اضمحَلَّتِ

زعيم الغزلين[1]

عمر بن أبى ربيعة

تمهيد

نعم ! هو زعيم الغزلين من أهل الحضر فى عصره ، لا يختلف فى ذلك الناس . وقد تحس فيما تقرؤه من أخبار هؤلاء الغزلين أن الرواة كانوا يضعون عمر من أهل الحضر بإزاء جميل من أهل البادية ، فكأن عمر كان زعيم الغزل الحضرى حينما كان جميل زعيم الغزل البدوىّ . ولكن شعر جميل قد ضاع ولم يبق لنا منه إلا شىء قليل جدّا ؛ فلم يبق سبيل إلى المقارنة بينه وبين عمر الذى حفظ الدهر لنا شعره كله أو أكثره ، والذى استقامت لنا أخباره وصحت لنا طائفة من الحوادث المتصلة بحياته ، فأصبح من اليسير أن ندرسه ونعلن فيه رأياً صحيحاً أو مقارباً .

ومهما تكن مكانة جميل من شعراء البادية والحاضرة ، فليس من شك فى أن عمر بن أبى ربيعة كان مقدّماً عليه عند أهل عصره . ويجب أن يظل مقدّماً عليه من الوجهة الفنية ؛ لأنا لا نعرف شاعراً عربيًّا أمويًّا افتنّ فى الغزل افتنان عمر . فعمر إذن زعيم الغزلين الأمويين جميعاً لا نستثنى منهم أحداً ، ولا نفرق فيهم بين أهل البادية وأهل الحاضرة . بل نحن نذهب إلى أبعد من هذا فنزعم أن عمر بن أبى ربيعة زعيم الغزلين فى الأدب العربى كله ، على اختلاف ظروفه وتباين أطواره منذ كان الشعر العربى إلى الآن .

وليس هذا بالشىء الذى يحتاج إثباته إلى عسر ومشقة ؛ فإن الغزل العربى الخالص لم يوجد مرتين وإنما وجد مرة واحدة فى أيام بنى أمية ، ولم يكن له قبل الإسلام وجود مستقل ، ولم يكن الشعراء الجاهليون يعنون به إلا على أنه

(١) نشرت بجريدة « السياسة » فى ١٠ ديسمبر سنة ١٩٢٤ .

وسيلة شعرية إلى ما كانوا يذهبون فيه من مذاهبهم الشعرية المختلفة . ولا نكاد نعرف بين الجاهليين شاعراً قصر حياته الشعرية على الغزل ؛ بل قليل جداً عدد القصائد الجاهلية التي لم يتناول فيها أصحابها إلا الغزل وحده .

أما عصر بني العباسي فلم توجد فيه مدرسة غزلية ، إن صح هذا التعبير الحديث . ولسنا نجهل أن الشعراء العباسيين قد تغزلوا ونسبوا وأتقنوا الغزل والنسيب ، ولكنا نزعم أنهم لم ينقطعوا للغزل ، ولم يسلكوا فيه سبيل أصحابنا هؤلاء الذين ندرسهم في هذه الأحاديث ، وإنما كانوا كالجاهليين يتخذون الغزل وسيلة شعرية ، أو يتعاطونه كما يتعاطون غيره من الفنون .

وإذا كان الشعراء العباسيون قد استحدثوا في الأدب العربي شيئاً ، فهم لم يستحدثوا الغزل . وأكاد أقول : إنهم انصرفوا عنه إلى شيء آخر ، أو أكاد أقول : إنهم حوّلوا إلى شيء آخر ، هو العبث والمجون .

أعلم أنك ستذكر العباس بن الأحنف ، وقد ذكرته أنا أيضاً ، ولكنه استثناء يثبت القاعدة . ويكفي أن تقرأ الشعر العباسي لتعلم أنه كان غريباً في عصره ، وأنه « سقط بين كرسيين » كما يقول الفرنسيون ؛ فلم يبلغ إتقان الغزلين من شعراء بني أمية ، ولم يبلغ إجادة العابثين من شعراء بني العباس ؛ وإنما جاء فاتراً قلما يترك في النفس أثراً قوياً ؛ لأن الفن الذي أراد أن يختص به كان قد انقضى عصره ، وانتهت الأسباب التي أوجدته ومكنت الناس من إتقانه والإجادة فيه .

وإذا كان العصر العباسي قد خلا من مدرسة غزلية خالصة ، فما أحسبك تريد أن تعرض للعصور الأخرى التي جاءت بعده ، فهي فيما أعتقد لا تستحق عنايتنا الآن .

لم يوجد الغزل في الأدب العربي مرتين كما قلت . وإذا كان عمر بن أبي ربيعة هو زعيم الغزلين في العصر الأموي ، فيجب أن يكون زعيم الغزل في الأدب العربي كله . على أن هناك وجوهاً أخرى تحملنا على أن نؤكد أن الغزل لم يوجد مرتين ، ولست أذكر منها إلا هذا الوجه الفني ، فأنت مهما تقرأ من الغزل العربي ، فلن تجد في هذا الغزل ما تجده في الغزل الأموي من صدق اللهجة وصفاء الطبع ، ومن التمثيل الصادق الصحيح لنفس الشاعر ،

بل لنفس الجماعة التي يعيش فيها ؛ ومن إظهار هذه النفس على ما كانت عليه من سذاجة جذابة وسهولة محببة إلى القلوب . لن تجد شيئاً من هذا كله في غزل العباسيين وأهل الأندلس وغيرهم من شعراء البلاد العربية المختلفة . وإنما أنت في هذا الغزل بإزاء فن شعرى ظهر فيه التكلف اللفظى والمعنوى ، وعظم فيه أثر الصنعة ، واصطبغ بهذه الصبغة الحضرية التي تحملك دائماً على أن تقرأ الشيء وأنت تقدّر أن صاحبه ليس صادقاً فيه ، وأنه يتكلف ويتصنع ليلائم عصره وبيئته ، ليرضى الناس أو يفتنهم .

أما الغزل الأموى فقد كان شيئاً غير هذا كله . ولا تحسبنى قد فتنت بهذا الغزل فأنا أسرف في مدحه والثناء عليه ، وأتجاوز الحدّ في تقديمه على غيره من ألوان الغزل العربي . فأنا بعيد كل البعد عن هذه الفتنة ، وأنا مجتهد كل الاجتهاد في أن يكون رأيي صادقاً بريئاً من الهوى . وأنا أجد في هذا الغزل الأموى شيئاً هو الذى يحببه إلىّ ويحملني على تقديمه ، وهو أنه لم يخلص من السذاجة البدوية ، ولم يبرأ من تأثير الحضارة الجديدة ، ففيه من البداوة سذاجة تستخفّك وتستصبيك ، وفيه من الحضارة طلاء يبعث في نفسك الميل إلى الاستقصاء والاستطلاع . وأنت تجد بعد هذا كله عذوبة ولذة في هذا المزاج الذى يتألف منه الغزل الأموى ، والذى يمثل لك هذا الشعب العربي البادى وقد أخذ يحضر ويترف ، ويحس على بداوته كما يحس الحاضرون والمترفون .

قلت : إن هذا الغزل الأموى يمثل نفس الشاعر والجماعة التي كان يعيش فيها تمثيلا صادقاً صحيحاً . ومن هذه الناحية أرى أن عمر بن أبي ربيعة هو زعيم الغزلين الأمويين حقًّا ، وأن الأدباء والمؤرخين لن يستطيعوا أن يقدروا هذه النعمة التي أتيحت لهم حين حفظ الدهر لهم شعر عمر بن أبي ربيعة كله أو أكثره . فلست أعرف شاعراً إسلاميًّا استطاع أن يمثل العصر الذى كان يعيش فيه ، والبيئة التي كان يحيا فيها ، كهذين الرجلين اللذين نستطيع أن نتخذهما مرجعاً في درس الجماعة التي كانت تحيط بهما . تريد أن تدرس العراق في صدر الدولة العباسية ، وأن تدرس مدينة بغداد أيام الرشيد والأمين خاصة ، فارجع إلى أبي نواس . تريد أن تدرس حياة الحجاز في صدر الدولة الأموية ، فارجع

إلى ابن أبى ربيعة ، وليس من شك فى أنك ستجد شيئاً كثيراً نافعاً فى درس مسلم بن الوليد ، وفى درس الحسين بن الضحاك ، وأبى العتاهية ، كما أنك ستجد شيئاً كثيراً نافعاً فى درس العرجى ، والأحوص وابن ذريح . ولكنك لن تجد عند واحد من هؤلاء ، بل لن تجد عند هؤلاء مجتمعين ، ما ستجده عند أبى نواس من تمثيل الحياة البغدادية على وجهها ، ولا ما ستجده عند عمر بن أبى ربيعة من تصوير الحياة الحجازية على حقيقتها . تلك نعمة يتيحها الدهر من حين إلى حين للباحثين عن التاريخ الأدبى حين يظهر لهم شاعراً أو كاتباً قد انتهت إليه كل الخلال ، كما ظهرت فيه كل النقائص التى كانت تمتاز بها بيئته ، والتى كانت بعيدة الأثر فى عصره . وإنما يظهر هؤلاء الشعراء والكتاب فى العصور التى تقوى فيها الحياة الأدبية قوة خاصة ممتازة ، كذلك العصر الأموى فى الحجاز ، وكذلك العصر العباسى فى بغداد .

تريد أن تشخص الحياة العباسية أيام الرشيد والأمير ، فلن تجد لها تشخيصاً أقوى ولا أظهر ولا أصدق من أبى نواس . فإذا أردت أن تشخص حياة القرن الثالث فلن تجد ذلك عند البحترى ولا عند أبى تمام ولا عند شاعر من الشعراء ، وإنما أنت واجد ذلك عند الجاحظ ؛ لأنه الكاتب الوحيد الذى انتهت إليه كل الخلال ، كما ظهرت فيه كل النقائص التى كان يتأثر بها العقل البغدادى فى ذلك العصر ، والتى جاءته من قوّة الحياة الأدبية والفلسفية معاً .

ولكنى بعدت بك بعض الشىء عن عمر بن أبى ربيعة . ومـا بعدت بك عنه إلا لأدنيك إليه ، فأنا أقول : إنه أصدق مثال للعصر والبيئة اللذين كان يعيش فيهما . وإن المؤرخ الذى يريد أن يدرس حياة الأرستقراطية القرشية فى الحجاز أثناء القرن الأول للهجرة يجب أن يلتمس هذه الحياة فى شعر عمر ابن أبى ربيعة قبل أن يلتمسها فى أخبار التاريخ وحوادثه المختلفة . فسيجد فى هذا الشعر كيف كان سراة قريش والحجاز يقضون حياتهم الهادئة الفارغة ، بل سيجد فى الشعر ألوان الصلات المختلفة الحلوة المبتسمة التى كانت تصل بين هؤلاء السراة .

والمؤرخ الذى يريد أن يدرس حياة المرأة العربية المترفة فى هـذا القرن الأول ، يجب أن يلتمس هذه الحياة فى شعر عمر بن أبى ربيعة ، فلن يظفر فى

مصدر آخر من مصادر الأدب والتـاريخ يمثل ما يظفر به فى هذا الشعر : فيه ترى المرأة العربية المترفة واضحة جلية الصورة ، تنفق حياتها فى هذه الدعة والنعمة اللتين ، على عفتهما وطهارتهما ، لا تخلوان من لهو ودعابة ، ولا من عبث وفكاهة . والمؤرخ الذى يريد أن يدرس الصلة بين الرجال والنساء فى هذا العصر يجب أن يلتمس ذلك عند عمر بن أبى ربيعة ، فسيجد منه فى شعر هذا الشاعر كل ما أراد .

لا تلتمس فى شعر عمر بن أبى ربيعة وصفاً للحياة السياسية الأموية ، فلن تكاد تظفر من هذا بشىء صريح ، ذلك لأن صاحبنا هذا قد اجتنب السياسة فى حياته اجتناباً تاماً ، وانقطع للحب شطراً من حياته ، وللنسك المادىّ شطراً آخر ، فلم يغضب حزباً من الأحزاب ولم يوال حزباً آخر ، وإنما كان رجلا مترفاً من قريش ترك السياسة لأصحابها وانصرف إلى الحيـاة يأخذ منها كل ما كانت تستطيع أن تمنحه من لذة ونعمة ؛ حتى إذا استوفى من ذلك حظه وأحس أن الوقار خليق به ، انصرف عن الاضطراب والعبث إلى حياة هادئة مبتسمة تزينها الذكرى ، حتى فارق هذه الحياة راضيـاً كما عاش فيها راضياً .

وكان انقطاعه عن السياسة مصدر خير للمؤرخ الذى يريد أن يدرس الحياة الأدبية والاجتماعية فى الحجاز ؛ لأنه لن يجد فى شعره هذه الأهواء السياسية التى تلبس الحق بالباطل أحياناً ، وتظهر الخطأ مظهر الصواب أحياناً أخرى . ومع هذا فنحن مدينون للسياسة الأموية بشعر عمر بن أبى ربيعة وما فيه من آيات أدبية خالصة من كدر السياسة . نحن مدينون بهذا الشعر لهـذه السياسة الأموية ؛ فلولا أنها وقفت من شباب قريش ومترفى الحجـاز هذا الموقف الذى وصفناه لك غير مرة ، فحالت بينهم وبين الحياة العاملة ، وقصرتهم فى الحجاز على اللهو والترف ، وأوجدت منهم فى مكة والمدينة هذه الجماعات التى جمعت بين ذكاء القلب وحدة الشعور ورقة الحس وشرف المكانة وضخامة الثروة ، لما ظهر شاعر كعمر بن أبى ربيعة . ليس شعره فى حقيقة الأمر إلا خلاصة صادقة لحياة هذه الجماعات الحجازية المترفة . وكذلك تنتفع الحياة الأدبية أحياناً بما لا تجد منه الحياة السياسية إلا شراً ونكراً . فهذا الذكاء القرشى

الذى حرمت السياسة العربية منافعه حيناً ، والذى كان من الممكن أن يغير الوجهة السياسية لحياة المسلمين ، لو لم يكره على الانصراف إلى اللهو . هـذا الذكاء انصرف إلى ما أريد أن ينصرف إليه فأنتج لنا هذه الحياة الأدبية الباهرة .

كان عمر بن أبى ربيعة من أسرة قرشية عظيمة الحظ من الشرف والمجد ، بعيدة الصوت فى آخر العصر الجاهلى ، ضخمة الثروة جداً ، قد أفادت ثروتها الضخمة من التجارة بين الحجاز واليمن . وكان لهذه الأسرة رقيق كثير يذكرنا بما نقرأ فى أخبار الأغنياء من اليونان والرومان ، حتى إن من المسلمين من عرض على النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يستعين فى بعض غزواته بأحباش ابن أبى ربيعة. وكان عبد الله بن أبى ربيعة أبو شاعرنا من وجوه قريش وأهل الذكاء فيهم ، يقال إنه عمل فى ولايات النبي (صلى الله عليه وسلم) وأبى بكر وعمر وعثمان ، ولكن ابنيه : الحارث وعمر أقصيا عن السياسة الأموية إقصاء .

أما الحارث فقد استعمله عبد الله بن الزبير حين كان الأمر إليه على البصرة . ويقال إن عبد الملك بن مروان أكثر الثناء عليه حين علم باستعمال عبد الله بن الزبير إياه . وكان عمله لابن الزبير قد صرف عنه الأمويين ، فلم يسمع له ذكر فى الحياة العامة بعد أن تم النصر لبنى أمية ، على أنه لم يعجب أهل البصرة . ونحن نجد فى الأغانى شعراً يطلب من ابن الزبير إعفاء البصريين منه .

أما عمر فلم تعرض له السياسة ولم يعرض لها ، وإنما شب فى الشعر ومضى فى حياة المترفين دون أن يتصل بحزب ، ودون أن يتخذ شعره وسيلة إلى الخصومة السياسية ، كما فعل قرشى آخر هو ابن قيس الرقيات ، وكان يتغزل بالقرشيات جميعاً ؛ كما كان يتغزل بغير القرشيات ، لا تعنيه صلاتهن الحزبية ، بل لا يعنيه منهن إلا شىء واحد هو الجمال .

لعلك تذكر براعة ابن قيس الرقيات تلك التى أشرت إليها حين حدثتك عنه ، والتى أتاحت له أن يتخذ الغزل وسيلة من وسائل الخصومة السياسية ، فاخترع ما سميته الغزل الهجائى ، وكان فى هذا الغزل عفيفاً حلو اللسان مؤدباً حسن الثناء ، لا يزيد إلا أن يغيظ خصومه السياسيين بذكر نسائهم والتحبب

إليهن . أما عمر بن أبي ربيعة فلم يصطنع من هذا كله شيئاً ، وإنما كان صادق اللهجة فى غزله كله ، لا يريد بالغزل إلا الغزل ، ولا يذكر النساء إلا لأنه يحب النساء .

وهناك مسألة عنى القدماء بها عناية شديدة ، ولا بد من الإشارة إليها والقول فيها : أكان عمر بن أبي ربيعة صاحب لهو وعبث وفتك ، أم كان شاعراً لا أكثر ولا أقل ؟ وبعبارة أخرى : أكان عمر بن أبي ربيعة كالعرجى ، أم كان كجميل ؟

أما القدماء فيختلفون اختلافاً شديداً ، ويرون فيه رأيين متناقضين يضيفونهما إلى عمر نفسه ؛ فمنهم من يقول إن عمر كان صاحب عبث وفجور ، ثم يزعم أن سائلا سأله : أكلّ ما قلته فى شعرك فعلته ؟ فأجاب : نعم ! وأستغفر الله . ومنهم من يزعم أنه كان صاحب عفة وطهر ، وأنه كغيره من الشعراء ، كان يقول ما لا يفعل ، ويزعمون أنه أقسم الأيمان المحرجة ما أقدم فى حياته على حرام ، ثم يزعمون أنه عندما أشرف على الموت رأى أخاه الحاث جزعاً مشفقاً فقال له كلاما هدأ روعه ، وأكد له أنه لم يأت مما قال شيئاً .

وليس بين هذين الرأيين المسرفين فيما نعتقد رأى وسط . فلنكن نحن أصحاب هذا الرأى ، لا أستطيع أن أصدق مهما يقسم عمر ومهما يقل الرواة إن هذا الشاعر المترف الذى قضى شبابه فى غير نسك ولا زهد ولا تدين ، والذى كان كل شيء يتيح له اللهو والعبث ، فكانت له الثروة وكان له الجمال ، وكانت البيئة كلها بيئة لهو وترف — لا أستطيع أن أصدق ، أن هذا الرجل قضى حياته طاهراً بريئاً من كل مجون . ثم لا أستطيع أن أصدق ، مهما يقل الرواة ومهما يقل عمر نفسه ، أن هذا القرشى الشريف ذا المكانة العالية والحسب الرفيع ، والذى كان متأثراً كغيره من الأشراف بطائفة من النظم والعادات الخاصة ، والذى كان يعيش فى ظل سلطان دينى قوى من الوجهة السياسية ، إن لم يكن قويًّا من الوجهة الخلقية — لا أستطيع أن أصدقك أنه أنفق حياته كلها فى عبث ولهو ، وفى فجور ومجون ، وأنه فعل كل ما قال .

ولنلاحظ قبل كل شيء أن الحجاز لم يخل فى هذا العصر من شعراء عبثوا ولهوا . وأسرفوا فى العبث واللهو مضطرين أو مختارين . ولكن لنلاحظ أن هؤلاء

الشعراء لم يعيشوا وادعين كما عاش عمر بن أبى ربيعة ، ولم يظفروا بإجماع الناس على إكبارهم وإجلالهم كما ظفر عمر بن أبى ربيعة .

ومهما تكن الأسباب التى اقتضت محنة العرجىّ والأحوص فقد مُحنا وساء بهما ظن فريق من الناس عظيم ، وكان أشد الناس بهما حسن ظن لا يرى فيهما من الوجهة الخلقية خيراً .

أما ابن أبى ربيعة فلم ينله سلطان ابن الزبير ولا سلطان بنى أمية بمكروه ولم يرو لنا التاريخ أن الناس غلوا فى لومه أو تشددوا فى النعى عليه .

وقد يشير بعض الرواة إلى أن أخاه أو غير أخيه لامه وألح عليه ، وإلى أنه سافر إلى اليمن اجتناباً لمكة وتأديباً لنفسه ؛ فحنّ إلى مكة وعاد إليها . ولكن التكلف فى هذه الأخبار ظاهر . وكل ما نستطيع أن نستيقنه منها هو أن ناساً لاموا عمر من جهة ، وأن عمر قد سافر إلى اليمن كما سافر إلى العراق ، وكما كان يسافر إلى المدينة لبعض شئونه من جهة أخرى .

إذاً لم يجد السلطان السياسى سبيلا على عمر كما وجد سبيلا على الأحوص وعلى العرجى . ومع هذا فقد كان أصحاب التقى والمروءة يدعونه الفاسق مازحين مرة وجادين مرة أخرى . وكان النساء يداعبنه بهذه الصفة ، وربما وصفنه بها جادات أيضاً . وكان أشراف قريش ربما تحرجوا من شعره واحتاطوا فى حماية نسائهم من روايته والظهور عليه .

كان هذا كله . ولكن كان من جهة أخرى أن عمر بن أبى ربيعة لم يكد يترك امرأة شريفة من نساء قريش إلا ذكرها وأسرف فى ذكرها ؛ فقد تغزل بأخت عبد الملك وبنته ، وامرأة سهيل بن عبد العزيز بن مروان ، وتغزل بعائشة بنت طلحة ، وتغزل بسكينة بنت الحسين ، وتغزل بلبابة بنت عبد الله ابن عباس ، وتغزل بزينب بنت موسى الجمحى ، وهند بنت الحارث المرّى ، وتغزل بإحدى بنات محمد بن الأشعث الكندى من أهل العراق ، ونساء غير هؤلاء كثيرات من أشراف مكة والمدينة والشأم والعراق . وكان يتغزل بهن جهرة فى غير تكتّم ولا استخفاء ، إلا ما يروى من أنه تحفظ بعض التحفظ فى أمر فاطمة بنت عبد الملك .

والغريب أنه لم يكن يكتفى بإعلان غزله ، بل كان يستعين عليه نفراً من

أشراف قريش فيعينونه ويجدون فى هذه المعونة لذة وغبطة .

وسنذكر لك مكان ابن أبى عتيق من غزل عمر بن أبى ربيعة . سنذكر لك مكان هذا الرجل الشريف من قريش من غزل عمر . لا أقول من لفظه ، بل أقول من حياته الغزلية ؛ وكيف كان يحرص على التوسط بينه وبين صاحبته الثريا .

ألست ترى أن هذا كله خليق بالتفكير ؛ وأننا مضطرون إلى أن نتوسط بين الذين زعموا أن عمر كان مسرفاً فى الفجور والذين زعموا أنه كان مسرفاً فى العفة ، فنرى أنه لم يكن مسرفاً فى اللهو كما أنه لم يكن مسرفاً فى حسن السيرة : ونرى أنه صادق كل الصدق حين يؤكد أنه لم يقدم على حرام ؛ ولكن صدقه هذا مقصور على طائفة من شريفات قريش وغير قريش ، فليس من شك فى أن صلته بأخت عبد الملك وبنته وبسكينة بنت الحسين ولبابة بنت عبد الله ابن عباس وعائشة بنت طلحة كانت طاهرة كل الطهر بريئة كل البراءة من الإثم ، كانت لفظية ليس غير .

بل لست أدرى ! أحق ما يروى من أن فاطمة بنت عبد الملك حرصت على أن تراه واحتالت فى ذلك إلى آخر ما سنذكره ؟ وأكبر ظنى أنه لم يتجاوز أن احتال فى رؤيتها ثم تغزل بها ، وأن هذا الغزل وقع من فاطمة موقعاً حسناً ، ولعلها كانت تطمع فيه . وإذن فهو لم يقدم على غرام مع هذه الطبقة من النساء .

ولكن أنستطيع أن نقول إن سيرة عمر مع النساء جميعاً كانت كسيرته مع هؤلاء الشريفات ؟ أنستطيع أن نقول إن هذا الرجل الذى لم يعرف الأدب العربى الإسلامى إلى عصره شاعراً وصف اللهو بالنساء كما وصفه قد أنفق حياته — كما قال بعض الرواة — يصف ولا يقصف ويحوم ولا يرد ؟ كلا ! كان عمر بن أبى ربيعة مسرفاً فى وصف اللهو مقتصداً فى اللهو نفسه . ومن زعم أنه صادق حقًّا حين يقسم ما أقدم على حرام فهو مخدوع . ومن زعم أنه صادق حقًّا فى أنه فعل كل ما قال فهو مخدوع أيضاً .

إنما كان عمر يعيش عيشة الرجل المترف الذى أتيحت له أسباب اللهو ووسائله ، ولكنه مع ذلك مقيد بشرفه ومكانته وما ألف الناس من الأوضاع الاجتماعية ، فهو يلهو ولكن بمقدار ، وهو يصف ولكن بمقدار أيضاً .

ومن هنا كان من الحق أن يكون عمر بن أبى ربيعة بإزاء جميل ، أى أنه كان رئيس مذهب فى الغزل الإباحى كما سميناه غير مرة ، لأنه لم يكن ينغزل فى الهواء ولا يطمح إلى المثل المعنوى الأعلى ليس غير ، وإنما كان يعيش فى الأرض ويستبيح لنفسه من اللذات ما أباح له الدين وما لم يبح ، بينما كان جميل زعيم هذا الغزل العذرى العفيف ، الذى لم يكن يطمح إلا إلى المثل الأعلى وإلى الجمال من حيث هو ، ولا يبتغى لذة ولا يستبيح شيئاً لم يبحه الدين ولم ترض عنه الأخلاق .

على أنى لم أحدّثك إلى الآن إلا بأشياء عامة ولم أعرض بعد لدرس مفصل دقيق لشعر عمر بن أبى ربيعة . وأنا مضطر إلى ذلك ؛ فليس عمر بن أبى ربيعة الذى يستطيع الباحث أن يدرسه فى حديث واحد . ولا بد لى أن أحدثك عنه حديثا آخر ، وقد أحتاج إلى غير حديث .

أما اليوم فأنا أختم هذا الفصل بشىء أنقله لك عن القدماء يختصر رأيهم فيه اختصاراً حسناً ، وهو رأى مصعب بن عبد الله الزبيرى ، وقد تناقله عنه رواة العصر العباسى ، وحرصوا عليه فكأنهم يقرونه ، بل قل إنهم يقرونه عليه . وإذاً فهذا الرأى تستطيع أن تأخذه على أنه رأى القدماء جملة فى شعر عمر . ولست أنقل لك كل ما يروى القدماء عن مصعب ، فذلك يقصر عنه هذا الحديث ، وإنما أروى لك منه جملة صالحة ، فإذا كان الفصل الآتى فسأجتهد فى أن أفصل بعض التفصيل رأيى فى شعر عمر .

قال مصعب : راق عمر بن أبى ربيعة الناس وفاق نظراءه وبرعهم بسهولة الشعر ، وشدّة الأسر ، وحسن الوصف ، ودقة المعنى ، وصواب المصدر ، والقصد للحاجة ، واستنطاق الربع ، وإنطاق القلب ، وحسن العزاء ، ومخاطبة النساء ، وعفة المقال ، وقلة الانتقال ، وإثبات الحجة ، وترجيح الشك فى موضع اليقين ، وطلاوة الاعتذار ، وفتح الغزل ، ونهج العلل ، وعطف المساءة على العذال ، وأحسن التفجع ، وبخل المنازل ، واختصر الخبر ، وصدّق الصفاء ، إن قدح أورى ، وإن اعتذر أبرى ، وإن تشكى أشجى ، وأقدم عن خبرة ، ولم يعتذر بغرّة ، وأسر النوم ، وغم الطير ، وأغذّ السير ، وحير ماء الشباب ، وسهل وقوّل ، وقاس الهوى فأربى ، وعصى وأخلى ، وخالف بسمعه وطرفه ،

وأبرم نعت الرسل وحذّر ، وأعلن الحب وأسرّ ، وبطن به وأظهره . وألحّ وأسفّ ؛ وأنكح النوم ، وجنى الحديث ، وضرب ظهره لبطنه ؛ وأذلّ صعبه ، وقنع بالرجاء من الوفاء ، وأعلى قاتله ، واستبكى عاذله ، ونفض النوم . وأغلق رهن َمنىً ، وأهدر قتلاه ، وكان بعد هذا كله فصيحاً .

فمن سهولة شعره وشدّة أسره قوله :

فلما تواقفْنا وسَلَّمْتُ أشْرقَت ... وجوهٌ زهَاهَا الْحُسْنُ أنْ تَتقنَّعا

تَبالهْنَ بِالْعِرْفانِ لَما رأَيْننى ... وَقُلْن آمْرُؤٌ باغ أكَلَّ وَأَوْضَعا

ومن حسن وصفه قوله :

لهَا مِنَ الرِّيمِ عَيْناه وَسُنته ... ونخْوَةُ الشَّابِقِ المخْتالِ إذْصهَلَا

ومن دقة معناه وصواب مصدره قوله :

عوجَا نحَى الطللَ المُحْوِلا ... وَالرَّبْعَ مِنْ أَسْماء والمَنْزِلَا

بِسَابغِ البَوْبَاةِ لَمْ يعْدُهُ ... تقَادُمُ الْعَهْدِ بِأن يُؤْهَلَا

ومن قصده للحاجة قوله :

أَيُّها المُنْكِحُ الثريا سُهيْلًا ... عَمْرَكَ الله كَيفَ يَلتقِيان

هِيَ شَامِيَةٌ إذا ما آسْتَقَلَّتْ ... وَسُهَيْلٌ إذا آسْتقَلَّ يَمان

ومن استنطاقه الربع قوله :

سائِلا الرَّبْعَ بِالْبُلَىِّ وَقُولَا ... هِجْتَ شَوْقاً لِىَ الْغدَاة طوِيلَا

أين حى حلُّوكَ إذْ أنتَ محْفُو ... ف بِهِمْ آهِلٌ أَرَاكَ جَمِيلَا

قال سارُوا فَأَمْعنُوا وآسْتقَلوا ... وبرغْمِى لَوْ قَدْ وَجدْتُ سبِيلَا

سَئِمونا وَما سئمنا جوَارًا ... وَأَحبُّوا دَماثَة وسُهُولا

ومن إنطاقه القلب قوله :

قال لِي فِيها عَتِيق مقَالًا فجرَتْ مِما يَقول ٱلدُّموعُ
قالَ لِي وَدع سُلَيْمَى وَدعْها فَأَجابَ الْقَلْب لَا أَسْتطِيعُ

ثم يمضى مصعب فى الاستدلال بالأبيات من شعر عمر على ما قدّم من وصفه فيما رويت لك ، وذلك أطول من أن أتمّ روايته ، فاقرأه فى الجزء الأول من الأغانى إن شئت ؛ بل أنا أشير عليك أن تقرأه لتتمثل رأى القدماء فى عمر ، ووجهتهم فى نقده قبل أن نأخذ نحن فى درسه منذ الأسبوع الآتى .

خاتمة القول فى الغزلين [1]

الحب فى شعر ابن أبى ربيعة

أظنك لم تنس حديثنا الماضى عن عمر بن أبى ربيعة . وأظنك تذكر ذلك الرأى الذى ختمت به ذلك الحديث ، وقلت إنه يمثل رأى القدماء فى زعيم الغزلين . وهو رأى مصعب بن عبد الله الزبيرى الذى تناقله الرواة على اختلافهم وتباين أهوائهم وأعجبوا به ، وحفظه لنا صاحب الأغانى ، فكان هذا كله مرآة لرأى هذه الطبقات فى عمر بن أبى ربيعة ، بحيث نستطيع أن نقول إنه يمثل رأى القرن الثانى والثالث فى هذا الشاعر .

أعترف بأنى قرأت حديث مصعب بن عبد الله هذا مع شىء من اللذة كثير ، وأحسست شيئاً عظيماً من الغبطة لأن صاحب الأغانى استطاع أن يرويه فى جملته ، حتى يخيل إليك وأنت تقرؤه أنه فصل كامل من كتاب ، أو أنه نص كامل لمحاضرة ألقاها هـذا الأديب . ومن ذا الذى لا يغتبط حين يظفر بشىء كهذا ! ولست أريد أن أنقد هذا الرأى ولا أن أناقشه ، وإنما نقلته لك لترى كيف كان القدمـاء من أصحاب اللغة والأدب ينظرون فى الشعر ويحكمون عليه ، وكيف كانوا يقدّرون عمر بن أبى ربيعة ويعجبون به إلى غير حدّ .

وأنا أعلم حق العلم أن طريقة القدماء فى فهم الشعر والحكم عليه لا ترضينا ولا تقنعنا ، ولا تلائم ذوقنا الحديث وأطماعنا العلمية الواسعة ؛ فهم كانوا يتعجلون الحكم تعجلا ، ويجترئونه اجتراء ، ويعممون فى غير موضع للتعميم ، وهم كانوا لا يستطيعون أن يتصوروا أن لشعر الشاعر وحدة يجب أن تدرس ، ويجب أن يتبين فيها الناقد شخصية الشاعر وقوّته . وهم كانوا يجهلون أو يكادون يجهلون هذه الشخصية ، وينظرون لا إلى القصيدة ولا إلى المقطوعة بل إلى البيت أو البيتين ، فيحكمون بأن الشاعر أشعر الناس فى هذا المعنى .

---

(١) نشرت بجريدة « السياسة » فى ١٧ ديسمبر سنة ١٩٢٤ م .

وربما حكموا بأنه أشعر الناس فى كل شيء ، لأنه قال بيتاً راقهم أو شطراً وقع منهم موقعاً حسناً . وهم كانوا إلى هذا كله يغمضون فى ألفاظهم ويعمدون إلى معانى مبهمة بحيث لا تستطيع أن تتبين آراءهم كما هى ، فهم يذكرون الديباجة ، والحاشية ، والأديم ، وما إلى ذلك من ألفاظ مستعارة يعجبك وقعها ويخطئك معناها الدقيق .

أعلم هذا كله ، ولكنى مع ذلك أحب هؤلاء القدماء ، وأحب آراءهم ، وأجد فى قراءتها لذة وبهجة ، وإلى تفهمها راحة واطمئناناً . وإذا أخطأنى رأيهم الدقيق فى الشعر أو حكمهم الصحيح عليه ، فإنى أجد نقدهم مرآة صادقة لنفس جذابة حلوة أحب أن أخلو إليها من حين إلى حين .

نعم ! إنّ رأى مصعب بن عبد الله الزبيرى لا يعطى صورة واضحة من عمر ابن أبى ربيعة ولا من شعره ؛ ولكنه يعطى صورة واضحة من مصعب نفسه ومن أصحابه الذين استمعوا له وحفظوا عنه ، ومن الرواة الذين تناقلوا هـذا الحديث وخلدوه ، وليس هذا بالشيء القليل . ثم من الذى يستطيع أن يزعم لك أن الأجيال المختلفة تستطيع أن تفهم الأدب على وجه واحد ، وتصدر فى الحكم عليه من مصدر واحد ؟ وكيف السبيل إلى ذلك وأنت لا تستطيع أن تضمن تشابه أطوار الحياة وظروفها فى الأجيال والبيئات المختلفة ؟ وإذن فلا تستطيع أن تضمن تشابه الذوق . وإذن فلن تستطيع أن تضمن تشابه النقد . وإذن لن ينبغى لك أن تطلب إلى القدماء ما تطلبه إلى المحدثين .

ولئن عجبت لشيء فإنما أعجب لهـذه الميول والأهـواء التى قد يشترك فيها القدماء والمحدثون ، على تباين الأطوار واختلاف الظروف وتبدّل أحوال الحياة .

أقول هذا كله بعد أن فرغت من قراءة رسالة صغيرة ؛ ولكنها ممتعة قيمة للدكتور « زكى مبارك » خريج الجامعة المصرية ؛ تناول فيها شعر عمر بن أبى ربيعة فدرسه من بعض نواحيه درساً حسناً يسرنى أن أهنئه به ، ويسرنى أيضاً أن أنتهز هذه الفرصة لتسجيل ما للجامعة المصرية من فضـل على عقول الشباب .

ولكن الدكتور « زكى مبارك » ، وهو شاب حادّ الشباب عنيفه ، قد أسرف فى نقد مصعب بن عبد الله إسرافاً جعله إلى الظلم أقرب منه إلى الإنصاف ، وليس مصدر هذا الإسراف إلا أنه لم يقدّر ، كما ينبغى ، اختلاف المثل الأدبية

باختلاف العصور والأجيال . وما أحسب إلا أنه عائد إلى هذا النقد فملطف ما فيه من حدّة ومزيل ما فيه من جور .

كان القدماء مجمعين أو كالمجمعين على إكبار عمر بن أبي ربيعة وتقديمه ، يستوى فى ذلك خصومه وأنصاره ، فقد كان ضرباً من الإكبار والتقديم هذا التحرج من رواية شعر عمر ، وهذا الإشفاق من أثره فى الفتيان والفتيات . فلم يكن لهذا التحرّج والإشفاق مصدر إلا الاعتراف بأن هذا الشعر قوىّ خلاب ساحر للنفوس .

ولكن من أى ناحية نستطيع أن ندرس شعر عمر بن أبي ربيعة . أندرسه من حيث هو مرآة للحياة الاجتماعية الحجازية فى القرن الأول للهجرة ؟ أم ندرسه من حيث هو مظهر من مظاهر الحياة الأدبية فى ذلك العصر ؟ أم ندرسه من حيث هو مرآة لنفس المرأة الحجازية وحياتها بوجه عام ؟ أم ندرسه من حيث قيمته فى لفظه وأسلوبه ومعناه ؟ أم ندرسه من حيث عبث الرواة به وإضافتهم إليه ؟ أم ندرسه من حيث تطوّره ؟ فقد تطور شعر عمر بن أبي ربيعة كما تطور ابن أبي ربيعة نفسه ؟ ولعل أصدق دليل على أن القدماء أنفسهم أحسوا هذا التطور قول جرير : « ما زال هذا القرشى يهذى حتى قال الشعر » .

أما أن ندرسه من حيث هو مرآة لنفس عمر ومظهر لشخصيته ومثال لقوة حسه ودقة شعوره ، فكل هذه النواحى خليقة بالدرس . وأنا زعيم لك بأنك ستظفر إن درستها بنتائج أدبية وتاريخية قيمة جدًّا . ولكنك تعلم حق العلم أنى لا أستطيع أن أعرض لهذا كله فى هذه الأحاديث ، فليست هى مما يسع هذا البحث العلمى الدقيق ، ولو أنى عرضت لها لقضيت فيها سنة أو أكثر من سنة . وقد طلب إلىّ بعض أصدقائى منذ حين أن أنصرف عن الغزلين إلى غيرهم ؛ فأجبته إلى ما أراد . وأنا أريد أن يكون هذا الحديث خاتمة القول فى الغزلين . ويسرنى جدًّا أن يعنى غير واحد من رجال الأدب بالبحث عن كل هذه النواحى التى أرى أنها خليقة بالدرس من شعر عمر بن أبي ربيعة .

أما أنا فلست أدرس فى هذا الحديث إلا ناحية واحدة أو جزءاً من ناحية واحدة إن صح هذا التعبير . ولكنى ألفتك إليه ، وأودّ لو استطاع الباحثون أن

يتموه ؛ فلن أزيد عن الإشارة الموجزة إليه . أريد أن أبحث عن حب عمر بن أبي ربيعة ما هو ؟ وما سبيله ؟ وما أثره فى البيئة التى ظهر فيها ؟

وقد رأينا فى الحديث الماضى أن عمر لم يكن عذريًّا ، ولم يكن يريد أن يذهب مذهب العذريين ، وإنما كان عمليًّا محققاً يلتمس الحب فى الأرض لا فى السماء . ورأينا كذلك أنه لم يكن يذهب فى حبه مذهب أصحاب المجون من شعراء العصر العباسى ، فلم يكن يسرف فى العبث ، وإنما كان يقتصد اقتصاداً ويتوسط فى حبه توسطاً ، فيعف كثيراً ، ويعبث قليلا . وكانت ظروف حياته نفسها تكرهه على هذه العفة ؛ لأنه لم يدع امرأة شريفة من قريش إلا شبب بها ؛ وما كان له أن يتجاوز العفة فى هذا التشبيب ، إنما الذى نريد أن نتبينه هو طبيعة هذا الحب . فنلاحظ قبل كل شىء أن عمر لم يكن يحب بعقله ولا بقلبه ، وإنما كان يحب بحسه ، وبحسه ليس غير . كان موكلا بالجمال يتبعه ، وله فى ذلك أحاديث أذكر منها قصته مع عروة بن الزبير ، فقد سايره ذات يوم وأخذا يتحادثان ، فإذا عمر يسأله عن ابنه محمد ؛ فأجابه عروة : لقد تقدمنا ؛ فأظهر عمر الرغبة فى أن يلحقه ويسايره ، وأنكر عروة ذلك ، فقال عمر : أنا موكل بالجمال أتبعه . وكان محمد بن عروة جميلا رائع الطلعة ، وقد أذن عروة لعمر فلحق بالفتى وسايره .

وله أحاديث أخرى مع الشبان فى البيت الحرام وخارج البيت الحرام ، وتستطيع أن تقرأ ديوان عمر بن أبى ربيعة كله فلن تجد فيه من وصف نفس المرأة وجمالها المعنوى إلا قليلا جدًّا . فأما الذى تجده فى هذا الديوان فوصف جمالها المادى من جهة ، ووصف ميولها وأهوائها من جهة أخرى . ولم يخطئ نُصيب حين قال : « عمر بن أبى ربيعة أوصفنا لربات الحجال » . فلم يعرف العصر الأموى كله شاعراً وصف المرأة جملة وتفصيلا بمثل ما وصفها به عمر ابن أبى ربيعة جودة وكثرة ودقة بنوع خاص .

كانت الصلة الجنسية أساس الحياة الأدبية وغايتها بالقياس إلى عمر ابن أبى ربيعة . فهو لم يكن يتصور المرأة إلا على أنها مكملة للرجل ، لا يستطيع أن يعيش بدونها كما أنها لا تستطيع أن تعيش بدونه ، ولم يكن عمر يقصر هذه الصلة الجنسية على معناها المادى وحده ، وإنما كان يريدها واسعة متناولة

جميع أطراف الحياة . ولست أشك فى أن عمر بن أبى ربيعة كان صديقاً للمرأة بالمعنى الحديث الذى نفهمه لصداقة المرأة . كان يريد لها من الحرية مثل ما يريده للرجل ، وكان يريد أن تكون صلة الغزل بين الرجل والمرأة صلة ظاهرة لا حرج فيها ولا جناح ، وكان يريد أن تظهر المرأة فخرها بجمالها وروعتها كما يظهر الرجل فخره بشجاعته وبأسه . وكان يريد أن تستفيد الجماعة الإنسانية من خلال المرأة ، كما تستفيد من خلال الرجل : كان يريد أن تزول الفروق بين الجنسين وألا يكون بينهما حجاب . وسواء علينا أشعر بذلك أم لم يشعر ، أكوّن فيه رأياً صريحا أم لم يكوّن ، فهناك شىء لا شك فيه وهو أن شعر ابن أبى ربيعة كله ليس إلا تغنياً بجمال المرأة وتأثيرها فى حياة الرجل ومكانها من نفسه . وكان كل شىء فى حياة عمر وسيلة إلى الاتصال بالمرأة وذكرها والتحدث إليها ولا سيما الحج ، فلم يكن ابن أبى ربيعة يفهم من موسم الحج إلا أنه معرض إسلامىّ للجمال ، وكان إذا قرب الموسم اتخذ أجمل ما كان يستطيع من زينة وظهر فى مظهر الفتوة والقوة ، وفارق مكة فتعرّض للحجيج فى طريق المدينة والشام والعراق يتلمس نساءهم ، ويتبين هوادجهن . ويعرض منها لما تظهر عليها آثار النعمة والترف : فإذا وافى الحجيج مكة وغيرها من مواضع المناسك ، كان عمر قد أحصى النساء اللاتى يجب أن يكون بينه وبينهن لقاء أو حديث أو مكاتبة ، وكانت له رسل تعمل فى ذلك فتأتيه المواعيد فى مكة حينا ، وفى منى حيناً آخر ، وكانت أحبّ ساعات الدهر إليه أوائل الليل من أيام الموسم حين ينتهز النساء فرصة الليل فيخرجن للطواف . هنالك كان عمر ابن أبى ربيعة يترصدهن ، ومنهن من كانت تترصده . وهنالك كانت تبتدئ الأحاديث لتتم بعيداً عن البيت ، حتى إذا انتهى الموسم وأزمع الحجيج العودة إلى بلادهم ، رأيت عمر مقسماً بين نساء المدينة ونساء الشأم ونساء العراق ، يشيع هذه ثم يعود فيشيع تلك ، ثم يترك هاتين ليشيع امرأة أخرى . وهو لا يفرغ من تشييع امرأة إلا قال الشعر الجيد يسبقها إلى مواطنها ، ولا يلبث أن يسقط بين أيدى المغنين فإذا هو مصدر للهو والطرب لهذه الأرستقراطية المترفة من أبناء قريش والأنصار . فكان موسم الحج موسم شعر وغناء فى الحجاز .

وقد ذهب الشعراء مذهب عمر بن أبى ربيعة . وتأثر النساء تأثراً شديداً بهذه

الحركة الغزلية فأحببنها وحرصن عليها واجتهدن فى تقويتها وتذكية نارها ، واستبقن إلى إرضاء الشعراء وتحريضهم على قول الشعر وإغرائهم بالغزل فيه .

أظنك تستطيع الآن أن تفهم السبب فى افتتان النساء بعمر ، وتنافسهن فيه ، واستباقهن إلى مودته . وأظنك تشاركنى فى الحكم بأن عمر لم يكن مغروراً ولا مفتوناً ولا تياها ، كما كان يظن به بعض القدماء ، وكما يظن به بعض المحدثين أيضاً . كان عمر يصف نفسه كثيراً ، وكان يسرف فى هذا الوصف أحيانا ، حتى قال له ابن أبي عتيق ذات يوم : لم تشبب بها وإنما شببت بنفسك . ولكن مصدر هذا لم يكن غروراً ولا فتنة ولا تيهاً ، وإنما كان حب النساء إياه حقًّا ، وتهالكهن عليه حقًّا . وليس من المنكر أن يكون هذا قد اضطره إلى شيء من الغرور والتيه . ولكنى لست أحسب أن الغرور والتيه وحدهما هما اللذان أنطقاه بهذا الشعر الكثير الذى اتخذ نفسه موضوعا له .

لم يكن عمر مغروراً ولا تياهاً ، كما أنه لم يكن كاذب الحب ولا متكلفه ، وإنما كان صادق الحب حقًّا قويه أيضًا . ستقول : فكيف يلائم ذلك ما زعمت من أنه لم يكن عذريًّا ولم يكن يذهب مذهب جميل ؟ بل كيف يلائم ذلك ما ذكرت من أنه كان يتبع النساء جميعاً بحبه لا يكاد يدع امرأة إلا ليعرض لأخرى ، وربما اشتغلت نفسه فى وقت واحد بغير امرأة ؟ كان هذا كله حقًّا ، وكان عمر بن أبي ربيعة مع ذلك صادق الحب قويه أيضاً . ذلك لأنه لم يكن عذريًّا ، لم يكن يحب بعقله ولا بقلبه ، وإنما كان يحب بحسه وبحسه ليس غير ، كما قلت آنفاً ، لم يكن حسه يطيع قلبه فيرى الجمال فى عشيقته ويميل إليها ، وإنما كان قلبه طوع حسه ، فكان يكفى أن يرى جمال المرأة ليخلع عليها ما شاء له الشعر من الصور الرائعة الخلابة ، وليجد بها ما شاء له الحب من وجد لا حد له . كان عمر يرى كلما أحب امرأة أنه لم يحب قط امرأة كما أحبها ، وأنه لن يسلو عنها مهما تتبدل الأحوال وتختلف صروف الحياة . وكان صادقاً فى هذا كله ، ولكنه لم يكن يلبث أن يقول هذا الشعر حتى يحب امرأة جديدة حبًّا ليس له بمثله عهد ، ولن يكون له بمثله عهد ، ولن يجد سبيلا إلى الانصراف عنه . ومصدر هذا أن قلبه كان كما قلت يتبع حسه ، وأن النساء كن مفتونات به ، فكان لا يكاد يقف عند مظهر من مظاهر الجمال حتى يخلبه مظهر آخر ،

وكان لا يكاد يسمع ثناء امرأة حتى يستهويه ثناء امرأة أخرى . فكان طمعه متصلا وأمله لا حدّ له .

ليس عمر بن أبي ربيعة بدعاً من الشعراء ولا من العشاق ، فأنت تجد فى كل عصر من العصور وفى كل بيئة من البيئات عشاقاً أفلاطونيين وعشاقاً آخرين يحبون بالحس . ولكنى أريد أن ألتمس لعمر بن أبي ربيعة شبيهاً من أهل الأدب الحديث ، وأعتقد أن هذا الشبيه سيفسر عمر حق التفسير ويوضح نفسه وحبه أحسن توضيح .

منذ سنين كتب صديقى الأستاذ ضيف رسالة باللغة الفرنسية قدمها إلى السربون وقارن فيها بين عمر بن أبي ربيعة وبين الشاعر الفرنسي « ألفرد دى موسيه » . وقد تكون هذه المقارنة خلابة فى ظاهر الأمر . فعمر بن أبي ربيعة أظهر عشاق العرب ، و « ألفرد دى موسيه » أظهر الغزلين من شعراء فرنسا فى القرن الماضى ، وكلاهما وقف حياته على المرأة وحبها ، وكلاهما وقف شعره على جمال المرأة والتغنى به . ولكن الفرق عظيم جداً بين الشاعرين . عظيم إلى حد أن المقارنة بينهما مستحيلة ، فليس بين نفسيهما شبه ما .

أنت محزون حين تقرأ « ألفرد دى موسيه » يتفطر قلبك لوعة وأسى ، ويأخذك شىء من اليأس والسخط على الحياة والزهد فيها حين تنظر إلى هذا الحبّ القوى المتين ، فترى أنه على قوته وصدقه ومتانته جريح يدمى .

ولكنك مبتهج راض مبتسم للحياة حين تقرأ شعر ابن أبي ربيعة ؛ فلم يكن قلبه جريحاً ولم تكن نفسه كئيبة . ولم يكن يرى فى الحياة إلا لهواً أو سبيلا إلى اللهو . وأنت حين تقرأ ما يظهر ابن أبي ربيعة فيه الحزن والأسى مطمئن راض بل مبتسم : لأنك تعلم أن هذا الحزن إنما هو وسيلة إلى السرور ومذهب من مذاهب الاستعطاف وسبيل من سبل اللذة .

لا أضع ابن أبي ربيعة بإزاء « ألفرد دى موسيه » وإنما أضعه بإزاء رجل فرنسى آخر هو أخوه حقّاً . هو صورته الصادقة لولا ما بينهما من فروق البيئة والجيل ، ولكن نفسيهما نفس واحدة ، ولكن حسيهما حس واحد ، ولكن مذهبيهما فى الحب وإعلانه مذهب واحد ، ولكن ميليهما فى الحياة يوشكان أن يكونا ميلا واحداً ، كلاهما أحب بحسه وأخضع قلبه لحسه ، وكلاهما فتن النساء ، وكلاهما

تحدث بفتنته للنساء حديثاً حلواً خلاباً ، وكلاهما تعمق فى الحب الحسى حتّى وصل إلى قرارته ، وكلاهما أحب حتّى كره الحب ، ولذ حتّى زهد اللذة ، وكلاهما لم يعرف لحبه موضوعا يقصره عليه ، فكان يترك هذه ليحب تلك ، ويخلص من هذه ليقع فى شراك تلك .

ستسألنى عن هذا الفرنسى الذى يشبه عمر بن أبى ربيعة هذا الشبه القوى الغريب ، ليس شاعراً ولكنه ناثر كالشاعر ، أنت تعرفه حق المعرفة لأن بينك وبينه صلة قوية ، لأنه صديق الشرق عامة وصديق مصر خاصة : « بيير لوتى » .

أقرأت شيئاً من حب هذا الكاتب ؟ أقرأت كتبه عن فتيات قسطنطينية بنوع خاص ؟ إنى أحب أن تقرأ هذه الكتب ، وأنا واثق كل الثقة بأنك لن تشك بعد قراءة ابن أبى ربيعة فى أن هذين الرجلين يصدران عن مصدر واحد . ولو أن لى أن أومن بالتناسخ لقلت : إن نفس ابن أبى وبيعة قد مرت بها أطوار الحياة المختلفة فهذبتها تهذيباً وصفتها تصفية ، ثم تمثلت فى هذا العصر الحديث فى شخص « بييرلوتى » فكتبت ما كتب « بييرلوتى » .

مكان هذا الكاتب الفرنسى من النساء عامة ومن فتيات القسطنطينية خاصة ، كمكان عمر بن أبى ربيعة من المرأة عامة والمكيات خاصة .

أحبّ أن تقرأ هذه المذكرات الخاصة التى تنشرها « الألوستراسيون » منذ أسبوع والتى تركها « بييرلوتى » فسترى فى هذه المذكرات والكتب نصوصاً لا تدع فى نفسك موضعاً للشك فيا أقول ، وقد أتخذ هذه المذكرات موضعاً لحديث من أحاديث الأحد .

وفى هذه المذكرات ينبئنا « بيير لوتى » فى ألفاظ أشبه بالنار منها بالكلام أنه أحب امرأة حبًّا حسيًّا خالصاً لم يعرفه من قبل ولن يعرفه بعد ، أنساه كل شىء وكل إنسان وكل واجب ، وأن هذه المرأة تحبه حبًّا حسيا أيضاً ؛ ولكنها فى الوقت نفسه تحب رجلا آخر ، وهى صادقة فى الحبين ، ثم ينبئنا أنه شديد الألم لأنه لا يقف عند امرأة ولا يستطيع أن يقصر حياته على حب واحد .

ومن غريب الأمر أنك تجد فى هذه المذكرات صديقا (لبييرلوتى » ينصح له

ويشير عليه ، فلا تستطيع أن تمنع نفسك من التفكير فى عمر بن أبى ربيعة وصديقه ابن أبى عتيق ، ثم تجد فى هذه المذكرات فصولا تصف لنا تنكر « بيير لوتى » وإخفاءه نفسه ، كما تجد ذلك أيضاً فى قصة « اليائسات » . فلا تستطيع أن تمنع نفسك من التفكير فى ابن أبى ربيعة وما كان يسلك من سبل وحيل للوصول إلى النساء ، فإذا وصل « بييرلوتى » إلى صاحبته فالأمر بينهما كالأمر بين ابن أبى ربيعة وصاحبته : لهو حيناً ، وعفة حيناً آخر ، والمرأة فى كلتا الحالتين تعلم حق العلم أن عاشقها لعوب مخلاف لا يكاد يقف عند المرأة إلا حيناً كالنحل تنتقل بين الزهر .

اسمع إلى « بييرلوتى » وقد قضى مع صاحبته ساعات يراها أسعد ساعات حياته وهو يقول لها : إنى أحبك ، فتجيبه : هذا شىء تقوله . ثم اقرأ ما شئت من شعر عمر بن أبى ربيعة وعتب النساء عليه وكلفهن به مع هذا العتب . وإنّ بين يدىّ الآن لصحفاً من كتاب « اليائسات » كنت أريد أن أترجمها لك وأروى معها شيئاً من شعر ابن أبى ربيعة ، لتلمس تشابه النفسين لمساً ؛ ولكن من لى بالمكان الذى يسمح لى بالترجمة والرواية ، فحسبي أن أترجم لك هذه القطعة الموجزة من كتاب « اليائسات » لترى كيف كانت الفتيات تتحدث إلى « بييرلوتى » ولتعلم أن « بييرلوتى » لم يكن أقلّ إيماناً بسلطانه على النساء من صاحبه العربى القديم . وهى من كتاب كتبته إليه إحدى عاشقاته وقد شربت السم وهى تموت :

« . . . . . أيها الحبيب العزيز أسرع إلىّ فأنا أريد أن أنبئك نبئى . . . ألم تكن تعلمْ أنى كنت أحبك من أعماق نفسى ؟ ! يستطيع من مات أن يعترف بكل شىء . . . فهو لا يذعن لسلطان ما . . . وما لى لا أعترف لك وأنا مفارقة هذه الحياة بأنى كنت أحبك ! . . . أى أندريه ! فى ذلك اليوم الذى جلست فيه إلى هذا المكتب حيث أكتب إليك هذا الوداع أرادت المصادفة أن أميل فألمسك . . . حينئذ أغمضت عينى ، ومن دون هاتين العينين المغمضتين مرت أحلام ما أجملها ! . . . وكانت ذراعاك تضمانى إلى قلبك ، وكانت يداى

اللتان يملؤهما الحب تمسان عينك فى لطف وتذودان عنهما الحزن . . . آه ! لقد كان يستطيع الموت أن يأتى حينئذ ، ولقد كان يصادف لو أنى َملَكْتُك وسآمتك ! ولكن ما كان أحلاه وما كان أملأ هذه النفس التى يحملها بالغبطة والشكر . . . آه ! كل شىء يختلط ويحتجب . . . زعموا لى أننى سأنام ، ولكنى لا أحس النوم بعد ! ولكن كل شىء يضطرب ويتضاعف وكل شىء يرقص . . . وإن شمعاتى لكالشموس . . . وأرى زهراتى يعظمن ، يعظمن حتى لكأنى فى غابة من زهر شائق! تعالى أندريه ... ادن منى. ماذا تصنع بين الورود ؟ ! . . . ادن منى حينما أكتب . . . أريد أن تطوقنى بذراعك وأريد أن تقبل شفتاى عينيك الغاليتين . . . هنا أيها الحب فهكذا أريد أن أنام قريباً منك وأن أقول لك إنى أحبك . . . أدن منى عينيك ، فإن الموتى مثلى يستطيعون أن يقرءوا النفوس من طريق العيون . . . » .

لست أزعم أن إحدى صاحبات عمر تحدثت إليه بشىء يشبه هذا أو يقاربه وما كان لقرشية أن تتحدث فى القرن الأول للهجرة بمثل ما تتحدث به هذه التركية المترفة فى القرن الماضى ، ولكن هذه التركية تشبه تلك القرشية شبهاً قويًّا جدًّا ، فهى تحب صاحبها وتعلن إليه حبها فى قوة وعنف وفى غير تحرّج ولا تحفظ ، أو قل إن « بييرلوتى » يشبه عمر بن أبى ربيعة فهو ينطق هذه التركية بحبها إياه كما كان ينطق ابن أبى ربيعة القرشيات بحبهن .

ولنختصر حكمنا فى عمر بن أبى ربيعة ، كان هذا الحب حسيًّا صادقاً متنقلا بطبعه شديد التأثير فى النساء إلى حد الفتنة . وقد فتن عمر النساء وتيمهن فأخذن يطربنه ويتهالكن عليه حتى فتن بنفسه ، فلم يتغنّ بحبه إياهن كما تغنى بحبهن إياه . هو فى هذا كله مشبه كل الشبه « لبييرلوتى » لا فرق بينهما إلا ما ينشأ من اختلاف أطوار الحياة ، ولكنى لم أثبت شيئاً مما قلت عن عمر بشىء من شعره ؛ ولم أرو لك شعر عمر . وأنا لن أروى لك منه الكفاية ، وأنت تستطيع أن ترجع إليه . فديوانه شائع منشور ؛ وأنا واثق أنك ستنتفع بقراءته انتفاعاً جديداً إذا لا حظت ما قدمت لك من أمر حبه .

وأحسب أن قد آن لنا أن ندع الغزلين بعد أن ألممنا بما ألممنا به من حياتهم وفنونهم وشخصياتهم وأهوائهم المختلفة ، فلندعهم ؛ ولكن إلى من ؟ ذلك شيء لا أعرفه الآن وقد أعرفه فى الأسبوع المقبل .

تم الجزء الأول ، ويليه الجزء الثانى